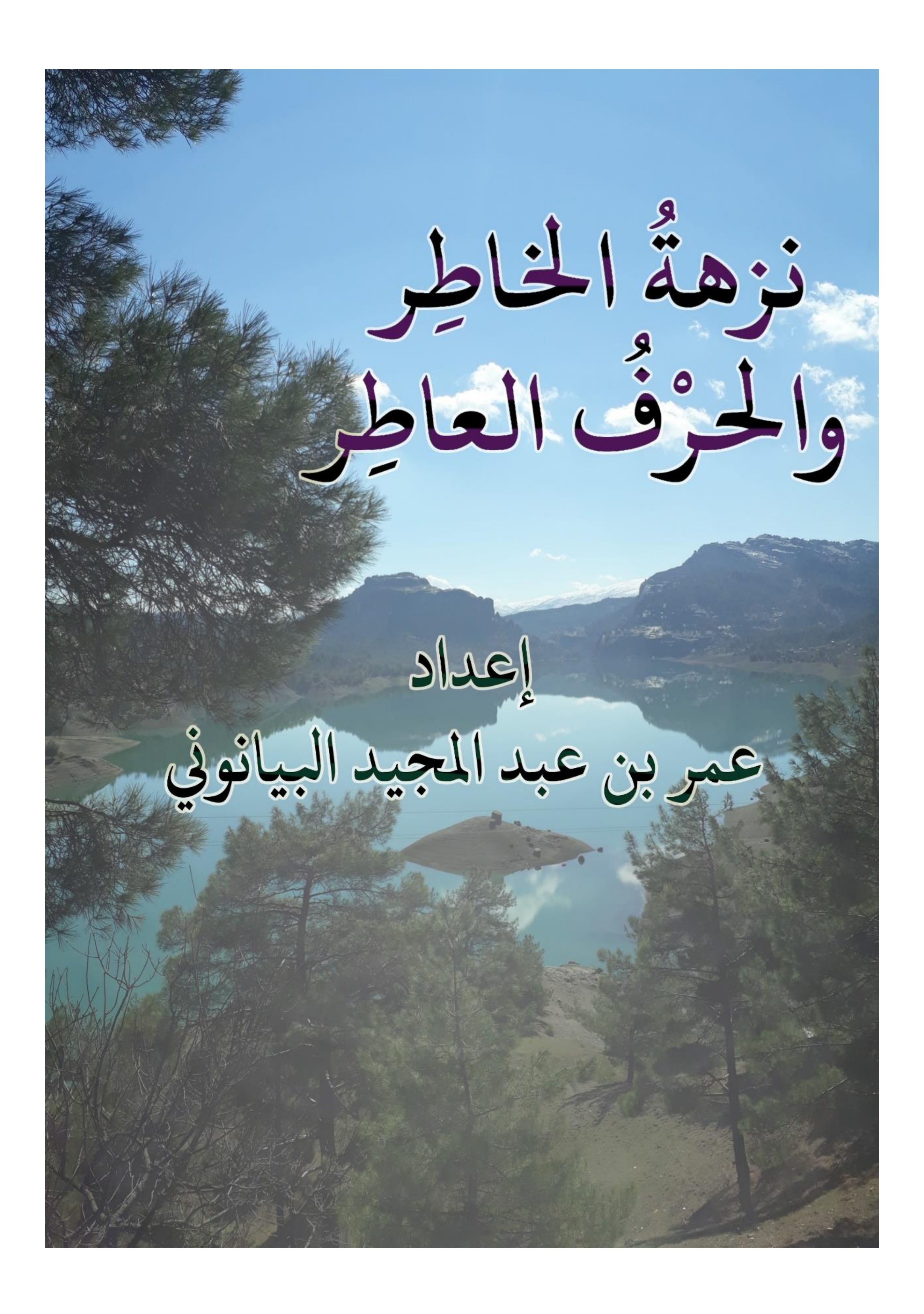

نزهةُ الخاطِر
والحرْفُ العاطِر
إعداد
عمر بن عبد المجيد البيانوني

للتواصل مع الباحث

https://omarbianony.wordpress.com/

البريد الالكتروني:

xOMAR88x@gmail.com

بالفيس بوك:
facebook.com/OMARBIANONY



الإهداء

إلى والدَي الكريمَيْن اللذَيْن هما سبب كل ما أنا فيه من خير..

إلى زوجتي التي أنارت حياتي.. وأسعدت أيامي.. والتي تشجعني وتشد أزري وتعينني على مسيرتي..

إلى ابنتيّ تسنيم وبسمة اللتَيْن ملأتا قلبي بالمحبة والرحمة والسعادة.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمدُ لله الذي علَّم بالقلم، علَّم الإنسانَ ما لم يعلم، والصلاةُ والسلامُ على سيِّدِ الأُمَم، وعلى آله وأصحابه الذين أناروا دياجي الظُّلَم، أما بعد.

فهذا الكتاب هو مجموعة من المقالات والخواطر التي كتبتُها في أوقات متفرقة، ونشرتُها في أماكن مختلفة، فأحببت أنْ أضمَّ بعضَها إلى بعض، ورتبتها في خمسة أقسام:

الإيمانُ وتزكيةُ النفس

أخلاقٌ وآداب

نفحَاتٌ وظلال قُرآنيـَّة

بَينَ إنصَافِ العِـلْم، وإجحَافِ الجَهْل

قطوفٌ لغوية

وسميته: (نزهة الخاطر، والحرف العاطر) عسى أنْ يكون إمتاعاً للناظر، وأُنْساً للمسافر.

عمر بن عبد المجيد البيانوني

١٤٤٢/١١/١هـ

الإيمان وتزكية النفس

لماذا هذه القيمة الكبيرة لمحبة الإنسان؟

(المرءُ مَعَ مَنْ أحبَّ) متفق عليه.

لعلَّ هذه القيمة الكبيرة لمحبة الإنسان، التي تجعله مع مَن أحب هي أنَّ المحبةَ تكشف عن ميل الإنسان الداخلي وعن نيته.. فعندما يحب الصالحين فهو يرجو أن يكون منهم ويحرص على ذلك، فيكون له هذا الجزاء أن يكون معهم وإن لم يبلغ بعمله الظاهر قَدْرَ أعمالهم، ولكن المحبة لهم هي عمل من أعمال القلوب أيضاً له الأجر والثواب الكبير..

وكذلك من يحب المفسدين والمجرمين يكشف عن نيته وميله لهم، فهو وإن لم يعمل بعملهم كله، ولكن المحبة لهم هي معصية من أعمال القلوب، فكان الجزاء أن يكون معهم..

ولأن المحبة للعمل الصالح أو السيء ستقود الإنسان إلى عمل ما يحبه..

ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: (إِنَّمَا الدُّنْيَا لِأَرْبَعَةِ نَفَرٍ، عَبْدٍ رَزَقَهُ اللهُ مَالاً وَعِلْماً فَهُوَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَيَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَيَعْلَمُ للهِ فِيهِ حَقّاً، فَهَذَا بِأَفْضَلِ المَنَازِلِ، وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللهُ عِلْماً وَلَمْ يَرْزُقْهُ مَالاً فَهُوَ صَادِقُ النِّيَّةِ يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِي مَالاً لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلَانٍ، فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ، وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللهُ مَالاً وَلَمْ يَرْزُقْهُ عِلْماً، فَهُوَ يَخْبِطُ فِي مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ لَا يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَلَا يَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَلَا يَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقّاً، فَهَذَا بِأَخْبَثِ المَنَازِلِ، وَعَبْدٍ لَمْ يَرْزُقْهُ اللهُ مَالاً وَلَا عِلْماً فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِي مَالاً لَعَمِلْتُ فِيهِ بِعَمَلِ فُلَانٍ، فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَوِزْرُهُمَا سَوَاءٌ) رواه الترمذي وأحمد.

* * * * *

المحبُّ لله تعالى ولخلقه جنتُه في قلبه وصدره، قبل أن تكون في قبره، وفي آخرته..

فلله درُّ الحبِّ ما أعدلَه، بدأ بصاحبه فأسعده..

* * * * *

لا يوجد أحد يمكن أن يحسن إليك كما تحسن إلى نفسك، ولا أحد يمكن أن يسيء إليك كما تسيء إلى نفسك..

فدور الآخرين في الإحسان أو الإساءة له قدر محدود لا يمكن تجاوزه، وأما دورك أنت فهو الدور الأكبر في إحسانك لنفسك أو إساءتك عليها..

* * * * *

تجد مَن لا ينسى من حروف القرآن الكريم شيئاً، وعمله كله نسيان له!!

* * * * *

قال تعالى: ﴿وَما كانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣].

إذا كان وجود النبي صلى الله عليه وسلم في المشركين أماناً لهم، أفلا تكون صلاتك وسلامك عليه وتعظيمك له أماناً لك!

قال: أَجْعَلُ لَكَ صَلَاتِي كُلَّهَا، قَالَ عليه الصلاة والسلام: (إِذن تُكْفَى هَمَّكَ، وَيُغْفَرُ لَكَ ذَنْبُكَ).

* * * * *

مَن استخسر واستكثر أنْ يبذلَ في الفضائل، بذل ما هو أكثر منه في الرذائل.

فلا تستكثر ثمن النجاح، فثمن الفشل أكبر منه بكثير مع أن نتيجته غير مرضية.

ولا تستكثر ثمن الحرية، فثمن الذل أكبر منه بكثير. وهكذا..

* * * * *

من صور العدل أن الذي يسعى لإسعاد الآخرين، يُسعِد نفسَه أولاً، ومن أراد شقاوتهم، بدأ بنفسه فأشقاها..

وأن من كان غضوباً عبوساً، بدأ بنفسه فأهلكها وأتعبها..

ومن كان حليماً واسع الصدر طيب القلب، بدأ بنفسه فأراح باله وعاش في سلام واطمئنان مع نفسه ومع مَنْ حوله..

ومن كان ظنوناً شكاكاً، بدأ بنفسه فأتعبها بالوساوس والشكوك والأوهام..

وهكذا هي الحياة.. فما تفعله مع الآخرين تراه في نفسك، وما تزرعه هو ما ستحصده.

* * * * *

بعض الذين يدَّعون الالتزام، لا يفعلون أمراً محرماً إلا بعد أن يقنعوا أنفسهم أنه مباح..

وربما زادوا على دعوى الإباحة: دعوى أن فيه أجراً كبيراً..

فليتَهم اقتصروا على معصية واحدة، ولم يجمعوا مع معصيتهم: معصية تبريرهم ودعوى إباحة فعلهم..

* * * * *

لماذا أدعو الله؟!

قال له: لماذا أدعو الله مع أن الكثير من الدعوات التي دعوت الله بها لم تتحقق لي؟

فأجابه: أولاً: الدعاء هو عبادة لله تعالى، فحين تدعوه فأنت تعبده ويكافئك الله على ذلك بالأضعاف الكثيرة. وليس هناك أي وجه للمقارنة بين أجر الله الذي لا ينقطع، وبين عبادتك القاصرة والمملوءة بالشوائب.

ثانياً: لو لم يكن في الدعاء إلا أنه مناجاةٌ لله سبحانه، واتصالٌ مع الله تعالى، لكفى بذلك شرفاً وفضلاً، وحين يذكر العبدُ ربَّه يذكره اللهُ تعالى، فإن ذكرتَه في نفسك ذكَرَك في نفسه، وإن ذكرتَه في ملأٍ ذكَرَك اللهُ في ملأٍ خير منهم. وهل هناك شرف أعظم من أن يذكرك الله!

ثالثاً: الله أعلم بما يصلحك، فربما دعوته في أمرٍ وطلبت منه ما يكون شراً لك في الدنيا والآخرة وأنت لا تعلم، والله يعلم وأنتم لا تعلمون. وتذكَّر كم هي الأمور في حياتك التي لم تتيسر لك، ثم عرفتَ أن الخير فيما اختاره الله لك، وأبدلك الله ما هو خير من ذلك، فله الحمد سبحانه أنه لم يحقق ما طلبت منه، فقد حقق لك ما هو أفضل.

رابعاً: إن الذي يدعو هو الرابح على كل حال، كما جاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم: (مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَدْعُو اللهَ بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فِيهَا مَأْثَمٌ، وَلَا قَطِيعَةُ رَحِمٍ إِلَّا أَعْطَاهُ إِحدَى ثَلَاثٍ: إِمَّا أَنْ يَسْتَجِيبَ لَهُ دَعْوَتَهُ، أَوْ يَصرِفَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثلَهَا، أَوْ يَدَّخِرَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلَهَا).

قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، إِذًا نُكْثِرُ. قَالَ: (اللهُ أَكْثَرُ). رواه الترمذي (٣٩٢٢)، وأحمد في المسند (١١١٣٣)، والحاكم في المستدرك (١٨١٦).

* * * * *

حين تأتي المصائب لمن يكرهونهم يقولون: هم يستحقون ذلك وما جاءتهم هذه المصيبة إلا بسبب ذنوبهم وبما كسبته أيديهم.

وحين تأتي المصائب لأحبابهم يقولون: أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، وإنما يُبتلَى الرجل على قدر دِينه، فلولا عِظَم مكانته ما أتاه هذا البلاء.

والسؤال: كيف جاز لكم هذا التحكُّم وتوزيع الأمور والمقادير كما تَهْوَوْن، وما أدراكم لعلَّ مَنْ تكرهونهم: يحبُّهم الله وأراد الله أن يرفعَ منزلتهم بهذا الابتلاء! ولعلَّ مَنْ تحبونهم: لا يحبهم الله وأراد أنْ يصيبَهم ببعض ذنوبهم!

* * * * *

كثيراً ما يُبتلَى المغرور بما يكسر غروره ويحطِّم كبرياءه لعله يعود إلى رشده.

وقد أفلح من انتفع بهذه الابتلاءات وعرف الحكمة فيها.

* * * * *

لا يخاف من العدل إلا الظالم، ولا يخاف من الحق إلا المبطل، وهكذا..
فلا تعجب حين تجد من يحارب هذه الفضائل..
إنه يعلم أن انتصار هذه الفضائل هو هزيمة له.

* * * * *

ما فائدة إيمان المؤمن بالقضاء والقدر إذا كان جازعاً متسخطاً من أي مصيبة تحل به!
نعم، لا بد من الاستفادة من الأخطاء وأخذ العبرة منها، ولكن دون جزع وتسخط، ولوم للقريب والبعيد.

* * * * *

ماذا ترك مِنَ التخلُّف والانحطاط مَنْ عَبَدَ غيرَ الله!
وماذا فاته مِنَ التقدُّم والتحضُّر مَنْ عَبَدَ اللّهَ!
وماذا ترك مِنَ الجهل مَنْ حصر علمه على الحياة الدنيا!
وماذا فاته مِنَ العلم مَنْ عَرَفَ اللّهَ!

* * * * *

لا يأتي إلا بخير!

قال عليه الصلاة والسلام: (الحَيَاءُ لا يَأْتِي إِلا بِخَيْرٍ) متفق عليه.
والحياء هو انقباضُ النفسِ وابتعادُها عما يُذَمُّ فعله، فصاحب الحياء لا تراه إلا حَسَنَ الخُلُق، عفَّ اللسان، كريمَ السجايا والخصال.
قال الإمام ابن القيم رحمه الله: (الحياءُ مشتقٌّ من الحياة، فإنَّ القلبَ الحيَّ يكون صاحبه حيّاً فيه حياء يمنعه عن القبائح، فإنَّ حياةَ القلبِ هي المانعة من القبائح التي تفسد القلب، فإنَّ الحيَّ يدفع ما يؤذيه بخلاف الميت الذي لا حياةَ فيه).

عن عَبْدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: مَرَّ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم عَلَى رَجُلٍ وَهْوَ يُعَاتَبُ فِي الْحَيَاءِ يَقُولُ إِنَّكَ لَتَسْتَحْيِي حَتَّى كَأَنَّهُ يَقُولُ قَدْ أَضَرَّ بِكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: (دَعْهُ فَإِنَّ الْحَيَاءَ مِنَ الإِيمَانِ). متفق عليه.

وقال عليه الصلاة والسلام: (الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً وَالحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ) متفق عليه.

قال القاضي عياض وغيره: (إنما جعل الحياء من الإيمان وإنْ كان غريزةً لأنه قد يكون تخلُّقاً واكتساباً كسائر أعمال البر، وقد يكون غريزة ولكن استعماله على قانون الشرع يحتاج إلى اكتساب ونيَّة وعلم، فهو من الإيمان بهذا، ولكونه باعثاً على أفعال البر، ومانعاً من المعاصي).

فالحياء يمنع الإنسان من فعل القبائح والآثام، ويقوده إلى المكارم والفضائل، أما من عُدِمَ الحياء فلا يردعه رادع عن اقتراف المعاصي وارتكاب الرذائل.

والحياء أنواع عديدة منها:

١ـ الحياء من الله تعالى، وهو أعظم أنواع الحياء، ويكون الحياء من الله بتعظيمه وإجلاله، واستحضار مراقبته، فيؤدي به ذلك إلى الحرص على مرضاة الله تعالى، وفعل ما يحبه الله والاجتناب عمَّا يسخطه.

ويقود ذلك إلى تحقيق مقام الإحسان، وهو أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

٢ـ الحياء من الناس، بأن يحسن التعامل معهم، ويبتعد عن الإساءة إليهم.

٣ـ الحياء من النفس، فمن كان عنده (وازعٌ نفسيٌّ) يراقب نفسَهُ ويحاسبها ويستحي من فعل القبائح فهو أجدر بأن يستحي من غيره.

قال بعض الحكماء: حياةُ الوجهِ بحيائِه، كما أنَّ حياةَ الغَرْس بمائِه.

وقال آخر: من كسا الحياءُ ثوبَه، لم يرَ الناسُ عيبَه.

فالحياءُ خصلةٌ عظيمة، وخُلُقٌ كريمٌ نبيل، يَحُول بين فعل المحرمات والمنكرات، وهو الطريق إلى فعل الفضائل والطاعات.

فمَنْ عَظُمَ حياؤه: كَثُرَ محبُّوه، وقلَّ أعـداؤه، أمَّـا مَـنْ قـلَّ حيـاؤه: فسـيقلُّ محبُّـوه، ويكثر أعداؤه.

* * * * *

حتى تكون حُراً

يا أيها الإنسان، هل تريد أن تكون نجماً يتلألأ، ونوراً يسطع، وشمساً تشرق على دجى الظلمات؟ هل تريد الكرامة والرفعة في الدنيا والآخرة؟

اعبد الله وحده وتحقَّق بعبوديته تكن حُراً عمَّا سواه، فتحقيق الحرية يكون في العبودية لله تعالى، فإذا كنت عبداً لله سبحانه ابتعدت عن عبودية الهوى والمخلوقين.

فلن تكون حُراً حتى يتعلق قلبك بالله وحده، فتوقن أن الله هو الخالق الرازق، المعطي المانع، القوي القادر، بيده خزائن كل شيء، فلا مانع لما أعطى، ولا مُعطِي لما مَنَع، وتوقن أن الناس عبيد لله يسخِّرهم الله كيف يشاء، فلا تكون عبداً لمخلوق ضعيف، ترجو نفعه وتخاف ضره، تحسب أنه يستطيع أن ينفع أو يضر بذاته، فلا تعلق نفعك أو ضرك بأحد من الخلق، بل تكون متوجهاً إلى الخالق العظيم.

تكون حُراً عندما تحرص على مرضاة الله وحده وتكون هذه غايتك التي تسعى إليها، ولا تخضع إلا له سبحانه وتعالى.

تكون حُراً عندما تنتظر الجزاء من الله تعالى ولا تلتفت إلى المخلوقين ولا تحرص على ثنائهم وتقديرهم.

فعندما كان حالهم: ﴿لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً. إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً﴾.

كان جزاؤهم: ﴿فَوَقَاهُمُ اللهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً. وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً﴾.

فإن أردت أن يكون لك جزاءٌ موفور وسعيٌ مشكور، فاعمل لوجه ربِّك ولا تنتظر من غيره جزاء ولا شكوراً.

تكون حُراً حين تقف عند حدود الله ولا تتعداها، فتكون بذلك حُرّاً من عبادة الشيطان، ومن عبادة الهوى، ومن عبادة المخلوقين، فمن ابتعد عن عبودية الله الخالق غرق في عبوديات الهوى والمخلوقين..

وقد نهى الله أن يتخذ أحدٌ الهوى إلهاً يستجيب لنزواته وينقاد لرغباته فيكون عبداً لهواه، فقال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ: هَوَاهُ، أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾، وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدَىً مِنَ اللهِ﴾.

وقال: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الحِسَابِ﴾.

وبين الله سبحانه أنَّ الإخلادَ إلى الأرضِ واتباعَ الهوى هو سبب الغواية والضلال بعد الهدى، قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آياتِنا فَانْسَلَخَ مِنْها فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطانُ فَكانَ مِنَ الغاوِينَ. وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾.

فمن اتبع هواه، وأخلد إلى الأرض ومال إلى الدنيا وسكن إليها وآثرها وقدمها على الآخرة، فقد انسلخ من تكريم الله له، فبعد أن كان في أحسن تقويم في فطرته وإيمانه صار في أسفل سافلين في انحرافه وتخبُّطه في الظلمات.

وبيَّنَ الله تعالى أن من نهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى قال سبحانه: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى. فَإِنَّ الجَنَّةَ هِيَ المَأْوَى﴾.

فالحرية تكون في تحقيق العبودية لله تعالى، فهي التي تمنع من عبودية ما سواه.

* * * * *

مفارقات بين الخلق والخالق!

كم هو الفرق عظيمٌ بينَ الخَلْقِ والخالق، بينَ الخلقِ المطبوعين على النقص والضعف والتقصير، وبين الخالقِ الكاملِ ذي القوَّة المطلقة.

١ـ إنَّ الخَلْقَ يغضبون إذا سألتهم وأكثرت من سؤالهم، أما الخالق فهو الذي حثَّك على سؤاله، ويجيب دعوة الداعي، قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾، وإذا ذكرتَ الله في نفسك ذكرَكَ في نفسه، وإذا ذكرتَهُ في ملأ ذكرَكَ في ملأٍ خير منهم..

فالله الودود قد تكفل لعباده وهو الغني عن العالمين بأن من ذكره وحمده أن يشرِّفه الله عز وجل ويذكره ويكون معه، ففي الحديث القدسي: (أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعاً، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعاً تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعاً، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَة). متفق عليه. فمن ذكر الله بالتنزيه والتقديس سرّاً ذكره الله تعالى بالثواب والرَّحمة سرّاً، وإن ذكره في ملأ ذكره الله في ملأ خير منهم.

٢ـ إنَّ الخَلْقَ يضيقون بتكرر الخطأ منك وقد لا يقيلون العثرات ولا يقبلون الاعتذار، أما الخالق فهو الذي أمر عباده بالتوبة وهو يحب التوابين، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾.

وقال النَّبِيّ عليه الصلاة والسلام: (لَلهُ أَشَدُّ فَرَحاً بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ مِنْ رَجُلٍ فِي أَرْضٍ دَوِيَّةٍ مَهْلَكَةٍ مَعَهُ رَاحِلَتُهُ عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَنَامَ فَاسْتَيْقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ، فَطَلَبَهَا حَتَّى أَدْرَكَهُ الْعَطَشُ، ثُمَّ قَالَ: أَرْجِعُ إِلَى مَكَانِي الَّذِى كُنْتُ فِيهِ فَأَنَامُ حَتَّى أَمُوتَ. فَوَضَعَ رَأْسَهُ عَلَى سَاعِدِهِ لِيَمُوتَ، فَاسْتَيْقَظَ وَعِنْدَهُ رَاحِلَتُهُ وَعَلَيْهَا زَادُهُ وَطَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَاللهُ أَشَدُّ فَرَحاً بِتَوْبَةِ الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ مِنْ هَذَا بِرَاحِلَتِهِ وَزَادِهِ) متفق عليه واللفظ لمسلم.

وقال النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم فِيمَا يَحْكِي عَنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ: (أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْباً فَقَالَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي. فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْباً فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبّاً يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ. ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي. فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: عَبْدِي أَذْنَبَ ذَنْباً فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبّاً يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ. ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي. فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْباً فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبّاً يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، اعْمَلْ مَا شِئْتَ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ) متفق عليه واللفظ لمسلم. أي: ما دمتَ تذنب ثم تتوب غفرت لك.

٣ـ إنَّ الخالقَ يوفق عبده للطاعة ثم يشكره ويثيبه عليها، أما الخَلْق فقد لا يساعدونك على الخير، ثم إنْ فعلتَ الخير فقد يشكرونك وقد لا يشكرونك عليه، وإذا شكروك فإنَّ شكرَهم ناقصٌ محدودٌ، أما الخالقُ فهو الذي يوفِّق عبادَه للطاعات ثم يُثيبُهُم عليها، قال تعالى: ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً وَلَكِنَّ اللهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

وقال سبحانه: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

٤ـ إن التذلل والخضوع لله هو العزُّ والشرف ويقودك إلى الرفعة والكرامة، أمَّا الخضوع للمخلوقين فهو الذل والهوان.

ففي العبودية لله يوفقك الله إلى ما فيه خيرك ونفعك وصلاحك، أما في العبودية للبشر فهي تقوم على الأنانية والأَثَرَة ففيها يأخذ السيدُ مصلحتَه ومنفعتَه من غلامه ولا يهتم بعد ذلك بخيره ومنفعته.

٥ـ إنَّ الخَلْقَ إذا أرادوا مجازاة أحد كان جزاؤهم محدوداً منقطعاً، أما الخالق فيجزي عن الحسنة بعشر أمثالها إلى سَبعمائةِ ضِعْفٍ إلى أَضعَافٍ كَثِيرَةٍ، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً﴾.

وقال رَسُول اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّم فِيمَا يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَالَ: (إِنَّ اللهَ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَإِنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً). متفق عليه.

٦ـ إنَّ الخَلْقَ لا يعترفون بالنيَّات الحسنة ولا يكافؤون عليها، أما الخالق سبحانه فيرحم ضعفك ويكتب لك أجرَ ما نويتَ من الخير وإنْ لم تستطع فعله، عن جابر الأنصاريِّ رَضي اللهُ عنهما قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فِي غَزَاةٍ، فَقَالَ: (إِنَّ بالمدِينَةِ لَرِجَالاً ما سِرْتُمْ مَسِيراً، وَلاَ قَطَعْتُمْ وَادِياً، إلاَّ كَانُوا مَعَكُمْ حَبَسَهُمُ الْمَرَضُ). وَفِي رِوَايَة: (إلا شَرَكُوكُمْ فِي الأجْرِ) الروايتان رواهما مسلم.

وفي رواية عن أنسٍ رضي الله عنه قَالَ: رَجَعْنَا مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ مَعَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، فقال: (إنَّ أقْواماً خَلْفَنَا بالْمَدِينَةِ مَا سَلَكْنَا شِعْباً وَلا وَادياً، إلاّ وَهُمْ مَعَنَا فيه؛ حَبَسَهُمُ العُذْرُ). رواه البخاري.

وكذلك إذا كنت تعمل العملَ وأنت في صحتك وعافيتك، ثم حال بينك وبين هذه العمل مرض أو سفر، كتب اللهُ لك أجرَ ما كنتَ تعمله في حال عافيتك أو إقامتك، قَالَ رَسُول الله صلى الله عليه وسلم: (إِذَا مَرِضَ العَبْدُ أَوْ سَافَرَ كُتِبَ لَهُ مِثْلُ مَا كَانَ يَعْمَلُ مُقِيماً صَحِيحاً). رواه البخاري.

٧ـ إنَّ الخَلْقَ قد يتقربون إليك لمصلحة يرجونها منك، أما الخالق فإنه يتودد إليك ويغمرك بإحسانه وهو ليس بحاجة إليك فهو الغني عن العالمين.

٨ـ إنَّ الخلقَ قد ينافسونك ويحقدون عليك ويتمنون لك الشر، أما الخالق فيريد لك الهداية ويريد أن يتوب عليك، ويريد أن يخفف عنك، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ.

وَاللّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً. يُرِيدُ اللّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً﴾.

وقال: ﴿مَا يُرِيدُ اللّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

وقال سبحانه: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

٩ـ إن إرادة الخالق مطلقة لا يحدُّها شيء، أما إرادة الخلق فهي ضعيفة ومحدودة، ﴿وَمَا تَشَاؤونَ إِلا أَنْ يَشَاءَ اللّهُ﴾، فعندما تعتمد على الله وتتوكل عليه فأنت تتوكل على القوي القادر الذي لا يعجزه شيء، قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ. فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.

فقدرة الله تَخرِقُ القوانين المعروفة، فقدرته هي التي جعلت النار برداً وسلاماً على إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وهي التي نصرت المؤمنين في مواقع كثير على قلة عددهم وعتادهم، فلا يمكن لشيء أن ينفع أو يضر إلا بإذن الله تعالى، فالله هو الذي جعل النار محرقة فهي لا تحرق بذاتها، فإذا أراد لها أن تكون برداً وسلاماً صارت كذلك، قال ابن عباس: (لو لم يتبع بردها سلاماً لمات إبراهيم من شدَّة بردها).

فالله الذي جعل النار برداً سلاماً هو الذي يجعل المِحَن مِنَحاً وعطايا، ويجعل الفقرَ والحاجةَ سعةً وغنى، ويجعل الهمومَ والأحزانَ أفراحاً ومسرَّات، ويجعل المنعَ عطاءً ورحمةً، وهذا كلُّه لمن توكَّل على الله تعالى وأيقن به وأحسن الظن بالله سبحانه.

١٠ـ إن أصحاب المكانة من المخلوقين يصطنعون لأنفسهم حُجَّاباً وحُرَّاساً، ويمنعون كثيراً من الناس من الدخول إليهم أو إرسال حاجاتهم، أما الخالق سبحانه فأيُّ مسلم في أطراف الأرض، وفي فجاج البحر، يستطيع بمفرده أن يتصل بربه، ولا

يحتاج إلى واسطة في سؤاله، قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾.

١١ـ إنَّ الخَلْقَ قد ينظرون إلى نسبك أو بلدك أو لونك، أما الخالق فإنه ينظر إلى قلبك وعملك، فالعلاقة بين الخلق والخالق تقوم على أساس العبادة وحدها، قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ اللهَ لا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ). رواه مسلم.

١٢ـ إذا اقترض أحد من الخلق مالاً منك، فإنه إذا رده رده كما هو، أما الله سبحانه فيضاعفه أضعافاً كثيرة وهو ثواب خالد لا يفنى، قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً﴾، وقال: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾.

والذي يقدم المعروف إنما يقدمه لنفسه، قال سبحانه: ﴿وَأَقْرِضُوا اللهَ قَرْضاً حَسَناً وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً﴾.

فهل لعاقلٍ بعد هذا أنْ يعلقَ قلبَهُ بالمخلوقين ويكونَ همُّهُ منصرفاً إلى إرضائهم ويتركَ إرضاءَ الخالقِ الذي بيده قلوب العباد وله الملكُ كلُّه..

* * * * *

هل تريد المبادئ السامية أم المطامع السافلة؟

١ـ هل تريد المبادئ السامية التي تسمو بك وترفعك؟ أم المطامع السافلة التي تسفل بصاحبها وتخفضه؟

فإمَّا أنْ تدوسَ المطامعَ، وإلا داستْكَ المطامعُ!

وشتان بين مَنْ يدوس المطامعَ فلا يبالي بها ولا يلهث وراءها، وبين مَنْ تدوسه المطامعُ وتذله وتفسده..

واعلم أنك لن تموت حتى تتنفسَ آخر نفَس كتبه اللهُ لك، وحتى تأخذَ آخرَ رزقٍ كتبه لك، فما كان لكَ لنْ يأخذَه غيرُك، وما كانَ لغيرك لن تحصلَ عليه، فليس لديك ما تخسره..

فكن رجلاً لا تُحرِّكُهُ إلا مبادؤه السامية، ولا تُنْهِضُهُ إلا أهدافُه العالية..

٢ـ كم هو مسكين ذلك الذي تغره القوة المادية، فيسعى جهده لإرضاء الطواغيت، والعجيب أنه عندما يرى أمامه زوال طاغية وكيف أصبح ذليلاً مهاناً، لا يأخذ العبرة من ذلك، وإنما يبحث عن طاغية آخر فيكون عبداً له..

وكأنه لا يعلم أنَّ أجلَهُ ورزقَهُ ونفعَهُ وضرَّهُ وكلَّ أمرِهِ هو إلى الله تعالى وحده، فلو أيقن بذلك لما حرص على إرضاء الطواغيت ولما أسخط ربَّه بذلك..

إنَّ النفاقَ والمداهنةَ والركونَ إلى الظالمين، كل ذلك لن يؤخر في الأجل ولن يزيد في الرزق، والوقوف مع الحق والدفاع عنه لن يقدم في الأجل ولن ينقص من الرزق، قال عليه الصلاة والسلام: (وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَو اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَو اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ). رواه الترمذي.

إنَّ وجودَ مَنْ يعادي الحقَّ وأهلَه هو ابتلاءٌ من الله تعالى حتى يتبين الذين صدقوا ويتبين الكاذبون ويتميز كلُّ فريقٍ عن الآخر، قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ. وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾..

وكلما عَظُمَ قَدْرُ اللهِ في نفسك، صَغُرَ المخلوقون في عينك، قال سبحانه: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

إنَّ المؤمنَ الصادقَ ليس هناك ثمن دنيوي مهما كَثُرَ يمكن أن يُشترَى به، فصفقته هي مع الله وحده وليس مع المخلوقين: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ المُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ.. ﴾، وما تم شراؤه لا يمكن بيعه، وكيف يبيع الإنسان ما لا يملكه!

٣ـ إنَّ الأحرارَ يقفون مع الحـق، والحـق قوتـه في ذاتـه، أمـا العبيـد فيقفـون مـع أصحاب القوة المادية.. ولا بد لقوة الحق أن تَظهر وتنتصر، ولا بد للقوة المادية المعاديـة للحق أنْ تُهزَمَ وتندثر..

لا أدري بأي وجه يستطيع أن يعيش هؤلاء الذين يقفون مع الطاغية ويـدافعون عنه بكل ما يستطيعون، ثم إذا سقط ملكه وزالت قوتـه أصـبحوا يذمونـه ويسـبونه، ويبحثون عمَّن آلت إليه القوة فيقدسـونه ويمدحونـه بعـد أن كانـوا يذمونـه، وهكـذا يواصلون مسيرتهم في النفاق لكل من له سُلْطة..

إن الصادق مواقفه واضحة، لا رَوَغان فيها ولا تذبذب، فلا تجـده متلونـاً مـع مـا يوافق مطامعه وهواه.

فمِنَ أكبرِ الأوهامِ التي يضل بها بعض الناس: وهمُ القُوَّةِ المادِّيَّةِ البعيدة عن منهج اللهِ تعالى وطاعته، قال سبحانه عن فرعونَ وقومِهِ: ﴿وَاسْـتَكْبَرَ هُـوَ وَجُنُـودُهُ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لا يُرْجَعُونَ. فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَـانْظُرْ كَيْـفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾.

فقد استكبروا على عبادِ الله، وسامُوهُم سوءَ العـذابِ، واسـتكبروا على رُسُـلِ الله، وما جاؤوهم بِهِ من الآياتِ، فكذَّبُوها، وزَعَمُوا أنَّ ما هم عليه أعلى منها وأفضلُ. فكانـتْ عاقبتُهُم ما ذَكَرَهُ اللهُ عنهم: ﴿فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾.

فاليمُّ الذي ألقي في مثلِهِ موسى عليه السلام وهو طفلٌ رضيعٌ، فكان مأمناً وملجأ له. هو ذاتُهُ الذي يُنْبَذُ فيه فرعونُ الجبارُ وجنودُه فإذا هو مخافةٌ ومَهْلَكَـةٌ. فـالأمنُ إنمـا يكونُ في القُرْبِ من الله، والمخافةُ في البعدِ عنه سبحانه.

٤ـ هذا الذي يريد العزة بغير الله، ألم يقرأ قول الله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِـنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزاً. كَلا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِداً﴾.

وكم هي الحالات التي يشهدها التاريخ والواقع ممن عبدوا الطواغيت، ثم لم يكـن من الطواغيت إلا أن تخلوا عنهم وحاربوهم بل وقتلوهم، فخسروا الدنيا والآخرة..

إنَّ العزَّ والأمانَ هو في اتباع الحق والوقوف معه، وإنَّ الذلَّ والهـوانَ في الركـون إلى الباطل والاستجابة إليه وإرضاء الطواغيت..

وشتان بين عَالِـمٍ صادق يقود الأمة بصدقه وعلمه، وبين من يقوده هـواه ويـأسره شيطانه..

٥ـ إنَّ الآلامَ والصعوباتِ موجودةٌ في طريـق الحـقِّ وفي طريـقِ الباطـلِ، وفي الخـير والشر، لكنْ شتَّان بين آلامٍ في طريقِ الحقِّ تمضي وتزولُ وكأنها لم تكنْ، ثـم يَعْقُبُهَـا النعيمُ والسرورُ الدائمُ، وبينَ الآلامِ في طريقِ الباطلِ التي لا تَذْهَبُ حَسْرَتُهَا ونَـدَامَتُهَا، ثم لا تنقضي إلا ويتبَعُهَا ما هو أسوأُ منها وأشدُّ!

قال تعالى: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾، وقال سبحانه: ﴿وَلا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾، فـذكَرَ اللهُ أمـرين ممـا يصبِّر المـؤمنين ويثبِّتُهُم على الحق: فالأمرُ الأولُ: أن ما يُصيبُكُم مِنْ الآلامِ والصعوبات هو مما يصيبُ أعداءَكُمْ أيضاً، فكيف تكونونَ أضعفَ منهم، وأنتمُ وإيَّاهُمْ قَدْ تَسَاويتُمْ في ذلك، فـلا يَضْعُفُ إلا من توالتْ عليه الآلامُ، وانتصرَ عليه الأعداءُ على الدوام.

والأمرُ الثاني: أنَّكُمْ ترجونَ مِنَ اللهِ ما لا يرجونَ، فترجونَ الفـوزَ بثوابِـهِ والنجـاةَ من عقابِهِ، وتريدون إقامةَ شرعِه، وهدايةَ الضالين. فالذي يكونُ مع الحقِّ ينبغي له أنْ يكونَ أكثرَ صبراً وجلداً على تحقيقِ أهدافِهِ وغاياتِهِ لأنَّه يرجو ثوابَ اللهِ، ولأنَّ العاقبـةَ للمتقين..

٦ـ الحقيقةُ قد يعاديها الناسُ ويُنْكِرُونَهَا، والـوَهْمُ قـد يـدافعونَ عنـه ويحـاولونَ إثباتَهُ، لكنَّ الحقيقةَ ستَظْهَرُ وتُشْرِقُ كالشَّمْسِ مهما عاداها النـاسُ ووقفـوا في وجههـا، والوَهْمُ سيَظْهَرُ زَيْفُهُ وبُطْلانُـهُ مهمـا روَّجـوا له ودَافَعُـوا عنـه، وسـيُدْرِكُونَ حينَهَـا أنَّـهُ كسَرَابٍ يَحْسَبُهُ الظمآنُ ماءً حتى إذا جاءَهُ لم يجِـدْهُ شـيئاً. فكـنْ مـن أنصـارِ الحقيقـة تَكُنِ العاقبةُ لك، ولا تدافعْ عَنِ الوَهْمِ فيؤدِي بك ذلك إلى الندامةِ والخُسْرَانِ.

ومن أعظم الحقائق: عبادةُ اللهِ وحدَهُ والخضـوعُ له وحـده، ومِـنْ أكـبرِ الأوهـام: عبادةُ غيرِ اللهِ والخضوعُ للمخلوقينَ والدفاعُ عن المجرمين..

٧ـ الحقيقةُ قَدْ تُعَاني من قِلَّةِ أتباعِهَا، والوهمُ قد يُغْرِي مَنْ حولَهُ بكَـثْرَةِ أتباعِـه، فلا تجعلْ قلةَ أتباعِ الحقيقةِ عائقاً عن اتباعها، ولا كثرةَ أنصارِ الـوهمِ مـبرراً لاتِّباعـه.

فقد تكونُ القِلَّةُ ذهباً خالصاً أو جوهراً نادراً أو عسلاً صافياً، وقد تكون الكَثْرةُ غثاءً لا خيرَ فيه ولا قيمةَ له، أو زَبَداً يعلو وينتفش ثم يَضْمَحِلُّ ويتلاشى ولا يَنتفع به أحدٌ..

فالمسلمون حين انتصروا لم ينتصروا بكَثْرَةِ عَدَدِهِم وعَتَادِهِم، وإنما بإخلاصِهِم لله تعالى واجتماعِهِمْ على الحقِّ ويَقِينِهِم بنصرِ الله..

٨ـ بين الله سبحانه أن الإخلاد إلى الأرض واتباع الهوى هو سبب الغواية والضلال بعد الهدى، قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آياتِنا فَانْسَلَخَ مِنْها، فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطانُ فَكانَ مِنَ الْغاوِينَ. وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾.

٩ـ لأن تكون عامياً تدافع عن الحق، خير من أن تكون عالماً يُبَرِّرُ للباطل ويقف معه، فالعبرة ليست بكثرة العلم، وإنما بالثمرة التي يثمرها هذا العلم..

ولو كان الفضل للعلم وحده لكان إبليس خيراً من الكثير ممن لم يبلغ علمه.

١٠ـ الحقيقةُ قد تكون مُرَّة، والوهمُ قد يكون حُلْواً، فلا تكن ممن يفضِّلُ الوهمَ لحلاوته، ويتركُ الحقيقةَ لمرارتها؛ فحلاوةُ الوهمِ يَتْبَعُهَا مرارةُ الطعم، ومرارةُ الحقيقة يَتْبَعُهَا حلاوةُ الطريقة.

لماذا قد تكونُ الحقيقةُ مُرَّةً؟ لأنَّ الحقيقةَ قد تخالفُ رغبةَ الإنسانِ وما يُريدُ فعلَهُ، ولأنَّ الحقيقةَ قد تُحَطِّمُ آمالَ الإنسانِ التي يؤمِّلها، ولأنَّ الناسَ قد يعادُونَهُ من أجلِ الحقيقة، ولأنَّ الحقيقةَ قد تحتاجُ إلى صبرٍ عظيمٍ وتضحياتٍ كبيرة، ولكنَّ الله لا يُضِيعُ أجرَ مَنْ أحسنَ عملاً، فمن وقف في طريق الحقِّ وسَلَكَ سبيلَهُ وفَّقَهُ اللهُ في الدنيا والآخرة وأيَّدَهُ بنَصْرِهِ وجعلَ العاقبةَ له.

* * * * *

كما تخاف من اللئيم إذا لم يرد لك الإساءة؛ لأنه يخطط لإساءة أبلغ من الرد السريع والعشوائي..

عليك أن تفرح حين لا يسارِع الكريمُ بمقابلتك بالإحسان؛ لأنه يخبـئ لـك مـا هو أفضل..

* * * * *

العاقل لا يطلب من الآخرين أن يكونوا معه، أفضل مما يكون هو معهم..

* * * * *

نظرتُ إلى الحياة بِعَين (ضعف المخلوقين)، فرأيت أن الخلق كلهـم مطبوعـون على الضعف والحاجة والافتقار..

فصاحب المال يحتاج إلى صاحب الخبرة، وصاحب الخبرة يحتاج إلى صاحب المال..

والقارئ يحتاج إلى كاتب متميز يقرأ له، والكاتب يرجـو أن يجـد قـرَّاءً يسـتفيدون منه..

والمريض يحتاج إلى الطبيب، والطبيب يحتاج إلى المريض!

والآباء والأمهات يحتاجون إلى الأولاد، والأولاد يحتاجون إلى الوالدَيْن..

والحاكم يحتاج إلى الشـعب، والشـعب يحتـاج إلى الحـاكم الذي يعـدل بيـنهم، وهكذا..

* * * * *

كثيرون ينجحون في ابتلاء الشدة، ولكنهم يخفقون في ابتلاء الرخاء..

فالخير والشر هو ابتلاء وامتحان من الله، قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرجَعُونَ﴾.

ولئن كان ابتلاء الشدة يحتاج إلى الكثير من الصبر، فإن ابتلاء الرخـاء يحتـاج إلى الكثير من الصبر والشكر والعقل والرقابة الذاتية وعدم الاغترار بهذا الخير..

* * * * *

من فوائد الأخطاء التي يقع فيها الإنسان:

١ـ الابتعاد عن العجب والغرور. فرُبَّ خطأٍ عـرَّف النَّفْـسَ حجمهـا، وأزال عنهـا أوهامها.

٢ـ الاستفادة من الأخطاء والتعلم منها. فما أكثر الأمـور المهمـة الـتي بُنِيَـتْ على التعلم من الأخطاء.

٣ـ التماس الأعذار للآخرين حين يخطؤون.

٤ـ الاعتماد على رحمة الله الواسعة وليس على عمل الإنسان القاصر.

٥ـ معرفة معادن الناس في تعاملهم مع هذا الخطأ.

* * * * *

قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي رَبَـضِ الجَنَّـةِ لِمَـنْ تَـرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقّاً، وَبِبَيْتٍ فِي وَسَطِ الجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الكَذِبَ وَإِنْ كَانَ مَازِحاً، وَبِبَيْـتٍ فِي أَعْلَى الجَنَّةِ لِمَنْ حَسُنَ خُلُقُهُ). رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ.

هذا الحديث أصل عظيم في مجاهدة النفس وكبحها عن حظوظها، فـترك الجـدال وعدم الانتصار للنفس أمر عسير خاصة عندما يعلم الشخص أنه مُحِقٌّ في كلامه.

وترك الكذب يحتاج إلى تدريب النفس على الصدق والنزاهة.

وحسن الخُلُق لا يحتاج إلى كثير صلاة ولا صيام، ولكنه يحتاج إلى المجاهـدة على سعة الصدر، وعدم الانقياد لهوى النفس المذموم..

* * * * *

لسان حال بعض الدعاة: كلَّما أكثرَ الناسُ من المعاصي، أكثرنـا لهـم مـن القصـص المختلقة التي تنفر الناس وتخوفهم منها!

* * * * *

تطور السرقة

كانت السرقة في السابق تحصل بطرق بدائية، وكان الكثير من السارقين يُعرَفون بمظهرهم..

أما الآن فقد أصبحت السرقة عند الكثير تحصل بطرق متحضرة في الظاهر..

فهناك من يضع القانون الذي يصب في مصلحته حتى يمكنه أن يسرق بطريقة قانونية.

وهناك من يُظهر اهتمامه بمبدأ شريف، ليكون ذلك غطاء لما يريد أن يسرقه من خلاله.

* * * * *

صحيح أن الله أباح لنا الطيبات، لكن هذا لا يعني أن تتحول الحياة إلى مشروع متواصل من التمتع بالمباحات، وكأن الهدف الأساسي من العيش في هذه الحياة هو الترفيه وزيادة التوسع في المباحات..

* * * * *

متى رأيت أحداً يَمُنُّ بما عمل، فاعلم أنه يفعل ذلك تكلُّفاً، وأنَّ عملَه غيرُ خالص لوجه الله تعالى.

* * * * *

حين تشعر بالمحبة والألفة تجاه غيرك احمد الله الذي ألَّف بين قلوبكم، ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـٰكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾.

* * * * *

ما أكثرَ المسلمين الذين سَلِمَ منهم أعداءُ الدين، ولم يَسلَم منهم المسلمون..

* * * * *

ربما جاءت المنحة في ثوب المحنة، وربما جاءت المحنة في ثوب المنحة..

* * * * *

لا تُطَلِّق الدنيا ثلاثاً، حتى لا يتزوجها الكفار، فهم لا يعرفون حقوق الزوجة!

والزهد ليس هو ترك الدنيا، وإنما هو عدم تعلق القلب بها، وعدم تقديمها على الآخرة.

* * * * *

عبادة الله لا تقتصر ولا تنحصر في عهد التمكين والقوة للمسلمين، فالعبادة تكون أيضاً في عهد الابتلاء والتمحيص..

وفي كل عهد ومرحلة عبادات تتناسب معها، ففي عهد التمكين: عبادة إقامة الحق والحكم بالعدل والإحسان وغير ذلك، وفي عهد الابتلاء هناك عبادة الصبر والسعي إلى التمكين في الأرض.

وربما نجح البعض في عبادات مرحلة الابتلاء ولم ينجح في عبادات مرحلة التمكين.

* * * * *

تأملات في المنبِّه!

ـ المنبِّه رغم أهميته إلا أنه مزعج لدى أكثر الناس، وهكذا عندما يضع الإنسان نفسه موضع المنبِّه للآخرين عليه أن يتقبل كراهة البعض له.

ـ إذا بقيت نغمة المنبه كما هي لمدة طويلة ولم تتغير، ربما تعود الإنسان عليها فأصبح المنبه لا ينبهه ولا يوقظه، وكذلك الذي يجمد في الوسائل ولا يطورها، قد لا تُحقِّق له الغرض المطلوب.

ـ عندما يرن المنبه وأنت مستيقظ لست بحاجة إلى تنبيهه، تنظر إلى المنبه نظرة تمزج بين الشعور بالاستغناء عنه، وإرادة الانتقام من صوته المزعج..

ـ عندما تسمع صوت المنبه وأنت بين النائم واليقظان وتشعر بالتعب والإرهاق، تتغافل عنه، وهكذا عندما يسمع الإنسان صوت الحقيقة الذي يكلِّفه الكثير تراه يتغافل عنه ويتوانى عن الاستجابة له.

ـ عندما تطفئ المنبه حتى ترتاح قليلاً ثم تستيقظ، ربما غططت في نوم عميق وفات عليك ما كنت تريد فعله، وستندم بعدها على عدم الاستجابة للمنبه من أول مرة، وهكذا عندما تعرف ما تريد فعله ثم تسوِّف في تحقيقه، قد لا يمكنك فعله بعد فوات الأوان.

* * * * *

قد يُظهِر أحدُهم التواضعَ في كلامه، لكن غروره يَظهر في أفعاله..

فالتواضع حقيقة راسخة في النفس، وليس مظاهر جوفاء تَظهر في جانب وتَغيب في جوانب أهم منها!

* * * * *

لا تُعرَف قيمة الإنسان بعطائه، وإنما بحاله بعد أن يعطي كيف يكون!

* * * * *

عندما يصفو القلب

١ـ عندما يصفو القلب لا يجد الإنسان حرجاً من الاستفادة من أي أحد كان، فلا يحمله كِبَرُ سنِّه أو عِظَمُ قَدْرِه على الاستنكاف من الاستفادة ممن يصغره في ذلك..

ولا يجد غضاضة في إظهار أنه استفاد ذلك منه، فلا يتظاهر أنه يعلم ذلك مسبقاً..

ولا يكابر عندما يظهر الحق أمامه، بل يسارع إلى قبوله، ويشكر مَنْ كان سبباً في وصوله إليه..

٢ـ عندما يصفو القلب لا يحسد الإنسان مَنْ فوقه، ولا يحتقر مَنْ دونه.

وهل ضلَّ إبليسُ إلا من الحسد والاستكبار، فقد حسد أبانا آدمَ على تفضيل الله سبحانه له واستكبر عن طاعة الله والسجود لآدم.

٣ـ عندما يصفو القلب لا يحمله العلم على الغرور. فلا تزيده كثرة العلم إلا تواضعاً، وكيف لا وهو قد علم من سعة العلم ما يجعله يستصغر ما عنده.

٤ـ عندما يصفو القلب يرى الإنسان فضلَ الآخرين ولا يرى لنفسه فضلاً.

ويؤدي ما عليه للآخرين، ولا يستوفي ما له عند الآخرين.

٥ـ عندما يصفو القلب يفرح الإنسان بنجاحات الآخرين، ولا يراها مِعْوَلاً يهدم نجاحَه. فنجاح أي مسلم هو نجاح له، فأمة المسلمين واحدة.

٦ـ عندما يصفو القلب تظهر الحقائق بصورتها الناصعة، فلا يحجبها عنه حاجبٌ ولا يحول دونها حائل من الشهوات أو الشبهات.

فكلما كانتْ مرآةُ القلبِ صافيةً، عَكَسَتْ هذه المرآةُ الحقائقَ بكل شفافية ووضوح.

أما إذا تكدَّرتْ مرآةُ القلبِ بالشهوات والمطامع والشبهات، فإنها ستحجب الرؤية عن الكثير من الحقائق والمعاني الفاضلة..

٧ـ عندما يصفو القلب لا يطمع الإنسان في نجاته إلا برحمة الله الواسعة، فهو يعلم أن أعماله الصالحة مشوبة بالكثير من الشوائب التي تفسدها، وكل عبادته لا تفي بشكر نعمة واحدة من نعم الله تعالى التي لا تعد ولا تحصى، فلولا رحمة الله لهلكنا.

٨ـ عندما يصفو القلب لا يبحث عن مدح الآخرين ولا يحرص عليه، ولا تراه مُولَعاً بمدح نفسه، فالذي يمدح نفسه ويُكثر من ذلك بمناسبة وبدون مناسبة، ثم يُضيف على مدحه لنفسه: ذم وانتقاص الذين يتحدث إليهم، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة..

هذا عليه أن لا ينتظر من الآخرين أن يكونوا متقبلين لكلامه ومستمتعين بجواره.

وكثيراً ما تختلف نظرة الإنسان عن نفسه عن نظرة الناس له..

فهناك من لا يرى نفسه شيئاً والناس يرونه كبيراً وعظيماً.

وهناك من يحسب نفسه أنه من العظماء القلائل الذين لا يمكن الاستغناء عنهم، والناس لا يرونه إلا مغروراً مُدَّعياً وليس عنده من الكفاءة ما يبرر له هذا الغرور..

وما أجمل أن تدعو: اللّهُمَّ إني أعوذ بك أن أكون عظيماً في عيني أو في عين الناس وصغيراً عندك..

٩ـ عندما يصفو القلب يقف الإنسان مع المظلومينويناصرهم، ولا يجعل أخطاءَهم سبباً لوقوفه مع الظالم وتأييده..

فحين يكتفي أحدهم بلوم المظلوم على أخطائه، دون أن يستنكر على الظالم بكلمة..

ثم يكون توقيت اللوم للمظلوم هو حين انتصار الظالم عليه فهذا لا شك في فساده.

فمَنْ هو الأعظم خطأ وجرماً: أخطاء المظلوم الناشئة عن ضعفه وتقصيره أم أخطاء الظالم التي يرتكبها مع سبق الإصرار والترصد!

١٠ـ عندما يصفو القلب تحسن الألفاظ التي يكسو بها المعاني، فلا يُفسِد المعنى النبيلَ بألفاظ يَنفر منها النُّبَلاء.

فشتَّان بين مَنْ يأتونَ في كلامهم بأفضل العبارات، فتجدهم ينتقون كلَّ كلمة بعناية فائقة، وتجد كلَّ كلمةٍ أفضل من أختها، وبين مَنْ يصدمونَ الآخرين بأسوأ الكلمات، ويفضحون ما في بواطنهم السيئة بما يرشح في ظواهرهم..

لقد أبى ذو المعدن الطيب إلا أن يُخرج طيباً، وأبى ذو القلب المريض إلا أن يُظهر مرضه للناس..

ومن عجائب ذي المعدن الطيب: أن يكون في تعامله مع مَنْ يختلف معه على قدر كبير من الأدب والذوق، لا يكون موجوداً عند بعض الناس مع مَنْ يتفقون معهم،

فتجد تعامله مع الاختلاف أفضل من تعامل غيره مع الاتفاق!

* * * * *

عندما تُزَوِّج ابنتك، فأنت لم تخسر ابنتك، وإنما ربحت رجلاً آخر دخل إلى بيتك..

وعندما تزوج ابنك، فأنت لم تخسره، بل أضفتَ بنتاً أخرى إلى بيتك!

* * * * *

بين متعة الأخذ ومتعة العطاء

هناك أشخاص لا يستمتعون إلا بالأخذ أما العطاء فهم لا يرونه إلا مصيبة تحل بهم، ومغرماً قاسياً ومؤلماً يعانون منه.

هؤلاء الأشخاص لا يعرفون متعة العطاء.

إنهم لا يعلمون أن العطاء للآخرين هو عطاء للمعطِي نفسه أولاً، فهو أول من يستفيد من هذا العطاء في الدنيا وفي الآخرة.

إن العظماء والكبار هم بالعطاء أسعد منهم بالأخذ، وبالتضحية والإيثار أسعد منهم بالأنانية واللؤم الذي يحلو للبعض.

وهل قيمة الإنسان إلا بتضحيته وعطائه وعمله!

حين تعطي الحب فأنت تعيش في الحب، وحين تعطي العلم فأنت تزداد من العلم والفهم..

حين تعطي المال فأنت موعود من الله الكريم أن يبارك لك في مالك، ويعوضك خيراً مما أنفقت، وما عند الله هو خير وأبقى.

* * * * *

هناك أشخاص لا تملُّ من كلامهم والحوار معهم، ولا تستكثر الوقت الذي تقضيه بينهم، فكلامهم لا يقل أهمية عن القراءة النافعة إذا لم يتفوَّق عليها.

وأما غيرهم ممن يكون هدفهم هو إضاعة الأوقات، والتفكه في أعراض الناس، فلا تجالسهم حتى يخوضوا في حديث غيره، وإلا كنت مِثلَهم، فلو لم يجدوا آذاناً صاغية لَـمَا استمرؤوا فِعْلَهم.

* * * * *

بعضهم عندما يريد أن يذكر أنه أخطأ يقول: أنا أخطأت!

ثم يُتبع ذلك مرة أخرى باستغراب شديد: نعم، نعم أنا أخطأت!

يحسب أن الناس لن تصدق أنه أخطأ إلا إذا أكَّد لهم ذلك..

* * * * *

أخاف كثيراً من بعض المتدينين الذين كان لهم تاريخ مظلم بعيد عن التدين، لأنهم قد يحاولون أن يعوضوا عن تقصيرهم الشديد في سابق حالهم، بالتشدد والتعنت والتكلف الذي جاء الشرع بالنهي عنه.

ويغيب عنهم أن التشدد والتعنت يُهلك صاحبَه ويوقعه في الحرج، ورُبَّما قادَهُ إلى ردة فعل عنيفة تجعله يعود أسوء مما كان عليه قبل تديُّنِه.

* * * * *

كثيرون يذمون الحكَّام الظالمين، لكنهم لا يتورعون عن الظلم في النطاق الذي يمكنهم الظلم فيه..

فهؤلاء ذمهم للظلم ليس دفاعاً عن مبدأ شريف، وإنما هو شكوى وتذمر لأن الظلم وقع عليهم.

* * * * *

كلما قلَّت الثقة بالنفس، كثرت التصـرفات والأقـوال الـتي يراهـا ذلـك الشـخص مسيئة إليه.

* * * * *

بين الأزمة وانفراجها تظهر معادن الكثير، فترتفع منزلة أقوام مـا كنـت تعـدهم شيئاً، وتزهد في آخرين ممن كنتَ تحسب أنك معه كالروح الواحدة ولكنها في جسدين!

* * * * *

الابتسامة لا تفارق وجهه، وعندما يكون في أزمة أو ضـيق تـذهب الابتسـامة فقط ويبقى طبيعياً فلا يظهـر القلـق على وجهـه، فأقصى ـ مـا يحصـل معـه هـو ذهـاب الابتسامة!

وآخر دائم العبوس حتى في مناسـبات الفـرح، ولا تسـأل عـن حـاله حـين يبـتلى بمصيبة!

فلا يرضى إلا أن يكافئ المصيبة بأخوات لها أخطر منها وأكـبر، حـتى ينظـر إلى مصيبته الأولى فلا يراها شيئاً!!

* * * * *

مِنْ أهم أسباب النجاح: النَّفَس الطويل، والصبر على الاستمرار وعـدم الانقطـاع، والاحتفاظ بالتفاؤل رغم صعوبة الظروف، وعدم استعجال قطف الثمرة.

فهناك أشخاص أذكياء ومتميزون، لكن أصابهم الملل، أو اليأس، فتركوا ما كانـوا عليه.

* * * * *

عندما تفهم نفسيةَ الطرف الآخر، تعرف أنَّ بعض كلامه لا يُؤخذ على ظاهره، وتستطيع أن تقدم له ما يتناسب معه..

ويسهل عليك أن تُقنِعَه بما تريد.

* * * * *

عندما تخسر أمراً، لا بد أن تضبط نفسك حتى لا تخسر ما هو أهم منه..

وقَلَّ مَنْ يستطيع أن يضبط نفسه عندما يصاب بمصيبة، وكثيراً ما يخسر الإنسان عند ذلك أكثر من خسارته التي أصابته.

* * * * *

التخطيط لأدق التفاصيل قد يكون أكثر ضرراً من عدم التخطيط.

فدع التفاصيل الصغيرة تحصل بعفوية، ولا حاجة للتكلف واستباق الأحداث وتوقع الأمور البعيدة التي قد لا تحصل، حتى لا تتعب نفسك في همِّها ووهمها دون جدوى.

* * * * *

من يسوِّل له الشيطان المعاصي ويهوِّنها عليه لأنها مكتوبة ومقدَّرة عليه، لا بد أن يتذكر أن العذاب قد يكون مكتوباً عليه أيضاً!

* * * * *

الأمهات والآباء الناجحون هم الذين يجعلون أولادهم يحبونهم من تلقاء أنفسهم، وليس فقط امتثالاً لأمر الله بالبر بهم..

ليس هناك مثل المحبة النابعة من القلب التي لا تعرف التصنع والمجاملة، فهي التي تجعلهم يحسنون ويبرون وبكل محبة وسرور.

* * * * *

قبل أن تحث إنساناً على التفكير، تأكد أنه يعرف كيف نفكر بطريقة صحيحة!

* * * * *

أنْ تكونَ معلماً لأشخاص وموجِّهاً لهم في مرحلة من المراحل، لا يعني أنهم سيظلون تلاميذاً لك طوال حياتهم..

فرُبَّ تلميذٍ فاقَ أستاذَه..

ويكفي أنك أعطيتهم المفاتيح، وهم عليهم إكمال الطريق.

وعلى التلميذ أن يعترف بفضل أستاذه ويكون وفياً له، لكنه ليس ملزماً بأخذ رأيه في كل أمر..

* * * * *

جميلٌ أنْ تُبدِي مشاعرَك الطيبة تجاه الآخرين، لكنْ حينَ لا تكتفي بذلك بل تقدِّم لهم ما تستطيع فعله، فهذا هو الذي يثبت صدق هذه المشاعر!

* * * * *

هناك أمور كثيرة تقودك إلى ضدها، فعبوديتك لله تقودك إلى الحرية عما سواه؛ فالإنسان بتمام عبوديته لله تعالى يتحرر من كل أشكال العبودية لغيره.

وكلما نقصت عبوديته لله، نقصت الحرية عنده؛ لأنه يكون مستعبداً لهواه أو للشيطان أو للمخلوقين..

ـ و(التواضع) يقودك إلى (العزِّ والرفعة)، و(الكِبْر) يهوي بصاحبه الى (الذلِّ والهوان)..

ـ و(حبُّك لله تعالى) يقودك إلى (بغض أعدائه)، وإلى (بغض ما نهى عنه) وحذَّر منه،

ـ و(التعب) في سبيل اكتساب الفضائل يقودك إلى (الراحة والنعيم)..

ومن احتمل (مرارة) التعلم ساعة، وجد (حلاوتَهُ) في العاقبة والمآل..
ومَنْ أبى أنْ يتجرَّعَ (مرارتَهُ)، لن يذوقَ (حلاوتَهُ)..
وكثيراً ما يؤدي (تعب الجسد) إلى (راحة الروح)، و (راحة الجسد) إلى (تعب الروح)..

* * * * *

قال له: ما هي كرامات شيخك فلان؟ وكأنه يقلِّل ممن ليس له كرامات خارقة للعادة..
فأجابه بقاعدة نفيسة: الاستقامة هي أعظم كرامة!

* * * * *

يضع قبل اسمه ثلاثة ألقاب أو أكثر وهو مبتدئ في العلم،
فماذا سيصف نفسه لو تطور قليلاً، هل سيصفها بحجة الإسلام أو شيخ الإسلام!!

* * * * *

ما أسوأ الذي يحمل الغل في قلبه على أخيه المسلم، فكيف بمن يحمل ذلك الغل على أمه وأبيه!
وما أسوأ العجز وأن يعلق أحد فشله على الآخرين، فكيف بمن يعتبر والديه سبب فشله!
وما أسوأ الكذب والافتراء على الآخرين وتشويه سمعتهم، فكيف بمن يفعل ذلك مع والديه..
أمور لا تكاد تُصَدَّق لولا معرفة أن الإنسان كفور لنعمه وناكر لها.

* * * * *

شتَّان بَينَ مَنْ يفرِح ويسعد بنعمة غيره مع أنها غـير موجـودة عنـده! وبَـينَ مَـنْ يحقد على غيره لما عنده من خير مع أن عنده أضعافاً كثيرة له..

* * * * *

لقد كشفت الثورة أننا بحاجة إلى الثـورة الأخلاقيـة، والثـورة الروحيـة، والثـورة العلمية، والثورة على رذائل النفوس..

وإذا لم تتحقق هذه الثورات فإن الانتصار في غيرها صعب وعسير.

* * * * *

إذا لم يكن الإنسان أعرف الناس بنفسه، فلا ينتظر مـن الآخـرين أن يكونـوا أكثر فهماً لنفسه منه، والذي يعجز عن فهم نفسه هو عن فهم غيره أعجز..

فلا بد للإنسان أن يعرفَ مواطنَ ضعفِه وقوته، ويعرف ماذا يحـب ومـاذا يكـره؛ لأنه لن يُبدِعَ إلا فيما يحبُّه.

وشتَّان بين ما يفعله وهو مجبَر عليه يريد أن يتخلص منه، وبين ما يفعله حُباً له ورغبة فيه..

* * * * *

كثرةُ العودةِ إلى الماضي والنشوة بما حقَّقَ الإنسان فيه مـن إنجـازات، يُبعـده عـن الإنجاز في حاضره ويجعله يكتفي بما عمله في السابق.

* * * * *

لا تبرِّر للآخرين أفعالك، فالذي يعاملك على أنك مُـتَّهم، لا يسـتحق منـك هـذا التبرير..

* * * * *

عندما تجد شخصاً يصف غيره بقلة الأدب، فلا تصدقه حتى تعرف ما هي مظاهر قلة الأدب التي يقصدها..

فقد يكون ذلك الشخص مبالغاً في تضخيم نفسه، ويصف كل شخص لم يبجله ويمدحه بما ليس فيه بأنه قليل الأدب!

* * * * *

كم مِنْ ذكي غرَّه ذكاؤه فتقاعس عن العمل والجد والاجتهاد فأصبح بليداً، حتى سبقه مَنْ كان لا يعدُّه شيئاً..

وبمعنى آخر (لمن يحب الحِكَم العطائية): رُبَّما فَتَحَ لك باب الذكاء وما فتح لك باب النجاح، وربما قضى عليك بقِلَّة الذكاء فكان سبباً في النجاح..

* * * * *

يَظهر عقل الإنسان حين يعطي للمشكلة حجمها اللائق بها، فلا يضخمها ويعطيها أكبر من قدرها، ولا يهوِّن كذلك المشكلة إذا كانت كبيرة وتستحق ذلك..

وهناك الكثير من المشاكل التي تبدو كبيرة، لكنها في الحقيقة ليست كذلك، فالعاقل يحرص قدر المستطاع على تصغيرها، ويخمدها حتى تموت في مكانها..

فلا يسمح لشَرَرها أنْ يتطاير ويعظم ويزداد..

* * * * *

بعض الناس يريدون أن يكونوا مؤثرين فيمن حولهم، لكنهم لم يحرصوا على حسن تعاملهم مع الآخرين!

إذا لم تحرص على أخلاقك قبل كل شيء فاعلم أن الناس لن تتقبل منك ما تقـوله من النصائح المثالية التي لم تعمل بالحد الأدنى منها..

* * * * *

كم ممن يجتمعون بأجسادهم، ولكنهم يتفرقون بقلوبهم وأرواحهم..

ولَأَنْ تجتمعَ أرواحُهُـم وتتفـرقَ أجسـادُهُم، خـيرٌ لهـم مـن أنْ تجتمـعَ أجسـادُهُم وتتفرقَ أرواحُهُم..

* * * * *

كلَّما قلَّ الفضل والعلم عند الشخص، كَثُرَ الاهتمام بالمظاهر والشكليات..

* * * * *

بعض الناس يتكلمون بحسن نية فيمدحون فتاة أو امرأة من محارمهم أو يصـفونها أمام من هو أجنبي عنها..

ويفترضون في الناس كلِّهم: النزاهة وسلامة الجانب، ولا يحسبون حسـاباً لمَـنْ في قلبه مرض، أو لديه من الإساءة غَرَض..

وهذا خلافُ الحكمة، وبعيدٌ عن وزن الكلام ووضعه في موضعه الصحيح.

* * * * *

كم خرَّجَت الشدة من كفاءات متميزة، وكم أفسد الترف من خَلْقٍ كثير..

* * * * *

كم من خطأ كان سبباً في فتح آفاق جديدة واكتشاف معلومات مهمة..

* * * * *

الانتِصَارُ فِيهَا هُوَ الخَسَارَة

هناك معارك، الانتصار فيها هو الخسارة، والخسارة فيها هي الفوز..

أرأيتم لو أن أحداً قد انتصر على أخيه فأصبح ظالماً له، أليس انتصارُه هو عينَ الخسران!

* * * * *

تزداد الحاجة للإخلاص لله في طلب العلم كلما كان الموضوع معقداً أو غريباً لا يعرفه الكثير من الناس؛ لأن حظ النفس من العجب والتباهي والتفاخر يقوى في هذه الحالة..

* * * * *

الذي يستطيع أن يكون مُقَرَّباً وذا حظوة كبيرة عند أكبر مسؤول، لا يبالي إذا لم يكن يَعرف أحداً من المسؤولين الصغار..

ألا وإنَّ السعيد هو الذي عرف أن كلَّ مصالحه ومنافعه وكل خيره هو بيد الله عز وجل فأصلح العلاقة بينه وبين الله، ولم يبالِ بعدها أرضي الناس أم سخطوا.

* * * * *

أراد أحدهم أن يقتل بعوضة لأنها قرصته..

فقلت له: هذه البعوضة إساءتها أنها قرصتك، فلماذا تقتلها ولا تعاملها بالمثل فتقرصها فقط!

فقال: لأنني لا أستطيع أن أقرصها.. فقلت له: هذه مشكلتك أنت!

فسكت ولم يقل شيئاً..

لكن الجواب على هذا: أن المعاملة بالمثل تكون عند الاتفاق في المنزلة كالإنسان مع الإنسان، أما عند اختلاف المنزلة، كالإنسان مع البعوضة، فالإنسان أكرم من البعوضة..

وعندما تتجرأ البعوضة على الإنسان فله أن يجازيها بأكثر من فعلها.
فكيف بالإنسان عندما يتجرأ على خالقه!!

* * * * *

الكرم يحتاج إلى إيمان بالله تعالى، قال عليه الصلاة والسلام: (مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ).

* * * * *

دخلت امرأة النار في هرة حبستها، فكيف بمن يحبس مصلحاً أو عالماً أو شخصاً بريئاً!!

* * * * *

كثيراً ما تقترن الفضائل ببعضها، والرذائل ببعضها..
فالعلم النافع يقترن بالعمل الصالح وبالتواضع والأدب والخشية والمحبة..
والشجاعة تقترن بالتوكل والثقة والكرم..
والبخل يقترن بسوء الظن بالله وبالجبن..
والمحبة تقترن بالعطاء والتغاضي والوفاء..
والكراهية تقترن بالمنع والمشاحة والجفاء.

* * * * *

بعض الناس يتصرفون بتلقائية ويُبْدِعُون في عملهم..
ولعلَّك لو سألته: كيف أبدعتَ في ذلك وما هي الخطوات التي تتبعها في هذا الأمر؟ لرأيته محتاراً في إجابتك..

لكن يمكن له أو لغيره أن يلاحظ تصرفاته بدقة ويستنتج منها الأسباب التي جعلته كذلك..

* * * * *

من ابتعد عن شرع الله، فقد ابتعد عن العقل بقدر ابتعاده عن الشرع..

* * * * *

عندما تصاحب وتصادق مَنْ يتفوَّق عليك، تراه يحثك بحاله أو مقاله على عُلُوِّ الهمَّة والازدياد من الخير..

ويقودك إلى التواضع، حيث تجده متفوقاً عليك في أحيان كثيرة، وقد تعجز عن اللحاق به في أمور عديدة..

وينمي فيك حُبَّ الخير لغيرك، عندما تفرح بنجاحه وتفوقه.

* * * * *

لَيسَ كلُّ مَنْ ذمَّ الطُّغَاة سَلِمَ هو من الطغيان

الطغاة ليسوا فقط من الحكَّام، فهناك طغاة من العلماء، وهم الذين سخَّروا علمهم في الطغيان، فعبدوا السلطان وزيَّنوا له فعله، وحرَّضوا على قتل الأبرياء،

وهناك طغاة من المدرِّسين وهم الذين يظلمون الطلاب وينتقصون حقوقَهم..

وهناك طغاة من عامة الناس، وهم الذي يسيئون إلى الآخرين ويظلمون من يستطيعون ظلمه.

وهناك طغاة من التجار وهم الذي يحتكرون أو يغشون أو يغالون.

فليس كلُّ مَنْ ذمَّ الطغاة سَلِمَ هو من الطغيان..

* * * * *

أيها اللائمُ شخصاً.

لعلَّك لو كنت مكانه، أو عرفتَ مثل معرفته، لفعلت مثل فعله..

* * * * *

ذاك حُرٌّ عزيزٌ في قُيُوده، وذاك عَبْدٌ ذليلٌ في قُصُوره!

فما أكثرَ الأحرارَ في السجون، وما أكثرَ العبيدَ في القصور..

فطائعُ الهوى عَبْدٌ وإن مَلَكَ البلاد..

وعاصي الهوى وطائعُ الله حُرٌّ ومعه وناصرُه ربُّ العباد.

* * * * *

العَوْنُ والتَّوْفِيقُ عَلَى قَدْرِ الهِمَّةِ والإِرَادَة

فمَنْ كانت الدنيا أكبرَ همِّه، ومبلغَ علمِه، أعطى الله منها ما يشاء لمن يريد، ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾..

﴿وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾.

ومَنْ كانت الآخرةُ أعظمَ همه، وغايةَ مُنَاه وأملِه، زادَ الله له في أجرِه وثمرةِ عملِه في الدنيا والآخرة، وأعطاه فوق ما يستحق، ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾.

﴿وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً﴾.

* * * * *

الذين يعيشون بدون أهداف يسعون إلى تحقيقها، يشعرون بالملل والفراغ، ويتعذبون روحياً ونفسياً وإن كانوا في راحة جسدية..

أما أصحاب الأهداف فلا مكان في حياتهم للكآبة والملل، فهم يشكون دائماً من ضيق الوقت وسرعة مروره،

ويقومون بأعمال كثيرة، ويخططون لأعمال أخرى، فسعادتهم في تلك الإنجـازات التي يعملونها..

* * * * *

كثيراً ما تختلف نظرة الإنسان عن نفسه عن نظرة الناس له..

فهناك مَنْ لا يرى نفسَهُ شيئاً والناس يرونه كبيراً وعظيماً.

وهناك مَنْ يحسب نفسه أنه من العظمـاء القلائـل الذيـن لا يمكـن الاسـتغناء عنهم، والناس لا يرونه إلا مغروراً مُدَّعياً وليس عنـده مـن الكفـاءة مـا يـبرر له هـذا الغرور..

وما أجملَ أنْ تدعو: اللّٰهُمَّ إني أعوذ بك أن أكون عظيماً في عيني أو في عين الناس وصغيراً عندك..

* * * * *

إياك أن تكتم مشاعرك الإيجابية نحو الآخرين..

فعندما تحب أحداً ولا تُفصِح له عن هذه المحبة تبقى المحبة من طرف واحد، ولا يشاركك هو تلك المحبة..

ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: (إِذَا أَحَبَّ الرَّجُلُ أَخَاهُ فَلْيُخْـبِرْهُ أَنَّـهُ يُحِبُّـهُ) رواه أبو داود، وفي زيادة عند الطبراني في الكبير: (فَإِنَّهُ يَجِدُ مِثْلَ الَّذِي يَجِدُ لَهُ).

* * * * *

عندما تفعل الخير وتخدم الآخرين وتساعدهم، كـن مطمئنـاً أن ذلـك سيصـل إليك..

﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾.

* * * * *

تَبتَعِدُ الرَّحمَةُ عند الإنسَانِ عَلَى قَدْرِ ابتِعَادِهِ عَنْ هَدْيِ النُّبُـوَّة: ﴿وَمَـا أَرْسَـلْنَاكَ إلا رَحْمَةً للعَالَمِين﴾..

* * * * *

سبحانَ مَنْ أذَلَّ الجبابرةَ بأضعف الأسباب..

* * * * *

إنَّ الصادقينَ يَعيشونَ في سَلامٍ وأمانٍ، مع أنفسِهم ومع مَنْ حولَهُمْ، فلا يُظْهِـرُونَ الخيرَ ويُبْطِنُونَ الشر، ولا يَمْدَحُونَ شخصاً حينَ يَرونَهُ ثم يَذُمُّونَهُ حـينَ يَبتَعِـدُ عَـنْهُمْ، ولا يكونُ ظاهرُهُمْ جميلاً حميداً، وباطنُهم قبيحاً ذميماً، بـل هُـمْ يُرَاقِبُـون ربَّهُـم، واللهُ يَعلمُ سرَّهُم وعلانيتَهُم، فهم مُوقِنُونَ بأنَّهُ لا فائدةَ مِنَ التَّظَـاهُرِ بِـالخَيرِ عنـدما يكـونُ الباطنُ ليسَ كَذَلِكَ، لأنَّ اللهَ لا تَخْفَى عليه البَوَاطِنُ والسَّرَائر.

* * * * *

إنَّ الصادق يقول الحقيقةَ مهما كانتْ آلامُهَا وصُعُوباتُهَا كبيرةً، ويَكْـرَهُ الكـذبَ ويَبْتَعِدُ عنه مهما كانت مكاسبُهُ في ظاهرِ الأمرِ كثيرةً ومُغْرِيةً، لأنه يَعلَمُ أنَّ الصدقَ هو طريقُ النجاةِ والفلاح، ولا يَغُرُّهُ ما قد يَظْهَرُ لَهُ مِنْ خِلافِ ذلك، فهو يَنظُـرُ إلى عَواقِـبِ الأمورِ ومَآلاتِهَا..

* * * * *

قال عليه الصلاة والسلام: (اسْتَفْتِ قَلْبَكَ، وَاسْتَفْتِ نَفْسَكَ، الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ، وَالإِثْمُ مَا حَاكَ فِي النَّفْسِ، وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ، وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ وَأَفْتَوْكَ).

هذا الحديث يربي المؤمنين على الرقابة الذاتية، وأن عليهم أن يستحضـروا رقابـة الله عليهم، لا كما يفعل بعض النـاس الذيـن يسـتفتون المشـايخ والعلمـاء، ويقومـون

بالتدليس عليهم بل قد يتجاوزون بذلك إلى الكذب الصريح لتكون الفتوى موافقة لمزاجهم..

وكثيراً ما يحصل هذا للأسف في المعاملات المالية وحقوق الآخرين، وكذلك في حالات الطلاق، فيذكر السائل سؤاله بطريقة مختلفة عما حصل معه، ويُخفي أموراً أخرى، لتكون الفتوى كما يهوى..

وعندما يسمع الشيخُ الكلامَ من الطرف الآخر، يُفاجَأ بأن الأمر مختلف اختلافاً كبيراً عمَّا ذكره له..

وهل يحسب أنه قد نجى إذا أفتاه شيخٌ أو حَكَم له قاضٍ! والنبي عليه الصلاة والسلام بين أن ذلك لا ينجيه عند الله تعالى فقال: (إِنَّمَا أنا بَشَرٌ، وَإِنكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِليَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَأَقْضِي نَحْو مَا أَسْمعُ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ أَخيهِ شَيْئاً، فَلا يَأْخُذْهُ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطعَةً مِنَ النَّارِ).

* * * * *

ينبغي أن يكون الحذَرُ مضاعفاً عند بداية الانحراف، حتى وإن كانت بدايته يسيرة،

فالمنحرفون الغارقون في الفساد والوالغون فيه، كانت بدايتهم خطوة يسيرة في الاتجاه الخاطئ وكان انحرافهم يسيراً في أول الأمر..

ثم لا يزال انحرافهم يزداد، وتتسع الفجوة بينهم وبين الحق، ولا يشعرون بخطر ذلك؛ لأن هذا التحول قد حصل بتدرج هادئ، وأغلب الناس لا يشعرون إلا بالخطر المفاجئ، أما ما يتسلل إليهم بهدوء فلا يدركون خطره.

ولو تأمَّلَ المنحرفون عند أول خطوة في عاقبة أمرهم، وعرفوا ما يمكن أن يصل إليه حالهم، لأبعدوا أنفسهم عما فيه هلاكهم.

* * * * *

ماذا يستفيد من أصلح ظاهره وترك باطنه فاسداً، والله يعلمُ فسادَ باطنِه..

* * * * *

ليس الشأن أن يُظْهِرَ أحدٌ التواضعَ أمام مَنْ يمدحه أو عند مَنْ يعرفه.

ولكن الشأن أن يكون هادئاً متزناً ولا تأخذه الحمية عندما يجد مَنْ يريد الانتقاص منه والتقليل من شأنه..

* * * * *

بعض الناس يظنون أن التشجيع هو للأطفال، ولا يعلمون أن كل إنسان مهما بلغ من المنزلة أو السن يحتاج إلى من يهتم به ويؤيده ويشجعه..

ولا شك أن طريقة التشجيع والاهتمام ليست واحدة للصغار والكبار، فلكل حالة ما يناسبها..

* * * * *

عِزَّتُنَا بَعدَ الثَّورة على الطُّغيَان، تُنْسِينَا ما وَجَدْنَا مِنْ آلام..

* * * * *

إذا أردت معرفةَ الحقِّ، فجَرِّد قلبَك في بحثك عنه، عن كل ما سوى الله، فلا يكون قلبُك ملتفتاً إلا إلى الخالق عزَّ وجلَّ.

* * * * *

يتَّهم الآخرين في نيَّاتهم وكأنه سيُحَاسَب عنهم، ولا يتهم نفسَه وكأنه لن يُحَاسَب عنها!

* * * * *

تُعجَبُ به حين تعرفه من بعيد، ولكنك حين الاقتراب منه تُفَاجَأ بما لم يخطر على بالك وتتغير نظرتك له..

فليس كل من أعجبك من بعيد يعجبك حين تقترب منه..

ولكن العظيم حقاً هو مَنْ تزداد به إعجاباً كلما اقتربت منه أكثر.

ولهذا وصفت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أخلاق النبي عليه الصلاة والسلام، وهي تعرفه عن قُرْبٍ، فقالت: (كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ).

* * * * *

النجاح في الحياة هو مزيج من النجاح العلمي والاجتماعي والروحي..

فمَنْ يقتصر على أحد هذه الجوانب ويهمل الأخرى، يبتعد عن النجاح بقدر ذلك الإهمال..

فمن كان مبدعاً في العلم ولكنه مخفقٌ في النجاح الاجتماعي، سيكون نفع علمه محدوداً وقاصراً.

وكذلك من كان مهتماً بالعلم ومهملاً للجانب الروحي ستكون حياته جافة ولا روح فيها..

ومن اهتم بالجانب الروحي أو الاجتماعي وأهمل الجانب العلمي يقع في كثير من الأخطاء والانحرافات..

* * * * *

الذي ينظر إلى واقع المسلمين نظرة لا يستحضر فيها أن الله هو الذي ينصر هذا الدين، يصاب بالإحباط واليأس..

فالتفاؤل منبعه: الإيمان بالله تعالى، وليس الاقتصار على الحسابات المادية..

* * * * *

إنَّ محبةَ اللهِ تعالى هي أساسُ الطاعاتِ والقُرُباتِ، وهي روحُ الإيمانِ والأعمالِ الصالحةِ، فهي أشرفُ المراتبِ وأعلاها..

ومتى صَدَقَ العبدُ في حبِّه لله تعالى، استعذَبَ كلَّ ما يُرْضِي اللهَ، وأحبَّ ما يحبُّهُ اللهُ، وأحسنَ الظنَّ بِهِ سبحانه، ورَضِيَ بقضائِهِ وقدَرِهِ.

فالمؤمنُ يعبدُ اللهَ حباً لله، ورجاءً لَهُ، وخشيةً من عقابه، واستشعارُ المؤمنِ لمحبةِ اللهِ تعالى في عبادته له أبلغُ في نفسِهِ مِنْ عبادةِ اللهِ بالخوفِ وحدَهُ، أو بالرجاءِ وحدَهُ، أو بهما فقط؛ لأنَّ الخوفَ يزول إذا غلبتِ النجاةُ على ظنِّ الإنسان، وكذلِكَ الرجاءُ لا يبقى له أثرٌ إذا غَلَبَ على ظنِّهِ أنه سيحصُلُ على ما يريد.

أمَّا الذي يَجمَعُ إلى الرجاءِ والخوفِ: محبةَ اللهِ تعالى، فهذا يَزِيدُ في عِبَادَتِهِ وتَقَرُّبِهِ على كلِّ حال، فلا يمنعُهُ الرجاءُ من الازديادِ من الطاعةِ ولا يتَّكِلُ على رجائِهِ، وكذلك لا يُؤَدِّي بِهِ ذهابُ الخوفِ إلى عِصْيَانِهِ، فهو يعبدُ اللهَ تعالى حباً له وطلباً لمرضاته سبحانه..

* * * * *

هناك أمورٌ كثيرة تعينُ العبدَ على محبَّة الله تعالى، فمِمَّا يُعِينُ على المحبة: المعرفةُ، فمعرفةُ اللهِ هي طريقُ المحبةِ له سبحانه، وذلك بأنْ يَعْرِفَ المؤمنُ اللهَ بأسمائِهِ وصفاتِهِ وأفعالِهِ، فمَنْ عَرَفَ اللهَ أحبَّهُ وأطاعَهُ ومَنْ أطاع الله أكرَمَهُ وقرَّبَهُ..

والقرآنُ هو أفضلُ طريقٍ لمعرفةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، ولِلتذكيرِ بمحبةِ اللهِ لنا، وهو أفضلُ وسيلةٍ لغَرْسِ محبةِ اللهِ في القلب، وذِلكَ لا يكونُ إلا بفهمِ القرآنِ وتدبُّرِه. فالقرآنُ يَزِيدُ المؤمنَ حُباً لله تعالى.

ومما يُعِينُ على معرفةِ الله تعالى: التفكُّرُ في مخلوقاته والاعتبارُ بها، وتَذَكُّرُ نِعَمِ اللهِ الكثيرةِ على عباده التي لا تعد ولا تحصى ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوهَا﴾، وقد جُبِلَتِ القلوبُ على حبِّ مَنْ أحسنَ إليها، ولا يوجدُ مَنْ هو أكثر إحساناً للعبد من الله تعالى.

فكلُّ ما في هذه الدنيا مِنْ محبوباتٍ هو مِنْ إكرامِ اللهِ سبحانه وتعالى.

فكلما ازدادتْ معرفةُ العبدِ بالله زادتْ محبتُه له ولطاعتِهِ، وشَعَرَ بلَذَّةِ العبادة لله سبحانه.

فمحبةُ اللهِ تعالى فرعٌ لمعرفتِهِ، فلا يمكنُ أنْ نُحِبَّ اللهَ عزَّ وجلَّ دون معرفتِهِ، كما لا يمكن أن نعرفه ثم لا نحبُّهُ ونعظِّمُهُ.

* * * * *

لِمَحَبَّةِ اللهِ عزَّ وجلَّ ثمراتٌ عظيمةٌ، يَنْعَمُ بها الـمُحِبُّونَ ويَأنَسُونُ بها، فمِنْ ثمراتِ المحبةِ: السعادةُ والتوفيقُ والقُرْبُ من الله تعالى.

ومِنْ أعظمِ ثمراتِ المحبةِ أنَّ المرءَ مع مَنْ أحبَّ كما في الحديث الشريف.

ومِنْ ثمراتِ المحبةِ العظيمة: ما ذكرَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ في الحديث القدسي: (فَإِذَا أَحبَبتُهُ كُنتُ سَمعَهُ الذِي يَسمَعُ بِهِ، وبَصَرَهُ الذِي يُبصِرُ بِهِ، ويَدَهُ التِي يَبطشُ بِهَا وَرِجلَهُ التِي يَمشِي بِهَا).

ومِنْ ثمراتِ محبةِ اللهِ تعالى: أنْ يَكْتُبَ اللهُ له القبولَ والمحبةَ عنده سبحانه وعندَ عبادِهِ الصالحين، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً﴾ أي محبة، فيُحِبُّهُمُ اللهُ ويُحَبِّبُهُمْ إلى عبادِهِ المؤمنين.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا أَحَبَّ عَبْداً دَعَا جِبْرِيلَ، فَقَالَ: يَا جِبْرِيلُ إِنِّي أُحِبُّ فُلَاناً فَأَحِبَّهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَاناً فأحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ، وَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا أَبْغَضَ عَبْداً دَعَا جِبْرِيلَ، فَقَالَ: يَا جِبْرِيلُ، إِنِّي أُبْغِضُ فُلَاناً فَأَبْغِضْهُ، فَيُبْغِضُهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللهَ يُبْغِضُ فُلَاناً فَأَبْغِضُوهُ، فَيُبْغِضُهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ تُوضَعُ لَهُ الْبَغْضَاءُ فِي الْأَرْضِ).

* * * * *

إنَّ هناكَ فروقاً كبيرةً شاسعةً بينَ الحلالِ والحرام، ففي الحلالِ: طُمَأنِينَةٌ للنفسِ وراحةٌ لها، وفي الحرامِ: شقاءٌ للنفس وعَنَتٌ ومشقةٌ لها..

وفي الحلال: البركةُ والخيرُ والنماء، وفي الحرام: محقُ الخيرِ وانعدامُ البركة والشقاء..

والحلالُ يستفيدُ الإنسانُ منه ولا يَخشى من العقاب عليه، أما في الحرام فتَذْهَبُ المتعةُ وتَبقَى الحسرةُ والندامةُ واستحقاقُ العقابِ عليه.

ففي الحلالِ تترتَّبُ على الفعلِ: الآثارُ الحميدة، أما في الحرام: فلا يترتَّبُ أمرٌ محمودٌ عليه وإنما تترتَّبُ المفاسدُ والآثام..

* * * * *

إنَّ المؤمنَ الذي يرضى باللهِ وبدينِهِ يصبح هواه تَبَعاً لما جاء به الإسلام، ويستقذرُ المعاصي كما يستقذرُ الإنسانُ القاذورات..

فلا يتعلقُ قلبُهُ بمحرم بل يبتعدُ عن المحرمات ويفرُّ منها، كما يبتعدُ الإنسانُ عن طعام وشراب فيه سُمٌّ قاتل، فمَنْ وجد طعاماً مسموماً لَنْ تَمِيلَ نفسُهُ إليه مهما كانَ شهياً..

ومن وجد حيواناً جميلَ الخِلْقَةِ والشَّكْلِ ولكنه مفترسٌ متوحشٌ، فلن يلتفت إلى جماله بل سيفرُّ منه ويبتعدُ عنه.. فهكذا المؤمن يبتعد عن المعاصي لأنه يعلم أن وراء المتعة المحرمة ألماً كبيراً وحسرةً عظيمة..

* * * * *

أهلُ الفسوقِ والعِصَيانِ يَنظرونَ إلى التكليفِ بعينِ المشقةِ والألم، ويَغْفُلُونَ عن العواقبِ السيئةِ والآثارِ المدمِّرةِ لارتكابِ المحرمات، فتصبحُ الطاعةُ عسيرةً عليهم..

وأمَّا أهلُ الإيمانِ واليقينِ فإنهم ينظرونَ إلى التكليف بعينِ احتسابِ الأجرِ وامتثالِ أمرِ اللهِ، لينالوا بذلك رضوانَ اللهِ فتصبحُ هذه المَكَارهُ أحبَّ إليهم من الشهواتِ المحرمة، ويَجِدُونَ فيها الراحةَ والسعادةَ والنعيم..

* * * * *

إذا أردت أن تنجز عملاً يسيراً، فقادك ذلك إلى جهد كبير في التحضير لذلك العمل اليسير..

فلا تستكثر هذا الجهد؛ لأنك بذلك لم تقتصر على إنجاز ذلك العمل فقط، بل فتحت لنفسك آفاقاً كثيرة، وأضفت إلى نفسك الكثير من العلم والفهم والخبرة..

* * * * *

إذا اعتبر كل إنسان أنَّ الخِطَابَ مُوَجَّه إلى غيره، فكيف سيستفيد الناس مما يسمعون أو يقرؤون..

* * * * *

يبخل بما لا يَضُرُّه ولا يُنْقِصُ مِنْ عنده شيئاً، فهناك من يبخل بالابتسامة والكلمة الطيبة، وهناك من يمتنع عن المساعدة اليسيرة للآخرين التي لا تأخذ من وقته ولا من جهده شيئاً ولكنها توفر على الآخر تعباً كثيراً..

وهناك من يبخل بإفادة غيره أمراً يهمه ويحتاج إليه..

وهناك من تضيق عينه ونفسه بما عند الآخرين من خير..

فهؤلاء يعبِّرون عن مدى لؤمهم وشحِّهم وضيق صدورهم..

* * * * *

الدنيا فيها صفو وفيها كدر، والعجيب أن بعضهم يحب أن يكون هو مصدر الكدر فيها..

* * * * *

عندما يذكِّرُك الشيطان بإساءة حصلت من بعض الأحباب، ليوغرَ صدرَك، ويفسد المحبة بينك وبينه، ذكِّره أنت بإحسانات كثيرة فعلها ذلك الشخص، فتذهب هذه الإساءة اليسيرة وتضيع ولا يبقى لها أثر بين الحسنات الكثيرة..

وبهذا تُعَامِلُ الشيطانَ بنقيض قصده، وتُفسِدُ عليه خِطَطَهُ وساوسَهُ..

* * * * *

إياك أن تتحسر على مَنْ تركك لاختلاف يسير بينك وبينه؛ لأنه لو كان عنده ذرة وفاء وصدق في المحبة لما فعل ذلك، فاحمد الله أنه خرج من حياتك..

* * * * *

أقوى سُلْطة: هي سُلْطة المحبة، فهي من دافعٍ نفسيٍّ ورغبةٍ شخصية، حتى لو لم يكن للمحبوب قوة وقدرة على المحب.

أما غيرها من السلطات فيمكن للإنسان أن يخرج عليها ويخالفها.

فالذي يريد أن يفرض محبته واحترامه على الآخرين بالعنف والإكراه، قد يتوهم أنه نجح في ذلك، لكن سرعان ما يزول هذا الوهم وتظهر الأمور على حقيقتها..

* * * * *

يشكو همومه إلى غيره وهو متضجر يائس، فيتمنى الآخر أن تكون عنده هذه النعمة مع ذلك الهم الذي نتج عنها..

فقد تكون الهموم دليلاً على كثرة النِّعَم عند الإنسان، فهناك هموم لا تأتي إلا من خلال النِّعَم العظيمة..

* * * * *

إنجازات الآخرين لا تقاس دائماً بمقاييس ظاهرة ومحسوسة وملموسة، فهناك من يعملون في أمور ليست ظاهرة للآخرين أو على الأقل ليست ظاهرة لك..

وقد يكونون أكثر إنجازاً وعطاء من غيرهم بكثير..

* * * * *

الذي يعرف نفسه يعلم أنه أحوج الناس إلى رحمة الله، فلا ينظر بازدراء إلى غيره..

أما من يحسب أنه قد وصل إلى أرفع المراتب، وأن الآخرين فقط هم المحتاجون إلى رحمة الله..

فهذا عليه أن يعلم أنه بمجرد هذا الاعتقاد قد ارتكب ذنباً عظيماً وإثما كبيراً، عليه أن يسارع بالتوبة منه إلى الله تعالى..

* * * * *

مَنْ أخذَ برأي الناس في الناس، لم يَبقَ له أحدٌ منهم!

* * * * *

الصراخ على قدر الألم..

والغيرة على قدر المحبة..

والصخب والضجيج على قدر الضعف والفراغ..

والهدوء والسكينة على قدر القوَّة والعمق..

والطموح على قدر الهمة..

والحكمة على قدر الاستفادة من التجارب ومن الآخرين..

والسعادة على قدر الإحسان.

* * * * *

هكذا شأن الظُلَّام، يستنكرون في الإعلام، ويدعمون في الظَلام، ويعيشون في الأوهام، ويجنون الحسرة في الختام..

* * * * *

خذها قاعدة: أكثر الأمور التي تستحق أن تُنشَر، لم يكتب عليها صاحبها: انشر تؤجر!

والعجيب أن البعض لا يتذكر أن نشر الفائدة فيه أجر، إلا إذا كتب من يذكرها: انشر تؤجر!!

فينشرها مهما كانت ضعيفة، بل قد تكون مشتملة على أخطاء كثيرة، وأحاديث موضوعة..

* * * * *

كم من شخص قاسٍ في الظاهر، ولكن قسوته تُخْفِي وراءها حباً وحرصاً واهتماماً..

وكم من شخص لطيف في الظاهر، ولكنه يخفي وراء ذلك: الإساءة والغدر والخيانة..

فالعاقل لا يغتر بمظاهر الناس، وإنما ينظر إلى أفعالهم وتصرفاتهم..

* * * * *

ينتظر من الآخرين أن يعتبروه عملاقاً، وهو يراهم أقزاماً..

إن من ينظر إلى غيره باحتقار يكون هو أول مَنْ يُحتَقَر..

* * * * *

ستظل لا أهمية ولا قيمة لك عند بعض الناس..

ستظل عندهم صغيراً وإن بلغت ما بلغت..

ستظل متَّهماً في نيتك وقصدك..

ستظل منحرفاً وضالاً عند آخرين..

لا عليك من كل ذلك.. اعمل وتوكل على الله..

وفي نهاية المطاف: ﴿وَالعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾..

﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾..
فإياك أن تُستَفز وتدخل في معارك جانبية للدفاع عن نفسك،
فلو لم يحظَ الآخر إلا بذلك لكفاه وسعد به..

* * * * *

كثير من الناس عندما ينافس غيره، ثم لا يستطيع أن يكون مثله أو أفضل منه، يحسده ويحقد عليه..
أما إذا صار مثله أو سبقه تراه يتوانى عن الازدياد والتطور، لأنه حقق غايته، والتي قد تكون غاية يسيرة..
فالأفضل أن لا يقارن الإنسان نفسه بغيره، بل يقارن نفسه بنفسه، فينظر كيف هو اليوم وكيف ينبغي أن يكون في الغد، ويحرص على أن يكون في المستقبل أفضل منه في الحاضر..
فهو بذلك لا يحقد على غيره ولا يتوقف عند حد معين..

* * * * *

أعطاه الله من الذكاء والعلم الشيء الكثير، فتاه وأعجب بما عنده، وافتخر على أقرانه بل وعلى مَنْ علمه ودرسه وكان له فضل عليه، فحرمه الله من الازدياد من العلم والفهم ووقف في مكانه حتى سبقه من كان دونه بكثير!
وكأنَّ الله يمنع الفضلَ والخيرَ عن الذي لا يشكر نعمة ربه بما أتاه من عقل وعلم وعمل: بالتواضع.
وهل من شكر هذه النِّعَم أن يتخذها مطية لازدراء الآخرين والتقليل من شأنهم..

* * * * *

أناس لا تعرفهم إلا من أيام يسيرة، تشعر كأنك تحبهم وتعرفهم من سنوات طويلة..

وآخرون تعرفهم من سنوات طويلة ولكنك تشعر بالغربة معهم والنفور منهم..

قد لا يكون هناك سبب ظاهر في ذلك، لكن لا شك أن هناك أسباباً خفية، فليس هناك ما يجري عبثاً ومصادفة في هذا الكون..

والأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف..

* * * * *

لا ينبغي أن يتعلل أحد بقلة الإمكانيات وضعفها، فهناك من قاموا بأعمال عظيمة تحسب أن وراءهم إمكانيات كبيرة.

ثم تُفَاجَأ بأن من قام بذلك: هم عدد يسير جداً، وإمكانياتهم ضعيفة..

لكنهم تميزوا عن غيرهم بأنهم يملكون الهمة والإرادة والاستمرار في العمل.

* * * * *

الطغاة وإن أظهروا محبتهم لمن يداهن لهم، لا يحملون في قلوبهم إلا الاحتقار لهم والشعور بأنهم مستعبدون لهم، فهم لا يحبونهم إلا لأنهم يداهنونهم..

ولو تركوا هذه الصفة وتغير اتجاههم لانقلبت هذه المحبة الزائفة عداوةً ظاهرةً..

وعندما يظهر الطغاة كراهتهم وعداوتهم للصادقين المصلحين، يعلمون في أنفسهم أنهم أصحاب مبادئ، وأنهم أشرف من أن يكونوا عبيداً لهم، فهم يحترمونهم في أنفسهم وإن ناصبوهم العداء..

* * * * *

لو كان الأمر بالتمني لكان أقلُّنا همةً وعملاً هو أكثرَنَا علماً وفضلاً..

فما كل من تمنى الخير والفضل سعى فيه وناله،

إذا لم يكن الإنسان عاشقاً لهدفه، يستغرق فيه غالب يومه، فلا ينتظر من نفسه أن يكون كما يتمنى..

وكم هو مؤسف أن يجد الإنسان نفسه بعد عشرة أعوام أو أكثر كما كان قبلها..

* * * * *

ما أحوجَك في بحر الحياة، أن تركب في سفينة النجاة، فإذا عصفتْ بك أمواج المصائب والهموم، جعلتها هادئة مستقرة بالقرب من الله..

* * * * *

الذي يحاول أن يظهر للناس أنه أذكى مما هو عليه، يبدو أغبى مما هو عليه..

والذي يتشبع بما لم (يعطَ)، سرعان ما يُعرَف أمرُه، وتذهب الثقة حتى بما قد (أُعطِي)..

* * * * *

ينتظر من العلماء أن يتكلموا ويكون لهم موقف، فهو لهذا متوقف عن العمل، وهو في المقابل يترك الأمور التي يعلمها ولا يوجد خلاف على مشروعيتها!

فهل هذا ينتظر موقفاً من العلماء أم أنه يتخذ مبرراً لتقصيره..

* * * * *

كيف تعرف أنك مخلص؟

الإخلاص من أعمال القلب فهو أمر باطن خفيٌّ، ولهذا لا يستطيع الإنسان بسهولة ويسر أن يجزم بأنه مخلص، فما أكثرَ الحيل والتبريرات النفسية التي يوهم الإنسان نفسه من خلالها أنه على خير، وقد يكون على غير ذلك، غير أن هناك علامات تدل غالباً على الإخلاص..

ومن هذه العلامات:

ـ أن يتقبل النقد بصدر رحب؛ لأن غايته الوصول إلى الحق، وليس الدوران حول ذاته.

ـ أن لا يغضب إذا لم تنسب الفائدة إليه، فهو لا يذكر الفائدة لتنسب إليه وإنما يذكرها ليستفيد الآخرون منها وهو يبتغي بذلك مرضاة الله.

ـ أن يفرح بنجاح غيره وأعماله النافعة، ولا يكون همه أن يكون هو صاحب ذلك الفضل.

ـ أن لا يكون همه التصدر في المجالس والتفاف الناس حوله، ويغضب إذا لم يقدموه ويجعلوه هو المتحدث فيهم.

ـ أن لا يكون مولعاً بحب الألقاب العلمية، ويغضب إذا لم يُذْكر بها.

ـ أن لا يحتقر أعمال الآخرين، فلا يحسب في نفسه أن عمله أفضل من أعمال غيره، وأن أعمال غيره لا تساوي شيئاً أمام عمله..

ـ أن لا يظن أنه هو المقياس للحقيقة، وأن من خالفه بعيد عن الحق والصواب بقدر ابتعاده عنه..

* * * * *

لا تكاد تجد حاقداً يعترف في نفسه أو عند غيره أنه حاقد، وإنما يلبس حقده بلبوس آخر حتى يعيش في سلام مع نفسه ولا يعذِّب ضميره بذلك..

فتراه يتهم من يحقد عليه باتهامات تبرر له هذه العداوة والبغضاء..

ويكفي الحاقد ضلالة وإساءة لنفسه أنه غير راضٍ عن الله في حُكْمِه وتدبيره..

وأنه أهلك نفسه وأشقاها بنيران هذا الحقد..

وأنه أصبح مكروهاً ممن حوله..

فنارُ الحقدِ لا يَخفى دخانُها على الناظرين.

* * * * *

العاقل لا يغتر بمدح الناس له وإعجابهم به؛ لأنه يعلـم تفاصـيلَ عيوبِـه الـتي لا يعلمون عنها شيئاً..

ولأنه لا يترك يقينَ ما عندَهُ لظنِّ ما عند الناس..

ولأنه يعلم مدى تقصيره وتفريطه..

ولأنه لا يدري بمَ يُختَم له..

ولأنه يعلم أنهم إنما أُعجبوا بجميلِ سترِ الله عليه..

أو أنهم مدحوا مواهبَ اللهِ عليه، فيعلم أن الفضل لله وحده.

* * * * *

قال أحد الغربيين: (الخوف من الموت يزيد بنسبة مساوية لزيادة الثروة).

وأقول: الخوف من الموت ينقص بنسبة مساوية لزيادة العمل الصالح والتقـرب إلى الله تعالى.

* * * * *

كلما ارتفع الإنسان أكـثر أصـبح صـغيراً في عـين نفســه وإن كان كبـيراً بعيـون الآخرين، لأنه عندما يرتفع يقترب من الله، وعندما يقترب من الله العظيم يعلم كـم هو صغير أمام عظمة الله، فلهذا كان أرفع الناس هم أكثرهم تواضعاً..

(الفكرة مستفادة من د. طارق الحبيب)

* * * * *

طلب العلم الشرعي مثل التجارة عالية المخاطر، فإما أن تكون أرباحهـا عاليـة، وإما أن تكون خسائرها كبيرة..

فمن كان صادقاً مخلصاً لله كانت له أعلى الدرجات عند الله تعالى، ومن كان مرائياً مسمِّعاً منافقاً كان مِنْ أول مَنْ تسعر بهم النار والعياذ بالله..

* * * * *

إذا رأيتَ (انخفاضاً) في جانب من الجوانب عمَّا كان عليه، فكنْ واثقاً بأنَّ هناك (ارتفاعاً) ينتظرك بإذن الله تعالى!

فكثيرٌ من الارتفاعات لم تحصل إلا بعد انخفاضات سبقتها..

وكثيرٌ من الفضائل لم تأتِ إلا بعد تدافع بينها وبين غيرها من أعدائها ونقائضها..

فكَمْ ممَّن فاتَهُ أمرٌ وندم على فواتِه: عوَّضَهُ اللهُ من فضلِه، ما جعلَهُ يحمد الله على عظيمِ لُطْفِه..

* * * * *

من حسن الظن بالآخر عندما لا يبدؤك هو بالسلام: أن تقول في نفسك لعله يريد أن أكون أفضل منه بابتدائي بالسلام عليه، ولا يريد أن يسبقني هو بهذا الفضل!

* * * * *

مهما حسبت أنك أصبحت ذا خبرة في الحياة، ومعرفة بالناس وفراسة فيهم، فإنك ستظل مستفيداً ومتعلماً من الحياة دروساً كثيرة..

فما أكثرَ المظاهرَ الخادعةَ فيها، وما أكثر الحقائق الغامضة، وما أكثر الأسماء الخالية من مضامينها، بل وما أكثر ما يُسمَّى الشيء باسم نقيضه!

* * * * *

من اللؤم أن لا يكف الإنسان شره إلا عمن يخاف من شره، فإذا أمن من أحد أنه لن يسيء إليه قام هو بالإساءة إليه..

وهكذا يرضى لنفسه أن يكون ذليلاً أمام من يهينه ومستكبراً أمام من يحترمه!

عافانا الله جميعاً من هذه الرذائل المهلكة..

* * * * *

أين نحن من أخلاق المهاجرين والأنصـار، فالأنصـار آووا المهـاجرين وقاسـموهم الديار والأموال، والمهاجرون قابلوا ذلك بالعفة والوفاء..

قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: (إِنَّمَا مَثَلُنَا وَمَثَلُ الأَنْصَارِ كَمَا قَالَ الْغَنَـوِيُّ لِبَنِي جَعْفَرٍ:

جَزَى اللهُ عَنَّا جَعْفَراً حِينَ أَشْرَفَتْ... بِنَا نَعْلُنَا فِي الْوَاطِئِينَ فَزَلَّتِ

أَبَوْا أَنْ يَمَلُّونَا وَلَوْ أَنَّ أُمَّنَا... تُلاقِي الَّذِي يَلْقَونَ مِنَّا لَمَلَّتِ

هُمُو خَلَطُونَا بِالنُّفُوسِ وَأَلْجَؤُوا... إِلَى حُجُرَاتٍ أَدْفَأَتْ وَأَظَلَّتِ)

شتان بين هذه الأخلاق العالية وبين مـن يتعامـل مـع إخوانـه المسـلمين بنظـرة يملؤها الحقد والحسد وضيق الصدر.. ولا يترك تهمة إلا وينسبها إليهم!

فهل من يفعلون ذلك جادون في الاعتزاز بالإسلام والعمل بأحكامه وتعاليمـه؟ أم أنهم يريدون إسلاماً يتناسب مع قاماتهم الصغيرة!

* * * * *

الكثير يضيق صدره عند وجود أي إسـاءة له، فـتراه يسـارع في الانتصـار لنفسـه ويبالغ في الدفاع عنها، لأنه يتوهم أن في ذلك تحطيماً له وتقليلاً من قيمته.

ولكن الذي يعلم أن الإساءة إليه لا تضره ولا تنقص من قيمته، وإنما تضر الذي أساء وظلم وتجاوز حدوده، ويعلم أنه مسؤول عـن تصـرفاته ولـيس عـن تصـرفات الآخرين، ويعلم أن الله سبحانه وعد بالأجر العظيم للكاظمـين الغـيظ والعـافين عـن الناس والله يحب المحسنين..

فهذا لن تكون نفسُه مضطربة متقلبة يعبث بهـا مـن يشـاء! وإنمـا تـراه هادئـاً مطمئناً يعيش في سلام مع نفسه ومع مَنْ حوله..

* * * * *

إذا كان عملك لله فلن يضرك ذمُّ الذامين، وإذا كان لغير الله فلـن ينفعـك مـدحُ المادحين..

* * * * *

لا تجعل في نفسك غِلاً على أحد، فإن لم تستطع فإياك أن تزيـد ذلـك بـأن تتخـذ الكتابة وسيلة لإسقاطه والانتقاص منه وتصيد عثراته..

وذلك حتى لا تتحول الكتابة عندك من عمـل شريـف إلى مهنـة وضـيعة، ومـن عمل ترجو نفعه وأجره عند الله إلى ذنب تخشى من ضرره وسوء عاقبته..

* * * * *

عندما تقرأ في سيرة أحد العظماء تتعجـب مـن كـثرة النجاحـات الـتي حققهـا، والأعمال التي أنجزها..

لكن حتى لا تقع في الإحباط عندما تقيس واقعك على واقعه، لا بد أن تتذكر أن ما يُذكر في سيرته هو خلاصة ما توصل إليه من نجاحات، وليس معنى ذلك أنه لـم يمـر بتجارب لم تكن ناجحة، أو أنه لم يواجه صعوبات كثيرة قبل أن يصل إلى ما يريد..

أو أنه حقَّقَ كل ما يريده ويرجو الوصول إليـه، فكـم هي الأمـور الـتي كان يريـد تحقيقها ولم يستطع..

يسعى الفتى لأمورٍ ليسَ يُدْرِكُهَا ... فالنفسُ واحدةٌ والهمُّ منتشرُ

فهذه أمور لا بد منها لكل ناجح..

فمن وجدها فليواصل طريقه ويعلم أنه ما يزال في الطريق إلى هدفه..

* * * * *

هكذا هي الدنيا أخذ وعطاء، عسر ويسر، فقر وغنى، حزن وفرح..

فالسعيد مَنْ كان بالعطاءِ أسعد منه بالأخذ..

والسعيد من لم يكسره الفقر ولم يطغه الغنى، ومن لم ييأس في العسر ولم ينسَ غيره في اليسر..

* * * * *

إذا أردت تغيير العالم فابدأ بتغيير نفسك، فكيف لمن يعجز عن تغيير نفسه نحو الأفضل أن يغير العالم!

قال الشيخ جلال الدين الرومي رحمه الله: (كنت بالأمس رجلا ذكياً يحاول تغيير العالم؛ أما اليوم فأنا رجل حكيم يحاول تغيير نفسه).

فإذا غير كل إنسان نفسه تغير العالم.. لأن المجتمع عبارة عن أفراد..

ولأن الإنسان إذا غيَّرَ نفسَهُ اقتنع الآخرون بصحة ما يدعو إليه، فصار قدوةً صالحة لغيره، والناس يتعلمون بالقدوة والمثال الحي أكثر مما يتعلمون بالكلام وحده.

* * * * *

بعضهم لا يعترف بفضل الآخر إلا إذا كان متقدماً، أو من طبقة شيوخه وأساتذته، أو إذا رحل من الدنيا..

مع أن الإنصاف يقتضي أن لا يضع في الاعتبار إلا ما كان مؤثراً في الحكم عليه، كمدى كفاءته وعلمه وعمله..

* * * * *

إذا حسب في نفسه أنه ذو فضل، فيخشى أن يكون مفتخراً ومعجباً بنفسه!

وإذا اعتبر أنه ليس ذا فضل، فيخشى أن يكون منكراً لنعمة الله عليه!

فما هو الحل؟

الحل أن يعرف أنه ليس ذا فضل، ولكنَّ فضل الله عليه عظيم، فهو يشهد الفضل من الله تعالى أوّلاً وآخراً..

ولهذا قال الله تعالى عن نبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿وكانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً﴾، فما كان عند النبي عليه الصلاة والسلام من فضل هو من فضل الله عليه، فكيف بغير النبي صلى الله عليه وسلم.

وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾، فأضاف النعمة إلى الرب، وكذلك في قوله سبحانه: ﴿ومَا بِكُمْ مِنْ نعمَةٍ فمِنَ اللهِ﴾..

* * * * *

من يريد النجاح لا بد أن يتذكر أهدافه الكبرى، حتى يعمل لتحقيقها..

ومن يستحضر أهدافه الكبيرة، لا يبالي بهمومه الصغيرة ولا يلقي لها بالاً..

أما من يغفل عن أهدافه الكبرى فكثيراً ما يدخل في أمور قليلة الأهمية والجدوى، ويضيع وقته في بُنَيَّات الطريق، وتطغى عليه هموم آنية وقتية، ما كان ينبغي له أن يعطيها هذا الاهتمام..

فلا بد من الخروج من اللحظة الحاضرة ومَدِّ النظر إلى سنوات وعقود، حتى يراقب مساره، هل هو في الاتجاه الصحيح أم هو ينحرف عن هذا الاتجاه شيئاً فشيئاً؟!

* * * * *

(الساكت عن الحق شيطان أخرس) لا تصح نسبته إلى النبي عليه الصلاة والسلام، وليس له أصل عنه.

وهناك قول لأحد الحكماء: (الناصح المتكلم بالباطل شيطان ناطق، والساكت عن الحق شيطان أخرس).

وفي الرسالة القشيرية: قال أبو علي الدقاق: (من سكت عن الحق، فهو شيطان أخرس).

* * * * *

يا رب.. إن الكرام إذا استضافوا أحداً وأطعموه، كانت استضافتهم أماناً له، وأنت يا خالقي أولى بذا كرماً..

فما جلست إلا في أرضك وملكك، وما أكلت وما شربت إلا من رزقك، وما تنفست وما عشت إلا بعطائك وكرمك..

فارحمني اللّٰهُمَّ برحمتك التي وسعت كل شيء يا الله..

* * * * *

المؤمن الذي يرضى بالله وبدينه يصبح هواه تبعاً لما جاء به الإسلام، ويستقذر المعاصي كما يستقذر الإنسان القاذورات..

فلا يتعلق قلبه بمحرم بل يبتعد عن المحرمات ويفر منها، كما يبتعد الإنسان عن طعام وشراب فيه سم قاتل، فمن وجد طعاماً مسموماً لن تميل نفسه إليه مهما كان شهياً..

ومن وجد حيواناً جميل الخلقة والشكل ولكنه مفترس فلن يلتفت إلى جماله بل سيفر منه ويبتعد عنه..

فهكذا المؤمن يبتعد عن المعاصي لأنه يعلم أن وراء المتعة المحرمة ألماً كبيراً وحسرة عظيمة..

* * * * *

سوء الظن لا يدل على ذكاء، ولكنه يدل على قلب أسود وأعمال سيئة..

كما قيل:

إذا ساءَ فعلُ المرءِ ساءتْ ظنونُه ... وصدَّقَ ما يعتادُه مِن توهُّمِ

والذي يُحسن الظن لا يَنقصه الذكاء، ولكن يزينه سلامة الصدر والصفاء..

وحسن الظن لا ينافي الحذر والاحتياط.

* * * * *

التاجر الذي يغش ويكذب قد يربح (في الظاهر) شيئاً يسيراً بغشه وكذبه، ولكنه سيخسر أضعاف ذلك؛ لأن الناس لم تعد تثق به.

والتاجر الصادق الأمين قد يخسر (في الظاهر) شيئاً يسيراً، ولكنه سيربح أضعاف ذلك بسبب ثقة الناس به.. وهذا من عاجل البشرى له..

فالصدق والأمانة مكسب في الدنيا قبل أن يكون مكسباً في الآخرة..

* * * * *

الكَرَمُ في النفْس وليس في الجيب..

فكم مِن فقيرِ الجيب كريم النفْس، وكم من غني الجيب فقير النفس.

* * * * *

رَحِمَ الله زوجة سمعت من زوجها كلاماً لا يهمُّها ولا يَعنيها فأظهرت الاهتمام بكلامه،

ورَحِم الله زوجاً سمع من زوجته كلاماً لا يهمه فأنصت وأظهر الاهتمام بكلامها.

* * * * *

الأُخُوَّة الحقيقية هي التي يكون بها شدُّ الأزر، والإشراكُ في الأمر.

﴿هَارُونَ أَخِي. اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي. وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾.

* * * * *

اعترافُك بفضل الآخرين يدلُّ على فضلك قبل أنْ يدلَّ على فضلهم.

* * * * *

رداء الادعاء

يبقى الإنسان مستوراً ما لم يرتدِ رداء الادعاء..

فإذا ارتدى رداء الادعاء ظهر على حقيقته..

وما كان للباس الزُّور أنْ يبقى أو يدوم.

* * * * *

كلماتك عنوان لقلبك وعقلك

الكلمةُ هي انعكاسٌ لما في العقل والقلب، ولهذا يرتقي بالكلمة أشخاص ويسقط آخرون، فهي ليست مجرد كلمة، وإنما هي تعكس ما وراءها من الإيمان أو الكفر، من المحبة أو البغض، من البر والوفاء أو العقوق والجفاء..

فكلمةُ التوحيدِ (لا إله إلا الله) يدخل بها المسلمون الجنة؛ لأنها تعبِّر عن إيمانهم بالله وتوحيدهم له.

وقد كفر الذين قالوا: إن الله ثالث ثلاثة، والذين قالوا: إن الله فقير ونحن أغنياء.

وعندما قال المشركون لأبي بكر الصديق رضي الله عنه: يَا أَبَا بكر هَل لَك فِي صَاحبك يخبر أنه أَتَى فِي ليلته هَذِه مسيرَة شهر ثمَّ رَجَعَ فِي ليلته!

فَقَالَ أَبُو بكر: (إِن كَانَ قَالَه فقد صدق، وَإِنَّا لنصدقه فِيمَا هُوَ أبعد من هَذَا نصدقه على خبر السَّمَاء).

فهذه الكلمة التي قالها أبو بكر رضي الله عنه تعكس مدى إيمانه وتصديقه، وقد رفعته إلى أرفع المنازل.

ولهذا جعل اللهُ تعالى الكلمةَ الطيبةَ كالشجرة الطيبة ذات الأصل الثابت التي تُؤتي ثمارَها كل حين، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ. تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ. وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾.

وأخبر الله تعالى أنه يثبِّت عبادَه المؤمنين بالقول الثابت، فقال: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾.

وقد وعد الله تعالى المؤمن بالأجر العظيم عندما تصيبه المصيبة فيصبر ويقول: (إنا لله وإنا إليه راجعون)، فقال: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ. الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ. أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ المُهْتَدُونَ﴾؛ لأنه يعبِّر بذلك عن إيمانه بالله ورضاه بما قضاه وقدره، ومَنْ رضي فله الرضى، ومن سخط فله السخط.

وعندما قال المؤمنون: (حسبنا الله ونعم الوكيل)، انقلبوا بنعمة من الله وفضل؛ لأنهم عبَّروا بهذه الكلمة عن صدق توكلهم على الله ويقينهم به وبفضله.

ويوسفُ عليه الصلاة والسلام عندما راودته امرأة العزيز عن نفسها قال: ﴿مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾، فكشف بكلمته عن تمام عفَّتِه ووفائه.

وبعد أنْ كاد له إخوته كيداً وأرادوا الإساءة إليه ونجَّاه الله من ذلك وجعلَ كيدَهم لمصلحته، قال لهم وهو في ملكه وقوَّته: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ اليَوْمَ، يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾، فكشف بكلمته عن نقاء معدنه، وسعة صدره، وعَظَمَة أخلاقه.

وبعد أنْ أتمَّ اللهُ تعالى التمكينَ ليوسف في الأرض وآتاه الملك وأقر عينه بأبويه وإخوته قال: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾، فعبر بكلمته عن عظيم شكره لله تعالى.

وعندما قال ذو القرنين الذي مكَّنه الله في الأرض وآتاه من أسباب القوة والتمكين: ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾، كشف بكلمته أنه لم تغره قوته وقدرته، بل نسب ذو القرنين الفضل إلى الله ابتداء وانتهاء؛

فابتداءً: ﴿قَالَ: مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾، وانتهاءً بعد أن أحكم السد خير إحكام: ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾..

وعندما قال قارون: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾، كشف بكلمته عن غروره واعتداده بنفسه ونسيانه لربه.

وعندما قال الذين يريدون الحياة الدنيا عندما خرج قارون في زينته: ﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾، كشفوا بكلمتهم عن اغترارهم بالدنيا، وعدم اعتبارهم بسنن الله وآياته في خلقه..

وعندما قال الذين أوتوا العلم: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾، كشفوا بكلمتهم عن تذكرهم للآخرة، وعدم اغترارهم بالدنيا.

وعندما قال المشركون: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾، كشفوا بكلمتهم عن حسدهم وبغيهم واعتدائهم على حقِّ الله تعالى، فالله وحده يقسم رحمته وفضله كيف يشاء، فأجابهم الله سبحانه مستنكراً عليهم: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِياً وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

وهكذا هي الكلمات تعبر عمَّا في القلب والعقل.. وكلُّ إناءٍ بما فيه ينضح. فانظر وتأمَّل في كلماتك لِتعرفَ نفسَك ومقامَك!

* * * * *

لو لم يكن للنبي صلى الله عليه وسلم معجزة إلا أخلاقه لكفت في إثبات نبوته..

* * * * *

ليس من المروءة والذوق: مساومة البائع الفقير الذي يكون ربحه محدوداً، وخاصة إذا كان المشتري غنياً موسراً..

* * * * *

أي الأمرين أعجب!

لا أدري أي الأمرين أعجب، ثبات الإمام أحمد رحمه الله تعالى في المحنة؟

أم عفوه عن كل من أساء إليه وضربه وظلمه في المحنة وغيرها..

ذكر صالح ابن الإمام أحمد لأبيه أن الأنماطي أبى أن يجعل من آذاه في حل، فتبسم الإمام أحمد وقال: جعلت من ضربني في حلّ، ما على رجل أن لا يعذب الله أحداً بسببه!

* * * * *

الحاسد يرى ما تغنمه ولا يرى ما تغرمه. مع أن الغُنْم بالغُرْم.

* * * * *

لن تُصلِح حفاوتُه وبشاشتُه في وجهك، إساءتَه إليك من خلفك..

ولن يشفع وقوفه معك عند انتصارك وقوتك، خذلانه لك عند هزيمتك وضعفك.

فالوقوف مع القوي والمنتصر يستوي فيه صاحب المبدأ الشريف وغيره ممن لا يريد إلا منافعه الخاصة،

أما الوقوف مع الضعيف الذي له الحق فذلك لا يكون إلا من الكرام.

ولن يُصلح مالُه ما أفسدته أخلاقه..

فالتوبة والاعتذار من سوء الخُلُق يكون بإحسان الخُلُق..

* * * * *

لماذا لا يستجيبون للنصيحة؟

صحيح أن الذين يتقبلون النصح قليل، ولكن الذين يلتزمون آداب النصيحة هم أقل من ذلك.

فأكثر الناصحين أسلوبهم هو الذي يمنع الآخر من قبول النصيحة.

فقبل أن يشكو أحد ويتباكى على عدم استجابة الآخر لنصحه، عليه أن يسأل نفسه عن طريقته وأسلوبه.

ثم إن هناك أموراً هي من المسائل الخلافية، أو من أمور الحياة العامة التي يسع الناس فيها الاختلاف..

فإن أبديت رأيك في أمر من ذلك فهو بالخيار إن شاء قبله أو رفضه.

ولا يصح أن تنصح أحداً ثم تتهمه بالعناد والاستكبار إن لم يستجب لك..

فقد لا يكون كلامك مقنعاً له، وقد يكون هناك موانع أخرى تمنعه من ذلك.

* * * * *

كيف تنظر لأستاذك؟

لا تنظر إلى أستاذك من المكان الذي صرت إليه، وإنما من المكان كنت فيه..

* * * * *

عندما تجد خطأ

عندما يكون الكسر على الزجاج يسيراً ولا تريد أن تخسر الزجاج كاملاً، تقوم بتحديد موضع الكسر بدائرة حتى لا يتجاوز الكسر ويفسد الزجاج كاملاً؛

وكذلك عندما تجد خطأ يسيراً من غيرك، فما عليك إلا أن تحدد هذا الخطأ بدائرة صغيرة لا تتجاوز حجم الخطأ..

وبهذا لا تسمح لنفسك ولا لغيرك أن يضخم هذا الخطأ ويفسد العلاقة بينك وبينه..

* * * * *

بين الناجحين والفاشلين

الناجحون والأقوياء لا يجدون حرجاً في الاعتراف بفضل غيرهم، وشكرهم..

فهم لا يرون أن ذلك ينقص من قيمتهم، بل إن قيمتهم تزداد بذلك..

أما الفاشلون فهم يرون أن كل اعتراف بفضل الغير هو إقرار بفشلهم..

فإذا رأوا نجاحاً تجاهلوه أو جحدوه..

وإذا رأوا فشلاً أظهروه وضخَّموه.

فهم يتمنون أن يعمَّ الفشل غيرهم حتى لا يكونوا في الفشل وحدهم.

* * * * *

يمدحه بأمر يسير لا يقدم ولا يؤخر، ثم يبالغ في ذمه والانتقاص منه،

ليُظهِر للناس أنه منصف معه وليس متحاملاً ضده..

فما مدحه إلا لتتقبل ذمه!!

* * * * *

قال: وكان من ذوقه ولطفه ولباقته أنه لا يُلجئ الآخرين إلى الكذب.

فسأله: وكيف يُلجئهم إلى الكذب؟

قال: يسألهم في خصوصياتهم أسئلة محرجة ومباشرة، فيضطرهم للكذب عليه!

* * * * *

إني لأعرف عقل الإنسان من عتاباته، فإن كان يعتب على كل صغيرة وكبيرة فأسأل الله أن يعوضه خيراً في عقله.

وأن يعوض مَن يكتوي بنار عتابه خيراً.

وإذا كان لا يعتب إلا في القليل النادر، فهذا قد يلتمس له العذر. إلا أن ترك العتاب في أكثر الأحوال هو الأفضل.

وأما الذي لا يعتب أبداً فهذا يعيش في راحة مع نفسه ويعيش مَن يعرفه في راحة معه.. وهذا في أرفع المراتب وأفضلها.

* * * * *

من المُشاهَد أن سوء الظن يجري من أكثر الناس مجرى الدم..

وهذا يحصل حتى لو لم تضع نفسك في مواضع التُّهَم، فكيف إذا وضعتها!

هناك أمور يمكن أن تفعلها تجنباً لسوء ظن الناس، ولكنَّ هناك أموراً ليست في قدرتك ولا مسؤوليتك.

بل هي في مسؤولية الآخر الذي استمرأ سوء الظن حتى أصبح ذلك متجذراً فيه لا يكاد ينفك منه..

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾.

* * * * *

لن تبلغ المروءة والنُّبل حتى تكون حفاوتك واهتمامك وأخلاقك مع مَن لك مصلحة معه، كأخلاقك مع مَن له مصلحة معك..

* * * * *

ترك الإساءة أسهل بكثير من معالجة آثارها وإزالة نُدُوبها.

* * * * *

من صور العدل أن الذي يسعى لإسعاد الآخرين، يُسعِد نفسَه أولاً، ومن أراد شقاوتهم، بدأ بنفسه فأشقاها..

وأن من كان غضوباً عبوساً، بدأ بنفسه فأهلكها وأتعبها..

ومن كان حليماً واسع الصدر طيب القلب، بدأ بنفسه فأراح باله وعاش في سلام واطمئنان مع نفسه ومع مَنْ حوله..

ومن كان ظنوناً شكاكاً، بدأ بنفسه فأتعبها بالوساوس والشكوك والأوهام..
وهكذا هي الحياة.. فما تفعله مع الآخرين تراه في نفسك، وما تزرعه هو ما ستحصده.

* * * * *

لو كان الحاسد عاقلاً لسعى أن يكون مثل مَنْ يحسده، بدل أنْ يتخذ عداوته غطاءً يغطّي به فشلَه.
فلَيتَه جَعلَ مِن إعجابه به، محفزاً له على سلوك طريقه.
ولكن لما كان ذلك يكلفه الكثير، ويحتاج من صاحبه إلى الهمة والعزيمة، عمد الحاسد إلى ما هو أيسر من ذلك وأسهل..
فراح يسيء إلى محسوده وينتقص منه ويقلل من أهميته،
وتراه يلبس حسده لبوساً شريفاً حتى يعيش في سلام مع نفسه ولا يعاني من تأنيب الضمير..

* * * * *

ما زال الكثير من الناس وللأسف لا يعرفون من الإنسانية شيئاً، فقد سقطت أخلاقهم ومروءتهم في وحل العنصرية،
فتضيق نفوسهم المريضة بأي أحد ليس من جنسيتهم، يستكثرون عليهم ما يأخذونه من حقوق واجبة لهم،
مع أن كثيراً منهم يأخذون أقل مما يستحقون..
وهم عندما يأخذون لا يأخذون ذلك عطية مجانية من أحد أو منحة دون مقابل، وإنما يعملون ويقدِّمون لمصلحة الجميع، فلا فضل لأحد على أحد.
إذا كنتم حقاً لا تحتاجونهم فلماذا تبحثون عنهم، ثم إذا أخذتم منهم ما تريدون ضاقت نفوسكم بما لهم من الحقوق!

* * * * *

قال الله تعالى عن المنافقين: ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾، فالمؤمن يفرح عندما يُنفق ابتغاءَ مرضات الله؛

لأن إيمانه بوعد الله له يجعله يرى وعدَ الله حاضراً أمامه..

ولأنه يعلم أنه هو المستفيد من هذا الإنفاق أضعافاً مضاعفة، فالله غني عنه وعن ماله..

* * * * *

كثير من المسلمين يظن نفسه متوكلاً على الله ولكنه متوكل على أسبابه!

ولو ذهبت أسبابه لما بقي عنده أمل أو رجاء بلطف الله تعالى وفضله..

كيف تعلم أنك متوكل على الله تعالى أم أنك متوكل على الأسباب التي عندك؟

يمكن أن تسأل نفسك هذه الأسئلة: عندما يذهب سبب من الأسباب هل ينقطع عندك الرجاء بالله أم يبقى؟

هل تبحث عن الأسباب غير المشروعة أم تبقى على الأسباب المشروعة؟

هل تتنازل عن شيء من مبادئك في سبيل الحصول على ما تريد أم تحافظ على مبادئك؟

* * * * *

الغني يلوم الفقير على حسده له على غناه.

والفقير يلوم الغني على بخله وعدم مساعدته له.

وفي الغالب لو أنفق الغني كما ينبغي لأزال حسد الفقير..

* * * * *

من أخطر الأمور: أن يمارس المخلوق دور الإله الخالق، فيحكم على مَن يحب بالجنة والرحمة وعلى مَن يكره بالنار وعدم المغفرة.

ولو تدخل مخلوق في حقوق مخلوق مثله لغضب واستنكر ذلك منه، فكيف بمن يتدخل في حقوق الخالق ويوزع الأحكام والمنازل على الناس كما يهوى ويحب!!

عَنْ جُنْدَبٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَدَّثَ أَنَّ رَجُلاً قَالَ: (وَاللهِ لَا يَغْفِرُ اللهُ لِفُلانٍ) وَأَنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ: (مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَني لا أَغْفِرَ لِفُلانٍ فَإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لِفُلانٍ وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ). رواه مسلم.

* * * * *

رحمة الله ولطفه وتدبيره أوسع بكثير من حسابات الناس وتقديراتهم المادية، ورؤيتهم القاصرة..

فهناك من ينظر إلى الأمور ويحللها من جانبها المادي فقط، فيخرج بنتائج لا تسرُّه، ويغفل عن تدبير الله وأن الله يأتي باليسر وأسبابه من حيث لا يحتسب..

* * * * *

لم يكن الإنسان شيئاً مذكورا، فخلقه الله وجعله سميعاً بصيرا،

فكيف لا يكون معترفاً بفضله عابداً له وشكورا..

﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُورا. إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيرا﴾.

* * * * *

ليس أسوأ من الأخطاء أو المعاصي أو قلة الأدب إلا التبرير لهم وإلباسهم اللبوس الشرعي والعلمي.

وليس أسوأ من الجهل إلا ادعاء العلم والمعرفة.

ويبقى الإنسان بخير ما دام معترفاً بأخطائه وقصوره.

فالاعتراف بالخطأ حسنة قد تغطي على تلك السيئة، والتبرير للخطأ سيئة قد تفوق تلك السيئة!

* * * * *

لله در صفاء القلب ما أعدلَه، بدأ بصاحبه فأسعده.

ولله در سواد القلب ما أعدله، بدأ بصاحبه فأهلكه.

* * * * *

عندما تكبر المعصية في نفسك تَصغر معصيتُك عند الله، وتَعظُمُ أنت عنده.

وعندما تَهُون وتَصغر المعصية في نفسك تَكبُرُ معصيتُك عند الله، وتَصغُر أنت عنده..

فلا كبيرة مع الاعتراف والاستغفار والإنابة، وكذلك إذا واجهك فَضْلُه وعَمَّتْكَ رَحمتُه.

ولا صغيرة مع المكابرة والإصرار، وكذلك إذا واجهك عَدْلُه ووَكَلَكَ إلى نفسك وعملك..

* * * * *

مَنْ آوى إلى الأسباب دون أن يعتصم بالله ويرجو رحمته، خانته كل الوسائل والأسباب ووَكَلَه الله إلى أسبابه فلم تُغنِ عنه من الله شيئاً.

﴿قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ المَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا المَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾.

* * * * *

أحسن إلى الناس حباً لله وليس حباً فيهم!

وعليك أن تخاف من ظلمهم والإساءة إليهم خوفاً من الله وليس خوفاً منهم..

فإنك إن أحسنت حباً فيهم أو خوفاً منهم، امتنعت عن ذلك عندما يذهب حبُّك أو يزول خوفُك منهم.

أما عندما تحسن إليهم لله، فلا يمنعك من الإحسان إليهم عدم حبهم أو زوال خوفهم.

وشتان بين من يحسن لهم لله وبين من يحسن لأجلهم لا لله!

* * * * *

حقيقةُ الدنيا وَهْمٌ، فكيف بوهمها!

* * * * *

نريد من الله أن يرحمنا رحمة واسعة وأن يرزقنا بغير حساب، ولكننا لا نفعل الطاعة والخير إلا بحساب..

* * * * *

كأن من تعلق قلبه بمتاع تعلقاً شديداً وملك عليه قلبه ولبه، يُبتلَى به ابتلاء يعيده إلى صوابه، ويُبْعِدُه عن فَرْط جنونه وتعلقه..

فحتى لا يقع الإنسان في ذلك عليه أن يعتدل في حبه ورغبته، ولا يسمح لنفسه أن تنساق وراء كل ما تريده..

* * * * *

العاقل لا يفرح بتعظيم الظالمين له، فإنهم ما منحوه هذا الجاه الموهوم إلا ليسلبوا منه عقله، ويضيعوا عليه دينه، فلا يستيقظُ من سباته إلا عند ختام حياته، وعندها يقول: يا ليتني لم أجد منهم إكراماً ظاهره فيه الرحمة وباطنه من قبله العذاب.

* * * * *

بعض الدعاة والمصلحين أحدثوا تأثيراً كبيراً مع أنهم أقل علماً بكثير من غيرهم، لكن الذي يميزهم عن غيرهم هو الرغبة الصادقة في العمل والتطبيق لما تعلموه..

* * * * *

كثيراً ما تأتي الخاطرة نتيجة للحديث مع النفس، والتأمل في بعض الأمور، ثم قد تتطور الخاطرة إلى مقال، وقد يتطور المقال إلى كتاب، وقد يتطور الكتاب إلى مشروع علمي أو عملي..

وهكذا يتطور الأمر من خاطرة إلى أن يصل إلى مشروع، فلا تحقرن من المعروف شيئاً!

* * * * *

كلما عَظُمَ قَدْرُ اللهِ في نفسك، صَغُرَ المخلوقون في عينك..

* * * * *

شتان بين عَالِـمٍ صادق يقود الأمة بصدقه وعلمه، وبين من يقوده هواه ويأسره شيطانه..

* * * * *

ما أكثر الذين يُحَلِّقون في السماء في كلامهم الراقي المثالي، ويهبطون إلى الأرض في تصرفاتهم وأفعالهم..

إن الإنسان إذا عمل بعُشْر ما يعرفه، لتغيرت الكثير من تصرفاته وأخلاقه!

لسنا بحاجة إلى كثير من الكلام بقدر ما نحن بحاجة إلى قليل من التطبيق والعمل..

* * * * *

لو كان كلُّ مَنْ أُسِيءَ إليه يصبح لا قيمة له، لـما وُجِدَ على وجه الأرض مَنْ له قيمة!

* * * * *

من نعمة الله على النُّخَب والصفوة أنه ليس كل الناس من الصفوة، وإلا لـما اعترف أحد بفضل الآخر إلا قليلاً..

* * * * *

وجدتُ أكثرَ الناس تواضعاً وبُعْداً عن التبجح، أكثرهم نجاحاً وتأثيراً ونفعاً للآخرين..

ووجدت أكثرهم عُجباً وادِّعَاءً أبعدهم عن النجاح والتأثير والازدياد من الخير..

* * * * *

هناك علاقة عكسية بين الثقة بالنفس وبين كثرة الحديث عن الذات ومدحها، فكلما زادت الثقة بالنفس نقص الحديث عنها!

وهناك علاقة طردية بين العلم والعقل وبين الهدوء في الحوار والمناقشة العلمية، فكلما زاد العلم والعقل زاد الهدوء..

* * * * *

في مسألة أيهما أفضل الغني الشاكر أم الفقير الصابر؟

كأن الراجح والله أعلم أن الأفضل منهما هو: الأكثر تقوى لله تعالى، أو هو الأكثر شكراً أو أعظم صبراً؛ لأن مجرد الغنى أو الفقر ليس لهما علاقة بتفضيل الإنسان، وإنما يتفاضل الناس بأعمالهم..

فمن كان أعظم تقوى لله هو الأفضل ـ من غير اعتبار لغناه أو فقره ـ، وإن تساويا في التقوى فهما بمنزلة واحدة.

* * * * *

رباه ليس لي عمل أطمع أن أنجو به، وماذا يكون من العبد الناقص إلا النقص، وماذا يكون من الخالق الكامل إلا الكمال.. وإن أعظم الكمال هو العفو عند المقدرة، فلئن كنتُ عبداً ضعيفاً ناقصاً فأنتَ يا الله الرب العظيم القوي.. فاللّٰهُمَّ تغمدني برحمتك..

لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك..

فليس لي إلا رحمتك التي وسعت كل شيء.

* * * * *

أنْ يستشهد إنسان في سبيل الحق راضياً محتسباً فهذا من أعظم النصر..

أن يستشهد إنسان فيكون محركاً وملهماً لإخوانه من بعده فهذا من أعظم النصر..

أن يعود الناس إلى دينهم ويستعدوا للقاء الله فهذا من أعظم النصر..

أن يُنْزَع الخوف من قلوب الناس ويكون الموت أحب إليهم من الحياة ولا يصدهم صادٌّ عن إكمال المسير فهذا من أعظم النصر..

* * * * *

شتَّان بين مَنْ هو في حياته كالميت، وبين مَنْ هو في مماته كالحي!

* * * * *

المؤمن لا يغرُّه إقبال الناس عليه وحرصهم على الاستفادة منه، فقد يكون ذلك استدراجاً، ولا يدري الإنسان بماذا يختم له..

وقد قال تعالى عن المنافقين: ﴿وإنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾، والنفاقُ ما خافه إلا مؤمنٌ، وما أَمِنَهُ إلا منافق..

* * * * *

الدنيا دارُ ابتلاء واختبار للعباد، قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرجَعُونَ﴾، فالصحة والمرض، والغنى والفقر، وكل ما في هذه الدنيا من خير أو شر، هو امتحان للناس..

فعطاء الله ومنعُه في الدنيا لا يستدل به على رضوان الله عن العبد أو سخطه، فهو يعطي الصالح والطالح، ويمنع الصالح والطالح؛ إنه يعطي ليبتلي، ويمنع ليبتلي، والمعول عليه هو: نتيجة الابتلاء..

فمن صبر على الضَّرَّاء وشكر عند السَّرَّاء، فهو من المفلحين.

* * * * *

إذا كانت هذه الشمس لا يمكن للناس ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً أن يخفوا نورها أو يجحدوا فضلها، فكيف بشمس الإسلام؟ فلا عجب أن تشرق شمس الإسلام رغم أنوف الكارهين، ويَسْطَع نجمه رغم كيد الكائدين،

فإن شمس الإسلام أعظم من هذه الشمس التي نراها، فالشمس تضيء الدنيا ويستفيد الناس منها في دنياهم، أما الإسلام فينير طريق الدنيا والآخرة، ويُسْعِدُ الإنسان في دنياه وأخراه.

* * * * *

إذا كان الغرب ذئاباً متوحشة، فلماذا لا تكونون أسوداً تفر منها الذئاب!

* * * * *

من عنده شك في هذا الدِّين أو في صدره حَرَج منه، كأنه ينكر أن الله هو أحكم الحاكمين: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ. أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الحَاكِمِينَ﴾؟

* * * * *

بين الله سبحانه أن الإخلاد إلى الأرض واتباع الهوى هو سبب الغواية والضلال بعد الهدى، قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آياتِنا فَانْسَلَخَ مِنْها، فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطانُ فَكانَ مِنَ الْغاوِينَ. وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾.

* * * * *

إذا لم تكن ممَّن استشهد في سبيل الله، فلتكن ممَّن عاش حياته كلها في سبيل الله!

* * * * *

قال لصاحبه: إن فلاناً لا يقدر الجهود التي أبذلها، ولم يراعِ المنزلة التي أنا عليها وكأنه تناسى ما أفعله من خير وما أقدمه من أعمال جليلة!

فأجابه: وهل كنت تعمل وتتعب من أجل أن يرفعك الناس وينزلوك منزلة رفيعة، وماذا سيفيدك تعظيم الناس لك؟ هل عندهم مفاتيح الجنة والنار؟ هل غضب الناس وسخطهم سيحول بينك وبين فضيلة من الفضائل؟ لماذا أنزلت الناس هذه المنزلة الرفيعة وعملت من أجلهم وهم لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً؟

هل كان هذا خطأه أنه لم يقدرك، أم كان هذا خطأك أنك انتظرت التقدير من الناس؟

* * * * *

بين الحقيقة والوهم

إنَّ مَثَل الحقائق والأوهام كمَثَلِ النورِ والظلامِ، وكمَثَلِ الحياةِ والموت، وكمَثَل البَصَر والعَمَى.. وكفى بالحقيقة فضلاً ومكانة أنَّ اللهَ هو الحقُّ، وأنَّ ما يدعون من دونه هو الباطلُ.. وكفى بالحقيقةِ فضلاً ومكانةً أنها من العلمِ والعَدْلِ، وكفى بالوهمِ سُوءاً وضلالاً أنه من الجهلِ والظُّلْمِ..

وكفى بالحقيقة فضلاً أنَّ الحقَّ قويٌّ بذاته، وكفى بالباطل سوءاً أنه ضعيفٌ واهٍ ولكنه يَسْتَمِدُّ قوَّتَهُ مِنْ غَيرِه..

وكفى بالحقيقة فضلاً أنها نورٌ وهدايةٌ، وكفى بالباطل سوءاً أنه ظُلْمَةٌ وغَوَايةٌ..

وكفى بالحقيقة فضلاً أنها سبيلُ القوّةِ والعِزّة والطريقُ إلى الحياة الطيبةِ والسعادةِ، وكفى بالباطل سوءاً أنه طريقُ الضعفِ والذِّلَّةِ والشقاء..

من أعظمِ الحقائق: الاعتزازُ بالإسلامِ، ومِنَ الأوهامِ: الاعتزازُ بغيرِهِ من الأديان، ومِنَ الأوهامِ: الاعتزازُ بمتاعِ الدُّنيَا مِنْ مَالٍ وجاهٍ والافتخارُ بذلك.

ومِنْ أكبرِ الأوهامِ: وهمُ القُوَّةِ المادِّيَّةِ التي لا يؤمنُ أصحابُها باللهِ تعالى: قال سبحانه عن فرعونَ وقومِهِ: ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لا يُرْجَعُونَ. فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾.

فقد استكبروا على عبادِ الله، وسامُوهُم سوءَ العذابِ، واستكبروا على رُسُلِ الله، وما جاؤوهم بِهِ من الآياتِ، فكذَّبُوها، وزَعَمُوا أنَّ ما هم عليه أعلى منها وأفضلُ. فكانتْ عاقبتُهُم ما ذَكَرَهُ اللهُ عنهم: ﴿فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾.

فاليمُّ الذي ألقي في مثلِهِ موسى عليه السلام وهو طفلٌ رضيعٌ، فكان مأمناً وملجأً له. هو ذاتُهُ الذي يُنْبَذُ فيه فرعونُ الجبارُ وجنودُه فإذا هو مخافةٌ ومَهْلَكَةٌ. فالأمنُ إنما يكونُ في القُرْبِ من الله، والمخافةُ في البعدِ عنه سبحانه.

من أعظم الحقائق: عبادةُ اللهِ وحدَهُ والخضوعُ له وحده، ومِنْ أكبرِ الأوهام: عبادةُ غيرِ اللهِ والخضوعُ للمخلوقينَ والدفاعُ عن المجرمين..

إنَّ الآلامَ والصعوباتِ موجودةٌ في طريق الحقِّ وفي طريقِ الباطلِ، وفي الخير والشر، لكنْ شتَّان بين آلامٍ في طريقِ الحقِّ تمضي وتزولُ وكأنها لم تكنْ، ثم يَعْقُبُهَا النعيمُ

والسرورُ الدائمُ، وبينَ الآلامِ في طريقِ الباطلِ التي لا تَذْهَبُ حَسْرَتُهَا ونَدَامَتُهَا، ثم لا تنقضي إلا ويتبَعُهَا ما هو أسوأُ منها وأشدُّ!

قال تعالى: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾، وقال سبحانه: ﴿وَلا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾، فذكَرَ اللهُ أمرين مما يصبِّر المؤمنين ويثبِّتُهُم على الحق: فالأمرُ الأولُ: أن ما يُصيبُكُم مِنْ الآلامِ والصعوبات هو مما يصيبُ أعداءَكُمْ أيضاً، فكيف تكونونَ أضعفَ منهم، وأنتمُ وإيَّاهُمْ قَدْ تَسَاويتُمْ في ذلك، فلا يَضْعُفُ إلا من توالتْ عليه الآلامُ، وانتصرَ عليه الأعداءُ على الدوام.

والأمرُ الثاني: أنَّكُمْ ترجونَ مِنَ اللهِ ما لا يرجونَ، فترجونَ الفوزَ بثوابِهِ والنجاةَ من عقابِهِ، وتريدون إقامةَ شرعِه، وهدايةَ الضالين. فالذي يكونُ مع الحقِّ ينبغي له أنْ يكونَ أكثرَ صبراً وجلداً على تحقيقِ أهدافِهِ وغاياتِهِ لأنَّه يرجو ثوابَ اللهِ، ولأنَّ العاقبةَ للمتقين..

الحقيقةُ قد يعاديها الناسُ ويُنْكِرُونَهَا، والوَهْمُ قد يدافعونَ عنه ويحاولونَ إثباتَهُ، لكنَّ الحقيقةَ ستَظْهَرُ وتُشْرِقُ كالشَّمْسِ مهما عاداها الناسُ ووقفوا في وجهها، والوَهْمُ سيَظْهَرُ زَيْفُهُ وبُطْلانُهُ مهما روَّجُوا له ودَافَعُوا عنه، وسيُدْرِكُونَ حينَهَا أنَّهُ كسَرَابٍ يَحْسَبُهُ الظمآنُ ماءً حتى إذا جاءَهُ لم يجدْهُ شيئاً. فكنْ من أنصارِ الحقيقة تَكُنِ العاقبةُ لك، ولا تدافعْ عَنِ الوَهْمِ فيؤدِي بك ذلك إلى الندامةِ والخُسْرَانِ.

بين قلة أتباع الحقيقة وكثرة أنصار الوهم:

الحقيقةُ قَدْ تُعَاني من قِلَّةِ أتباعِهَا، والوهمُ قد يُغْرِي مَنْ حولَهُ بكَثْرَةِ أتباعِه، فلا تجعلْ قلةَ أتباعِ الحقيقةِ عائقاً عن اتباعها، ولا كثرةَ أنصارِ الوهمِ مبرراً لاتِّباعه. فقد تكونُ القِلَّةُ ذهباً خالصاً أو جوهراً نادراً أو عسلاً صافياً، وقد تكون الكَثْرةُ غثاءً لا خيرَ فيه ولا قيمةَ له، أو زَبَداً يعلو وينتفش ثم يَضْمَحِلُّ ويتلاشى ولا يَنتفع به أحدٌ..

فالمسلمون حين انتصروا لم ينتصروا بكَثْرَةِ عَدَدِهِم وعَتَادِهِم، وإنما بإخلاصِهِم لله تعالى واجتماعِهِمْ على الحقِّ ويَقِينِهِم بنصرِ الله.

بين مرارة الحقيقة وحلاوة الوهم:

الحقيقةُ قد تكون مُرَّة، والوهمُ قد يكون حُلْواً، فلا تكن ممن يفضِّلُ الوهمَ لحلاوته، ويتركُ الحقيقةَ لمرارتها؛ فحلاوةُ الوهمِ يَتْبَعُهَا مرارةُ الطعم، ومرارةُ الحقيقة يَتْبَعُهَا حلاوةُ الطريقة.

لماذا قد تكونُ الحقيقةُ مُرَّةً؟

لأنَّ الحقيقةَ قد تخالفُ رغبةَ الإنسانِ وما يُريدُ فعلَهُ، ولأنَّ الحقيقةَ قد تُحَطِّمُ آمالَ الإنسانِ التي يؤمِّلها، ولأنَّ الناسَ قد يعادُونَهُ من أجلِ الحقيقة، ولأنَّ الحقيقةَ قد تحتاجُ إلى صبرٍ عظيمٍ وتضحياتٍ كبيرة، ولكنَّ الله لا يُضِيعُ أجرَ مَنْ أحسنَ عملاً، فمن وقف في طريق الحقِّ وسَلَكَ سبيلَهُ وفَّقَهُ اللّهُ في الدنيا والآخرة وأيَّدَهُ بنَصْرِهِ وجعلَ العاقبةَ له.

* * * * *

قال له: هل أنت مقصر ومُفَرِّط مع ربك؟

فقال: لا أستطيع أن أقول عن نفسي أنني مُقَصِّر أو مُفَرِّط، لأن المقصر هو من فعل أموراً وقصَّر في أخرى، فكيف يقول من لم يفعل شيئاً ولم يقدم شيئاً؟! وليس عنده ما يقدمه!

فهو ما وُجِدَ إلا بقدرة الله، وما عاش إلا برحمة الله، وما فعل الطاعات إلا بتوفيق الله، ولا يدخل الجنة إلا بفضل الله.

فإن كان هناك خير فالله هو الذي أجراه على عبده وتفضل به عليه، والعبد لم يفعل شيئاً من نفسه ولولا الله لكان مجرماً ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ﴾..

﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ﴾..

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً وَلَكِنَّ اللهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾.

* * * * *

من هم أولياء ودعاة وأئمة ويأتيهم وحي ومصيرهم النار؟

الجواب:

المشركون..

أما كونهم أولياء فقد قال تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً﴾، وقال: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ﴾.

وأما كونهم دعاة فقد قال تعالى: ﴿وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾.

وأما كونهم أئمة فقد قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ﴾، ﴿فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ﴾.

وأما الوحي ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ﴾، ﴿شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً﴾.

* * * * *

النفاق والمداهنة والركون إلى الظالمين، كل ذلك لن يؤخر في الأجل ولن يزيد في الرزق، والوقوف مع الحق والدفاع عنه لن يقدم في الأجل ولن ينقص من الرزق، (وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ)، ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ. وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾، ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

* * * * *

أن تموت طائعاً مرضياً لله تعالى، خير من أن تعيش عاصياً مرضياً لأعداء الله!

وموتٌ يوصلك إلى الله، خير من حياة ترضي أعداء الله!

وإذا لم تكن ممَّن استشهد في سبيل الله، فلتكن ممَّن عاش حياته كلها في سبيل الله!

* * * * *

اعترافك بذنبك، خير من أن تكون طائعاً مغروراً.

اعترافك بذنبك، خير من تأويلك وتبريرك لمعصيتك.

لَأنْ تكون صغيراً عند الناس عظيماً عند الله خير من أن تكون عظيماً عند الناس صغيراً عند الله.

لَأنْ تكون مظلوماً تنتظر نصرة الله لك وثوابه إليك، خير من أن تكون ظالماً تعيش في مقت الله وغضبه عليك.

* * * * *

الإيمان هو سر الجاذبية إلى فعل الخيرات، والإقدام على الفضائل والمبرات، والامتناع عن الرذائل والمنكرات، ألا ترى من استنار قلبه بالإيمان يفعل الأعاجيب وهو فرح بعمله وكأنه يرى جزاءه بين يديه.

* * * * *

(اللَّهُمَّ أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك)

في هذا الدعاء يعلم العبد أنه لا حول له ولا قوة على طاعة الله إلا بإعانته سبحانه وتعالى، ﴿بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيكُمْ أنْ هَدَاكُم لِلإِيمَانِ﴾، فالمنة لله والشكر له وحده على عبادته والبعد عن معصيته، فقلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، ﴿وَمَا تَشَاؤُونَ إلَّا أنْ يَشَاءَ اللّهُ﴾، وهذا يجعل الإنسان لا ينظر بعين الازدراء والنقص لأحد من العصاة بل ينظر إليه بعين الرحمة والشفقة وحب هدايته.

* * * * *

ولو بشق تمرة

إن الله قد يقي المسلم من النار بشق تمرة، كما قال صلى الله عليه وسلم: (اتقوا النار ولو بشق تمرة)..

أما الكافر فلو أن له الأرض كلها ومثلها معه وأنفقها ما تقبل منه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، فكم هي رحمة الله بالمؤمنين عظيمة.

قال تعالى: ﴿لَنْ يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾، ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾.

* * * * *

كثير من الناس لا يظلمون، لأنهم لا يستطيعون ذلك، فلا يمنعهم من الظلم إلا العجز! وما أكثر هؤلاء فمنهم من يقول لو أن لي قوة بفلان لفعلت به وفعلت أو لو كنت مسؤولاً عن كذا وكذا لفعلت كذا.. وقد يشكو من ظلم أحد المسؤولين فإن واتته الفرصة وصار مكانه رأيته أكثر ظلماً وفساداً وترحمت على النباش الأول

فالعجز وعدم القدرة نعمة عظيمة لكثير من الناس.

* * * * *

النصر من عند الله، والأسباب ليست إلا تطميناً للمؤمنين.

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ. وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إلا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾.

* * * * *

إذا لم تكن مجرماً، فلماذا تخاف من تطبيق الحدود؟!

* * * * *

أربعة دروس من قطط

لما كنـت أدرس في الجامعـة (البكالوريـوس) كان هنـاك طالـب لـيس متفوقـاً في الدراسة النظامية ولا يحبها ولكنه كثير التأمُّل والتفكير، يُحْرِج أحيانـاً بعـض الدكاتـرة بأسئلته ومناقشاته، قال لي هذا الصديق:

ذهبت مرة إلى مطعم وطلبت شيئاً من الطعام، فلما بدأتُ بالأكـل رأيـتُ قِطَطـاً يمشون حولي وقد شمُّوا رائحَةَ الطعام، فمكثـوا بجـانبي يريـدون أن أطعمهـم شـيئاً ممـا عندي، فاستفدت من ذلك أربع عِبَر وحِكَم:

الأولى: أن القِطَّة التي التفتت إلي وتريد أن أطعمها، أعطيتهـا شـيئاً مـن الأكـل، والتي لم تظهر رغبتها ولم تطلب بطريقتها لم أعطِها شيئاً، فقلـت في نفسيـ: فكـذلك الذي لا يدعو الله لا يلتفت الله إليه ولله المثل الأعلى.

والعبرة الثانية: أن القطة التي تركت الناس كلهم ولم تأتِ إلا إليَّ لكي أطعمها مـن الطعام، أعطيتها أكثر من القطة التي تـأتي إلي وإلى غـيري، فكـذلك ولله المثـل الأعلى الذي لا يسأل غير الله، يكرمه الله أكثر من غيره من عباده.

والعبرة الثالثة: أن القطة التي تركتني وذهبت إلى غيري لم أهتم بها ولـم أكرمهـا بشيء، فكذلك الذي يسأل غير الله ويترك سؤال ربه يوكله الله إلى مَنْ سأل.

والعبرة الرابعة: أنه لا فرق عندي بين هذه القطـط فهـم سواسـية عنـدي والذي يجعلني أميز بينهم هو تصرفاتهم وأعمالهم، وكذلك ولله المثل الأعلى الله يجـازي النـاس على أعمالهم وليس على صورهم وأشكالهم..

ثم قال لي ما رأيك بهذه العبر التي استنتجتها؟ فقلت له: رائعـة وقويـة بـارك الله فيك.

وقلت في نفسي: خذها من غير فقيه.

* * * * *

الطريق إلى الحرية

الحرية، وما أدراك ما الحرية، كم تطايرتْ لأجلها الرؤوس، وسعى لنيلها واستردادها من مُغتصبيها عُظَماءُ النفوس، وكم استُغِلَّت من قِبَل مرضى النفوس، فدغدغوا بها عواطف الناس ودلُّوهم على طريق أوهموهم أنه طريق الحرية، متناسين أنه أقرب طريق للغرق في أوحال العبودية..

نحن أحرار، فلماذا لا نبقى أحراراً وقد ولدتنا أمهاتنا كذلك؟ فما هي الحرية المنشودة التي يحقُّ لنا أن نسعى إليها، ونداقع عنها، ونقف في وجه من يقف سدّاً في طريقها؟ وهل هناك حرية مطلقة من كلِّ قيد؟

١ـ كلُّ حرية لا بدَّ أن تقيِّدها قيود، فليس هناك حرية مطلقة، فمِنْ حريةٍ مقيَّدة بالقوانين الوضعية، أو مقيَّدة بحرية الناس كمن يقول: (حريتك تنتهي عند حرية الآخرين)، وهذا الكلام ليس صحيحاً على إطلاقه لأنه قد يُفهَم منه أنه لو فعل أحد معصية منفرداً من غير أن يضر بإنسان فلا مانع من ذلك، أو لو تراضى اثنان على معصية فلا مانع منه لأنه لم يعتدِ على حرية أحد من الناس، فالصواب أن يُقال: حريتك تنتهي عند حدود الله، وليس عند حرية الآخرين.

٢ـ فإذا كانت الحرية لا يمكن إلا وأنْ تكون مقيدةً، فمن الحماقة أن يرضى الإنسان لنفسه أن يكون مقيداً لقانون بشري أو لفرد من الناس، ويأبى أن يكون عبداً لله لا يقيده إلا شرع الله، فشتان بين من يكون خاضعاً لقانون بشري وبين من يكون خاضعاً لأحكام الله تعالى، وشتان بين من يكون عبداً لله وبين من يكون عبداً لغيره، فمن استكبر عن عبودية الله الخالق، غرق في عبوديات الهوى والمخلوقين.

فإذا كنا لا نرضى بأن يستعبدنا أحد من الناس فعلينا أن لا نسعى بأيدينا إلى ذلك، فلا نكون عبيداً لأهوائنا وشهواتنا، ﴿أَرَأَيتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ: هَوَاهُ، أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيهِ وَكِيلاً﴾.

٣ـ إن كثيراً من الناس يغفل عن أهم ما يكفل له حريته ويحققها له، ولا يمكن لأحد أن يكون حائلاً بينه وبين هذه الحرية، ألا وهي حرية القلب، فليس لأحدٍ مِنَ الناس كائناً مَنْ كان سلطانٌ على قلبه، فمَنْ أصاب هذه الحرية فهو حرٌّ وإنْ

كبَّله أعداؤه بالقيود وأحاطوه بأسوار السجون والمعتقلات، مما عبر عنه الأستاذ سيد قطب رحمه الله بقوله:

أخي أنتَ حُرٌّ وَرَاءَ السُّدُود ... أخي أنتَ حُرٌّ بتلكَ القُيُود

إذا كُنتَ باللهِ مُستَعصِمًا ... فماذا يَضِيرُكَ كَيدُ العَبِيد

٤ـ فالطريق إلى الحرية هو تحقيق العبودية لله تعالى، والتحرر مما سواه، فمتى تحققت هذه العبودية لله، صار الإنسان حراً مستغنياً بالله عما سواه، فلا يعلق نفعه أو ضره بأحد من الخلق، ولا يكون مستعبداً لمصلحة دنيوية، ولا يكون أسيراً لشهوة من شهوات نفسه، فكلما ازددتَ تحققاً بعبودية الله ابتعدتَ عن عبودية المادة والطواغيت.

حرية القلب أن يعلّق المؤمن قلبه بالله سبحانه ويكون حاله كما قيل:

صَرَفْتُ النَّاسَ عَنْ بَالِي ... فحَبْلُ ودادِهِمْ بَالي

وحَبْلُ اللهِ معتصمي ... به عَلَّقتُ آمالي

ومَنْ يَرْجُ الوَرَى طُرَّاً ... فإني عنهمُ سَالي

فلا وجهي لذي جَاهٍ ... ولا مَيْلي لِذِي مَالِ

فرضى الناس لا يمكن أن يُدرك ولن يفيدك شيئاً، ورضى الله يمكن أن تدركه ولا يضرك شيء بعد ذلك، فماذا خسر من رضي الله عنه؟ وماذا يكسب من سخط الله عليه؟

والعبودية لله هي أشرف الأوصاف، ولهذا وصف الله نبيَّه عليه الصلاة والسلام بقوله: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾.

فعندما يتحقق المؤمن بفقره إلى الله يكون عزيزاً بالله غنياً عما سواه، وكيف يكون فقيراً مَنْ مولاه له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى؟ أم كيف يكون ذليلاً من كان الله العظيم العزيز معه؟!

فالناس من خوف الفقر في فقر، ومن خوف الذل في ذل، أما من خاف الله فهو في غنى وفي عز.

وهل هناك أعظم من هذا الفضل الجزيل الذي جاء في الحديث القدسي الذي يرويه النبي عليه الصلاة والسلام عن ربِّه: (فَإِذَا أَحبَبتُهُ كُنتُ سَمعَهُ الذِي يَسمَعُ بِهِ، وبَصَرَهُ الذِي يُبصِرُ بِهِ، ويَدَهُ التِي يَبطش بِهَا وَرِجلَهُ التِي يَمشِي بِهَا وَإِنْ سَأَلَنِي لأُعطِيَنَّهُ ولَئِنِ استَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ) رواه البخاري.

فالغاية الكبرى التي ينبغي أن تكون حاضرةً عند كلِّ مسلم، وتكون كلُّ أعماله تصب فيها هي: الوصول إلى مرضاة الله تعالى، فهي التي توصله إلى أعلى المراتب، وترفعه إلى أعلى المنازل.

اللهُ قصدي وهذا الكونُ أجمعُهُ ... لم يستثر رغباً في النَّفْسِ أو رَهَبَا

إن نلت مرضاتَهُ فالشَّمسُ دونَ يَدي ... فكيفَ أقبلُ في آمَالِيَ الشُّهُبَا

٥ـ هذه الحرية لا تعني اعتزال الدنيا وإهمال العمل فيها، وإنما تعني أن نعمل كلَّ ما نريده ولكن في إطار العبودية لله تعالى، فلا تُبعِدُنا الدنيا عن ديننا بل تكون الدنيا مزرعةً لنا، نزرع ما نريد أن نلقاه في الآخرة.

٦ـ مِنْ لوازم العبودية لله: عدم التماس رضا المخلوقين بسخط الله، والجهر بالحقِّ وعدم المداهنة لأحد من الخلق، وعدم الركون إلى الظالمين.

فمن أيقن أن الأرض ومَنْ عليها، والعالم كله بما فيه من أفلاك وكواكب ومجرَّات، مسخَّرٌ لله تعالى طوعاً أو كرهاً، خاضعٌ لمشيئته وإرادته، فكيف يمكن له أن يداهنَ أحداً من الخلق أو يرجو النفع عنده ويخاف الضر منه؟!

ـ الذي يريد رضا الله لا ينتظر من الناس جزاءً ولا شكوراً، ولا يبحث عن الجاه والشهرة، ويكون متواضعاً لله، يحب أن ينادى باسمه، فلا تراه مولعاً بتفخيم نفسه بالألقاب العلمية ويغضب إذا لم يذكر بها، بل إن بعضهم قد يضيف ألقاباً لنفسه فلا يكتفي بذكر رتبته العلمية، ولا يَذكر اسمه إلا مسبوقاً بتلك الألقاب!

وما أكثر ما يلبِّس الإنسان على نفسه أنه يريد رضا الله وخدمة الإسلام والمسلمين، لكنه لو تأمل في نفسه وفي بعض تصرفاته لعلم أنه يريد خدمة نفسه وليس خدمة الإسلام، والتلبيس على النفس لن ينفعها شيء عند الله، فالله يعلم السرَّ وأخفى، فعلى المسلم أن يتَّهم نيته ويحاسب نفسه في أعماله وتصرفاته.

ـ لا يستكثر شيئاً من عمله أو يفتخر به، فهو يعلم رضا مَنْ يَطلب، وفي أيِّ ثوابٍ يَرغب، ومِنْ أيِّ عذابٍ يَرهب. ويعلم أنَّ اللّهَ تعالى هو الذي وفقه لهذا العمل وسخره في طاعته فالفضل لله وحده.

ـ يفرح بنجاح غيره ممن يخدم الإسلام في جانب من جوانبه، لأنه يساعده في مهمته ويعينه على عمله، فلا يتعامل معه وكأنه منافسٌ له في تجارة دنيوية يخاف أن يُكسِدَ عليه بضاعته.

أسأل الله العظيم أن يجعلنا جميعاً متحققين بعبوديته لا نخضع إلا له سبحانه، عزيزين بدينه وطاعته، فقراء إليه أغنياء عن كلِّ ما سواه، لسان حالنا: (إنْ لَمْ يكنْ بِكَ غَضَبٌ عليَّ فلا أُبَالي).

فليتكَ تحلُو والحياةُ مَرِيرةٌ ... وليتكَ ترضَى والأنامُ غِضَابُ

وليتَ الذي بيني وبينكَ عامرٌ ... وبيني وبينَ العالمينَ خَرَابُ

إذا صَحَّ منكَ الودُّ فالكلُّ هَيِّنٌ ... وكُلُّ الذي فوقَ الترابِ ترابُ

* * * * *

هل أنتَ راضٍ عن الله؟!

لماذا لا يرضى الكثير عن حظِّه في الحياة ويعيش شاكياً متذمراً؟ لماذا أصبحت الشكوى عند الكثير من النَّاس سمةً غالبةً عليهم؟

حتى قال إيليا أبو ماضي يصف حالهم:

أقبلَ العيدُ ولكنْ ... ليسَ في النَّاس المسرَّةْ

لا أَرى إلاَّ وُجُوهاً ... كالحاتٍ مُكْفَهِرَّةْ

ليسَ للقومِ حديثٌ ... غير شكوى مستمرَّةْ

قد تساوى عندهُمْ ... لليأسِ نفعٌ ومضرَّةْ

لا تَسَلْ ماذا عراهُمْ ... كلُّهم يجهلُ أمرَهْ

أيّها الشاكي الليالي ... إنَّما الغبطةُ فِكْرَهْ

رُبَّما اسْتوطَنَتِ الكوخَ ... وما في الكوخِ كِسْرَهْ

وخَلَتْ منها القصورُ ... العالياتُ المُشْمَخِرَّهْ
تلمسُ الغصنَ المُعَرَّى ... فإذا في الغصنِ نُضْرَهْ
وإذا رفَّتْ على القَفْرِ ... استوى ماءً وخُضْرَهْ
وإذا مَسَّتْ حصاةً ... صَقَلَتْها فهيَ دُرَّهْ
أيُّها الباكي رُوَيْداً ... لا يسدُّ الدمعُ ثغرَهْ
أيُّها العابسُ لَنْ ... تُعطَى على التقطيبِ أُجْرَهْ
لا تكنْ مُرّاً ولا ... تجعَلْ حياةَ الغيرِ مُرَّهْ
إنَّ مَنْ يبكي لهُ ... حَوْلٌ على الضحكِ وقُدْرَهْ
فتَهَلَّلْ وتَرَنَّمْ ... فالفتى العَابِسُ صَخْرَهْ

فمِنَ النَّاس مَنْ تراه في جُلِّ أحواله شاكياً متذمِّراً مما حوله، لا يعجبه شيء في الحياة، يشكو إن أصابه خير أو شر، أو كان في غنى أو فقر، لأنَّه يستطيع أنْ يجد في كلِّ ذلك ما يزعجه ويُكَدِّر خاطرَه، وينسى في كلِّ أمرٍ الجانبَ المشرق وما يَسُرُّه فيه.

وترى الشَّوكَ في الوُرُودِ، وتَعْمَى ... أنْ تَرَى فَوقَهَا النَّدَى إكليلا

ومثل هذا الصنف لا يحبُّ النَّاس الاستماع إلى حديثه، فالنَّاس عندهم من الهموم ما يكفيهم وليسوا بحاجة إلى أن يسمعوا ما يزيدهم.

كَفَاكَ مِنَ الشَّكْوَى إلى النَّاس أنَّهُ ... تسرُّ عَدُوّاً أو تَسُوءُ صَدِيقَا

وقال الشيخ عمر السهروردي:

ويمنعني الشَّكوى إلى النَّاس أنَّني ... عليلٌ ومَنْ أشكو إليه عليلُ
ويمنعني الشَّكوى إلى الله أنَّهُ ... عليمٌ بما أشكوه قبلَ أقولُ

تجد مَنْ متَّعه الله بالصحة والعافية، أو من يملك الأموال الكثيرة، عابس الوجه لا يبتسم إلا إذا فعل ذلك مخطئاً، وسرعان ما يعود إلى صوابه ويتذكر همومه ويشكوها للناس.

فما هو السبب في ذلك؟

إنه قصور النظر، وقلة المعرفة بحكمة الله من خلقه وتدبيره لشؤونهم، وعدم الرضا عن الله، والشُّكر له.

ويوشك مَنْ هذا حالُه أنْ تزولَ عنه النِّعَم، قال تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ وقال: ﴿وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾، قال الشيخ ابن عطاء الله: «مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النعمَ فَقَدْ تَعَرَّضَ لِزَوَالِها، وَمَنْ شَكَرَهَا فَقَدْ قَيَّدَهَا بِعِقَالِها» وقَالَ صَاحِبُ «الكَلِمِ الفَارِقِية» [1]: «لا تَغْفَلْ عَنْ شُكْرِ الصَّنَائِعِ؛ وَسُرْعَةِ استرجاع الوَدَائِعِ»، وَقَالَ أَيْضاً: «يَا مَيِّتاً نُشِرَ مِنْ قَبْرِ العَدَم، بِحُكْمِ الجُودِ والكَرَم، لاَ تَنْسَ سَوَالِفَ العُهُودِ والذِّمَم، اذكُرْ عَهْدَ الإيجَادِ، وَذِمَّةَ الإحْسَانِ والإرْفَادِ، وَحَالَ الإصْدَارِ والإيرَادِ، وفاتحة المَبْدَأ وَخَاتِمَةَ المَعَادِ»، وقال رحمه الله: «يَا دَائِمَ الغَفْلَةِ عَنْ عَظَمَةِ رَبِّه، أين التَّظَرُ في عَجَائِبِ صُنْعِه، والتَّفَكُّرُ في غَرَائِبِ حِكْمَتِهِ، أَيْنَ شُكْرُ مَا أَفَاضَ عَلَيْكَ مِنْ مَلاَبِسِ إحْسَانِه ونِعَمِهِ، يَا ذَا الفِطْنَةِ، اغْتَنِمْ نِعْمَةَ المُهْلَة، وَفُرْصَةَ المُكْنَةِ، وَخِلْسَةَ السَّلاَمَةِ، قَبْلَ حُلُولِ الحَسْرَةِ وَالنَّدَامَةِ» [2].

وقال الحكماء: «الشُّكرُ قَيْدُ الموجود، وصَيْدُ المفقود». وقبل هذا وذاك رضا الواحد المعبود.

وقال الإمام الغزالي: الشُّكرُ قَيْدُ النِّعَم به تدوم وتبقى، وبتركه تزول وتتحول، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾، وقال: ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾.

---

(1) ـ «الكَلِمِ الفَارِقية في الحِكَم الحقيقية» تأليف الشيخ أبي المعالي سعد بن عليّ بن قاسم الحظيري الوراق. كما في فهرست مخطوطات خزانة الروضة الحيدرية للسيد أحمد الحسيني. وقد جمع المؤلف في كتابه هذا: كلمات الشيخ محمّد بن عبدالملك الفارقي.

(2) ـ تفسير الثعالبي.

نظر الفضيل إلى رجل يشكو إلى رجل، فقال: يا هذا تشكو من يرحمك إلى مـن لا يرحمك [٣].

وإذا اعْتَرَتْكَ بليةٌ فاصبرْ لها ... صبرَ الكريمِ فإنَّه بكَ أعلمُ

وإذا شكوتَ إلى ابن آدمَ إنَّما ... تشكو الرَّحيمَ إلى الذي لا يرحمُ

ولو نظر هذا الشـاكي إلى حـاله لوجـد نفسَـهُ غارقـاً في نِعَـمٍ عظيمـة، لا يسـتطيع شكرها لو بقي طوال حياته ساجداً شكراً لله تعالى، فلماذا ينسى هذه النِّعَم التي لا تُعَـدُّ ولا تحصى ويذكر بعض المصائب التي لا تُذكر بجانب ما أكرمه الله من فضله.

وإنَّ أعظمَ نعمة هي نعمة الإسلام، والله بفضله ورحمتـه جعلَـكَ مِـنَ المسـلمين، و«كفى من جزائه إيَّاك على الطاعة أنْ رضيك لها أهلاً»، و«كفى العاملينَ جـزاءً مـا هـو فاتحه على قلوبهم في طاعته، وما هو مـورده علـيهم مـن وجـود مؤانسـته» [٤]، فيـا مَـنْ يشكو هل تريد أنْ يكون عندك كلُّ ما تريد مِنَ الدُّنيا وأنت على غير دين الإسلام؟ إنَّ الإسلام هو الذي يجعلك خالداً في جنة فيها ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر، الجنة التي إذا غُمِسَ فيها أشدُّ النَّاس بؤساً وبلاءً في الدُّنيا ينسى كلَّ شـدَّة وشقاء ويقول لربِّه: (مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ وَلاَ رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ)، ومَنْ لم يمت على الإسـلام فمصيره جهنَّمُ خالداً فيها-أعاذنا الله من ذلك-.

ألا يستحي الإنسان من ربِّه أنْ يكونَ ديدنُهُ الشكوى إلى المخلوقين، وهو عاجـز عن شكر ما وهبه الله له.

وهَبْ أنَّ ملكاً أعطى رجلاً مِنَ الخير والمال الكثير، وأغدق عليه في العطاء، وكفاه ما أهمه، ومع ذلك ترى هذا الرجل متناسياً لما أعطاه الملك، متكرِّهاً مما حـوله، ألا يُعَـدُّ هذا مِنْ لؤم النفس وخستها، فكيف مَنْ يكون هذا حـاله مـع الخـالق الـرازق المـنعم المتفضِّل.

أيها الشاكي! تريد من الله أن يرضى عنك، وأنت لم ترضَ بقضائه وقدره؟

---

(٣) ـ رواه البيهقي في شعب الإيمان (٩٦٠٢).

(٤) ـ من الحِكَم العطائية.

إنَّ الجزاء من جنس العمل، فإنْ كنتَ راضياً بالله وحُكْمه وتدبيره، فإنَّ الله راضٍ عنك، وإن كنتَ ساخطاً متذمراً فالله أولى أن يسخط عليك، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (فمن رضي فله الرِّضا، ومن سخط فله السخط) [1].

ومِنْ فضل الله وكرمه على عباده أنَّه يوفي الصابرين أجرهم بغير حساب، ولا يضيع منهم شيئاً حتى الصبر على الشوكة يشاكها، وهذا يكفي لأنْ يشكرَ العبد ربَّه حتى على ما يراه في نظره مصيبة، فهي عند الصبر والاحتساب عليها، خرجت عن كونها مصيبة إلى نعمة ومنحة تستوجب الشكر عليها وصارت في ميزان حسناته، قال صلى الله عليه وسلم: (عَجَباً لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْراً لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْراً لَهُ) [2].

قال إمام الحرمين: وشدائد الدنيا مما يلزم العبد الشكر عليها، لأنَّ تلك الشدائد نِعَمٌ بالحقيقة لأنَّها تعرضه لمنافع عظيمة ومثوبات جزيلة.

فعلى المؤمن أنْ يشكرَ الله ويحمده في كلِّ حال، قال الإمام ابن القيم: ومقام الشُّكر جامع لجميع مقامات الإيمان ولذلك كان أرفعها وأعلاها، وهو فوق الرِّضا وهو يتضمن الصَّبر من غير عكس [3]، ويتضمن التوكُّل والإنابة والحب والإخبات والخشوع والرجاء فجميع المقامات مندرجة فيه، لا يستحقُّ صاحبه اسمه على الإطلاق إلا باستجماع المقامات له، ولهذا كان الإيمان نصفين: نصف صبر ونصف شكر، والصبر داخل في الشكر، فرجع الإيمان كلُّه شكراً، والشاكرون هم أقلُّ العباد كما قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [4].

فالمؤمن يحمد الله على كل حال، كما قال ابن ناصر الدين الدمشقي:

يجري القضاءُ وفيه الخيرُ نافلة ... لمؤمنٍ واثقٍ باللهِ لا لاهي

إنْ جاءَه فرحٌ أو نابه ترحٌ ... في الحالتين يقولُ: الحمدُ للهِ

---

(1) ـ رواه الترمذي في كتاب الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء (٢٣٩٦).

(2) ـ رواه مسلم في كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير (٧٦٩٢).

(3) ـ أي مقام الصبر لا يتضمن مقام الشكر.

(4) ـ مدارج السالكين ١: ١٣٧.

فإن أردتَ السَّعادة والسُّرور، والفـرح والفـلاح والحبـور، والـرَّوْح والنعـيم الذي ليس فوقه نعيم، فعليك بالإيمان بالله حقاً، والرِّضا والتسليم لأمـره وحكمـه وتـدبيره، الإيمان الذي وَصَفَ نعيمَهُ مَنْ يتحلى به فقال: «لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيـه من النعيم لجالدونا عليه بالسيوف»، وقال آخر: مساكين أهل الدُّنيا، خرجـوا منهـا ومـا ذاقوا أطيب ما فيها، قيل: وما أطيب ما فيها؟ قال: «محبـة الله ومعرفتـه وذكـره»، وقـال آخر: «إنَّه لتمرُّ بالقلب أوقات يرقص فيها طرباً»، وقال آخر: «إنَّه لتمـرُّ بي أوقـات أقـول: إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيِّب». وهو النعيم الذي يشبه نعـيم أهـل الجنة، قال بعض العلماء: لـيس في الدُّنيـا نعـيم يشـبه نعـيم الآخـرة إلا نعـيم الإيمـان والمعرفة.

قال الإمام ابن القيم: والله تعالى إنَّما جعـل الحيـاة الطيبـة لمـن آمـن بـه وعمـل صالحاً، كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُـؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّـهُ حَيَـاةً طَيِّبَةً﴾. فضمن لأهل الإيمان والعمل الصالح الجزاء في الدُّنيا بالحياة الطيبـة، والحسـنى يوم القيامة، فلهم أطيب الحيـاتين، فهـم أحيـاء في الداريـن، ونظـير هـذا قـوله تعـالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنيا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ المُتَّقِـينَ﴾، ونظيرهـا قوله تعالى: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَـلٍ مُسَـمّىً وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾، ففاز المتقون المحسنون بنعيم الدُّنيا والآخرة وحصـلوا على الحياة الطيبة في الدارين، فإن طيب النفس وسرور القلـب، وفرحـه ولذتـه، وابتهاجـه وطمأنينته، وانشراحه ونوره، وسعته وعافيته مـن تـرك الشـهوات المحرمـة، والشـبهات الباطلة، هو النعيم على الحقيقة، ولا نسبة لنعيم البدن إليه.

ولا تظنَّ أنَّ قوله تعالى: ﴿إِنَّ الأَبرَارَ لَفِي نَعِيمٍ. وَإِنَّ الفُجَّارَ لَـفِي جَحِـيمٍ﴾ مخـتصٌّ بيوم المعاد فقط، بل هـؤلاء في نعـيم في دُورهـم الثلاثـة، وهـؤلاء في جحـيم في دُورهـم الثلاثة، وأي لذة ونعيم في الدُّنيا أطيب من برِّ القلب، وسـلامة الصـدر، ومعرفـة الـربِّ تبارك وتعالى ومحبَّته، والعمل على موافقته؟ وهل العيش في الحقيقـة إلا عـيش القلـب السليم [1]؟

([1]) ـ باختصار من الجواب الكافي: ٨٤.

فهذه هي السَّعادة الحقيقة التي كلَّما ازداد المؤمن منها ازدادَتْ سعادتُه، وكلَّما ابتعد عنها نقصتْ سعادتُه بقدر ابتعاده عنها. فمَنْ شعر بضيق أو همٍّ أو غَمٍّ فليتعهد إيمانه ويراجع يقينه بالله حتى يذهب عنه ما يجد.

ومن مظاهر الحياة الطيبة التي خصَّ الله بها عباده المؤمنين في الدُّنيا:

١ـ ولاية الله عز وجل، فقد قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

٢ـ ومحبة الله عز وجل للمؤمنين ومحبة الخلق لهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً﴾.

٣ـ ومدافعة الله عن المؤمنين ونصرهم على أعدائهم، قال سبحانه: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الحَيَاةِ الدُّنيا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾.

٤ـ والاستخلاف في الأرض والتمكين: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾.

٥ـ والأمن والطمأنينة قال تعالى في بقية الآية السابقة: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً﴾، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾.

٦ـ وحصول العزة وتمام الكرامة والشرف: قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ العِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وفي مقابل ذلك قال: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القيامة أعمى﴾.

٧ـ وحصول نور البصيرة التي تفرِّق بين الحقِّ والباطل، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ﴾.

قال الإمام الغزالي: (فلا نعمة لله على عباده أعظم من الإيمان والمعرفة، ولا وسيلة إليه سوى انشراح الصَّدر بنور البصيرة، ولا نقمة أعظم من الكفر والمعصية، ولا داعي إليهما سوى عمى القلب بظلمة الجهالة).

فالنعيم الحقيقي ليس بالمتع الزائلة، ولا باللذات الفانية، وإنما بتوثيق الصلة بالله والمعرفة به، قال الشيخ أحمد عز الدين البيانوني رحمه الله:

لذّةُ العيشِ حياةٌ... بمعانٍ تتجددْ

لا نراها في طعامٍ... وشرابٍ يتعدَّدْ

لا ولا بالمالِ يُقنى... وشبابٍ يتمرَّدْ

هذه اللذاتُ تفنى... ليسَ فيها المرءُ يسعدْ

فاصحبِ اللّهَ ووثّق... وُصلةً باللّه تُعقَدْ

تجِدِ العيشَ سُروراً... ونعيماً ليس يَنفَدْ

وتكن فيهِ سعيداً... فاتَّصِلْ باللّهِ تَسعَدْ

إنَّ حصول اليقين للقلب بالقضاء السابق والتقدير الماضي يُعين العبد على أنْ ترضى نفسُه بما أصابه، فمن استطاع أنْ يعمل في اليقين بالقضاء والقدر على الرِّضا بالمقدور فليفعل، فإنْ لم يستطع الرِّضا، فإنَّ في الصَّبر على المكروه خيراً كثيراً.

فهاتان درجتان للمؤمن بالقضاء والقدر في المصائب:

إحداهما: أنْ يرضى بذلك، وهذه درجةٌ عاليةٌ رفيعة جداً، قال الله عز وجل: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾. قال علقمة: هي المصيبة تصيبُ الرَّجلَ، فيعلم أنَّها من عند الله، فيسلِّمُ لها ويرضى.

وعن أنس أن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: (إنَّ الله إذا أحبَّ قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرِّضا، ومن سخط فله السخط)[1].

وكان النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه: (أسألُكَ الرِّضا بعد القضاء)[2].

---

(1) ـ رواه الترمذي في كتاب الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء (٢٣٩٦).

(2) ـ رواه أحمد في المسند (٢١٦٦٦)، وابن حبان في صحيحه (١٩٧١)، والحاكم في المستدرك (١٩٠٠).

وممَّا يدعو المؤمن إلى الرِّضا بالقضاء تحقيقُ إيمانه بمعنى قول النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم: (عَجَباً لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إلا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْراً لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْراً لَهُ) (٢).

وجاء رجلٌ إلى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم، فسأله أنْ يُوصيه وصيَّةً جامعةً موجَزةً، فقال: (لا تتَّهم اللهَ في شيءٍ من قضائه) (٣).

وصاحبُ الرِّضا في راحة ولذة وسرور، قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «إِنَّ اللهَ بِقِسْطِهِ وَعَدْلِهِ جَعَلَ الرَّوْحَ وَالفَرَحَ فِي اليَقِينِ وَالرِّضا، وَجَعَلَ الهَمَّ وَالحَزَنَ فِي الشَّكِّ وَالسُّخْطِ» (٤).

فالرَّاضي لا يتمنَّى غيرَ ما هو عليه من شدَّةٍ ورخاء، كذا رُوِيَ عَنْ عمر وابنِ مسعود وغيرهما. وقال عمر بن عبد العزيز: أصبحت ومالي سرورٌ إلا في مواضع القضاء والقدر.

فمن وصل إلى هذه الدرجة، كان عيشُه كلُّه في نعيمٍ وسرورٍ، قال الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ قال بعض السَّلف: الحياة الطيبة: هي الرِّضا والسَّعادة.

وقال عبد الواحد بن زيد: الرِّضا باب الله الأعظم وجنة الدُّنيا ومستراح العابدين.

وأهل الرِّضا تارةً يلاحظون حكمة المُبْتَلِي وخيرته لعبده في البلاء، وأنَّه غيرُ متَّهم في قضائه، وتارةً يُلاحظون ثوابَ الرِّضا بالقضاء، فيُنسيهم ألم المقضي به، وتارةً يُلاحظون عظمةَ المبتلي وجلالَه وكمالَه، فيستغرقون في مشاهدة ذلك، حتى لا يشعرون بالألم، وهذا يصلُ إليه خواصُّ أهل المعرفة والمحبَّةِ، حتى رُبَّما تلذَّذوا بما أصابهم لملاحظتهم صدوره عن حبيبهم، كما قال بعضهم: أوجدهم في عذابه عُذوبة.

وسُئلَ السَّرِيُّ: هل يجد المحبُّ ألم البلاء؟ فقالَ: لا. وقال بعضهم:

---

(٢) ـ رواه مسلم في كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير (٧٦٩٢).

(٣) ـ رواه أحمد في المسند (٢٢٧١٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (٩٢٦٣)

(٤) ـ رواه البيهقي في شعب الإيمان (٢٠٥)، وابن السري في الزهد (٥٣٥)،

عذابُه فيكَ عَذْبُ ... وبُعْدُهُ فيكَ قُرْبُ
وأَنْتَ عِندي كرُوحي ... بل أَنْتَ مِنها أَحَبُّ
حسْبي مِنَ الحُبِّ أنِّي ... لِمَا تُحِبُّ أُحِبُّ

وقال آخر:

.... فَمَا لجرحٍ إذا أرضاكُمُ ألَمُ.

وقال بعض المحبين:

فديتُك قد جُبِلْتُ على هواكَا ... ونفْسِي ما تَحِنُّ إلى سِوَاكَا
أُحِبّك، لا بِبَعْضِي بل بكُلِّي ... وإن لَمْ يُبْقِ حُبُّكَ لي حِرَاكَا
وَيَقْبُحُ مِنْ سِوَاكَ الْفِعْلُ عِنْدي ... وتَفْعَلُهُ فَيَحْسُنُ مِنْكَ ذَاكَا

وقال آخر:

حَبِيبٌ لَسْتُ أَنظُرُهُ بِعَيْنِي... وَفِي قَلْبِي لَهُ حُبٌّ شَدِيدُ
أُرِيدُ وِصَالَهُ ويُرِيدُ هَجْرِي... فَأَتْرُكُ مَا أُرِيدُ لِمَا يُرِيدُ

فالحب يستولي بحيث يدهش عن إدراك الألم، ولا ينبغي أن ينكر ذلك مَنْ فقده من نفسه، لأنَّه إنَّما فقده لفقد سببه، وهو فرط حُبِّه، ومَنْ لَمْ يذق طعمَ الحُبِّ لم يعرف عجائبه.

سأل رجل الفضيل بن عياض فقال: يا أبا علي، متى يبلغ الرجل غايته من حبِّ الله تعالى؟ فقال له الفضيل: «إذا كان عطاؤه ومنعه إياك عندك سواء، فقد بلغت الغاية من حُبِّه» [1].

وكما قال ابن عطاء: «إنَّما يؤلمك المنع، لعدم فهمك عن الله فيه».

وقيل ليحي في مرضه الذي مات فيه: يُعَافِيكَ اللهُ إِنْ شَاءَ اللهُ، قَالَ: أَحَبُّهُ إِلَيَّ: أَحَبُّهُ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ [2].

---

(1) ـ رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ٨: ١١٣.

(2) ـ رواه البيهقي في شعب الإيمان (٩٦٥٠).

وقال أحمد بن أبي الحوَارِيّ: قَالَ لِي أَبُو سُلَيْمَانَ: يَا أَحْمَدُ، أَيَكُونُ شَيءٌ أَعْظَمَ ثَوَاباً مِنَ الصَّبْرِ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ، الرِّضا عَنِ الله! قَالَ: وَيْحَكَ، قُلْتُ: إِذَا كَانَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُوفِي الصَّابِرِينَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، فَانْظُرْ مَا يَفْعَلُ بِالرَّاضِي عَنْه [١٧].

وقال الفُضَيْلَ بن عِيَاض: أَصلُ الزُّهْدِ: الرِّضا عَنِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ [١٨].

وقال بَعْضُ الخُلَفَاءِ لِأَبِي حَازِمٍ: مَا مَالُكَ؟ فَقَالَ: الرِّضا عَنِ اللهِ، وَالْغِنَى عَنِ النَّاس [١٩].

وسُئِلَ يَحْيَى بن مُعَاذٍ الرَّازِيّ أَيُّ مَجْلِسٍ أَشْهَى وَأَلَذُّ؟ قَالَ: «الجُلُوسُ مَعَ الْفِكْرَةِ فِي مَيْدَانِ التَّوْحِيدِ تَشُمُّ مِنْ رَائِحَةِ الْمَعْرِفَةِ، وَتُسْقَى بِكَأْسِ الْمَحَبَّةِ، سُبْحَانَ اللهِ مَا أَلَذَّهُ مِنْ مَجْلِسٍ، وَأَعْذَبَهُ مِنْ شَرَابٍ». قِيلَ: أَيُّ الطَّعَامِ أَشْهَى؟ قَالَ: « لُقْمَةُ مِنْ ذِكْرِ اللهِ، فِي فَمِ الصَّبْرِ بِتَوْحِيدِ اللهِ، رَفَعَهَا مِنْ مَائِدَةِ الرِّضا عَنِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، عِنْدَ النَّظَرِ إِلَى كَرَامَةِ اللهِ». قِيلَ: فَمَا عِيدُ الْمُؤْمِنِ؟ قَالَ: «السُّرُورُ بِالإِيمَانِ، وَالنُّزْهَةُ بِالْقُرْآنِ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾» [٢٠].

وسُئِلَ الْحَسَنُ عَنِ التوكُّل، فَقَالَ: «الرِّضا عَنِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ» [٢١].

وقال بعضهم: «كَمَالُ الْمَعْرِفَةِ بِاللهِ التَّوَاضُعُ لَهُ، وَكَمَالُ التَّوَاضُعِ الرِّضا» [٢٢].

وقال أبو سليمان الداراني: «الرِّضا عن الله عز وجل والرحمة للخلق درجة المرسلين» [٢٣].

ولما وعد الله المؤمنين جنات عدن، تجري من تحتها الأنهار، خالدين فيها لا يزول عنهم نعيمها ولا ينفد، قال تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ﴾، فرضوان الله ورضاه عن العبد أكبر من ذلك كلِّه، كما قال صلى الله عليه وسلم: إن الله يقول لأهل الجنة: يا

---

(١٧) ـ رواه أبو عوانة في مستخرجه (٢١٧٠)، وفي مسنده (٢٦٨٤).

(١٨) ـ رواه الدينوري في المجالسة وجواهر العلم (٣٠٤٥).

(١٩) ـ رواه الدينوري في المجالسة وجواهر العلم (٣٢٧١).

(٢٠) ـ رواه البيهقي في شعب الإيمان (٤٣٧).

(٢١) ـ رواه البيهقي في شعب الإيمان (١٢١٧)، وابن أبي الدُّنيا في التوكُّل على الله (١٧).

(٢٢) ـ رواه البيهقي في شعب الإيمان (١٢١٨).

(٢٣) ـ رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ٩: ٢٦٢.

أهل الجنة! فيقولون: لبّيك ربَّنَا وسعْدَيك! فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: ما لنا لا نرضى، وقد أعطيتنا ما لم تُعْطِ أحداً من خلقك؟ فيقول: أنا أعطيكم أفضلَ من ذلك. قالوا: يا ربّ، وأيُّ شيء أفضل من ذلك! قال: أُحِلُّ عليكم رضوَاني، فلا أسخطُ عليكم بعده أبداً [٤]؟

والدرجة الثانية: أنْ يصبرَ على البلاء، وهذه لمن لم يستطع الرِّضا بالقضاء، وفي الصَّبر خيرٌ كثيرٌ، فإنَّ الله أمرَ به، ووعدَ عليه جزيلَ الأجر. قال الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، وقال: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾. قال الحسن: الرِّضا عزيزٌ، ولكن الصبر معولُ المؤمن.

والفرق بين الرِّضا والصبر: أنَّ الصَّبر: كفُّ النَّفس وحبسُها عن التسخط مع وجود الألم، وتمنِّي زوال ذلك، وكفُّ الجوارح عن العمل بمقتضى الجزع، والرِّضا: انشراح الصدر وسعته بالقضاء، وترك تمنِّي زوال ذلك المؤلم، وإنْ وجدَ الإحساسُ بالألم، لكن الرِّضا يخفِّفُه لما يباشر القلبَ من رَوح اليقين والمعرفة، وإذا قوي الرِّضا، فقد يزيل الإحساس بالألم بالكلية [٥]؟

وقد أمر الله تعالى بالصبر الجميل فقال: ﴿فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً﴾، عن الحسن رضي الله عنه قال: الصبر الجميل الذي ليس فيه شكوى إلا إلى الله.

قال الإمام الرازي: فالصبر الجميل هو: أنْ يعرف أنَّ منزل ذلك البلاء هو الله تعالى، ثم يعلم أنَّ الله سبحانه مالك الملك، ولا اعتراض على المالك في أنْ يتصرَّف في ملك نفسه، فيصير استغراق قلبه في هذا المقام مانعاً له من إظهار الشكاية. (وهذا الوجه الأول).

والوجه الثاني: أنَّه يعلم أنَّ منزل هذا البلاء، حكيم لا يجهل، وعالم لا يغفل، عليم لا ينسى، رحيم لا يطغى، وإذا كان كذلك فكان كلُّ ما صدر عنه حكمة وصواباً، فعند ذلك يسكت ولا يعترض.

([٤]) ـ رواه البخاري في كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار (٦١٨٣).

([٥]) ـ انظر: جامع العلوم والحكم، شرح الحديث التاسع عشر: (يا غلام إني أعلمك كلمات..).

والوجه الثالث: أنَّه ينكشف له أنَّ هذا البلاء من الحق، فاستغراقه في شهود نور المُبْلي، يمنعه من الاشتغال بالشكاية عن البلاء، ولذلك قيل: المحبة التامة لا تزداد بالوفاء ولا تنقص بالجفاء، فهذا هو الصبر الجميل. أما إذا كان الصبر لا لأجل الرِّضا بقضاء الحق سبحانه بل كان لسائر الأغراض، فذلك الصبر لا يكون جميلاً، والضابط في جميع الأفعال والأقوال والاعتقادات أنَّ كلَّ ما كان لطلب عبودية الله تعالى كان حسناً وإلا فلا [1].

وقال يحي بن معاذ: الصبر الجميل أن يتلقى البلاء بقلب رحيب ووجه مستبشر.

وقال ذو النون المصري: الصبر التباعد من المخالفات، والسكون عند تجرع غصص البلية، وإظهار الغنى مع حلول الفقر بساحات المعيشة.

وقال أبو علي الدقاق: فاز الصابرون بعزِّ الدارين؛ لأنَّهم نالوا مِنَ الله معيَّته فإنَّ الله مع الصابرين.

ونظر علي بن أبي طالب إلى عدي بن حاتم كئيباً حزيناً فقال له: ما لي أراك كئيباً حزيناً؟ فقال: وما يمنعني يا أمير المؤمنين وقد قتل أبي، وفقئت عيني؟ فقال: «يا عدي بن حاتم، إنه من رضي بقضاء الله جرى عليه، وكان له أجراً، ومن لم يرض بقضاء الله جرى عليه، وحبط عمله» [2].

وعن عبد الله بن مسعود قال: «لأن يعض أحدكم على جمرة حتى تطفأ خير من أن يقول لأمر قضاه الله ليت هذا لم يكن» [3].

وشكا رجل إلى الحسن سوء الحال وجعل يبكي، فقال الحسن: يا هذا كل هذا اهتماماً بأمر الدُّنيا، والله لو كانت الدُّنيا كلها لعبد فسلبها ما رأيتها أهلاً لأن يُبْكَى عليها.

---

(1)- تفسير الرازي ١٨: ٤٣١.

(2)- رواه البيهقي في شعب الإيمان، (٩٨٠٨)، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٤٠: ٩٤، وذكره المزي في تهذيب الكمال ١٩: ٥٣٠.

(3)- رواه البيهقي في شعب الإيمان، (٢١٣)، وفي القضاء والقدر (٤١٢)، و (١٥٢)، وقال: هذا إسناد صحيح وروي عن عبد الله مرفوعاً. وابن أبي شيبة في المصنف ٨: ١٦٥، وأبو نعيم في حلية الأولياء ١: ٧١.

قال صفي الدين الحلي:

كُنْ عن هُمُومِكَ مُعْرِضَا ... وكِلِ الأُمُورَ إلى القَضَا

وابشرْ بِخَيرٍ عَاجِلٍ ... تنسى به مَا قَدْ مَضَى

فلَرُبَّمَا اتَّسَعَ المضيقُ ... ورُبَّمَا ضَاقَ الفَضَا

ولَرُبَّ أمرٍ مُسْخِطٍ ... لَكَ في عواقبه رِضَا

اللّهُ يفعلُ ما يشاء ... فلا تكنْ مُعْتَرِضَا

اللّهُ عَوَّدَكَ الجميلَ ... فَقِسْ عَلَى مَا قَدْ مَضَى

وعروة بن الزبير بن العوام رضي الله عنه قطعت ساقُه ومات ولدُه في يومٍ واحد، فلما جاءه النَّاس ليخفِّفوا عنه ويواسوه، قال: إني واللّه لراضٍ عن ربي، فقد أعطاني اللّهُ أربعة من الولد فأخذ واحداً وأبقى ثلاثة فالحمد لله، وأعطاني أربعة أطراف فأخذ واحداً وأبقى ثلاثة، فالحمد لله.

وقال بعض العلماء: من كان نظره في وقت النِّعَم إلى المُنْعِم لا إلى النِّعْمَة، كان نظرُهُ في وقت البلاء إلى المُبْلي لا إلى البلاء، فيكون في جميع حالاته غريقاً في ملاحظة الحقِّ، متوجهاً إلى الحبيب المطلق، وهذه أعلى مراتب السَّعادة.

والله عز وجل لطيفٌ بعباده، وهو أدرى بما يصلحهم، قال تعالى: وَعَسَى أن تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أن تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَالله يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فعلى العبد التسليم لأمر الله في كل أمر من أموره، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «ما أبالي على أي حال أصبحت، على ما أحب أو على ما أكره، لأني لا أدري الخير فيما أحب أو فيما أكره» [1].

ولله في أثناء كُلِّ مُلمَّةٍ ... وإنْ آلمتْ، لُطْفٌ يحضُّ على الشُّكرِ

وقال الشيخ ابن عطاء اللّه: «مَنْ ظَنَّ انفكَاكَ لُطْفِه عن قَدَرِه، فذلك لقُصُورِ نَظَرِه».

وقال الشيخ محمد بن حسن الشهير بابن عجلان الحسيني الشافعي الدمشقي (المتوفى سنة ١٠٩٦) مضمناً في آخر القصيدة بيتي أبي العباس المرسي:

([1]) ـ رواه ابن المبارك في الزهد والرقائق، (٤٢٠)، والدولابي في الكنى والأسماء (١٢٨٥).

حتَّام في ليل الهمو ... م زناد فكرك ينقدحْ

قلبٌ تحرَّق بالأسى ... ودموع عين تنفسح

ارفق بنفسك واعتصم ... بحمى المهيمن تنشرح

واضْرَع له إنْ ضَاقَ عنـ ... ـك خناق حالك ينفسح

ما أمَّ ساحةَ جوده ... ذو محنة إلا منح

أو جاءه ذو المعضلا ... ت بمُغْلق إلا فتح

فَدَع السِّوى وانهج على ... نهجِ السَّوِي المتضح

واسمع مقالة ناصح ... إن كنت ممَّن ينتصح

(ما كان إلا ما يريـ ... ـد فدع مرادك وانطرح

واترك وساوسك التي ... شغلت فؤادك تسترح) [3].

وبعد؛ أَمَا آنَ لكَ أنْ تسلِّم أمرك لله، وتعلَمَ أنَّ اللهَ أرحمُ بك مِـنَ الـوالدة بولدهـا، فترضى بما كتب الله لك، فيرضى الله عنك، وتذوق حلاوةَ الإيمـان، وتكـونَ سـعيداً مسروراً في الدراين.

* * * * *

نظرات في كتاب «إحياء علوم الدين» للإمام الغزالي رحمه الله تعالى

ذكر بعض الدعاة عن كتاب «إحياء علوم الدين» أنَّ فيه (سطوةً عارمةً على السَّعادة واليُسْرِ اللذيْنِ أتى بهما الشارعُ الحكيمُ)، وقال: (فكتابُ إحياء عِلوم الدينِ للغزاليِّ، دعوةٌ صارخةٌ للتجويع والآصار والأغلالِ التي أتى رسولُنا صلى الله عليه وسلم لوضْعِها عنِ العالمين. فهو يجمعُ من الأحاديثِ، المتردِّية والنطيحة وما أكل السَّبُعُ، وغالبُها ضعيفةٌ أو موضوعةٌ، ثم يبني عليها أُصُولاً يظنُّها منْ أعظمِ ما يُوصِّلُ العبدُ إلى ربِّه. وقارنتُ بين إحياءِ علومِ الدين وبين الصحيحين للبخاري ومسلم، فبان البونُ

(3) ـ خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر للمحبي ٢: ٣٩٢. وآخر بيتين للشيخ أبي العباس المرسي كمـا في آخـر كتاب: «حل العقال» للأديب الشيخ عبد الله الحجازي الحلبي.

وظهر الفرْقُ، فذاك عَنَتٌ ومشقَّةٌ وتكلُّفٌ، وهذه يُسْرُ وسماحةٌ وسهولةٌ، فأدركتُ قول الباري: {وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى}). اهـ

وأقول في ذلك:

«إحياء علوم الدين» من أفضل الكتب وأعظمها في تزكية النفس وتصفيتها من الشوائب والآفات، وفي معرفة الإنسان خبايا نفسه ودخائلها، وكيف يعالجها، ومعرفة حقيقة العبادة وروحها، والكتاب كلُّه يقوم على قاعدة أساسيَّة، تتلخَّص بكلمتين، تقرؤهما في كلِّ باب من أبوابه، أو فصل من فصوله: تصحيح المعاملة مع الله تعالى، ومع عباد الله على أساس من العلم والعمل، مع الاستهداء بفهم السلف وأحوالهم..

وهو اسم على مسمًّى، إذ كان إحياء لما خفت نوره من علوم الدين، وامَّحت آثاره من حياة النَّاس، فنهض هذا الإمام الجليل لإحيائها وتجديدها، ووضعها في مسارها الصحيح، وبؤرة التأثير والتغيير، فأحيا بعمله الأمّة، وجدّد انبعاثها..

وهو كتاب كتب الله له القبول بين النَّاس، وتلقَّته خيار الأُمَّة بالاعتناء والاهتمام، وانتفعت به جيلاً بعد جيل، ومؤلّفه الإمام الغزاليُّ حُجَّة الإسلام شهد له الأئمّة المعتبرون بذلك، وعدُّوه مجدِّد الإسلام في قرنه، وقد وصف الإمام الذهبي مؤلِّفه في السِّيَر: (الغزالي الشيخ الإمام البحر، حُجَّة الإسلام، أعجوبة الزمان)، ويكفي الكتاب ومؤلِّفه شهادة أنَّ كلَّ مَنْ أتى بعده، وكتب فيما كتب نسج على منواله، واقتفى آثاره، واستفاد منه، ودونكم التاريخ يشهد بما أقول، وهو شاهد صدق، وحكم عدل.

وليس في الكتاب (سطوة عارمة على السَّعادة واليسر اللذيْنِ أتى بهما الشارعُ الحكيمُ)، ومؤلِّفه من أسعد النَّاس بربِّه فكيف يسطو على السَّعادة وهو مَنْ يعلمها للناس؟

لقد اهتمَّ الإمام الغزالي في الإحياء بأمر السَّعادة في كثير من المواضع، وإنْ كان الكتابُ كلُّه يدعو إلى السَّعادة، منها قوله رحمه الله مبيِّناً أنَّ أصل السَّعادة في العلم: (وأعظم الأشياء رتبة في حقِّ الآدمي: السَّعادة الأبدية، وأفضل الأشياء ما هو وسيلة

إليها، ولن يُتوصَّل إليها إلا بالعلم والعمل، ولا يُتَوصَّل إلى العمل إلا بالعلم بكيفية العمل، فأصل السَّعادة في الدُّنيا والآخرة هو العلم فهو إذن أفضل الأعمال).

وقال في ذلك أيضاً: (وقد ظهر شرف العلم من قبل العقل، والعقل منبع العلم ومطلعه وأساسه، والعلم يجري منه مجرى الثمرة من الشجرة، والنور من الشمس، والرؤية من العين، فكيف لا يشرف ما هو وسيلة السَّعادة في الدُّنيا والآخرة).

وذكر رحمه الله أنَّ السَّعادة الحقيقية في التقرُّب إلى الله سبحانه وليس في إيثار الخلق على الخالق، قال: (وما أبعدَ عن السَّعادة مَنْ باع مهمَّ نفسِهِ اللازم بمهمِّ غيره النادر، إيثاراً للتقرُّب والقبول من الخلق على التقرُّب من الله سبحانه).

وذكر أنَّ من أسباب السَّعادة: الإحسان، فقال: (الباب الرابع في الإحسان في المعاملة، وقد أمر الله تعالى بالعدل والإحسان جميعاً، والعدل سبب النجاة فقط، وهو يجري من التجارة مجرى رأس المال، والإحسان سبب الفوز ونيل السَّعادة).

وذكر أنَّ السَّعادة لا تكون إلا بسلامة القلب فقال: (وقد أهمل النَّاس طبَّ القلوب، واشتغلوا بطبِّ الأجساد، مع أنَّ الأجساد قد كُتِبَ عليها الموتُ لا محالة، والقلوب لا تدرك السَّعادة إلا بسلامتها، إذ قال تعالى: {إِلا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ}).

وذكر من أسباب السَّعادة: السعي والجد مع عدم القنوط والإعجاب بالعمل، قال رحمه الله بعد أن ذكر قول ابن مسعود «الهالك في اثنتين القنوط والعجب»: (وإنما جمع بينهما؛ لأنَّ السَّعادة لا تنال إلا بالسعي والطلب والجد والتشمر، والقانط لا يسعى ولا يطلب، والمعجب يعتقد أنَّه قد سعد وقد ظفر بمراده فلا يسعى، فالموجود لا يطلب، والمحال لا يطلب، والسَّعادة موجودة في اعتقاد المعجب حاصلة له، ومستحيلة في اعتقاد القانط، فمن ههنا جمع بينهما).

وذكر أنَّ أعظم نعمة هي الإيمان الذي هو أساس السَّعادة، قال رحمه الله: (فمفتاح السَّعادة: التيقُّظ والفطنة، ومنبع الشقاوة: الغرور والغفلة، فلا نعمة لله على عباده أعظم من الإيمان والمعرفة، ولا وسيلة إليه سوى انشراح الصدر بنور البصيرة، ولا نقمة أعظم من الكفر والمعصية، ولا داعي إليهما سوى عمى القلب بظلمة الجهالة).

وليس الإحياء: (دعوة صارخة للتجويع والآصار والأغلالِ التي أتى رسولُنا صلى الله عليه وسلم لوضْعِها عنِ العالمين).

فالإمام الغزالي رحمه الله يوازن بين الاهتمام في الدُّنيا والآخرة، وأنَّ حبَّ السَّلامة والعافية والكرامة في الدُّنيا لا يتنافى مع حبِّ الله والعمل للآخرة، فهو لا يغفل جانب الدُّنيا على حساب الآخرة، فقد قال: (وليس من شرط حبِّ الله أن لا يحب في العاجل حظّاً ألبتة، إذ الدعاء الذي أمر به الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه فيه جمع بين الدُّنيا و الآخرة، ومن ذلك قولهم: (ربنا آتنا في الدُّنيا حسنة وفي الآخرة حسنة) وقال عيسى عليه السلام في دعائه: (اللَّهُمَّ لا تشمت بي عدوي، ولا تَسُؤْ بي صديقي، ولا تجعل مصيبتي في ديني، ولا تجعل الدُّنيا أكبر همي)، فدفع شماتة الأعداء من حظوظ الدُّنيا، ولم يقل: (ولا تجعل الدُّنيا أصلاً من همي)، بل قال: (لا تجعلها أكبر همي) وقال نبينا صلى الله عليه وسلم في دعائه: (اللَّهُمَّ إني أسألك رحمة أنال بها شرف كرامتك في الدُّنيا و الآخرة)، وقال: (اللَّهُمَّ عافني من بلاء الدُّنيا وبلاء الآخرة)، وعلى الجملة فإذا لم يكن حبُّ السَّعادة في الآخرة مناقضاً لحبِّ الله تعالى فحبُّ السلامة والصحة والكفاية والكرامة في الدُّنيا كيف يكون مناقضاً لحبِّ الله، والدُّنيا والآخرة عبارة عن حالتين، إحداهما أقرب من الأخرى، فكيف يُتَصوَّر أنْ يحب الإنسان حظوظ نفسه غداً ولا يحبها اليوم، وإنما يحبها غداً لأنَّ الغد سيصير حالاً راهنة، فالحالة الراهنة لا بدَّ إلا أن تكون مطلوبة أيضاً إلا أنَّ الحظوظ العاجلة منقسمة إلى ما يضاد حظوظ الآخرة ويمنع منها، وهي التي احترز عنها الأنبياء والأولياء، وأمروا بالاحتراز عنها، وإلى ما لا يضاد وهي التي لم يمتنعوا منها، كالنكاح الصحيح وأكل الحلال وغير ذلك، فما يضاد حظوظ الآخرة فحق العاقل أن يكرهه ولا يحبه، أعني أن يكرهه بعقله لا بطبعه، كما يكره التناول من طعام لذيذ لملك من الملوك يعلم أنه لو أقدم عليه لقطعت يده أو حزت رقبته، لا بمعنى أنَّ الطعام اللذيذ يصير بحيث لا يشتهيه بطبعه ولا يستلذه لو أكله، فإنَّ ذلك محال ولكن على معنى أنَّه يزجره عقله عن الإقدام عليه، وتحصل فيه كراهة الضرر المتعلق به، والمقصود من هذا: أنَّه لو أحب أستاذه لأنَّه يواسيه ويعلمه، أو تلميذه لأنَّه يتعلم منه ويخدمه، وأحدهما حظٌّ عاجل والآخر آجل،

لكان في زمرة المتحابِّين في الله، ولكن بشرط واحد، وهو أن يكون بحيث لو منعه العلم مثلاً، أو تعذَّر عليه تحصيله منه، لنقص حبُّه بسببه فالقدر الذي ينقص بسبب فَقْدِهِ هو لله تعالى، وله على ذلك القدر ثواب الحب في الله، وليس بمستنكر أن يشتد حبُّك لإنسان لجملة أغراض ترتبط لك به، فإن امتنع بعضها نقص حبُّك، وإن زاد زاد الحبُّ، فليس حبُّك الذهب كحبِّك للفضة إذا تساوى مقدارهما، لأنَّ الذهب يوصل إلى أغراض هي أكثر مما توصل إليه الفضة، فإذن يزيد الحبُّ بزيادة الغرض، ولا يستحيل اجتماع الأغراض الدنيوية والأخروية، فهو داخل في جملة الحبِّ لله وحده وهو أنَّ كلَّ حبٍّ لولا الإيمان بالله و اليوم الآخر لم يُتَصَوَّر وجوده فهو حبٌّ في الله).

نعم في الكتاب دعوة إلى الزُّهد الذي قد يكون فيه مبالغة في الامتناع عن متاع الدُّنيا مثل قوله رحمه الله: (وقد اشتدَّ خوف السلف من تناول لذيذ الأطعمة وتمرين النفس عليها، ورأوا أنَّ ذلك علامة الشقاوة، ورأوا منع الله تعالى منه غاية السَّعادة، حتى روي أنَّ وهب بن منبه قال: التقى ملكان في السماء الرابعة فقال أحدهما للآخر: من أين؟ قال: أُمِرْتُ بسوق حوت من البحر اشتهاه فلان اليهودي لعنه الله، وقال الآخر: أُمِرْتُ بإهراق زيت اشتهاه فلان العابد، فهذا تنبيه على أنَّ تيسير أسباب الشهوات ليس من علامات الخير، ولهذا امتنع عمر رضي الله عنه عن شربة ماء بارد بعسل، وقال: اعزلوا عني حسابها، فلا عبادة لله تعالى أعظم من مخالفة النفس في الشهوات بالشهوات وترك اللذات).

ومن ذلك قوله: (أما علمت أنَّ ترك الاشتغال بالمال وفراغ القلب للذكر والتذكر والتذكار والفكر والاعتبار أسلم للدين، وأيسر للحساب، وأخف للمسألة، وآمن من روعات القيامة، وأجزل للثواب، وأعلى لقدرك عند الله أضعافاً، بلغنا عن بعض الصحابة أنه قال: لو أنَّ رجلاً في حجره دنانير يعطيها، والآخر يذكر الله، لكان الذاكر أفضل، وسئل بعض أهل العلم عن الرجل يجمع المال لأعمال البر، قال: تركه أبرُّ به، وبلغنا أنَّ بعض خيار التابعين سئل عن رجلين، أحدهما طلب الدُّنيا حلالاً فأصابها، فوصل بها رحمه وقدم لنفسه، وأما الآخر فإنه جانبها فلم يطلبها ولم يتناولها، فأيهما أفضل؟ قال: بعيد والله ما بينهما، الذي جانبها أفضل كما بين مشارق الأرض

ومغاربها، ويحك فهذا الفضل لك بترك الدُّنيا على من طلبها، ولك في العاجل إن تركت الاشتغال بالمال، وإن ذلك أروح لبدنك وأقل لتعبك، وأنعم لعيشك وأرضى لبالك، وأقل لهمومك، فما عذرك في جمع المال وأنت بترك المال أفضل ممن طلب المال لأعمال البر، نعم وشغلُك بذكر الله أفضل من بذل المال في سبيل الله، فاجتمع لك راحة العاجل مع السلامة والفضل في الآجل، وبعد فلو كان في جمع المال فضل عظيم لوجب عليك في مكارم الأخلاق أن تتأسى بنبيك إذ هداك الله به، وترضى ما اختاره لنفسه من مجانبة الدُّنيا، ويحك تدبر ما سمعت وكن على يقين أن السَّعادة والفوز في مجانبة الدُّنيا).

لكن هذه مقامات وأحوال لا يلزم النَّاس كلهم الأخذ بها، فإنَّ مِنَ النَّاس مَنْ لا تقوى نفسُه على العبادة إذا كان في شدة، أو كان جائعاً أو غير مروِّح عن نفسه ببعض المباحات التي تجدد نشاطه، كما قال الإمام ابن الجوزي رحمه الله: (ما زال جماعة من المتزهدين يزرون على كثير من العلماء إذا انبسطوا في مباحات، والذي يحملهم على هذا: الجهل، فلو كان عندهم فضل علم ما عابوهم، وهذا لأنَّ الطباع لا تتساوى، فرب شخص يصلح على خشونة العيش، وآخر لا يصلح على ذلك، ولا يجوز لأحد أن يحمل غيره على ما يطيقه هو، غير أن لنا ضابطاً هو الشرع، فيه الرخصة وفيه العزيمة. فلا ينبغي أن يلام من حصر نفسه في ذلك الضابط.

ورب رخصة كانت أفضل من عزائم لتأثير نفعها.

ولو علم المتزهدون أنَّ العلم يوجب المعرفة بالله تعالى، فتنبت القلوب من خوفه، وتنحل الأجسام للحذر منه فوجب التلطف حفظاً لقوة الراحلة، ولأن آلة العلم والحفظ: القلب والفكر، فإذا رفهت الآلة جاد العمل، وهذا أمر لا يعلم إلا بالعلم.

فلجهل المتزهدين بالعلم أنكروا ما لم يعلموا، وظنوا أن المراد إتعاب الأبدان، وإنضاء الرواحل، وما علموا أن الخوف المضني يحتاج إلى راحة مقاومة، كما قال القائل.
روحوا القلوب تعي الذكر)[3].

---

(3) ـ صيد الخاطر: ٣٠.

وعلى القارئ لإحياء علوم الدين أن يقارن كلام الإمام الغزالي رحمه الله بعضه ببعض، فكما حذَّر من الدُّنيا وزهَّد فيها، فقد حثَّ على الاعتدال في أمر الدُّنيا، وأن لا يتركها العبد بالكلية، فقد قال بعد أن ذكر طوائف النَّاس ومذاهبهم الفاسدة في الدُّنيا: (وإنما النَّاجي منها فرقة واحدة وهي السالكة ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وهو أن لا يترك الدُّنيا بالكلية، ولا يقمع الشهوات بالكلية. أما الدُّنيا فيأخذ منها قدر الزاد، وأما الشهوات فيقمع منها ما يخرج عن طاعة الشرع والعقل. ولا يتبع كلَّ شهوة، ولا يترك كلَّ شهوة، بل يتبع العدل. ولا يترك كلَّ شيء من الدُّنيا، ولا يطلب كلَّ شيء من الدُّنيا، بل يعلم مقصود كل ما خلق من الدُّنيا ويحفظه على حدِّ مقصوده. فيأخذ من القوت ما يقوي به البدن على العبادة، ومن المسكن ما يحفظ عن اللصوص والحر والبرد، ومن الكسوة كذلك، حتى إذا فرغ القلب من شغل البدن أقبل على الله تعالى بكنه همته، واشتغل بالذكر، والفكر، طول العمر، وبقي ملازماً لسياسة الشهوات، ومراقبا لها، حتى لا يجاوز حدود الورع والتقوى. ولا يعلم تفصيل ذلك إلا بالاقتداء بالفرقة الناجية وهم الصحابة، فإنه عليه السلام لما قال: (الناجي منها واحدة) قالوا يا رسول الله (ومن هم) قال: (أهل السُّنَّة والجماعة) فقيل (ومن أهل السُّنَّة والجماعة) قال: (ما أنا عليه وأصحابي). وقد كانوا على النهج القصد، وعلى السبيل الواضح الذي فصلناه من قبل، فإنهم ما كانوا يأخذون الدُّنيا للدنيا بل للدين، وما كانوا يترهبون ويهجرون الدُّنيا بالكلية، وما كان لهم في الأمور تفريط ولا إفراط، بل كان أمرهم بين ذلك قواماً، وذلك هو العدل والوسط بين الطرفين، وهو أحب الأمور إلى الله تعالى).

والمقارنة بين الإحياء وصحيحي البخاري ومسلم مقارنة غير صحيحة، فالإحياء من كتب إصلاح النفوس وتزكيتها، وأما الصحيحان فهما من متون السُّنَّة النبويَّة، ويمكن المقارنة مثلاً بين الإحياء ومدارج السالكين.

الإطار الذي تقرأ فيه كتب التراث، «إحياء علوم الدين» نموذجاً:

إنَّ كتب التراث على تنوُّعها واختلاف موضوعاتها، وما يثور حولها من جدل واختلاف ينبغي أن تقرأ في إطار الحقائق التالية:

١ـ أن تكون محكومةً بالمنهج الشرعيّ الوسطيّ، وأن نحتكم معها إليه، وهو المنهج الذي تؤيِّده نصوص الكتاب والسُّنَّة، بلا غلوٍّ ولا انحراف.

٢ـ ما غلب منها خيره، وعظم نفعه، وقلَّ خطؤه، يُقبل ويُعتدُّ به، ويُحذر خطؤه ويجتنب، ويُنبَّه عليه بما يناسب من آداب الشريعة وإرشادها، ويدخل ذلك تحت القاعدة الحكيمة: «خذ ما صفا، ودع ما كدر»، ولو أنَّ النَّاس احتكموا إلى هذه القاعدة اليوم وحكَّموها، لوفَّروا كثيراً من الجهود والطاقات، والأموال والأوقات.

ولهذا لم يهدر علماء أهل السُّنَّة تفسير الإمام الزمخشريِّ المعتزليّ وتراثه وتراث أمثاله، وإنَّما تعقَّبوا أخطاءه ونبَّهوا عليها، نصحاً لله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وكتابه ودينه.

٣ـ ليس من منهج أهل السُّنَّة وخيار هذه الأمّة التشهير بما قلَّ خطؤه، وكثر خيره، مع إغفال حسناته ومزاياه، فليس ذلك من العدل والإنصاف، بل هو من الشطط، وبخس النَّاس أشياءهم. ولو اتُّبع هذا المنهج المجانف للحقِّ لأُهدرت أكثر كتب التراث، وخسرنا الاستفادة منها.

٤ـ ما وقع من أخطاء علميَّة أو اجتهاديَّة في كثير من كتب التراث إنَّما سببه تأثير البيئة الجانحة عن الحقِّ، المجانبة لمنهج الاعتدال، فرُبَّما لجأ بعض الدعاة الربَّانيّين إلى اتِّخاذ منهج مبالغ فيه في الاتّجاه الآخر في ظاهر الأمر، لردّ النَّاس إلى منهج الاعتدال المطلوب، وهم أعلم النَّاس به، ولا يجهلونه، ولا يرتضون عنه بدلاً.

ومن هذا المنطلق فقد حوى الكتاب حشداً من النصوص الشرعيَّة، وبخاصَّة من الأحاديث النبويَّة، وإذ كان المؤلّف لم تكن له عناية خاصّة بعلم الحديث، وتخصُّص فيه، فقد كثرت في كتابه الأحاديث الضعيفة، وما لا أصل له معتبر، ممّا أضعف قيمته العلميَّة، فنهض الإمام المحدِّث العراقيُّ بتخريج أحاديثه لتلافي هذا الخلل، وسدّ هذا النقص، فأصبح القارئ للإحياء على بيِّنة من أحاديثه فيترك ما لا يصح الاحتجاج به، وكلٌّ يُؤخَذُ مِنْ قوله ويُرَدُّ إلا مَنْ عصمه الله تعالى.

وهكذا كان أدب علمائنا، أن يستدرك اللاحق على السابق، ويكمِّل عمله النافع، ولا يلغيه ولا ينتقصه، وهذا من علامات إخلاصهم لدين الله، ونصحهم لعباد الله، وتجرُّدهم عن حظوظ النفس وأهوائها، وهو أدب فقدناه في أيّامنا فأسأنا لأنفسنا وتراثنا، وأصبح بأسنا بيننا، وأشمتنا بنا عدوّنا، ولا حول ولا قوّة إلا بالله.

ومن الأمور التي تنتقد في الكتاب قوله: (فإن التوكُّل من مقامات الدِّين يُستعان به على التفرُّغ لله تعالى فما للبطال والتوكُّل، وإن كان مشتغلاً بالله ملازماً لمسجد أو بيت وهو مواظب على العلم والعبادة فالنَّاس لا يلومونه في ترك الكسب ولا يكلِّفونه ذلك، بل اشتغاله بالله تعالى يقرِّر حُبَّه في قلوب النَّاس حتى يحملون إليه فوق كفايته، وإنما عليه أن لا يغلق الباب ولا يهرب إلى جبل من بين النَّاس وما رؤي إلى الآن عالم أو عابد استغرق الأوقات بالله تعالى وهو في الأمصار فمات جوعاً ولا يرى قط، بل لو أراد أن يطعم جماعة من النَّاس بقوله لقدر عليه، فإنَّ مَنْ كان لله تعالى كان الله عز وجل له، ومن اشتغل بالله عز وجل ألقى الله حُبَّه في قلوب النَّاس، وسخَّر له القلوب كما سخَّر قلبَ الأم لولدها، فقد دبَّر الله تعالى الملك والملكوت تدبيراً كافياً لأهل الملك والملكوت، فمن شاهد هذا التدبير وثق بالمدبِّر واشتغل به، وآمن ونظر إلى مدبِّر الأسباب لا إلى الأسباب).

ثم قال: (فتركه التوكُّل واهتمامه بالرزق غاية الضعف والقصور) وقال: (فالاهتمام بالرزق قبيح بذوى الدين وهو بالعلماء أقبح لأنَّ شرطهم القناعة والعالم القانع يأتيه رزقه ورزق جماعة كثيرة إن كانوا معه إلا إذا أراد أن لا يأخذ من أيدى النَّاس ويأكل من كسبه فذلك له وجه لائق بالعالم العامل الذي سلوكه بظاهر العلم والعمل، ولم يكن له سير بالباطن فإن الكسب يمنع عن السير بالفكر الباطن فاشتغاله بالسلوك مع الأخذ من يد من يتقرَّب إلى الله تعالى بما يعطيه أولى لأنه تفرُّغٌ لله عز وجل وإعانةٌ للمعطي على نيل الثواب).

أقول: - وليس لمثلي أنْ يَرُدَّ على الإمام الغزالي ولكنَّها طبيعة المتطفلين على أهل العلم - التوكُّل حقيقته في القلب، فلا تعارض بين عمل الجوارح والأخذ بالأسباب

وبين التوكُّل على الله، فقول الإمام الغزالي رحمه الله: (فالنَّاس لا يلومونه في ترك الكسب، ولا يكلِّفونه ذلك، بل اشتغاله بالله تعالى يقرِّر حُبَّه في قلوب النَّاس حتى يحملون إليه فوق كفايته)، وقوله: (فالاهتمام بالرزق قبيح بذوى الدِّين وهو بالعلماء أقبح)، وقوله: (فاشتغاله بالسلوك مع الأخذ مِنْ يد مَنْ يتقرب إلى الله تعالى بما يعطيه أولى، لأنه تفرغ لله عز وجل وإعانة للمعطي على نيل الثواب).

هذا غير صحيح وهو مخالف لقول النبي صلى الله عليه وسلم: (الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى) [٣٢]؛ وقوله صلى الله عليه وسلم: (إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاس) [٣٣]؛ وقوله: (نعم المال الصالح، للرجل الصالح) [٣٤]؛ وقال صلى الله عليه وسلم: (المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف) [٣٥]؛ ومن القوة: القوة الاقتصادية، وقد أتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه على قوم فقال: مَا أَنْتُمْ؟ فَقَالُوا: نَحْنُ الْمُتَوَكِّلُونَ، فقَالَ: «بَلْ أَنْتُمُ الْمُتَّكِلُونَ، أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِالْمُتَوَكِّلِينَ؟ رَجُلٌ أَلْقَى حَبَّهُ فِي بَطْنِ الْأَرْضِ، ثُمَّ تَوَكَّلَ عَلَى رَبِّهِ»، وَقَوْلُهُ: (الْمُتَّكِلُونَ) يَعْنِي عَلَى أَمْوَالِ النَّاس [٣٦]؛ وقال سعيد بن المسيب: «لا خَيْرَ فِيمَنْ لا يُحِبُّ المالَ لِيَصِلَ بِهِ رَحِمَهُ، وَيُؤَدِّيَ بِهِ أَمَانَتَهُ، وَيَسْتَغْنِيَ بِهِ عَنْ خَلْقِ رَبِّهِ» [٣٧]؛ وعن سعيد بن المسيب أنه لما حضره الموت ترك دنانير وقال: «اللهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي لَمْ أَجْمَعْهَا إِلَّا لِأَصُونَ بِهَا حَسَبِي وَدِينِي» [٣٨]؛ وسأل رجل الحسن فقال: يا أبا سعيد أفتح مصحفي فأقرأه حتى أمسي؟ قال

---

(٣٢)ـ رواه البخاري في كتاب الزكاة، باب لا صدقة إلا عن ظهر غنى (١٣٦١)، ومسلم في كتاب الزكاة، باب بيان أن اليد العليا خير من اليد السفلى (٢٤٣٢).

(٣٣)ـ رواه البخاري في كتاب الوصايا، باب أن يترك ورثته أغنياء خير من أن يتكففوا النَّاس (٢٥٩١)، ومسلم في كتاب الوصية، باب الوصية بالثلث (٤٢٩٦).

(٣٤)ـ رواه أحمد في المسند (١٧٧٦٣)، وابن حبان في صحيحه (٣٢١٠).

(٣٥)ـ رواه مسلم في كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله (٦٩٤٥).

(٣٦)ـ رواه البيهقي في شعب الإيمان (١١٦٢).

(٣٧)ـ رواه البيهقي في شعب الإيمان (١١٩٢).

(٣٨)ـ رواه البيهقي في شعب الإيمان (١١٩٥).

الحسن: «اقْرَأْهُ بِالْغَدَاةِ، وَاقْرَأْهُ بِالْعَشِيِّ، وَكُنْ سَائِرَ نَهَارِكَ فِي صَنْعَتِكَ وَمَا يُصْلِحُكَ»[39]؛ وقال الجنيد: «لَيسَ التوكُّل الكَسبَ، وَلا تَركَ الْكَسْبِ، التوكُّل شَيْءٌ فِي الْقُلُوبِ»، وقال أيضاً: «إِنَّمَا هُوَ سُكُون الْقَلْب إِلَى مَوْعُودِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ»[40]؛ قَالَ الْبَيْهَقِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: وَعَلَى هَذَا يَنْبَغِي أَنْ لا يَكُونَ تَجْرِيدُ هَذَا السُّكُونِ عَنِ الْكَسْبِ شَرْطاً فِي صِحَّةِ التوكُّل بَلْ يَكْتَسِبُ بِظَاهِرِ الْعِلْمِ مُعتَمِدَاً بِقَلْبِهِ عَلَى اللهِ تَعَالَى كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ: اكْتَسِبْ ظَاهِراً وَتَوَكَّلْ بَاطِناً، فَهُوَ مَعَ كَسْبِهِ لَا يَكُونُ مُعتَمِدَاً عَلَى كَسْبِهِ وَإِنَّمَا يَكُونُ اعْتِمَادُهُ فِي كِفَايَةِ أَمْرِهِ عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

ومن طريف ما يروى في هذا أن إبراهيم بن أدهم قال لشقيق البلخي الزاهد: ما بدء أمرك الذي بلغك إلى هذا؟ فذكر أنه رأى في بعض الفلوات طيراً مكسور الجناحين، فقلت: أنظر من أين يرزق هذا، فقعدت بحذائه، فإذا بطائر صحيح الجناح قد أتاه بجرادة فوضعها في منقار الطير المكسور الجناحين، فقلت لنفسي: يا نفس، الذي قيَّض هذا الطائر الصحيح لهذا الطائر المكسور الجناحين في فلاة من الأرض هو قادر على أن يرزقني حيث ما كنت، فتركت التكسب واشتغلت بالعبادة.

فقال له إبراهيم: يا شقيق ولم لا تكون أنت الطائر الصحيح الذي أطعم العليل حتى تكون أفضل منه؟ أما سمعت عن النبي صلى الله عليه وسلم: (اليد العليا خير من اليد السفلى)، ومن علامة المؤمن أن يطلب أعلى الدرجتين في أموره كلها حتى يبلغ منازل الأبرار. فأخذ شقيق يد إبراهيم فقبلها وقال: أنت أستاذنا يا أبا إسحاق[41]؛

والمواظب على طلب العلم والعبادة لا ينبغي له أبداً أن يكون عالة على النَّاس، فإنه يصغر في عينهم، وتذهب هيبته من نفوسهم، ويضطر بعضهم إلى مداهنة الأغنياء بالباطل، وإذلال نفسه للناس، وقد يضيع شيئاً من دينه، عن سفيان قال: ما وضع رجل

([39])ـ رواه البيهقي في شعب الإيمان (١٢٠١).

([40])ـ رواه البيهقي في شعب الإيمان (١٢١٣).

([41])ـ انظر: المجالسة وجواهر العلم ٨: ٤١، والوافي بالوفيات ٥: ٢١٠.

يده في قصعة رجل إلا ذلَّ له [4]؛ أما إذا كان غنياً مادياً ومعنوياً، مكتفياً بما يكسبه لنفسه من أسباب مشروعة، فلا يذل نفسه بالأخذ من صدقات النَّاس، ولا يداهن أحداً، وهذا هو منهج الإسلام.

قال الإمام ابن الجوزي رحمه الله: (رأيت من أعظم حيل الشيطان ومكره، أن يحيط أرباب الأموال بالآمال، والتشاغل باللذات القاطعة عن الآخرة وأعمالها، فإذا علقهم بالمال - تحريضاً على جمعه، وحثاً على تحصيله - أمرهم بحراسته بخلاً به، فذلك من متين حيله، وقوي مكره، ثم دفن في هذا الأمر من دقائق الحيل الخفية، أنْ خوَّف من جمعه المؤمنين، فنفر طالب الآخرة منه، وبادر التائب يخرج ما في يده، ولا يزال الشيطان، يحرضه على الزهد، ويأمره بالترك، ويخوفه من طرقات الكسب، إظهاراً لنصحه وحفظ دينه. وفي خفايا ذلك عجائب من مكره، ورُبَّما تكلم الشيطان على لسان بعض المشايخ الذين يقتدي بهم التائب، فيقول له: اخرج من مالك وادخل في زمرة الزهاد، ومتى كان لك غداء أو عشاء، فلست من أهل الزهد، ولا تنال مراتب العزم، ورُبَّما كرَّر عليه الأحاديث البعيدة عن الصحة والواردة على سبب ولمعنى، فإذا أخرج ما في يده، وتعطل عن مكاسبه، عاد يعلق طموحه بصلة الإخوان، أو يحسن عنده صحبة السلطان، لأنه لا يقوى على طريق الزهد والترك إلا أياماً، ثم يعود الطبع فيتقاضى مطلوباته، فيقع في أقبح مما فر منه، ويبذل أول السلع في التحصيل دينه وعرضه، ويصير متمندلاً به، ويقف في مقام اليد السفلى.

ولو أنه نظر في سير الرجال نبلائهم، وتأمل صحاح الأحاديث، عن رؤسائهم، لعلم أن الخليل عليه الصلاة والسلام كان كثير المال، حتى ضاقت بلدته بمواشيه، وكذلك لوط عليه الصلاة والسلام، وكثير من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والجمع الغفير من الصحابة.

([4])ـ رواه أبو نعيم في الحلية ٦: ٢٩٣.

وإنما صبروا عند العدم، ولم يمتنعوا من كسب ما يصلحهم، ولا من تناول المباح عند الوجود.

وكان أبو بكر رضي الله عنه يخرج للتجارة والرسول صلى الله عليه وسلم حي، وكان أكثرهم يخرج فاضل مما يأخذ من بيت المال، ويسلم من ذل الحاجة إلى الإخوان، وقد كان ابن عمر لا يرد شيئاً، ولا يسأل، وإني تأملت أكثر أهل الدين والعلم على هذه الحال، فوجدت العلم شغلهم عن المكاسب في بداياتهم، فلما احتاجوا إلى قوام نفوسهم ذلوا، وهم أحق بالعز.

وقد كانوا قديماً يكفيهم بيت المال فضلات الإخوان، فلما عدمت في هذا الأوان، لم يقدر متدين على شيء إلا يبذل شيء من دينه، وليته قدر فرُبَّما تلف الدين لم يحصل له شيء.

فالواجب على العاقل أن يحفظ ما معه، وأن يجتهد في الكسب ليربح مداراة ظالم، أو مداهنة جاهل، ولا يلتفت إلى ترهات المتصوفة، الذي يدعون في الفقر ما يدعون، فما الفقرُ إلا مرض العجزة، وللصابر على الفقر ثواب الصابر على المرض، اللّهُمَّ إلا أنْ يكون جباناً عن التصرف، مقتنعاً بالكفاف، فليس ذلك من مراتب الأبطال، بل هو من مقامات الجبناء الزهاد، وأما الكاسب ليكون المعطي لا المعطى، والمتصدِّق لا المُتَصدَّق عليه، فهي مِنْ مراتب الشجعان الفضلاء، ومن تأمَّل هذا علم شرف الغنى ومخاطرة الفقر) [٤]؛

وقال أيضاً: (فإنه إذا اقتنى المال المباح، وأدى زكاته، لم يلم، فقد علم ما خلف الزبير، وابن عوف وغيرهما، وبلغت صدقة علي رضي الله عنه أربعين ألفاً، وخلف ابن

(٤) ـ صيد الخاطر: ٤.

مسعود: تسعين ألفاً، وكان الليث بن سعد يستغل كل سنة عشرين ألفاً، وكان سفيان، يتجر بمال، وكان ابن مهدي يستغل كل سنة ألفي دينار) [٤].

فالذي يترفع عن مال النَّاس ودنياهم، يكون محترماً عزيزاً، قال الشيخ علي القرني: ينبغي أن تكون كأحد علماء الشام وهو الشيخ سعيد الحلبي في يوم من الأيام وكان يلقي دروساً في مسجد من المساجد، وجاء إبراهيم بن محمد علي باشا والي مصر ودخل المسجد، فقام النَّاس كلهم له إلا هذا الرجل، فتأثر في نفسه، فهو يريد أن يقوم له، وعندما تأثر من نفسه قال: لآتينه من باب لطالما أتي طلبة العلم من هذا الباب، باب الدُّنيا، ذهب إلى بيته وأعطى أحد جنوده مبلغاً من المال، وقال: اذهب وأعطه فلاناً، وكان المبلغ ألف ليرة ذهبية، فجاء به إليه.

وكان الشيخ في جلسته يلقي الدرس وهو مادٌّ رجله، ولم يتغير عن ذلك عندما دخل ذلك الطاغية، فجاء إليه رسول الطاغية وقال: إن إبراهيم باشا يقول: هذه لك -وهي ألف ليرة ذهبية- فتبسَّم، وقال: ردها له وقل له: إنَّ الذي يمدُّ رجلَهُ لا يمدُّ يدَهُ.

وذكر الشيخ محمد المنجد أنَّ أحد العلماء الصالحين ذهب ليشتري حاجة من دكان، فلما جاء إلى الدكان وسام السِّلعة، لم يكن البائع يعرفه، فقام أحد الموجودين بتعريف الشيخ وقال: هذا فلان العالم العامل، فعندما سمع العالم بذلك ولَّى هارباً، فناداه البائع إلى أين يا سيدي؟ فقال: أريد يا أخي أن أشتري بمالي لا بديني.

وأخيراً أنصح كلَّ مَنْ يريد معرفةَ ربِّه، وتزكية نفسه، ومراقبة حاله، وإصلاح سريرته قبل علانيته، أن يقرأ «إحياء علوم الدين» متجاوزاً ما لا يصح فيه من الأحاديث.

* * * * *

---

(٤)ـ صيد الخاطر: ٩.

جراءة عجيبة.. وصفقة خاسرة!

قد يعجب الإنسان ممن يسب أخاه أو صديقه ويستنكر عليه ويلومه على ذلك، ويزداد اللوم لمن يسب من هو أعلى منه مكانة وقدراً كمن يسب أستاذه أو والده فإنَّ هذا يعتبر من دناءة النفس وحقارتها، وقد يهون ذلك أمام ما هو أسوأ منه وأفحش.

فما لا يقبل بحال من الأحوال، ولا يعذر صاحبه أبدا، وتخرُّ له الجبال هدًّا، وجزاؤه أنْ يمدَّ الله له من العذاب مدًّا، هو مَنْ يسب الدِّين الذي شرعه الله عز وجل أو يسب ربَّه وخالقه، فلا أدري ماذا يقال عن هذا؟

الإنسان العاقل عندما يعادي أحداً أو يعتدي عليه يراعي في ذلك إمكانياته وقدراته حتى لا يدخل في صفقة خاسرة مع مَنْ أساء إليه، فهل لأحد طاقة بقيُّوم السموات والأرض حتى يتجرَّأ عليه بهذه الطريقة؟ وهو القائل في الحديث القدسي (مَنْ عَادَى لِي وَلِيّاً فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ) [4]؛ هذا فيمن عادى ولياً من أولياء الله فكيف بمن يسب الذَّات الإلهيَّة ويعادي قيُّوم السموات والأرض؟!

وإذا كان النابغة الذبياني عندما هرب من النعمان بن المنذر ملك الحيرة قال عنه:

فَإِنَّكَ كَالليلِ الَّذِي هُوَ مُدْرِكِي ... وَإِنْ خِلْتُ أَنَّ المُنْتَأَى عَنْكَ وَاسِعُ

فماذا عن قدرة الله وإحاطته بعباده الذين قد أحصاهم وعدَّهم عدًّا، وكلهم آتيه يوم القيامة فردا..

وعجباً لهؤلاء مالهم لا يرجون لله وقارا، وقد خلقهم أطوارا، فماذا لو جاءهم بأسُهُ بياتاً أو نهارا، ألم يروا كم أهلك مِنْ قبلهم ممن عصوه واستكبروا استكبارا، ومالهم لا يقدرون الله حقَّ قدره، فبدلاً من أن يشكروا نعمة اللسان بالتسبيح بحمد الله والتقديس له، يتفوَّه أحدهم بالسبِّ واللعن.

وإذا كان الله الودود قد تكفل لعباده وهو الغني عن العالمين بأن من ذكره وحمده أن يشرِّفه الله عز وجل ويذكره ويكون معه، ففي الحديث القدسي: (أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلأٍ

---

(4)- رواه البخاري في كتاب الرقاق، باب التواضع، (٦١٣٧).

ذَكَرْتُهُ فِي مَلأٍ خَيْرٍ مِنْهُم، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعاً، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعاً تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعاً، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَة) [1].

قال الحافظ ابن حجر: أي إن ذكرني بالتنزيه والتقديس سرّاً ذكرته بالثواب والرَّحمة سرّاً، وقال ابن أبي جمرة: يحتمل أن يكون مثل قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ ومعناه: اذكروني بالتعظيم أذكركم بالإنعام وقال تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ﴾ أي أكبر العبادات فمن ذكره وهو خائف آمنه، أو مستوحش آنسه، قال تعالى: ﴿أَلا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [2].

فكيف يغفل أحد عن هذا، بل ويقوم بسبِّ خالقه أو دينه؟

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُهِيناً﴾.

وقد استعمل ﴿يُؤْذُونَ﴾ هنا في معنييه المجازي والحقيقي، فهو حقيقة في تعديته إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، ومجاز في تعديته إلى اسم الله تعالى على معنى المجاز المرسل في اجتلاب غضب الله، إذ لا أحد يستطيع إيذاء الله جلَّ وعلا فهو القائل في الحديث القدسي: (يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئاً، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئاً، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلاَّ كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ) [3].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الغَنِيُّ الحَمِيدُ﴾.

---

[1] ـ رواه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: {وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ}، (٧٤٠٥)، ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب الحث على ذكر الله، (٦٩٨١).

[2] ـ فتح الباري ١٣: ٣٨٦.

[3] ـ رواه مسلم في كتاب البر والصلة والأدب، باب تحريم الظلم، (٦٧٣٧).

فمَنْ أحسن فقد أحسن لنفسه ومن أساء فعليها، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾، وقد سُئل بشر بن الحارث ما كان بدء أمرك لأنَّ اسمَك بين الناس كأنه اسمُ نبي؟ قال: هذا من فضل الله وما أقول لكم، كنت رجلاً عياراً صاحب عصبة فجزت يوماً فإذا أنا بقرطاس في الطريق فرفعته فإذا فيه بسم الله الرحمن الرحيم، فمسحته وجعلته في جيبي وكان عندي درهمان ما كنت أملك غيرهما، فذهبت إلى العطارين فاشتريت بهما غالية ومسحته في القرطاس، فنمت تلك الليلة فرأيت في المنام كأنَّ قائلاً يقول لي: يا بشر بن الحارث رفعتَ اسمَنا عن الطريق وطيَّبته لأطيبنَّ اسمَك في الدُّنيا والآخرة، ثم كان ما كان [1].

وقد جاء النهي عن سب الكثير من المخلوقات، فكيف بالخالق جلَّ وعلا، مثل نهيه صلى الله عليه وسلم عن سب الريح إذ قال: (لاَ تَسُبُّوا الرِّيحَ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ مِنْهَا مَا تَكْرَهُونَ فَقُولُوا: اللَّهُمَّ، إِنَّا نَسْأَلُكَ خَيْرَ هَذِهِ الرِّيحِ، وَخَيْرَ مَا فِيهَا، وَخَيْرَ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ هَذِهِ الرِّيحِ، وَمِنْ شَرِّ مَا فِيهَا، وَمِنْ شَرِّ مَا أُمِرَتْ أُرْسِلَتَ بِهِ.) [2].

ونهى صلى الله عليه وسلم عن سب الديك فقال: (لاَ تَسُبُّوا الدِّيكَ فَإِنَّهُ يُوقِظُ لِلصَّلاَةِ) [3].

وعَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ قَالَ: بَيْنَمَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ وَامْرَأَةٌ مِنَ الأَنْصَارِ عَلَى نَاقَةٍ فَضَجِرَتْ فَلَعَنَتْهَا فَسَمِعَ ذَلِكَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ: (خُذُوا مَا عَلَيْهَا وَدَعُوهَا فَإِنَّهَا مَلْعُونَةٌ). قَالَ عِمْرَانُ فَكَأَنِّى أَرَاهَا الآنَ تَمْشِى فِي النَّاسِ مَا يَعْرِضُ لَهَا أَحَدٌ [4].

وإذا كان رفع الصوت فوق صوت النبي صلى الله عليه وسلم والجهر له بالقول محبط للعمل، فكيف بسب الدِّين أو الله عز وجل.

---

(1) ـ رواه أبو نعيم في الحلية ٨: ٣٣٦.

(2) ـ رواه الترمذي في كتاب الفتن، باب ما جاء في النهي عن سب الرياح، (٢٢٥٢) وقال: حديث حسن صحيح. والنسائي في الكبرى (١٠٧٠٣).

(3) ـ رواه أبو داود في كتاب الأدب، باب ما جاء في الديك والبهائم (٥١٠٣).

(4) ـ رواه مسلم في كتاب البر والصلة والأدب، باب النهي عن لعن الدواب وغيرها، (٦٧٦٩).

قد يتعلَّل الكثير ممن يتفوَّه بذلك بأنَّه يفقد أعصابه ولا يضبط نفسه عند الغضب، ويقال لهؤلاء: لماذا تتحفظون أشدَّ التحفظ وتحتاطون كلَّ الحيطة من التكلُّم على مَنْ أنتم تحت سلطته في الدنيا من ملك أو رئيس وهل قمتم بسب هؤلاء على مرأى ومسمع منهم حتى في حالات الغضب؟ فكيف استطعتم أن تضبطوا أنفسكم في هذه الحالة؟ ولم تستطيعوا ضبطها فيما هو أشد منها؟ أم أنكم تخشون الناس أشد خشية من ربكم؟

إن انعدام التربية أو ضعفها هو سبب رئيسي لهذا الفساد والانحطاط السلوكي، فمن كان في بيئة منحطة دينياً أو أخلاقياً ولم يجد من يوجهه التوجيه الصحيح فغالباً ما يكون سلوكُه سلوكَ مَنْ عاش معهم كما قال القائل:

وَمَا أَنَا إلا مِنْ غَزِيَّةَ إِنْ غَوَتْ ... غَوَيْتُ وَإِنْ تَرْشُدْ غَزِيَّةُ أَرْشَدِ

فالإنسان غالباً ابن بيئته إلا من رحمه الله وتداركه بلطفه.

ومن أهم الحلول التي أراها للحد من هذه الظاهرة:

١ـ تعظيم الله في قلوب الناس وذلك يكون بالتربية على حبِّ الله عز وجل وتعظيمه والتخويف من عقابه؛ لأنَّه إذا ثبت تعظيم الله في قلب العبد أورثه الحياء من الله والهيبة له، فغلب على قلبه ذكر اطلاع الله العظيم ونظره بعظمته وجلاله إلى ما في قلبه وجوارحه وذكر المقام غداً بين يديه وسؤاله إياه عن جميع أعماله وذكر دوام إحسانه إليه وقلة الشكر منه لربه فإذا غلب ذكر هذه الأمور على قلبه غلب عليه الحياء من الله فاستحى من ذلك.

٢ـ تبيين خطورة هذا الأمر وأنَّه ردة عن الدِّين، وقد ذكر الكثير من الفقهاء الإجماع على ذلك، قال القاضي عياض: لا خلاف أنَّ سابَّ الله تعالى من المسلمين كافر حلال الدم [٣]. وقال الإمام ابن تيمية: فصل فيمن سب الله تعالى، فإن كان مسلماً وجب قتله بالإجماع؛ لأنَّه بذلك كافر مرتد، وأسوأ من الكافر، فإنَّ الكافر يعظِّم الرب، ويعتقد أنَّ ما هو عليه من الدِّين الباطل ليس باستهزاء بالله ولا مسبَّة له [٤]. وقال

([٣]) ـ الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٢: ٢٧٠.

([٤]) ـ الصارم المسلول: ٥٤٦.

الإمام ابن قدامة: من سب الله تعالى كفر، سواء كان مازحاً أو جاداً [1]؛ وقال الإمام ابن رجب: فلو سبَّ الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وهو مقرٌّ بالشهادتين، أُبيح دمُه؛ لأنَّه قد ترك بذلك دينه [2].

٣ـ الأخذ على يد من يفعل ذلك، وعقوبته العقوبة الرادعة فمَنْ أمن العقوبة أساء الأدب.

وينبغي الاحتساب على من يفعل ذلك من الكتاب أو المفكرين أو أدعياء الأدب بأن يرفع أمرهم إلى القضاء، ويحاكموا على ذلك، وينالوا العقاب الرادع، فليس من الحرِّيةِ في شيء أن يعتدى على مقدَّسات الأمّة، ويهان دينهم، وتجرح مشاعرهم.

٤ـ الحث على ضبط النفس عند الغضب، والتوبة النصوح إلى الله تعالى إن بدر من الإنسان مثل ذلك، فلا خير فيمن يستفزه أي أمر فيخرج به عن عقله ودينه، ويتفوه بما يوقعه في سخط ربه وما لا تحمد عقباه في دنياه وآخرته.

٥ـ التحذير من خطر اللسان فهو الذي يوقع صاحبه في كثير من المهالك، فمثل هذا الكلام من أسوأ محبطات الأعمال، وموجبات العذاب والنكال، كما قال صلى الله عليه وسلم: (وهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ عَلَى وُجُوهِهِمْ فِي النَّارِ إِلا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ) [3]؛ وقال أيضاً: (وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللهِ لاَ يُلْقِي لَهَا بَالاً يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ) [4]؛ وقال الله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾.

٦ـ هجر من يفعل ذلك إن كان ينفع معه هذا الأسلوب ويرتدع به.

* * * * *

---

(1)ـ المغني ١٠: ١٠٣.

(2)ـ جامع العلوم والحكم: ١٣٠.

(3)ـ رواه الترمذي في كتاب الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة، (٢٦١٦) وقال: حديث حسن صحيح.

(4)ـ رواه البخاري في كتاب الرقاق، باب حفظ اللسان، (٦٤٧٨).

روائع غزالية [1]:

الحمدُ لله وحده، والصَّلاة والسَّلام على مَنْ لا نبيَّ بعده وبعد، فعند تنزُّهي وسياحتي في رياضٍ مثمرة، وبساتينٍ مزهرة، في (إحياء علوم الدين) للإمام الغزالي رحمه الله تعالى، وقفتُ على حِكَم بليغة، ودُرَر مستنيرة، ومواعظ مستفيضة، ذكرها في مواضع متفرِّقةٍ من كتابه، (فما الدُّرُّ في انتظامه أزهى من دُرَر كلامِه، ولا السِّحر الحلال أوقع في النفوس مِنْ نثره ونظامِه)، فأحببتُ أنْ أجمع بعض ما وقفت عليه من فيض غَمامِه، عسى أنْ يُسقى بها متعطشٌ إلى بحر علمه وإنعامِه، فتنفعه في دينه وتذكّره بربِّه، وتزيل الغشاوة عن بصره، وترفع الرَّان عن قلبه، فإنَّ الكلمةَ الطيِّبةَ كالشجرة الطيِّبة، ذات الأصل الثابت التي لا تزعزعها الأعاصير، ولا تعصف بها الرياح، وهي عالية مرتفعة فوق الشرِّ والباطل، وثمارها دائمة مستمرة، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ. تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

فيا لها مِنْ كواكبٍ دريَّة، وجواهرٍ من المعاني عليَّة، ولباسٍ من التقوى سندسيَّة، تجعل الروحَ مِنْ جمالها مُشرقة بهيَّة، فالسعيد مَن انتفع بها ورجعتْ نفسُه إلى ربِّها راضيةً مرضيَّة.. واللهُ وليُّ التوفيق والسداد..

ومِنْ هذه الأقوال والحِكَم:

العلم النافع:

- (إنَّ غذاءَ القلب: العلمُ والحكمةُ وبهما حياته، كما أنَّ غذاءَ الجسد الطعام، ومَنْ فقد العلم فقلبه مريض وموته لازم، ولكنه لا يشعر به؛ إذ حبُّ الدنيا وشغله بها أبطل إحساسه، كما أنَّ غلبةَ الخوف قد تبطل ألم الجراح في الحال وإن كان واقعاً، فإذا حطَّ الموت عنه أعباء الدنيا أحسَّ بهلاكه، وتحسَّر تحسُّراً عظيماً ثم لا ينفعه، وذلك كإحساس الآمن خوفه، والمفيق من سكره بما أصابه من الجراحات في حالة السُّكْر أو الخوف، فنعوذ بالله من يوم كشف الغطاء فإنَّ الناسَ نيام فإذا ماتوا انتبهوا).

[1] ـ نُشرت على ثلاثة أجزاء.

- (إنَّ العلمَ حياةُ القلوب من العمى، ونورُ الأبصار من الظلم، وقوةُ الأبدان من الضعف، يبلغ به العبد منازلَ الأبرار والدرجات العلى، والتفكر فيه يعدل بالصيام، ومدارسته بالقيام، به يُطاع الله عزَّ وجلَّ، وبه يُعبد وبه يوحَّد وبه يمجَّد وبه يُتورَّع، وبه تُوصَل الأرحام، وبه يعرف الحلال والحرام، وهو إمام والعمل تابعه، يلهمه السعداء ويحرمه الأشقياء).

- (التلطُّفُ في اجتذاب القلوب إلى العلم الذي يفيد حياة الأبد، أهمُّ من التلطُّف في اجتذابها إلى الطبِّ الذي لا يفيد إلا صحة الجسد، فثمرة هذا العلم: طب القلوب والأرواح، المتوصل به إلى حياة تدوم أبد الآباد، فأين منه الطب الذي يعالج به الأجساد؟ وهي معرَّضة بالضرورة للفساد في أقرب الآماد، فنسأل الله سبحانه التوفيق للرشاد والسداد إنه كريم جواد).

الطاعات والخيرات الأخروية:

- (الطاعات غذاءٌ للقلوب، والمقصود شفاؤها وبقاؤها، وسلامتها في الآخرة وسعادتها، وتنعُّمها بلقاء الله تعالى، فالمقصد لذة السعادة بلقاء الله فقط، ولن يتنعم بلقاء الله إلا مَنْ مات محبّاً لله تعالى، عارفاً بالله، ولن يحبه إلا مَنْ عرفه، ولن يأنس بربِّه إلا من طال ذكره له، فالأنس يحصل بدوام الذكر، والمعرفة تحصل بدوام الفكر، والمحبة تتبع المعرفة بالضرورة، ولن يتفرغ القلب لدوام الذكر والفكر إلا إذا فرغ من شواغل الدنيا، ولن يتفرغ من شواغلها إلا إذا انقطع عنه شهواتها، حتى يصير مائلاً إلى الخير مريداً له، نافراً عن الشر مبغضاً له، وإنَّما يميل إلى الخيرات والطاعات إذا علم أنَّ سعادته في الآخرة منوطة بها، كما يميل العاقل إلى القصد والحجامة لعلمه بأنَّ سلامته فيهما، وميل النفس إلى الخيرات الأخروية وانصرافها عن الدنيوية هو الذى يفرغها للذكر والفكر، ولن يتأكد ذلك إلا بالمواظبة على أعمال الطاعة، وترك المعاصي بالجوارح).

القلب والجوارح:

- (إنَّ بين الجوارح وبين القلب علاقة حتى إنَّه يتأثر كلُّ واحد منهما بالآخر، فترى العضو إذا أصابته جراحة تألم بها القلب، وترى القلب إذا تألم بعلمه بموت

عزيز مِنْ أعزته، أو بهجوم أمر مخوف، تأثَّرت به الأعضاء، وارتعـدت الفـرائص، وتغـيَّر اللون، إلا أنَّ القلبَ هـو الأصـلُ المتبـوع، فكأنَّـه الأمـيرُ والـراعي، والجـوارحُ كالخـدم والرعايا والأتباع، فالجوارحُ خادمةٌ للقلب بتأكيد صفاتها فيه، فالقلـبُ هـو المقصـود، والأعضاءُ آلات موصلة إلى المقصود، ولذلك قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم (أَلا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَـدُ كُلُّـهُ، وَإِذَا فَسَـدَتْ فَسَـدَ الْجَسَـدُ كُلُّـهُ أَلا وَهِيَ الْقَلْبُ) [1].

- (قال الله تعـالى: ﴿لَـنْ يَنَـالَ اللَّهَ لُحُومُهَـا وَلَا دِمَاؤُهَـا وَلَكِـنْ يَنَـالُهُ التَّقْـوَى مِنْكُمْ﴾، وهي صفة القلب، فمن هذا الوجه يجب لا محالة أن تكون أعمال القلب على الجملة أفضل من حركات الجوارح ثم يجب أن تكون النيـة مـن جملتهـا أفضـل لأنهـا عبارة عن ميل القلب إلى الخير وإرادتـه له وغرضـنا مـن الأعمـال بـالجوارح أن يعـود القلب إرادة الخير ويؤكد فيه الميل إليه ليفرغ مـن شـهوات الدنيـا ويكـب على الذكـر والفكر).

- (قال صلى الله عليه وسلم: (مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً) [2]؛ لأنَّ همَّ القلب هو ميلُه إلى الخـير وانصرافُه عـن الهـوى وحـب الدنيـا وهي غاية الحسنات، وإنَّما الإتمام بالعمـل يزيـدها تأكيـداً، فلـيس المقصـود مـن إراقـة دم القربان: الدم واللحم، بل ميل القلب عن حبِّ الدنيـا، وبـذلها إيثـاراً لوجـه الله تعـالى، وهذه الصفة قد حصلت عند جزم النية والهمة، وإنْ عاق عن العمل عائق فـ ﴿لَنْ يَنَـالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْـوَى مِـنْكُمْ﴾، والتقـوى ههنـا صـفة القلـب، ولذلك قال صلى الله عليه وسـلم: (إن قومـاً بالمدينـة قـد شركونـا في جهادنـا) [3]؛ لأنَّ

---

[1] ـ رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، (٥٢)، ومسلم في كتاب المساقاة، باب أخـذ الحـلال وترك الشبهات، (١٥٩٩).

[2] ـ رواه البخاري في كتاب الرقاق، باب من هم بحسنة أو بسيئة، (٦١٢٦)، ومسلم في كتـاب الإيمـان، بـاب إذا هـم العبد بحسنة كتبت وإذا هم بسيئة لم تكتب، (١٥٩٩).

[3] ـ الحديث كما رواه البخاري في كتاب المغازي، باب نزول النبي صلى الله عليه وسلم الحِجْـر، (٤١٦١)، عـن أنـس بن مالك رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم رَجَعَ مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ فَدَنَا مِنَ المَدِينَةِ فَقَالَ: (إِنَّ بِالْمَدِينَـةِ

قلوبَهم في صدق إرادة الخير وبذل المال والنفس، والرغبة في طلب الشهادة وإعلاء كلمة الله تعالى، كقلوب الخارجين في الجهاد، وإنَّما فارقوهم بالأبدان لعوائق تخص الأسباب الخارجة عن القلب، وذلك غير مطلوب إلا لتأكيد هذه الصفات).

- (لا تظنن أنَّ في وضع الجبهة على الأرض غرضاً من حيث إنَّه جمع بين الجبهة والأرض، بل من حيث إنه بحكم العادة يؤكد صفة التواضع في القلب، فإنَّ مَنْ يجد في نفسه تواضعاً، فإذا استكان بأعضائه وصورها بصورة التواضع تأكَّد تواضعه، ومَنْ وجد في قلبه رقَّة على يتيم، فإذا مسح رأسه وقبله تأكَّد الرقة في قلبه، ولهذا لم يكن العمل بغير نيَّة مفيداً أصلاً؛ لأنَّ مَنْ يمسح رأس يتيم وهو غافل بقلبه، أو ظانٌّ أنَّه يمسح ثوباً لم ينتشر من أعضائه أثر إلى قلبه لتأكيد الرقة، وكذلك مَنْ يسجد غافلاً وهو مشغول الهمِّ بأعراض الدنيا، لم ينتشر من جبهته ووضعها على الأرض أثر إلى قلبه يتأكَّد به التواضع، فكان وجود ذلك كعدمه، وما ساوى وجوده عدمه بالإضافة إلى الغرض المطلوب منه يُسمى باطلاً، فيقال: العبادة بغير نيَّة باطلة).

شرف العقل:

- (قد ظهر شرف العلم مِنْ قِبَل العقل، والعقل منبع العلم ومطلعه وأساسه، والعلم يجري منه مجرى الثمرة من الشجرة، والنُّور من الشمس، والرؤية من العين، فكيف لا يشرف ما هو وسيلة السَّعادة في الدنيا والآخرة، أو كيف يستراب فيه والبهيمة مع قصور تمييزها تحتشم العقل، حتى إنَّ أعظم البهائم بدناً وأشدها ضراوة وأقواها سطوة، إذا رأى صورة الإنسان احتشمه وهابه، لشعوره باستيلائه عليه، لما خصَّ به من إدراك الحِيَل).

حدود العقل:

- (اعلم أنه كما يطلع الطبيب الحاذق على أسرار في المعالجات يستبعدها من لا يعرفها، فكذلك الأنبياء أطباء القلوب والعلماء بأسباب الحياة الأخروية، فلا تتحكم على سننهم بمعقولك فتهلك، فكم من شخص يصيبه عارض في أصبعه فيقتضي عقله

أَقْوَاماً مَا سِرْتُمْ مَسِيراً، وَلاَ قَطَعْتُمْ وَادِياً إِلاَّ كَانُوا مَعَكُمْ) قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَهُمْ بِالمَدِينَةِ؟ قَالَ: (وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ).

أن يطليه، حتى ينبهه الطبيب الحاذق أنَّ علاجه أن يطلي الكف من الجانب الآخر من البدن، فيستبعد ذلك غاية الاستبعاد من حيث لا يعلم كيفية انشعاب الأعصاب ومنابتها ووجه التفافها على البدن، فهكذا الأمر في طريق الآخرة وفي دقائق سنن الشرع وآدابه، وفي عقائده التي تعبد الناس بها أسرار ولطائف ليست في سعة العقل وقوته الإحاطة بها، كما أنَّ في خواص الأحجار أموراً عجائب غاب عن أهل الصنعة علمها، حتى لم يقدر أحد على أن يعرف السبب الذي به يجذب المغناطيس الحديد، فالعجائب والغرائب في العقائد والأعمال وإفادتها لصفاء القلوب ونقائها وطهارتها، وتزكيتها وإصلاحها للترقي إلى جوار الله تعالى، وتعرضها لنفحات فضله، أكثر وأعظم مما في الأدوية والعقاقير، وكما أنَّ العقول تقصر عن إدراك منافع الأدوية مع أنَّ التجربةَ سبيلٌ إليها، فالعقول تقصر عن إدراك ما ينفع في حياة الآخرة، مع أنَّ التجربة غير متطرقة إليها، وإنما كانت التجربة تتطرق إليها لو رجع إلينا بعض الأموات فأخبرنا عن الأعمال المقبولة النافعة المقربة إلى الله تعالى زلفى، وعن الأعمال المبعدة عنه، وكذا عن العقائد، وذلك مما لا يطمع فيه، فيكفيك من منفعة العقل: أن يهديك إلى صدق النبي صلى الله عليه وسلم ويفهمك موارد إشاراته، فاعزل العقل بعد ذلك عن التصرُّف، ولازم الاتباع فلا تسلم إلا به والسَّلام).

السعادة الحقيقية:

- (وأعظم الأشياء رتبة في حقِّ الآدمي السعادة الأبدية، وأفضل الأشياء ما هو وسيلة إليها، ولن يتوصل إليها إلا بالعلم والعمل، ولا يتوصل إلى العمل إلا بالعلم بكيفية العمل، فأصل السعادة في الدنيا والآخرة هو العلم فهو إذن أفضل الأعمال).

- (ما أبعدَ عن السَّعادة مَنْ باع مهمَّ نفسِهِ اللازم بمهمِّ غيره النادر، إيثاراً للتقرب والقبول من الخلق على التقرب من الله سبحانه).

- (قد أمر الله تعالى بالعدل والإحسان جميعاً، والعدل سبب النجاة فقط، وهو يجري من التجارة مجرى رأس المال، والإحسان سبب الفوز ونيل السعادة، وهو يجري من التجارة مجرى الربح ولا يعد من العقلاء من قنع في معاملات الدنيا برأس ماله فكذا في معاملات الآخرة فلا ينبغي للمتدين أن يقتصر على العدل واجتناب الظلم

ويدع أبواب الإحسان وقد قال الله: ﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ﴾، وقال عز و جل: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ المُحْسِنِينَ﴾، ونعني بالإحسان فعل ما ينتفع به المعامل وهو غير واجب عليه ولكنه تفضل منه).

- (وقد أهمل الناسُ طبَّ القلوب، واشتغلوا بطب الأجساد، مع أن الأجساد قد كتب عليها الموت لا محالة، والقلوب لا تدرك السعادة إلا بسلامتها، إذ قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾).

وقال رحمه الله بعد أن ذكر قول ابن مسعود «الهالك في اثنتين القنوط والعجب»: (وإنما جمع بينهما؛ لأنَّ السَّعادة لا تنال إلا بالسعي والطلب والجد والتشمر، والقانط لا يسعى ولا يطلب، والمعجب يعتقد أنه قد سعد وقد ظفر بمراده فلا يسعى، فالموجود لا يطلب، والمحال لا يطلب، والسعادة موجودة في اعتقاد المعجب حاصلة له، ومستحيلة في اعتقاد القانط، فمن ههنا جمع بينهما).

- (فمفتاح السعادة: التيقظ والفطنة، ومنبع الشقاوة: الغرور والغفلة، فلا نعمة لله على عباده أعظم من الإيمان والمعرفة، ولا وسيلة إليه سوى انشراح الصدر بنور البصيرة، ولا نقمة أعظم من الكفر والمعصية، ولا داعي إليهما سوى عمى القلب بظلمة الجهالة).

- (اعلم أنَّ كلَّ خير ولذة وسعادة بل كل مطلوب ومؤثر فإنه يُسمى نعمة، ولكن النعمة بالحقيقة هي السعادة الأخروية، وتسمية ما سواها نعمة وسعادة إما غلط وأما مجاز، كتسمية السعادة الدنيوية التي لا تعين على الآخرة نعمة، فإن ذلك غلط محض، وقد يكون اسم النعمة للشيء صدقاً، ولكن يكون إطلاقه على السعادة الأخروية أصدق، فكل سبب يوصل إلى سعادة الآخرة ويعين عليها إما بوسطة واحدة أو بوسائط، فإنَّ تسميه نعمة صحيحة وصدق لأجل أنه يفضى إلى النعمة الحقيقية).

- (غاية السعادة أن يموت محبَّاً لله تعالى، وإنما تحصل المحبة بالمعرفة بإخراج حب الدنيا من القلب، حتى تصير الدنيا كلها كالسجن المانع من المحبوب، ولذلك رأى

بعض الصالحين أبا سليمان الداراني في المنام وهو يطير، فسأله فقال: الآن أفلت. فلما أصبح سأل عن حاله، فقيل له: إنه مات البارحة).

- (قد انكشف لأرباب القلوب ببصيرة الإيمان وأنوار القرآن أن لا وصول إلى السعادة إلا بالعلم والعبادة، فالناس كلهم هلكى إلا العالمون، والعالمون كلهم هلكى إلا العاملون، والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم، فالعمل بغير نية عناء، والنية بغير إخلاص رياء، وهو للنفاق كفاء، ومع العصيان سواء، والإخلاص من غير صدق وتحقيق هباء، وقد قال الله تعالى في كل عمل كان بإرادة غير الله مشوباً مغمورا، ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾، وليت شعري كيف يصحح نيته مَنْ لا يعرف حقيقة النية، أو كيف يخلص من صحح النية إذا لم يعرف حقيقة الإخلاص، أو كيف تطالب المخلص نفسه بالصدق إذا لم يتحقق معناه، فالوظيفة الأولى على كل عبد أراد طاعة الله تعالى: أن يتعلم النية أولاً لتحصل المعرفة، ثم يصححها بالعمل، بعد فهم حقيقة الصدق والإخلاص اللذين هما وسيلتنا العبد إلى النجاة والخلاص).

- (لا سعادة في دار البقاء إلا في لقاء الله تعالى وإنَّ كلَّ محجوب عنه يشقى لا محالة محول بينه وبين ما يشتهي، محترق بنار الفراق ونار الجحيم، وعلم أنه لا مبعد عن لقاء الله إلا اتباع الشهوات والأنس بهذا العالم الفاني، والإكباب على حب ما لا بد من فراقه قطعاً ولا مقرب من لقاء الله إلا قطع علاقة القلب عن زخرف هذا العالم، والإقبال بالكلية على الله طلباً للأنس به بدوام ذكره، وللمحبة له بمعرفة جلاله وجماله على قدر طاقته، وأنَّ الذنوب التي هي إعراض عن الله واتباع لمحاب الشياطين أعداء الله المبعدين عن حضرته سبب كونه محجوباً مبعداً عن الله تعالى، فلا يشك في أنَّ الانصرافَ عن طريق البُعْد واجب للوصول إلى القُرْب، وإنما يتم الانصراف: بالعلم والندم والعزم، فإنه ما لم يعلم أنَّ الذنوب أسباب البعد عن المحبوب، لم يندم ولم يتوجع بسبب سلوكه في طريق البعد، وما لم يتوجع فلا يرجع، ومعنى الرجوع الترك والعزم، فلا يشك في أنَّ المعاني الثلاثة ضرورية في الوصول إلى المحبوب، وهكذا يكون الإيمان الحاصل عن نور البصيرة، وأما من لم يترشح لمثل هذا المقام، المرتفع ذروته عن

حدود أكثر الخلق، ففي التقليد والاتباع له مجال رحب، يتوصل به إلى النجاة من الهلاك، فليلاحظ فيه قول الله وقول رسوله وقول السلف الصالحين فقد قال الله تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وهذا أمر على العموم وقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحًا﴾ الآية، ومعنى النصوح: الخالص لله تعالى خالياً عن الشوائب).

الخوف:

- (فضل الخوف تارة يعرف بالتأمل والاعتبار وتارة بالآيات والأخبار أما الاعتبار فسبيله أن فضيلة الشيء بقدر غنائه في الإفضاء إلى سعادة لقاء الله تعالى في الآخرة إذ لا مقصود سوى السعادة، ولا سعادة للعبد إلا في لقاء مولاه والقرب منه، فكلُّ ما أعان عليه فله فضيلة وفضيلته بقدر غايته، وقد ظهر أنه لا وصول إلى سعادة لقاء الله في الآخرة إلا بتحصيل محبته والأنس به في الدنيا، ولا تحصل المحبَّة إلا بالمعرفة، ولا تحصل المعرفة إلا بدوام الفكر، ولا يحصل الأنس إلا بالمحبة ودوام الذكر، ولا تتيسر المواظبة على الذكر والفكر إلا بانقطاع حب الدنيا من القلب، ولا ينقطع ذلك إلا بترك لذات الدنيا وشهواتها، ولا يمكن ترك المشتهيات إلا بقمع الشهوات، ولا تنقمع الشهوة بشيء كما تقمع بنار الخوف، فالخوف هو النار المحرقة للشهوات، فإنَّ فضيلته بقدر ما يحرق من الشهوات، وبقدر ما يكف عن المعاصي ويحث على الطاعات، ويختلف ذلك باختلاف درجات الخوف، وكيف لا يكون الخوف ذا فضيلة وبه تحصل العفة والورع والتقوى والمجاهدة، وهي الأعمال الفاضلة المحمودة التي تقرب إلى الله زلفى).

صفة الدنيا:

- (إن الدنيا سريعة الفناء، قريبة الانقضاء، تعد بالبقاء، ثم تخلف في الوفاء، تنظر إليها فتراها ساكنة مستقرة، وهي سائرة سيراً عنيفاً، ومرتحلة ارتحالاً سريعاً، ولكن الناظر إليها قد لا يحس بحركتها فيطمئن إليها، وإنَّما يحس عند انقضائها، ومثالها: الظل، فإنَّه متحرِّك ساكن، متحرِّك في الحقيقة ساكن الظاهر، لا تدرك حركته

بالبصر الظاهر، بل بالبصيرة الباطنة، ولما ذكرت الدنيا عند الحسن البصري رحمه الله أنشد وقال:

أحلامُ نومٍ أو كظِلٍّ زَائِلٍ ... إنَّ اللبيبَ بمثلها لا يُخْدَعُ)

- (إنَّ طبع الدنيا: التلطف في الاستدراج أوَّلاً، والتوصُّل إلى الإهلاك آخراً، وهي كامرأة تتزين للخطاب، حتى إذا نكحتهم ذبحتهم).

- (إنَّ الدنيا مزيَّنة الظواهر، قبيحة السرائر، وهي شبه عجوز متزينة، تخدع الناس بظاهرها، فإذا وقفوا على باطنها، وكشفوا القناع عن وجهها، تمثل لهم قبائحها فندموا على اتباعها، وخجلوا من ضعف عقولهم في الاغترار بظاهرها).

- (إنَّ أوائل الدنيا تبدو هينة لينة، يظن الخائض فيها أنَّ حلاوة خفضها كحلاوة الخوض فيها، وهيهات فإن الخوض في الدنيا سهل، والخروج منها مع السلامة شديد، وقد كتب علي رضي الله عنه إلى سلمان الفارسي بمثالها فقال: مثل الدنيا مثل الحية، لين مسها، ويقتل سمها، فأعرض عما يعجبك منها، لقلة ما يصحبك منها، وضع عنك همومها بما أيقنت من فراقها، وكن أسر ما تكون فيها أحذر ما تكون لها، فإنَّ صاحبها كلَّما اطمأن منها إلى سرور أشخصه عنه مكروه والسَّلام).

- (إنَّ أهل الدنيا مثلهم في غفلتهم مثل قوم ركبوا سفينة، فانتهت بهم إلى جزيرة فأمرهم الملاح بالخروج إلى قضاء الحاجة، وحذَّرهم المقام وخوَّفهم مرور السفينة واستعجالها، فتفرقوا في نواحي الجزيرة، فقضى بعضهم حاجته وبادر إلى السفينة فصادف المكان خالياً، فأخذ أوسع الأماكن وألينها وأوفقها لمراده، وبعضهم توقف في الجزيرة ينظر إلى أنوارها وأزهارها العجيبة، وغياضها الملتفة ونغمات طيورها الطيبة، وألحانها الموزونة الغريبة، وصار يلحظ من بريتها أحجارها وجواهرها ومعادنها المختلفة الألوان والأشكال، الحسنة المنظر، العجيبة النقوش، السالبة أعين الناظرين بحسن زبرجدها، وعجائب صورها، ثم تنبه لخطر فوات السفينة فرجع إليها، فلم يصادف إلا مكاناً ضيقاً حرجاً، فاستقر فيه، وبعضهم أكبَّ على تلك الأصداف والأحجار، وأعجبه حسنها ولم تسمح نفسه بإهمالها، فاستصحب منها جملة، فلم يجد في السفينة إلا مكاناً ضيقاً وزاده ما حمله من الحجارة ضيقاً، وصار ثقيلاً عليه ووبالاً،

فندم على أخذه ولم يقدر على رميه، ولم يجد مكاناً لوضعه، فحمله في السفينة على عنقه وهو متأسف على أخذه، وليس ينفعه التأسف، وبعضهم تولج الغياض ونسي المركب، وبعد في متفرجه ومتنزهه منه حتى لم يبلغه نداء الملاح، لاشتغاله بأكل تلك الثمار واستشمام تلك الأنوار، والتفرج بين تلك الأشجار، وهو مع ذلك خائف على نفسه من السباع، وغير خال من السقطات والنكبات، ولا منفك عن شوك ينشب بثيابه، وغصن يجرح بدنه، وشوكة تدخل في رجله، وصوت هائل يفزع منه، وعوسج يخرق ثيابه، ويهتك عورته، ويمنعه عن الانصراف لو أراده، فلما بلغه نداء أهل السفينة انصرف مثقلاً بما معه، ولم يجد في المركب موضعاً، فبقي في الشط حتى مات جوعاً، وبعضهم لم يبلغه النداء، وسارت السفينة فمنهم من افترسته السباع، ومنهم من تاه فهام على وجهه حتى هلك، ومنهم من مات في الأوحال، ومنهم من نهشته الحيات فتفرقوا كالجيف المنتنة.

وأما من وصل إلى المركب بثقل ما أخذه من الأزهار والأحجار فقد استرقته وشغله الحزن بحفظها والخوف من فوتها وقد ضيقت عليه مكانه فلم يلبث أن ذبلت تلك الأزهار وكمدت تلك الألوان والأحجار فظهر نتن رائحتها فصارت مع كونها مضيقة عليه مؤذية له بنتنها ووحشتها فلم يجد حيلة إلا أن ألقاها في البحر هرباً منها وقد أثر فيه ما أكل منها فلم ينته إلى الوطن إلا بعد أن ظهرت عليه الأسقام بتلك الروائح فبلغ سقيماً مدبراً، ومن رجع قريباً ما فاته إلا سعة المحل، فتأذى بضيق المكان مدة ولكن لما وصل إلى الوطن استراح، ومن رجع أوّلاً وجد المكان الأوسع، ووصل إلى الوطن سالماً، فهذا مثال أهل الدنيا في اشتغالهم بحظوظهم العاجلة، ونسيانهم موردهم ومصدرهم، وغفلتهم عن عاقبة أمورهم، وما أقبحَ مَنْ يزعم أنه بصير عاقل أن تغره أحجار الأرض وهي الذهب والفضة، وهشيم النبت وهي زينة الدنيا، وشيء من ذلك لا يصحبه عند الموت، بل يصير كلًّا ووبالاً عليه، وهو في الحال شاغل له بالحزن والخوف عليه، وهذه حال الخلق كلهم إلا مَنْ عصمه الله عزَّ و جلَّ).

- (إنَّ مثل الناس فيما أعطوا من الدنيا مثل رجل هيَّأ داراً وزيَّنها، وهو يدعو إلى داره على الترتيب قوماً واحداً بعد واحد، فدخل واحد داره فقدم إليه طبق ذهب عليه

بخور ورياحين ليشمه ويتركه لمن يلحقه لا ليتملكه ويأخذه، فجهل رسمه وظن أنَّه قد وهب ذلك، فتعلق به قلبه لما ظن أنه له، فلما استرجع منه ضجر وتفجع، ومَنْ كان عالماً برسمه انتفع به وشكره، ورده بطيب قلب وانشراح صدر، وكذلك من عرف سنَّة الله في الدنيا علم أنَّها دار ضيافة، سبلت على المجتازين لا على المقيمين ليتزودوا منها وينتفعوا بما فيها كما ينتفع المسافرون بالعواري، ولا يصرفون إليها كل قلوبهم حتى تعظم مصيبتهم عند فراقها).

حبُّ الدنيا:

- (حبُّ الدنيا رأسُ كلِّ خطيئة، وأساسُ كلِّ نقصان، ومنبعُ كلِّ فساد، ومَن انطوى باطنه على حبِّ الدنيا حتى مال إلى شيء منها لا ليتزود منها ولا ليستعين بها على الآخرة، فلا يطمعن في أنْ تصفو له لذة المناجاة في الصلاة، فإنَّ مَنْ فرح بالدنيا لا يفرح بالله سبحانه وبمناجاته، وهمَّة الرجل مع قرَّة عينه، فإنْ كانت قرَّة عينه في الدنيا انصرف لا محالة إليها همُّه، ولكن مع هذا فلا ينبغي أن يترك المجاهدة ورد القلب إلى الصلاة، وتقليل الأسباب الشاغلة، فهذا هو الدواء المر، ولمرارته استبشعته الطباع، وبقيت العلة مزمنة، وصار الداء عضالاً، حتى إنَّ الأكابر اجتهدوا أن يصلوا ركعتين لا يحدثوا أنفسهم فيها بأمور الدنيا، فعجزوا عن ذلك، فإذن لا مطمع فيه لأمثالنا، وليته سلم لنا من الصلاة شطرها أو ثلثها من الوسواس، لنكون ممن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً، وعلى الجملة فهمَّةُ الدنيا وهمَّةُ الآخرة في القلب مثل الماء الذي يصب في قدح مملوء بخل، فبقدر ما ندخل فيه من الماء يخرج منه من الخل لا محالة ولا يجتمعان).

- (إذا مالت قلوب العلماء إلى حبِّ الدنيا وإيثارها على الآخرة، فعند ذلك يسلبها الله تعالى ينابيع الحكمة، ويطفىء مصابيح الهدى من قلوبهم، فيخبرك عالمهم حين تلقاه أنه يخشى الله بلسانه، والفجور ظاهر في عمله، فما أخصبَ الألسن يومئذ، وما أجدبَ القلوب، فوالله الذي لا إله إلا هو ما ذلك إلا لأنَّ المعلمين علموا لغير الله تعالى، والمتعلمين تعلموا لغير الله تعالى).

- (فساد الرعايا بفساد الملوك، وفساد الملوك بفساد العلماء، وفساد العلماء باستيلاء حب المال والجاه، ومن استولى عليه حب الدنيا لم يقدر على الحسبة على الأراذل، فكيف على الملوك والأكابر، والله المستعان على كل حال).

- (الحمد لله الذي عرف أولياءه غوائل الدنيا وآفاتها، وكشف لهم عن عيوبها وعوراتها، حتى نظروا في شواهدها وآياتها، ووزنوا بحسناتها سيئاتها، فعلموا أنه يزيد منكرها على معروفها، ولا يفي مرجوها بمخوفها، ولا يسلم طلوعها من كسوفها، ولكنها في صورة امرأة مليحة تستميل الناس بجمالها، ولها أسرار سوء قبائح تهلك الراغبين في وصالها، ثم هي فرارة عن طلابها، شحيحة بإقبالها، وإذا أقبلت لم يؤمن شرها ووبالها، إن أحسنت ساعة أساءت سنة، وإن أساءت مرة جعلتها سنة، فدوائر إقبالها على التقارب دائرة، وتجارة بنيها خاسرة بائرة، وآفاتها على التوالي لصدور طلابها راشقة، ومجاري أحوالها بذل طالبيها ناطقة، فكل مغرور بها إلى الذل مصيره، وكل متكبر بها إلى التحسر مسيره، شأنها الهرب من طالبها، والطلب لهاربها، ومن خدمها فاتته، ومن أعرض عنها واتته، لا يخلو صفوها عن شوائب الكدورات، ولا ينفك سرورها عن المنغصات، سلامتها تعقب السقم، وشبابها يسوق إلى الهرم، ونعيمها لا يثمر إلا الحسرة والندم، فهي خداعة مكارة طيارة فرارة، لا تزال تتزين لطلابها، حتى إذا صاروا من أحبابها كشرت لهم عن أنيابها، وشوشت عليهم مناظم أسبابها، وكشفت لهم عن مكنون عجائبها، فأذاقتهم قواتل سمامها، ورشقتهم بصوائب سهامها، بينما أصحابها منها في سرور وإنعام، إذ ولت عنها كأنها أضغاث أحلام، ثم عكرت عليهم بدواهيها فطحنتهم طحن الحصيد، ووارتهم في أكفانهم تحت الصعيد، إن ملكت واحدا منهم جميع ما طلعت عليه الشمس جعلته حصيدا كأن لم يغن بالأمس، تمني أصحابها سرورا، وتعدهم غرورا، حتى يأملون كثيرا، ويبنون قصورا، فتصبح قصورهم قبورا، وجمعهم بُورا، وسعيهم هباءً منثورا، ودعاؤهم ثبورا، هذه صفتها وكان أمر الله قدراً مقدورا).

بين الدنيا والآخرة:

- (إنَّ الدنيا هي التي تضيق على المتزاحمين، أما الآخرة فلا ضيق فيها، وإنما مثال الآخرة نعمة العلم، فلا جرم مَنْ يحب معرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وملائكته وأنبيائه وملكوت سمواته وأرضه، لم يحسد غيره إذا عرف ذلك أيضاً؛ لأنَّ المعرفة لا تضيق على العارفين، بل المعلوم الواحد يعلمه ألف ألف عالم ويفرح بمعرفته ويلتذ به، ولا تنقص لذة واحد بسبب غيره، بل يحصل بكثرة العارفين: زيادة الأنس، وثمرة الاستفادة والإفادة، فلذلك لا يكون بين علماء الدين محاسدة؛ لأنَّ مقصدهم معرفة الله تعالى، وهو بحر واسع لا ضيق فيه، وغرضهم المنزلة عند الله ولا ضيق أيضاً فيما عند الله تعالى؛ لأنَّ أجلَّ ما عند الله سبحانه من النعيم لذة لقائه، وليس فيها ممانعة ومزاحمة، ولا يضيق بعض الناظرين على بعض، بل يزيد الأنس بكثرتهم، نعم إذا قصد العلماء بالعلم: المال والجاه، تحاسدوا؛ لأنَّ المال أعيان وأجسام، إذا وقعت في يد واحد خلت عنها يد الآخر، ومعنى الجاه ملك القلوب، ومهما امتلأ قلب شخص بتعظيم عالم، انصرف عن تعظيم الآخر أو نقص عنه لا محالة، فيكون ذلك سبباً للمحاسدة، وإذا امتلأ قلب بالفرح بمعرفة الله تعالى، لم يمنع ذلك أن يمتلئ قلب غيره بها وأن يفرح بذلك).

قيمة الوقت ونفاسته:

- (إنَّ العاقل إذا ملك جوهرة نفيسة وضاعت منه بغير فائدة، بكى عليها لا محالة، وإن ضاعت منه وصار ضياعها سبب هلاكه، كان بكاؤه منها أشد، وكل ساعة من العمر بل كل نفس، جوهرة نفيسة لا خلف لها ولا بدل منها، فإنَّها صالحة لأن توصلك إلى سعادة الأبد، وتنقذك من شقاوة الأبد، وأي جواهر أنفس من هذا؟ فإذا ضيعتها في الغفلة فقد خسرت خسراناً مبيناً، وإن صرفتها إلى معصية فقد هلكت هلاكاً فاحشاً، فإن كنت لا تبكي على هذه المعصية فذلك لجهلك، ومصيبتك بجهلك أعظم من كلِّ مصيبة، لكن الجهل مصيبة لا يعرف المصاب بها أنَّه صاحب مصيبة فإنَّ نوم الغفلة يحول بينه وبين معرفته، والناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا، فعند ذلك ينكشف لكلِّ مفلس إفلاسه، ولكل مصاب مصيبته، وقد رفع الناس عن التدارك).

القلب:

- (وليس لكلِّ إنسانٍ قلب، ولو كان لما صحَّ قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ فجعل من لم يتذكر بالقرآن مفلساً من القلب، ولست أعني بالقلب هذا الذي تكتنفه عظام الصدر بل أعني به السر الذي هو من عالم الأمر واللحم الذي هو من عالم الخلق عرشه والصدر كرسيه وسائر الأعضاء عالمه ومملكته ولله الخلق والأمر جميعاً ولكن ذلك السر الذي قال الله تعالى فيه: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾، هو الأمير والملك لأنَّ بين عالم الأمر وعالم الخلق ترتيباً، وعالم الأمر أمير على عالم الخلق، وهو اللطيفة التي إذا صلحت صلح لها سائر الجسد، من عرفها فقد عرف نفسه، ومن عرف نفسه فقد عرف ربَّه).

- (وإنما الأهم الذي أهمله الكل علم صفات القلب وما يحمد منها وما يذم إذ لا ينفك بشر عن الصفات المذمومة مثل الحرص والحسد والرياء والكبر والعجب وأخواتها وجميع ذلك مهلكات، وإهمالها من الواجبات، مع أن الاشتغال بالأعمال الظاهرة يضاهي الاشتغال بطلاء ظاهر البدن عند التأذي بالجرب والدماميل والتهاون بإخراج المادة بالفصد والإسهال، وحشوية العلماء يشيرون بالأعمال الظاهرة كما يشير الطرقية من الأطباء بطلاء ظاهر البدن، وعلماء الآخرة لا يشيرون إلا بتطهير الباطن وقطع مواد الشر بإفساد منابتها وقلع مغارسها من القلب، وإنما فزع الأكثرون إلى الأعمال الظاهرة عن تطهير القلوب لسهولة أعمال الجوارح واستصعاب أعمال القلوب كما يفزع إلى طلاء الظاهر من يستصعب شرب الأدوية المرة فلا يزال يتعب في الطلاء ويزيد في المواد وتتضاعف به الأمراض، فإن كنت مريداً للآخرة وطالباً للنجاة، وهارباً من الهلاك الأبدي، فاشتغل بعلم العلل الباطنة وعلاجها، على ما فصلناه في ربع المهلكات، ثم ينجر بك ذلك إلى المقامات المحمودة المذكورة في ربع المنجيات لا محالة، فإنَّ القلب إذا فرغ من المذموم امتلأ بالمحمود، والأرض إذا نقيت من الحشيش نبت فيها أصناف الزرع والرياحين، وإن لم تفرغ من ذلك لم تنبت ذاك، فلا تشتغل بفروض الكفاية لا سيما وفي زمرة الخلق من قد قام بها، فإن مهلك نفسه فيما به صلاح غيره سفيه، فما أشدَّ حماقة من دخلت الأفاعي والعقارب تحت ثيابه وهمَّت بقتله، وهو يطلب مذبة يدفع بها الذباب عن غيره، ممن لا يغنيه ولا ينجيه مما يلاقيه

من تلك الحيات والعقارب إذا همت به، وإن تفرغت من نفسك وتطهيرها وقدرت على ترك ظاهر الإثم وباطنه وصار ذلك ديدناً لك وعادة متيسرة فيك، وما أبعد ذلك منك فاشتغل بفروض الكفايات وراع التدريج فيها).

- (أما المتعلم فآدابه ووظائفه الظاهرة كثيرة، ولكن تنظم تفاريقها عشر جمل الوظيفة الأولى تقديم طهارة النفس عن رذائل الأخلاق ومذموم الأوصاف إذ العلم عبادة القلب وصلاة السر وقربة الباطن إلى الله تعالى وكما لا تصح الصلاة التي هي وظيفة الجوارح الظاهرة إلا بتطهير الظاهر عن الأحداث والأخباث، فكذلك لا تصح عبادة الباطن وعمارة القلب بالعلم إلا بعد طهارته عن خبائث الأخلاق وأنجاس الأوصاف).

من آداب طالب العلم:

- (لا ينبغي لطالب العلم أن يتكبر على المعلم، ومن تكبره على المعلم أن يستنكف عن الاستفادة إلا من المرموقين المشهورين، وهو عين الحماقة، فإنَّ العلمَ سببُ النجاة والسعادة، ومن يطلب مهرباً من سبع ضار يفترسه، لم يفرِّق بين أنْ يرشده إلى الهرب مشهور أو خامل، وضراوة سباع النار بالجهل بالله تعالى أشد من ضراوة كلِّ سبع، فالحكمة ضالة المؤمن يغتنمها حيث يظفر بها، ويتقلد المنة لمن ساقها إليه كائناً من كان).

كيد الشيطان:

- (إذا لم يأمن من نبي من الأنبياء وهو في الجنة دار الأمن والسعادة من كيد الشيطان فكيف يجوز لغيره أن يأمن في دار الدنيا وهي منبع المحن والفتن ومعدن الملاذ والشهوات المنهي عنها).

- (مَنْ كان لله تعالى كان الله عز وجل له، ومن اشتغل بالله عز وجل ألقى الله حبه في قلوب الناس وسخر له القلوب كما سخر قلب الأم لولدها فقد دبر الله تعالى الملك والملكوت تدبيراً كافياً لأهل الملك والملكوت، فمن شاهد هذا التدبير وثق بالمدبر واشتغل به وآمن ونظر إلى مدبر الأسباب لا إلى الأسباب).

بين العلم والمال:

- (الفرق بين العلم والمال أن المال لا يحل في يد ما لم يرتحل عن اليد الأخرى، والعلم في قلب العالم مستقر ويحل في قلب غيره بتعليمه من غير أن يرتحل من قلبه، والمال أجسام وأعيان ولها نهاية، فلو ملك الإنسان جميع ما في الأرض لم يبق بعده مال يتملكه غيره، والعلم لا نهاية له ولا يتصور استيعابه، فمن عود نفسه الفكر في جلال الله وعظمته وملكوت أرضه وسمائه، صار ذلك ألذ عنده من كلِّ نعيم، ولم يكن ممنوعاً منه ولا مزاحماً فيه، فلا يكون في قلبه حسد لأحد من الخلق؛ لأنَّ غيره أيضاً لو عرف مثل معرفته لم ينقص من لذته بل زادت لذته بمؤانسته، فتكون لذة هؤلاء في مطالعة عجائب الملكوت على الدوام أعظم من لذة من ينظر إلى أشجار الجنة وبساتينها بالعين الظاهرة، فإنَّ نعيم العارف وجنته: معرفته التي هي صفة ذاته يأمن زوالها، وهو أبداً يجني ثمارها، فهو بروحه وقلبه مغتذ بفاكهة علمه، وهي فاكهة غير مقطوعة ولا ممنوعة، بل قطوفها دانية، فهو وإن غمض العين الظاهرة، فروحه أبداً ترتع في جنة عالية، ورياض زاهرة، فإن فرض كثرة في العارفين لم يكونوا متحاسدين، بل كانوا كما قال فيهم رب العالمين: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾، فهذا حالهم وهم بعد في الدنيا، فماذا يظن بهم عند انكشاف الغطاء، ومشاهدة المحبوب في العقبى).

السبيل إلى الجنة هو معرفة الله سبحانه:

- (الجنة لا مضايقة فيها ولا مزاحمة، ولا تنال إلا بمعرفة الله تعالى التي لا مزاحمة فيها في الدنيا أيضاً، فأهل الجنة بالضرورة برآء من الحسد في الدنيا والآخرة جميعاً، بل الحسد من صفات المبعدين عن سعة عليين إلى مضيق سجين، ولذلك وسم به الشيطان اللعين، وذكر من صفاته أنه حسد آدم عليه السلام على ما خص به من الاجتباء، ولما دعي إلى السجود استكبر وأبى، وتمرد وعصى، فقد عرفت أنه لا حسد إلا للتوارد على مقصود يضيق عن الوفاء بالكل، ولهذا لا ترى الناس يتحاسدون على النظر إلى زينة السماء، ويتحاسدون على رؤية البساتين التي هي جزء يسير من جملة الأرض، وكل الأرض لا وزن لها بالإضافة إلى السماء، ولكن السماء لسعة الأقطار وافية بجميع الأبصار فلم يكن فيها تزاحم ولا تحاسد أصلاً، فعليك إن كنت بصيراً وعلى نفسك

مشفقاً أن تطلب نعمة لا زحمة فيها ولذة لا كدر لها، ولا يوجد ذلك في الدنيا إلا في معرفة الله عز و جل، ومعرفة صفاته وأفعاله، وعجائب ملكوت السموات والأرض، ولا ينال ذلك في الآخرة إلا بهذه المعرفة أيضاً.

فإن كنت لا تشتاق إلى معرفة الله تعالى ولم تجد لذتها، وفتر عنها رأيك وضعفت فيها رغبتك، فأنت في ذلك معذور؛ إذ العنين لا يشتاق إلى لذة الوقاع، والصبي لا يشتاق إلى لذة الملك، فإن هذه لذات يختص بإدراكها الرجال دون الصبيان والمخنثين، فكذلك لذة المعرفة يختص بإدراكها الرجال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، ولا يشتاق إلى هذه اللذة غيرهم؛ لأنَّ الشوق بعد الذوق، ومن لم يذق لم يعرف، ومن لم يعرف لم يشتق، ومن لم يشتق لم يطلب، ومن لم يطلب لم يدرك، ومن لم يدرك بقي مع المحرومين في أسفل السافلين، ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين).

قلة العلماء الربَّانيين:

- (فقد الطبيب هو الداء العضال، فإنَّ الأطباء هم العلماء وقد مرضوا فى هذه الأعصار مرضاً شديداً عجزوا عن علاجه، وصارت لهم سلوة فى عموم المرض حتى لا يظهر نقصانهم، فاضطروا إلى إغواء الخلق والإشارة عليهم بما يزيدهم مرضاً؛ لأنَّ الداء المهلك هو حبُّ الدنيا، وقد غلب هذا الداء على الأطباء فلم يقدروا على تحذير الخلق منه استنكافاً من أن يقال لهم فما بالكم تأمرون بالعلاج وتنسون أنفسكم، فبهذا السبب عمَّ على الخلق الداء، وعظم الوباء، وانقطع الدواء، وهلك الخلق لفقد الأطباء، بل اشتغل الأطباء بفنون الإغواء، فليتهم إذ لم ينصحوا لم يغشوا، وإذا لم يصلحوا لم يفسدوا، وليتهم سكتوا وما نطقوا، فإنهم إذا تكلموا لم يهمهم فى مواعظهم إلا ما يرغب العوام ويستميل قلوبهم، ولا يتوصلون إلى ذلك إلا بالإرجاء وتغليب أسباب الرجاء وذكر دلائل الرحمة؛ لأنَّ ذلك ألذ في الأسماع وأخف على الطباع، فتنصرف الخلق عن مجالس الوعظ وقد استفادوا مزيد جراءة على المعاصي، ومزيد ثقة بفضل الله، ومهما كان الطبيب جاهلاً أو خائباً أهلك بالدواء حيث يضعه فى غير موضعه، فالرجاء والخوف دواءان ولكن لشخصين متضادي العلة.

أما الذي غلب عليه الخوف حتى هجر الدنيا بالكلية، وكلف نفسه ما لا تطيق، وضيق العيش على نفسه بالكلية، فتكسر سورة إسرافه في الخوف بذكر أسباب الرجاء ليعود إلى الاعتدال، وكذلك المصر على الذنوب المشتهي للتوبة المتنع عنها بحكم القنوط واليأس استعظاماً لذنوبه التي سبقت يعالج أيضاً بأسباب الرجاء حتى يطمع في قبول التوبة فيتوب.

فأما معالجة المغرور المسترسل في المعاصي بذكر أسباب الرجاء فيضاهي معالجة المحرور بالعسل طلباً للشفاء، وذلك من دأب الجهال والأغبياء، فإذن فساد الأطباء هي المعضلة الزباء التي لا تقبل الدواء أصلاً).

الحذر من الجدل المذموم:

- (أما الخلافيات التي أحدثت في هذه الأعصار المتأخرة، وأبدع فيها من التحريرات والتصنيفات والمجادلات، ما لم يعهد مثلها في السلف، فإياك وأن تحوم حولها، واجتنبها اجتناب السم القاتل، فإنها الداء العضال، وهو الذي رد الفقهاء كلهم إلى طلب المنافسة والمباهاة، وهذا الكلام ربما يسمع من قائله فيقال: (الناس أعداء ما جهلوا)، فلا تظن ذلك، فعلى الخبير سقطت، فاقبل هذه النصيحة ممن ضيَّع العمر فيه زماناً، وزاد فيه على الأولين تصنيفاً وتحقيقاً وجدلاً وبياناً، ثم ألهمه الله رشده وأطلعه على عيبه، فهجره واشتغل بنفسه، فلا يغرنك قول مَنْ يقول: (الفتوى عماد الشرع، ولا يعرف علله إلا بعلم الخلاف)، فإنَّ علل المذهب مذكورة في المذهب، والزيادة عليها مجادلات لم يعرفها الأولون ولا الصحابة، وكانوا أعلم بعلل الفتاوى من غيرهم، بل هي مع أنها غير مفيدة في علم المذهب ضارة مفسدة لذوق الفقه، فإنَّ الذي يشهد له حدس المفتي إذا صح ذوقه في الفقه، لا يمكن تمشيته على شروط الجدل في أكثر الأمر، فمن ألف طبعه رسوم الجدل أذعن ذهنه لمقتضيات الجدل، وجبن عن الإذعان لذوق الفقه.

وإنما يشتغل به من يشتغل لطلب الصيت والجاه، ويتعلل بأنه يطلب عِلَل المذهب، وقد ينقضي عليه العمر ولا تنصرف همته إلى علم المذهب، فكن من شياطين الجن في أمان، واحترز من شياطين الإنس، فإنهم أراحوا شياطين الجن من التعب في الإغواء والإضلال، وبالجملة فالمرضي عند العقلاء أن تقدر نفسك في العالم

وحدك مع الله، وبين يديك الموت والعرض والحساب، والجنة والنار، وتأمل فيما يعنيك مما بين يديك، ودع عنك ما سواه والسَّلام).

المال والجاه:

- (إنَّ الجاه والمال هما ركنا الدنيا، ومعنى المال: ملك الأعيان المنتفع بها، ومعنى الجاه: ملك القلوب المطلوب تعظيمها وطاعتها، وكما أنَّ الغني هو الذي يملك الدراهم والدنانير، أي يقدر عليهما ليتوصل بهما إلى الأغراض والمقاصد وقضاء الشهوات وسائر حظوظ النفس، فكذلك ذو الجاه هو الذي يملك قلوب الناس، أي يقدر على أن يتصرف فيها ليستعمل بواسطتها أربابها في أغراضه ومآربه.

وكما أنه يكتسب الأموال بأنواع من الحرف والصناعات، فكذلك يكتسب قلوب الخلق بأنواع من المعاملات، ولا تصير القلوب مسخرة إلا بالمعارف والاعتقادات، فكل من اعتقد القلب فيه وصفا من أوصاف الكمال انقاد له وتسخر له بحسب قوة اعتقاد القلب، وبحسب درجة ذلك الكمال عنده، وليس يشترط أن يكون الوصف كمالاً في نفسه، بل يكفي أن يكون كمالاً عنده وفي اعتقاده، وقد يعتقد ما ليس كمالاً كمالا، ويذعن قلبه للموصوف به انقياداً ضرورياً بحسب اعتقاده، فإن انقياد القلب حال للقلب.

وأحوال القلوب تابعة لاعتقادات القلوب وعلومها وتخيلاتها، وكما أنَّ محبَّ المال يطلب ملك الأرقاء والعبيد، فطالب الجاه يطلب أن يسترق الأحرار ويستعبدهم ويملك رقابهم بملك قلوبهم، بل الرق الذي يطلبه صاحب الجاه أعظم؛ لأنَّ المالك يملك العبد قهراً والعبد متأب بطبعه ولو خلي ورأيه انسل عن الطاعة، وصاحب الجاه يطلب الطاعة طوعاً ويبغي أن تكون له الأحرار عبيداً بالطبع والطوع، مع الفرح بالعبودية والطاعة له، فما يطلبه فوق ما يطلبه مالك الرق بكثير.

فإذن معنى الجاه قيام المنزلة في قلوب الناس، أي اعتقاد القلوب لنعت من نعوت الكمال فيه، فبقدر ما يعتقدون من كماله تذعن له قلوبهم، وبقدر إذعان القلوب تكون قدرته على القلوب، وبقدر قدرته على القلوب يكون فرحه وحبه للجاه.

فهذا هو معنى الجاه وحقيقتة وله ثمرات كالمدح والإطراء، فإنَّ المعتقد للكمال لا يسكت عن ذكر ما يعتقده فيثني عليه، وكالخدمة والإعانة فإنَّه لا يبخل ببذل نفسه في طاعته بقدر اعتقاده، فيكون سخرة له مثل العبد في أغراضه، وكالإيثار وترك المنازعة، والتعظيم والتوقير بالمفاتحة بالسلام، وتسليم الصدر في المحافل، والتقديم في جميع المقاصد، فهذه آثار تصدر عن قيام الجاه في القلب، ومعنى قيام الجاه في القلب اشتمال القلوب على اعتقاد صفات الكمال في الشخص إما بعلم أو عبادة أو حسن خلق أو نسب أو ولاية أو جمال في صورة، أو قوة في بدن أو شيء مما يعتقده الناس كمالاً، فإنَّ هذه الأوصاف كلها تعظم محله في القلوب فتكون سبباً لقيام الجاه).

علاج حب الجاه:

- (إن من غلب على قلبه حب الجاه صار مقصور الهم على مراعاة الخلق مشغوفاً بالتودد إليهم والمراءات لأجلهم ولا يزال في أقواله وأفعاله ملتفتاً إلى ما يعظم منزلته عندهم، وذلك بذر النفاق وأصل الفساد، ويجر ذلك لا محالة إلى التساهل في العبادات والمراءاة بها، وإلى اقتحام المحظورات للتوصل إلى اقتناص القلوب، إذ النفاق هو مخالفة الظاهر للباطن بالقول أو الفعل، وكل من طلب المنزلة في قلوب الناس فيضطر إلى النفاق معهم وإلى التظاهر بخصال حميدة هو خال عنها، وذلك هو عين النفاق، فحب الجاه إذا من المهلكات فيجب علاجه وإزالته عن القلب فإن طبع جبل عليه القلب كما جبل على حب المال).

- (علاج الجاه أن يعلم السبب الذي لأجله أحب الجاه، وهو كمال القدرة على أشخاص الناس وعلى قلوبهم، وذلك إن صفا وسلم فآخره الموت، فليس هو من الباقيات الصالحات، بل لو سجد لك كل من على بسيط الأرض من المشرق إلى المغرب فإلى خمسين سنة لا يبقى الساجد ولا المسجود له، ويكون حالك كحال من مات قبلك من ذوي الجاه مع المتواضعين له، فهذا لا ينبغي أن يترك به الدين الذي هو الحياة الأبدية التي لا انقطاع لها، ومن فهم الكمال الحقيقي والكمال الوهمي كما سبق صغر الجاه في عينه، إلا أن ذلك إنما يصغر في عين من ينظر إلى الآخرة كأنه يشاهدها ويستحقر العاجلة، ويكون الموت كالحاصل عنده، ويكون حاله كحال الحسن البصري حين

كتب إلى عمر بن عبد العزيز: (أما بعد فكأنك بآخر من كتب عليه الموت قـد مـات)، فانظر كيف مد نظره نحو المستقبل وقدره كائناً، وكذلك حال عمر بن عبد العزيز حـين كتب في جوابه: (أما بعد فكأنك بالدنيا لم تكن وكأنك بالآخرة لم تـزل)، فهـؤلاء كان التفاتهم إلى العاقبة فكان عملهم لها بالتقوى؛ إذ علموا أن العاقبة للمتقين فاسـتحقروا الجاه والمال في الدنيا.

وأبصار أكثر الخلق ضعيفة مقصورة على العاجلة التي لا يمتد نورها إلى مشاهدة العواقب، ولذلك قال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا. وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْـقَى﴾ وقـال عـز وجل: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ. وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ﴾، فمن هذا حده فينبغي أن يعالج قلبـه من حبِّ الجاه بالعلم بالآفات العاجلة، وهو أن يتفكر في الأخطـار الـتي يسـتهدف لهـا أرباب الجاه في الدنيا، فإنَّ كل ذي جاه محسود ومقصود بالإيـذاء وخـائف على الدوام على جاهه ومحترز من أن تتغير منزلته في القلوب والقلوب أشد تغيرا من القدر في غليانهـا وهي مترددة بين الإقبال والإعراض.

فكلُّ ما يُبنى على قلوب الخلق يضاهي ما يُبنى على أمواج البحـر، فإنـه لا ثبـات له، والاشتغال بمراعاة القلوب وحفظ الجاه ودفع كيد الحساد ومنع أذى الأعداء، كلُّ ذلـك غموم عاجلة ومكدرة للذة الجاه، فلا يفي في الدنيا مرجوها بمخوفها، فضلاً عمـا يفـوت في الآخرة، فبهذا ينبغي أن تعالج البصيرة الضعيفة، وأما من نفذت بصيرته وقوي إيمانه فلا يلتفت إلى الدنيا).

- (مَنْ أحب الجاه والمنزلة فهو كمن أحب المال بل هو شر منـه، فـإنَّ فتنـة الجـاه أعظم، ولا يمكنه أن لا يحب المنزلة في قلوب الناس ما دام يطمع في الناس، فإذا أحـرز قوته من كسبه أو من جهة أخرى وقطع طمعه عـن النـاس رأسـاً أصبح النـاس كلهـم عنده كالأرذال، فلا يبالي أكان له منزلة في قلوبهم أم لـم يكـن، كمـا لا يبـالي بمـا في قلوب الذين هم منه في أقصى المشرق؛ لأنه لا يراهم ولا يطمع فيهم، ولا يقطـع الطمـع عن الناس إلا بالقناعة، فمن قنع استغنى عـن النـاس، وإذا اسـتغنى لـم يشـتغل قلبـه بالناس، ولم يكن لقيام منزلته في القلوب عنده وزن، ولا يتم ترك الجـاه إلا بالقناعـة وقطع الطمع).

علاج الحسد:

- (إنَّ الحسدَ من الأمـراض العظيمـة للقلـوب، ولا تـداوى أمـراض القلـوب إلا بالعلم والعمل.

والعلم النافع لمرض الحسد هو: أن تعرف تحقيقاً أنَّ الحسدَ ضررٌ عليك في الدنيـا والدين، وأنه لا ضررَ فيه على المحسود في الدنيـا والديـن، بـل ينتفـع بـه فيهمـا، ومهمـا عرفتَ هذا عن بصيرة، ولم تكن عدوَّ نفسِك وصديقَ عدوك، فارقتَ الحسدَ لا محالة.

أما كونه ضرراً عليك في الدين، فهـو أنـك بالحسـد سـخطت قضـاء الله تعـالى، وكرهتَ نعمته التي قسمها بـين عبـاده، وعـدله الذي أقامـه في ملكـه بخـفي حكمتـه، فاستنكرتَ ذلك واستبشعته، وهذه جنايةٌ على حدقة التوحيد، وقذى في عـين الإيمـان، وناهيك بهما جناية على الدين، وقد انضاف إلى ذلك أنك غششتَ رجلاً مـن المـؤمنين وتركتَ نصيحته، وفارقتَ أولياء الله وأنبياءه في حبِّهم الخـير لعبـاده تعـالى، وشـاركتَ إبليسَ وسائر الكفار في محبَّتهم للمؤمنين البلايا وزوال النعم، وهذه خبائث في القلـب تأكل حسنات القلب كما تأكل النار الحطب، وتمحوها كما يمحو الليل والنهار.

وأما كونه ضرراً عليك في الدنيا، فهو أنك تتألم بحسـدك في الدنيـا أو تتعـذب بـه ولا تزال في كمد وغم؛ إذ أعداؤك لا يخليهم الله تعالى عن نِعَم يفيضها عليهم، فلا تزال تتعذب بكل نعمة تراها، وتتألم بكل بلية تنصرف عـنهم، فتـبقى مغمومـاً محرومـاً، متشعب القلب ضيق الصدر، قد نزل بك ما يشتهيه الأعداء لك، وتشـتهيه لأعـدائك، فقد كنت تريد المحنة لعدوك فتنجزت في الحال محنتك وغمـك نقـداً، ومـع هـذا فـلا تزول النعمة عن المحسود بحسدك، ولو لم تكن تؤمن بالبعث والحساب لكان مقتضى الفطنة إن كنت عاقلاً أن تحذر من الحسد، لما فيه من ألم القلـب ومسـاءته مـع عـدم النفع، فكيف وأنت عالم بما في الحسد من العذاب الشديد في الآخرة، فما أعجـب مـن العاقل كيف يتعرض لسخط الله تعالى من غير نفع ينـاله بـل مـع ضرر يحتملـه وألـم يقاسيه، فيهلك دينه ودنياه من غير جدوى ولا فائدة.

وأما أنه لا ضرر على المحسود في دينه ودنياه، فواضح لأنَّ النعمة لا تزول عنه بحسدك، بل ما قدره الله تعالى من إقبال ونعمة، فلا بد أن يدوم إلى أجل غير معلوم قدره الله سبحانه، فلا حيلة في دفعه، بل كل شيء عنده بمقدار، ولكلِّ أجلٍ كتاب).

سبب الخشوع في الصلاة:

- (إنَّ حضورَ القلب سببُه الهمة، فإنَّ قلبَك تابعٌ لهمتك، فلا يحضر إلا فيما يهمك، ومهما أهمك أمر حضر القلب فيه شاء أم أبى، فهو مجبول على ذلك ومسخر فيه، والقلب إذا لم يحضر في الصلاة لم يكن متعطلاً، بل جائلاً فيما الهمة مصروفة إليه من أمور الدنيا، فلا حيلة ولا علاج لإحضار القلب إلا بصرف الهمة إلى الصلاة، والهمة لا تنصرف إليها ما لم يتبين أن الغرض المطلوب منوط بها، وذلك هو الإيمان والتصديق بأن الآخرة خير وأبقى، وأنَّ الصلاة وسيلة إليها، فإذا أضيف هذا إلى حقيقة العلم بحقارة الدنيا ومهماتها، حصل من مجموعها حضور القلب في الصلاة، وبمثل هذه العلة يحضر قلبك إذا حضرت بين يدي بعض الأكابر ممن لا يقدر على مضرتك ومنفعتك، فإذا كان لا يحضر عند المناجاة مع ملك الملوك الذي بيده الملك والملكوت والنفع والضر، فلا تظننَّ أنَّ له سبباً سوى ضعف الإيمان، فاجتهد الآن في تقوية الإيمان، وطريقه يستقصى في غير هذا الموضع وأما التفهم فسببه بعد حضور القلب إدمان الفكر وصرف الذهن إلى إدراك المعنى وعلاجه ما هو علاج إحضار القلب مع الإقبال على الفكر والتشمر لدفع الخواطر، وعلاج دفع الخواطر الشاغلة: قطع موادها، أعني النزوع عن تلك الأسباب التي تنجذب الخواطر إليها، وما لم تنقطع تلك المواد لا تنصرف عنها الخواطر، فمن أحب شيئا أكثر ذكره، فذكر المحبوب يهجم على القلب بضرورة، لذلك ترى أن من أحب غير الله لا تصفو له صلاة عن الخواطر، وأما التعظيم فهي حالة للقلب تتولد من معرفتين، إحداهما: معرفة جلال الله عزَّ وجلَّ وعظمته، وهو من أصول الإيمان، فإنَّ مَنْ لا يعتقد عظمته لا تذعن النفس لتعظيمه. الثانية: معرفة حقارة النفس وخستها، وكونها عبداً مسخراً مربوباً، حتى يتولد من المعرفتين: الاستكانة والانكسار، والخشوع لله سبحانه، فيعبر عنه بالتعظيم، وما لم تمتزج معرفة حقارة النفس بمعرفة جلال الله لا تنتظم حالة التعظيم والخشوع، فإنَّ

المستغني عن غيره، الآمن على نفسه، يجوز أن يعرف من غيره صفات العظمة ولا يكون الخشوع والتعظيم حاله؛ لأنَّ القرينة الأخرى وهي معرفة حقارة النفس وحاجتها لم تقترن إليه، وأما الهيبة والخوف فحالة للنفس تتولد من المعرفة بقدرة الله وسطوته، ونفوذ مشيئته فيه مع قلة المبالاة به، وأنه لو أهلك الأولين والآخرين لم ينقص من ملكه ذرة، هذا مع مطالعة ما يجري على الأنبياء والأولياء من المصائب وأنواع البلاء مع القدرة على الدفع على خلاف ما يشاهد من ملوك الأرض، وبالجملة كلما زاد العلم بالله زادت الخشية والهيبة، وأما الرجاء فسببه معرفة لطف الله عز و جل وكرمه وعميم إنعامه ولطائف صنعه ومعرفة صدقه في وعده الجنة بالصلاة، فإذا حصل اليقين بوعده والمعرفة بلطفه انبعث من مجموعهما الرجاء لا محالة، وأما الحياء فباستشعاره التقصير في العبادة وعلمه بالعجز عن القيام بعظيم حقِّ الله عزَّ وجلَّ، ويقوى ذلك بالمعرفة بعيوب النفس وآفاتها وقلة إخلاصها وخبث دخلتها، وميلها إلى الحظ العاجل في جميع أفعالها، مع العلم بعظيم ما يقتضيه جلال الله عزَّ وجلَّ، والعلم بأنه مطلع على السر وخطرات القلب وإن دقَّت وخفيت، وهذه المعارف إذا حصلت يقيناً انبعث منها بالضرورة حالة تسمى الحياء، فهذه أسباب هذه الصفات وكل ما طلب تحصيله فعلاجه إحضار سببه، ففي معرفة السبب معرفة العلاج، ورابطة جميع هذه الأسباب: الإيمان واليقين، أعني به هذه المعارف التي ذكرناها، ومعنى كونها يقيناً: انتفاء الشك واستيلاؤها على القلب، وبقدر اليقين يخشع القلب).

من علامات محبة العبد لله تعالى:

- (المحبة شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، وثمارها تظهر في القلب واللسان والجوارح، وتدل تلك الآثار الفائضة منها على القلب والجوارح على المحبة دلالة الدخان على النار، ودلالة الثمار على الأشجار، وهى كثيرة فمنها: حب لقاء الحبيب بطريق الكشف والمشاهدة في دار السلام، فلا يتصور أن يحب القلب محبوباً إلا ويحب مشاهدته ولقاءه، وإذا علم أنه لا وصول إلا بالارتحال من الدنيا ومفارقتها بالموت، فينبغي أن يكون محباً للموت غير فار منه، فإنَّ المحب لا يثقل عليه السفر

عن وطنه إلى مستقرِّ محبوبه ليتنعم بمشاهدته، والموت مفتاح اللقاء، وباب الدخول إلى المشاهدة).

- (ومنها: أن يكون مؤثراً ما أحبه الله تعالى على ما يحبه في ظاهره وباطنه، فيلزم مشاق العمل، ويجتنب اتباع الهوى، ويعرض عن دعة الكسل، ولا يزال مواظباً على طاعة الله، ومتقرباً اليه بالنوافل، وطالباً عنده مزايا الدرجات، كما يطلب المحب مزيد القرب في قلب محبوبه، وقد وصف الله تعالى المحبين بالإيثار فقال: (يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) ومن بقي مستقرا على متابعة الهوى، فمحبوبه ما يهواه، بل يترك المحب هوى نفسه كما قيل:

أريد وصاله ويريد هجري... فأترك ما أريد لما يريد

بل الحب اذا غلب قمع الهوى، فلم يبق له تنعم بغير المحبوب).

- (ومنها: أن يكون مستهتراً [٦٤] بذكر الله تعالى، لا يفتر عنه لسانه ولا يخلو عنه قلبه، فمن أحب شيئاً أكثر بالضرورة من ذكره وذكر ما يتعلق به فعلامة حب الله: حب ذكره وحب القرآن الذي هو كلامه وحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحب كل مَنْ يُنسب إليه، فإنَّ مَنْ يحب إنساناً يحب كلب محلته، فالمحبة إذا قويت تعدَّت من المحبوب إلى كلِّ ما يكتنف بالمحبوب ويحيط به ويتعلق بأسبابه، وذلك ليس شركة في الحب، فإنَّ مَنْ أحب رسول المحبوب لأنه رسوله، وكلامه لأنه كلامه، فلم يجاوز حبه إلى غيره بل هو دليل على كمال حبِّه، ومَنْ غلب حبُّ الله على قلبه أحب جميع خلق الله لأنهم خلقه، فكيف لا يحب القرآن والرسول وعباد الله الصالحين).

(ومنها: أن يكون أُنسه بالخلوة ومناجاته لله تعالى وتلاوة كتابه، فيواظب على التهجُّد ويغتنم هَدْءَ الليل وصفاء الوقت بانقطاع العوائق، وأقل درجات الحب: التلذذ بالخلوة بالحبيب، والتنعُّم بمناجاته، فمَنْ كان النوم والاشتغال بالحديث ألذ عنده وأطيب من مناجاة الله كيف تصح محبته؟).

---

(٦٤) ـ يقال: اسْتُهْتِرَ بأَمر كذا وكذا، أَي: أُولِعَ به لا يتحدّثُ بغيره ولا يفعلُ غيرَه. لسان العرب (هتر).

- (علامة المحبة كمال الأُنس بمناجاة المحبوب، وكمال التنعم بالخلوة به، وكمال الاستيحاش من كلِّ ما ينغص عليه الخلوة ويعوق عن لذة المناجاة، وعلامة الأنس مصير العقل والفهم كله مستغرقاً بلذة المناجاة، كالذي يخاطب معشوقه ويناجيه، وقد انتهت هذه اللذة ببعضهم حتى كان في صلاته ووقع الحريق في داره فلم يشعر به، وقطعت رجل بعضهم بسبب علة أصابته وهو في الصلاة فلم يشعر به، ومهما غلب عليه الحب والأنس صارت الخلوةُ والمناجاة قرَّةَ عينه، يدفع بها جميع الهموم، بل يستغرق الأُنس والحب قلبه حتى لا يفهم أمور الدنيا ما لم تكرر على سمعه مراراً، مثل العاشق الولهان فإنه يكلم الناس بلسانه وأنسه في الباطن بذكر حبيبه، فالمحبُّ مَنْ لا يطمئن إلا بمحبوبه).

- (ومنها: أن يتنعَّم بالطاعة ولا يستثقلها، ويسقط عنه تعبها، كما قال بعضهم: كابدتُ الليل عشرين سنة، ثم تنعَّمتُ به عشرين سنة).

- (ومنها: أن يكون في حبِّه خائفاً متضائلاً تحت الهيبة والتعظيم، وقد يظن أن الخوف يضاد الحب، وليس كذلك، بل إدراك العظمة يوجب الهيبة، كما أنَّ إدراك الجمال يوجب الحب، ولخصوص المحبين مخاوف في مقام المحبَّة ليست لغيرهم، وبعض مخاوفهم أشد من بعض، فأوَّلها: خوف الإعراض، وأشد منه: خوف الحجاب، وأشد منه: خوف الإبعاد).

(ومنها: كتمانُ الحبِّ واجتناب الدعوى، والتوقي من إظهار الوَجْد والمحبَّة، تعظيماً للمحبوب وإجلالاً له، وهيبة منه، وغيرة على سرِّه، فإنَّ الحبَّ سرٌّ من أسرار الحبيب، ولأنه قد يدخل في الدعوى ما يتجاوز حد المعنى ويزيد عليه، فيكون ذلك من الافتراء، وتعظم العقوبة عليه في العقبى، وتتعجل عليه البلوى في الدنيا، نعم قد يكون للمحب سكرة في حبِّه حتى يدهش فيه وتضطرب أحواله، فيظهر عليه حبه، فإن وقع ذلك عن غير تمحُّل أو اكتساب فهو معذور؛ لأنه مقهور، وربما تشتعل من الحبِّ نيرانُه، فلا يُطاق سلطانُه، وقد يفيض القلب به فلا يندفع فيضانُه).

الحُرِّيَّة:

(الحرية هي الخلاص من أسر الشهوات وغموم الدنيا، والاستيلاء عليها بالقهر تشبُّهاً بالملائكة الذين لا تستفزهم الشهوة، ولا يستهويهم الغضب، فإنَّ دَفْعَ آثار الشهوة والغضب عن النفس من الكمال الذي هو من صفات الملائكة).

(وإنما العبد الحق لله عزَّ وجلَّ من أعتق أولاً من غير الله تعالى فصار حُرَّاً مطلقاً فإذا تقدمت هذه الحرية صار القلب فارغاً فحلَّت فيه العبودية لله، فتشغله بالله وبمحبته، وتقيد باطنه وظاهره بطاعته، فلا يكون له مراد إلا الله تعالى، ثم تجاوز هذا إلى مقام آخر أسنى منه يسمى الحرية وهو أن يعتق أيضاً عن إرادته لله من حيث هو، بل يقنع بما يريد الله له من تقريب أو إبعاد، فتفنى إرادته في إرادة الله تعالى، وهذا عبد عتق عن غير الله فصار حُرَّاً ثم عاد وعتق عن نفسه فصار حُرَّاً، وصار مفقوداً لنفسه موجوداً لسيِّده ومولاه إن حركة تحرك وإن سكنه سكن وإن ابتلاه رضي لم يبق فيه متسع لطلب والتماس واعتراض بل هو بين يدي الله كالميت بين يدي الغاسل وهذا منتهى الصدق في العبودية لله تعالى، فالعبد الحق هو الذي وجوده لمولاه لا لنفسه وهذه درجة الصديقين، وأما الحرية عن غير الله فدرجات الصادقين، وبعدها تتحقق العبودية لله تعالى، وما قبل هذا فلا يستحق صاحبه أن يسمى صادقاً ولا صِدِّيقاً، فهذا هو معنى الصدق في القول).

طول الأمل وقصره:

- (وليس مَنْ أَمَله مقصور على شهر كمَنْ أَمَله شهر ويوم، بل بينهما تفاوت في الدرجة عند الله، فـ ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾، و﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾، ثم يظهر أثر قصر الأمل في المبادرة إلى العمل، وكل إنسان يدعي أنه قصير الأمل وهو كاذب، إنما يظهر ذلك بأعماله، فإنه يعتني بأسباب ربما لا يحتاج إليها في سنة، فيدل ذلك على طول أمله، وإنما علامة التوفيق أن يكون الموت نصب العين، لا يغفل عنه ساعة، فليستعد للموت الذي يرد عليه في الوقت، فإن عاش إلى المساء شكر الله تعالى على طاعته، وفرح بأنه لم يضيع نهاره، بل استوفى منه حظه وادخره لنفسه، ثم يستأنف مثله إلى الصباح وهكذا إذا أصبح، ولا يتيسر هذا إلا لمن فرغ القلب عن

الغد وما يكون فيه، فمثل هذا إذا مات سعد وغنم، وإن عاش سُرَّ بحسن الاستعداد ولذة المناجاة، فالموت له سعادة، والحياة له مزيد، فليكن الموت على بالك يا مسكين، فإنَّ السير حاث بك وأنت غافل عن نفسك، ولعلك قد قاربت المنزل وقطعت المسافة، ولا تكون كذلك إلا بمبادرة العمل اغتناماً لكلِّ نفس أمهلت فيه).

السبب في طول الأمل:

(إنَّ طولَ الأمل له سببان: أحدهما: الجهل، والآخر: حبُّ الدنيا؛ أمَّا حبُّ الدنيا فهو أنه إذا أنس بها وبشهواتها ولذاتها وعلائقها ثقل على قلبه مفارقتها، فامتنع قلبه من الفكر في الموت الذي هو سبب مفارقتها، وكلُّ مَنْ كره شيئاً دفعه عن نفسه، والإنسان مشغوف بالأماني الباطلة فيمني نفسه أبداً بما يوافق مراده، وإنما يوافق مراده البقاء في الدنيا، فلا يزال يتوهمه ويقدره في نفسه، ويقدر توابع البقاء وما يحتاج إليه من مال وأهل ودار وأصدقاء ودواب وسائر أسباب الدنيا، فيصير قلبه عاكفاً على هذا الفكر موقوفاً عليه، فيلهو عن ذكر الموت فلا يقدر قربه، فإن خطر له في بعض الأحوال أمر الموت والحاجة إلى الاستعداد له سوَّف ووعد نفسه وقال الأيام بين يديك إلى أن تكبر ثم تتوب، وإذا كبر فيقول إلى أن تصير شيخاً، فإذا صار شيخاً قال إلى أن تفرغ من بناء هذه الدار وعمارة هذه الضيعة أو ترجع من هذه السفرة أو تفرغ من تدبير هذا الولد وجهازه وتدبير مسكن له، أو تفرغ من قهر هذا العدو الذي يشمت بك، فلا يزال يسوف ويؤخر ولا يخوض في شغل إلا ويتعلق بإتمام ذلك الشغل عشرة أشغال أخر وهكذا على التدريج يؤخر يوما بعد يوم ويفضى به شغل إلى شغل بل إلى أشغال إلى أن تختطفه المنية في وقت لا يحتسبه فتطول عند ذلك حسرته، وأكثر أهل النار وصياحهم من سوف يقولون واحزناه من سوف، والمسوف المسكين لا يدرى أن الذي يدعوه إلى التسويف اليوم هو معه غداً، وإنما يزداد بطول المدة قوة ورسوخاً ويظن أنه يتصور أن يكون للخائض في الدنيا والحافظ لها فراغ قط، وهيهات فما يفرغ منها إلا مَنِ اطَّرَحَها.

فَمَا قَضَى أَحَدٌ مِنْهَا لُبَانَتَهُ ... وَمَا انْتَهَى أَرَبٌ إلا إِلَى أَرَبِ

وأصلُ هذه الأماني كلها: حبُّ الدنيا والأُنْس بها).

الأخلاق الحسنة:

(الخلق الحسن صفة سيد المرسلين، وأفضل أعمال الصديقين، وهو على التحقيق شطر الدين، وثمرة مجاهدة المتقين، ورياضة المتعبدين، والأخلاق السيئة هي السموم القاتلة، والمهلكات الدامغة، والمخازي الفاضحة، والرذائل الواضحة، والخبائث المبعدة عن جوار رب العالمين، المنخرطة بصاحبها في سلك الشياطين، وهي الأبواب المفتوحة إلى نار الله تعالى الموقدة التي تطلع على الأفئدة، كما أنَّ الأخلاق الجميلة هي الأبواب المفتوحة من القلب إلى نعيم الجنان وجوار الرحمن، والأخلاق الخبيثة أمراض القلوب وأسقام النفوس، إلا أنه مرض يفوت حياة الأبد، وأين منه المرض الذي لا يفوت إلا حياة الجسد، ومهما اشتدت عناية الأطباء بضبط قوانين العلاج للأبدان وليس في مرضها إلا فوت الحياة الفانية، فالعناية بضبط قوانين العلاج لأمراض القلوب وفي مرضها فوت حياة باقية أولى، وهذا النوع من الطب واجب تعلمه على كل ذي لب إذ لا يخلو قلب من القلوب عن أسقام لو أهملت تراكمت وترادفت العلل وتظاهرت، فيحتاج العبد إلى تأنق في معرفة علمها وأسبابها، ثم إلى تشمير في علاجها وإصلاحها، فمعالجتها هو المراد بقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾، وإهمالها هو المراد بقوله: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾).

أمهات الأخلاق وأصولها:

(أمهات الأخلاق وأصولها: أربعة، الحكمة والشجاعة والعفة والعدل، ونعني بالحكمة: حالة للنفس بها يدرك الصواب من الخطأ في جميع الأفعال الاختيارية.

ونعني بالعدل: حالة للنفس وقوة بها تسوس الغضب والشهوة، وتحملهما على مقتضى الحكمة، وتضبطهما في الاسترسال والانقباض على حسب مقتضاها.

ونعني بالشجاعة: كون قوة الغضب منقادة للعقل في إقدامها وإحجامها.

ونعني بالعفة: تأدب قوة الشهوة بتأديب العقل والشرع.

فمن اعتدال هذه الأصول الأربعة تصدر الأخلاق الجميلة كلها؛ إذ من اعتدال قوة العقل يحصل حسن التدبير، وجودة الذهن وثقابة الرأي، وإصابة الظن، والتفطن

لدقائق الأعمال، وخفايا آفات النفوس، ومن إفراطها تصدر الجربزة والمكر والخداع والدهاء.

ومن تفريطها يصدر البله والغمارة، والحمق والجنون، وأعني بالغمارة قلة التجربة في الأمور مع سلامة التخيل، فقد يكون الإنسان غمراً في شيء دون شيء، والفرق بين الحمق والجنون: أن الأحمق مقصوده صحيح، ولكن سلوكه الطريق فاسد، فلا تكون له روية صحيحة في سلوك الطريق الموصل إلى الغرض، وأما المجنون فإنه يختار ما لا ينبغي أن يختار، فيكون أصل اختياره وإيثاره فاسداً.

وأما خلق الشجاعة فيصدر منه الكرم والنجدة والشهامة، وكسر النفس والاحتمال والحلم، والثبات وكظم الغيظ، والوقار والتودد، وأمثالها وهي أخلاق محمودة.

وأما إفراطها وهو التهور، فيصدر منه الصلف والبذخ، والاستشاطة والتكبر والعجب، وأما تفريطها فيصدر منه المهانة والذلة، والجزع والخساسة وصغر النفس، والانقباض عن تناول الحق الواجب.

وأما خلق العفة فيصدر منه السخاء والحياء، والصبر والمسامحة، والقناعة والورع، واللطافة والمساعدة والظرف وقلة الطمع، وأما ميلها إلى الإفراط أو التفريط فيحصل منه الحرص والشره، والوقاحة والخبث، والتبذير والتقتير والرياء والهتكة والمجانة، والعبث والملق والحسد والشماتة، والتذلل للأغنياء واستحقار الفقراء وغير ذلك.

فأمهات محاسن الأخلاق هذه الفضائل الأربعة وهي الحكمة والشجاعة والعفة والعدل والباقي فروعها، ولم يبلغ كمال الاعتدال في هذه الأربع إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم، والناس بعده متفاوتون في القرب والبعد منه، فكلُّ من قرب منه في هذه الأخلاق فهو قريب من الله تعالى بقدر قربه من رسول الله صلى الله عليه وسلم).

طبيعة النفس:

(إذا كانت النفس بالعادة تستلذ الباطل وتميل إليه وإلى المقابح، فكيف لا تستلذ الحق لو ردت إليه مدة والتزمت المواظبة عليه، بل ميل النفس إلى هذه الأمور الشنيعة خارج عن الطبع، يضاهي الميل إلى أكل الطين، فقد يغلب على بعض الناس ذلك

بالعادة، فأما ميله إلى الحكمة وحب الله تعالى ومعرفته وعبادته، فهو كالميل إلى الطعام والشراب، فإنه مقتضى طبع القلب، فإنه أمر رباني، وميله إلى مقتضيات الشهوة غريب من ذاته وعارض على طبعه.

وإنما غذاء القلب: الحكمة والمعرفة وحب الله عز وجـل، ولكـن انصرف عـن مقتضى طبعه لمرض قد حل به، كما قد يحل المرض بالمعدة فلا تشتهي الطعام والشراب، وهما سببان لحياتها، فكل قلب مال إلى حب شيء سوى الله تعالى فلا ينفك عن مـرض بقدر ميله، إلا إذا كان أحب ذلك الشيء لكونه معيناً له على حبِّ الله تعالى وعلى دينـه، فعند ذلك لا يدل ذلك على المرض).

غاية العبادات:

(إن غاية العبادات وثمرة المعاملات أن يموت الإنسان محبـاً لله عارفـاً بـالله، ولا محبة إلا بالأنس الحاصل بدوام الذكر، ولا معرفة إلا بدوام الفكر، وفـراغ القلـب شرط في كل واحد منهما، ولا فراغ مع المخالطة).

(المقصود من العلوم والأعمال كلها: معرفة الله تعالى، حتى تثمـر المعرفـة المحبـة، فإنَّ المصيرَ إليه، والقدوم بالموت عليه، ومَنْ قدم على محبوبه عظم سروره بقـدر محبَّتـه، ومَنْ فارق محبوبه اشتدت محنته وعذابه.

فمهما كان القلب الغالب عليه عند الموت: حب الأهل والـولد، والمـال والمسـكن والعقار، والرفقاء والأصحاب، فهذا رجلٌ محابُّه كلُّهـا في الدنيـا، فالدنيـا جنتـه إذ الجنـة عبارة عن البقعة الجامعة لجميع المحاب، فموتُهُ خروجٌ من الجنة وحيلولة بينـه وبـين ما يشتهيه، ولا يخفى حال من يحال بينه وبين ما يشتهيه.

فإذا لم يكـن له محبوب سوى الله تعالى، وسوى ذكره ومعرفته والفكر فيه، والدنيا وعلائقها شاغلة له عن المحبوب، فالدنيا إذن سجنه؛ لأنَّ السـجنَ عبـارةٌ عـن البقعـة المانعة للمحبوس عن الاسترواح إلى محابِّه، فموته قدوم على محبوبه وخلاص من السـجن، ولا يخفى حال من أفلت من السجن وخلي بينه وبين محبوبه بلا مانع ولا مكدر، فهـذا أول ما يلقاه كلُّ مَنْ فارق الدنيا عقيب موته من الثواب والعقاب، فضلاً عما أعـده الله لعباده الصالحين مما لم تره عين ولا تسمعه أذن ولا خطر على قلب بشر، وفضـلاً عمـا

أعده الله تعالى للذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ورضوا بها واطمأنوا إليها، من الأنكال والسلاسل والأغلال، وضروب الخزى والنكال، فنسأل الله تعالى أن يتوفانا مسلمين، ويلحقنا بالصالحين).

رحمك الله أيُّها الإمام، فقد أيقظتنا بعد غفلة، وذكرتنا بعد نسيان، وجدَّدت فينا من معاني العلم والإيمان، جمعنا الله جميعاً في أعلى الجنان.

لقد رحلت من هذه الدار وكأنك لا تزال فيها تعظنا وتعلمنا، تحيي فينا ذكر الآخرة ونعيمها، وتميت فينا الحرص على الدنيا وزينتها، تذكرنا بحقيقة الدنيا وقرب فنائها، وترغبنا بثواب الآخرة ودوام نعيمها، ﴿وَمَا هَذِهِ الحَيَاةُ الدُّنْيَا إلا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

لقد علمتنا بفعلك قبل قولك كيف يكون الزهد في الدنيا، عندما تركت التدريس في المدرسة النظامية بعد أن كانت شهرتك ومنزلتك قد طبقت الآفاق، فاعتزلت الناس حتى استقامت نفسك وطهر قلبك من حب الجاه والرفعة والمنزلة بين الناس، وامتلأ قلبك من حبِّ الله والرغبة في ثوابه وإخلاص العمل له سبحانه، فعدت إلى التدريس بعد أن تخلَّيتَ من الصفات المذمومة وتحلَّيتَ بأحسن الصفات، أدخلنا الله جميعاً في رحمته.

* * * * *

حتى لا تشكو من عقوقهم!

إن انتشار ظاهرة العقوق وتفشيها في المجتمعات أصبح أمراً لافتاً للنظر، لا بدَّ من الوقوف عنده والعمل على علاجه، مع أنه من المنطقي والواقعي أن يكون هناك محبة عظيمة بين الوالدين وأبنائهم، لأنَّ الوالدَيْن غالباً ما يكونون هم أكثر من أحسن إلى الأولاد، والنفوس مجبولة على حبِّ مَنْ أحسن إليها، فلماذا يعقُّ الأبناء أو البنات والديهم؟

إنَّ كثيراً من النَّاس يعرفون الحقوق التي لهم، أما التي عليهم فيجهلونها أو يتجاهلونها، فترى الواحد منهم يلوم الآخر على التقصير في حقه، وهو أحق باللوم منه.

فكثيراً ما تسمع الرجل يشكو من عقوق أبنائه، لكن قليلاً منهم من يحاسب نفسه، هل هو كان السبب في عقوقهم؟ لأن تصرفات النَّاس معنا غالباً ما تعكس طريقة تعاملنا معهم.

فما قلبُ الصغيرِ سوى كتابٍ ... تُسَطَّرُ في صحائفه الخلالُ

كما قال الإمام الغزالي رحمه الله: والصبي أمانة عند والديه، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية عن كلِّ نقش وصورة، وهو قابلٌ لكلِّ ما نقش، ومائلٌ إلى كلِّ ما يُمَال به إليه، فإنْ عُوِّد الخير وعُلِّمه نشأ عليه وسعد في الدنيا والآخرة، وشاركه في ثوابه أبوه وكل معلم له ومؤدب، وإنْ عُوِّد الشر، وأُهمل إهمال البهائم شقي وهلك، وكان الوزر في رقبة القيم عليه والوالي له [1].

فلا ينبغي لأحدٍ أنْ يُطالِب بحقِّه قبل أن يؤدي واجبَه، فالذي يشكو من عقوق أولاده قد يكون هو الذي قد قصَّر في تربيتهم على الدين والأخلاق، أو قد يكون مقصراً في الجانب العاطفي معهم، أو يتعامل معهم بشدة غير مقبولة، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (رَحِمَ اللهُ وَالِداً أَعَانَ وَلَدَهُ عَلَى بِرِّهِ) [2].

فمِنَ الآباء والأمهات مَنْ لا يهمه الأسلوب الذي يتعامل به مع أولاده، فلا يبالي إذا كان أسلوبه سيئاً معهم، فيخطئ في حقهم بما يشاء، وقد ينتقم بعضهم بسبب ما يمر به من ظروف صعبة بالإساءة إلى أولاده إما بالكلام أو الضرب وغيره بحجة تربيتهم، وقد يكون خطؤهم يسيراً لو فعلوه في وقت آخر لما عوقبوا بذلك، وإنما هي الحالة السيئة التي كان فيها أحد والديه.

وقد أخبرني مَنْ أثق به أنَّ بعض الآباء عندما يعود من عمله إلى البيت وتشكو زوجته من أخطاء بعض أبنائه، يتركهم ولا يتصرف معهم بشيء، فإذا عاد من أحد منهم خطأ أو تقصير مرة أخرى وكان الأب مُكدَّرَ الخاطر مُعكَّرَ المزاج، يقوم بضربهم جميعاً، ويكون الذي أخطأ هو واحد منهم وليس جميعهم، فإنْ لامه أحد قال: قد غضبت الآن وليس كل مرة سأغضب نفسي وأضربهم.

---

(1) ـ إحياء علوم الدين ٣: ٧٢.

(2) ـ رواه ابن أبي شيبة في المصنف ٨: ٣٥٧، (٢٥٩٢٤)، وهناد بن السري في الزهد (٩٩٥).

وله بعض العذر في ذلك إن كان يراهم – وما أظنه كذلك - كنفس واحدة يجب أن يأخذوا بيد المسيء ويمنعوه، ولعله أخذ بنظرية جحا كما يحكى عنه أنه حذَّر ابنه من كسر الزجاج ثم ضربه، فقيل له: لماذا تضربه ولم يكسر شيئاً؟ قال: ما الفائدة من ضربه إذا كسر الزجاج، أنا أضربه قبل ذلك حتى يأخذ حذره.

وقد يتهاون أحدهم فيدعو على ولده في ساعة غضب، ولا يدري أن هذه الدعوة قد تكون وبالاً عليه وسبباً لفساده، وقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك فقال: (لا تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ وَلاَ تَدْعُوا عَلَى أَوْلاَدِكُمْ وَلاَ تَدْعُوا عَلَى أَمْوَالِكُمْ، لاَ تُوَافِقُوا مِنَ اللهِ سَاعَةً يُسْأَلُ فِيهَا عَطَاءٌ فَيَسْتَجِيبُ لَكُمْ) [1].

وجاء رجل إلى عبد الله بن المبارك فشكا إليه بعض ولده، فقال: هل دعوت عليه؟ قال: نعم. قال: أنت أفسدته.

وقد يستنكر أحدهم من أولاده سلوكاً سيئاً فتأخذه الحمية لدين الله فيبالغ في تعنيف ولده ويشنع عليه بطريقة غير مقبولة، فيقع في خطأ أكبر من خطأ ولده الذي يستنكر عليه، وقد قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.

وقد أمر الله تعالى موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام أنْ يقولا لفرعون قولاً ليناً مع أنه قد تجاوز الحدَّ في كفره وطغيانه، قال تعالى: ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى. فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَيِّنَاً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾.

وقال أبو عون الأنصاري: «ما تكلم الناس بكلمة صعبة، إلا وإلى جانبها كلمة ألين منها تجرى مجراها».

وقال أبو حمزة الكوفي: «واعلم أنهم لا يعطونك بالشدة شيئاً إلا أعطوك باللين ما هو أفضل منه».

نعم يجب على الأولاد البر بالوالدين حتى لو أساؤوا، فليس البر مقتصراً على مقابلة الإحسان بالإحسان، إذ الإحسان لمن أحسن يكون لكل النَّاس حتى من غير المسلمين فقد قال تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ

([1])ـ رواه مسلم في كتاب الزهد والرقائق، باب حديث جابر الطويل، (٧٧٠٥).

دِيَارِكُمْ أَنْ تَـبَرُّوهُمْ وَتُقْسِـطُوا إِلَيْهِـمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المُقْسِـطِينَ﴾، وقـد أمـر الله تعـالى بالإحسان إلى الوالدين حتى لو كانا كافـرين: ﴿وَصَـاحِبْهُمَا فِي الدُّنيـا مَعْرُوفـاً﴾، ولـيس هناك ذنب أعظم مـن الكفـر، فـإذا كانـوا مفـرطين في حـق الله ومـع ذلـك أمـر الله بالإحسان إليهم فكيف إذا كانوا مفرطين بحق الابن؟! فالإحسان إليهم من باب أولى.

لكن هذا لا يعني عدم التقدير للأولاد أو الإساءة إليهم من هـذا المنطلـق، وقـد عاتب أعرابي أباه - وإنْ كان الابن البار لا يستحسن أن يقول مثل هـذا - فقـال له: «إنَّ عظيمَ حقِّك علي، لا يذهب صغير حقِّي عليك، والذي تمتُّ بـه إليَّ أمـتُّ بمثلـه إليـك، ولستُ أزعم أنَّا سواء، ولكن لا يحلُّ لك الاعتداء».

إن أعظم المربِّين والمعلمين هو النبي صلى الله عليه وسـلم، وقـد قـال: (إِنَّمَـا أَنَـا لَكُمْ بِمَنْزِلَةِ الْوَالِدِ) [٦٧]. فكيف كان تعامل النبي صلى الله عليه وسلم مع أصحابه؟

لقد كانت تربية النبي صلى الله عليه وسلم قائمة على الرفق والرحمة واللطف، قال الله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنـتَ فَظّـاً غَلِـيظَ الْقَلْـبِ لانفَضُّـوا مِـنْ حَوْلِكَ﴾، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يَـا عَائِشَـةُ إِنَّ اللهَ رَفِيـقٌ يُحِبُّ الرِّفْـقَ وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لاَ يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ وَمَـا لاَ يُعْطِـي عَلَى مَـا سِـوَاهُ) [٦٨]. وقـال صـلى الله عليه وسلم: (مَنْ حُرِمَ الرِّفْقَ حُرِمَ الخَيْرَ) [٦٩].

وجَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ: يَا رَسُـولَ اللهِ، كَـمْ أَعْفُـو عَـنِ الْخَادِمِ؟ فَصَمَتَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم ثُمَّ قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ كَـمْ أَعْفُـو عَـنِ الْخَادِمِ؟ فَقَالَ: (تَعفُو عَنْهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ سَبْعِينَ مَرَّةً) [٧٠].

([٦٧]) ـ رواه أبو دواد في كتاب الطهارة (٨).

([٦٨]) ـ رواه مسلم في كتاب البر والصلة، باب فضل الرفق، (٦٧٦٦).

([٦٩]) ـ رواه مسلم في كتاب البر والصلة، باب فضل الرفق، (٦٧٦٥).

([٧٠]) ـ رواه أبو داود في كتاب الأدب، باب في حق المملوك (٥١٦٤)، والترمذي في كتاب الـبر والصـلة، بـاب مـا جـاء في العفو عن الخادم، (١٩٤٩).

وقالت عائشة رضي الله عنها: «مَا ضَرَبَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم شَيْئاً قَطُّ بِيَدِهِ وَلَا امْرَأَةً وَلَا خَادِماً إِلَّا أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَا نِيلَ مِنْهُ شَيْءٌ قَطُّ فَيَنْتَقِمَ مِنْ صَاحِبِهِ إِلَّا أَنْ يُنْتَهَكَ شَيْءٌ مِنْ مَحَارِمِ اللهِ فَيَنْتَقِمَ لِلهِ عَزَّ وَجَلَّ» [٧١].

وقال أنس بن مالك «خَدَمْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم عَشْرَ سِنِينَ وَاللهِ مَا قَالَ لِي أُفٍّ قَطُّ، وَلا قَالَ لِي لِشَيءٍ: لِمَ فَعَلْتَ كَذَا، وَهَلَّا فَعَلْتَ كَذَا» [٧٢].

إنَّ هذا التعامل الراقي هو الذي جعل زيد بن حارثة رضي الله عنه لا يريد بدلاً برسول الله صلى الله عليه وسلم، فعندما جاء لفدائه والده وعمه، وخيَّره النبي صلى الله عليه وسلم بينه وبين أبيه وعمه، قال زيد لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ما أنا بالذي أختار عليك أحداً، أنت مني بمكان الأب والعم؛ فقالا: ويحك يا زيد! أتختار العبودية على الحرية؟ وعلى أبيك وعمك وأهل بيتك؟ قال: نعم، قد رأيت من هذا الرجل شيئاً ما أنا بالذي أختار عليه أحداً أبداً [٧٣].

فإذا دَعَتْ قدرةُ أحد على الإساءة لمن يقدر عليه، فليتذكر يوم الجزاء وأن الله أقدر عليه من قدرته على مَنْ ظلمه، عن عائشة رضي الله عنها أن رجلاً جلس بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، إنَّ لي مملوكين يُكَذِّبُونَنِي ويَخُونُونَنِي ويَعْصُونَنِي، وأضربُهُم وأَسُبُّهُمْ، فكيف أنا منهم؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: يُحسَبُ مَا خَانُوكَ وعَصَوْكَ ويُكَذِّبُونَكَ وعِقَابَكَ إِيَّاهم، فإنْ كان عقابُكَ إيَّاهم دونَ ذنوبهم كانَ فضلاً لكَ عليهم، وإن كان عقابُكَ إيَّاهم بقدر ذنوبهم كان كفافاً، لا لكَ ولا عليكَ، وإنَ كانَ عقابُكَ إيَّاهم فوق ذنوبهم، اقْتُصَّ لهم منك الفَضْلُ الذي بقي قِبَلَكَ، فجعل الرجل يبكي بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ويهتف، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما له؟ ما يقرأ كتاب الله: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ

---

(٧١)ـ رواه مسلم في كتاب الفضائل، باب مباعدته صلى الله عليه و سلم للآثام واختياره من المباح أسهله وانتقامه لله عند انتهاك حرماته، (٢٣٢٨).

(٧٢)ـ رواه البخاري في كتاب الأدب، باب حسن الخلق والسخاء وما يكره من البخل (٥٦٩١)، ومسلم في كتاب الفضائل، باب كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس خلقاً (٦١٥١).

(٧٣)ـ الطبقات الكبرى لابن سعد ٣: ٤٢، والاستيعاب في معرفة الأصحاب ٢: ٥٤٥، والإصابة في تمييز الصحابة ٢: ٥٩٩.

الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ فقال الرجل: يا رسول الله، ما أجد شيئاً خيراً من فراق هؤلاء - يعني عبيده - إنِّي أُشهِدُكَ أنَّهم أحرارٌ كلُّهم [74].

فإذا كان من يعاقب العبد المملوك إذا أساء أكثر مما يستحق، يعاقبه الله بقدر زيادته في العقاب ويقتص له، فكيف بغيره؟

وقال أبو مسعود البدري رضي الله عنه: كُنْتُ أَضْرِبُ غُلَامَاً لِي بِالسَّوْطِ فَسَمِعْتُ صَوْتاً مِنْ خَلْفِي (اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ)، فَلَمْ أَفْهَمِ الصَّوْتَ مِنَ الغَضَبِ، قال: فَلَمَّا دَنَا مِنِّي إِذَا هُوَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَإِذَا هُوَ يَقُولُ: (اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ، اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ). قال: فَأَلْقَيْتُ السَّوْطَ مِنْ يَدِي فَقَالَ: (اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ أَنَّ اللهَ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَى هَذَا الْغُلامِ). قَالَ فَقُلْتُ لاَ أَضْرِبُ مَمْلُوكاً بَعْدَهُ أَبَداً [75]. وفي رواية: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هُوَ حُرٌّ لِوَجْهِ اللهِ. فَقَالَ: (أَمَا لَوْ لَمْ تَفْعَلْ لَلَفَحَتْكَ النَّارُ أَوْ لَمَسَّتْكَ النَّارُ) [76].

فإذا مَلَك الوالدان قلوبَ أولادِهم بالمحبة والرفق وحسن التعامل، صار الأولادُ رهنَ إشارتهم، مطيعين لما يُؤمرون به، مبتعدين عما لا يريدونه منهم، كما قال الحُكماء: يُدْرَك بالرِّفق ما لا يُدْرَك بالعنف، ألا ترى أنَّ الماء على لِينه يَقْطع الحجر على شِدَّته؟

أما إذا كان التعامل معهم بالقوَّة والعنف، فإنَّ هذا يورِّث فيهم هذا الأسلوب فيصير هذا شأنهم، وأول من يتضرَّر من ذلك: الأسرة التي يعيش فيها، وسرعان ما يتمرَّد الأولاد بهذا الأسلوب إذا لم يعد هناك سيطرة عليهم.

قال الشيخ محمد طاهر الكردي: (الاستبدادُ والقسوة يورثان البلادة والجفوة)، وقال أيضاً: (هضمُ الحقوق موجبٌ للعقوق).

---

(74)ـ رواه الترمذي (٣١٦٥)، وأحمد في المسند (٢٦٩٣٣)، والبيهقي في شعب الإيمان ١١: ٨٦، والطبري في تهذيب الآثار ١: ٤٢٩.

(75)ـ رواه مسلم في كتاب الأيمان، باب صحبة المماليك وكفارة من لطم عبده، (٤٣٩٦).

(76)ـ رواه مسلم في كتاب الأيمان، باب صحبة المماليك وكفارة من لطم عبده، (٤٣٩٨).

فمن الأخطاء التي تحدث كثيراً هي: (التعامل بمنطق القوة لا بقوة المنطق)، وهـذه كارثة يقع فيها أكثر من يملك سلطة معينة من صغير أو كبير.

وقد يتعامل أحدهم بهذا الأسلوب لاستعجاله وعدم صبره، ولما يرى من نفعه على المدى القريب، وعدم معرفته بما ينتج عنه من عواقب سيئة.

وفي هذه الأحـداث الـتي تجـري والثـورات دليـل على عـدم صـحة التعامـل بهـذا الأسلوب، فهو وإنْ نفع بشكل مؤقت إلا أنه على المدى البعيد ضرره أكبر من نفعه.

فعلى مَنْ ولي من أمر الناس شيئاً أن يكون حكمه بقوة المنطق والعقل والإقنـاع لا بمنطق القوة.

فالعنف يظهر عندما يصعب على الإنسان القـدرة على الإقنـاع، فيلجـأ للتعامـل بالعنف والقهر، فحين يعجز العقل يتحدث الجسد.

ولهذا فإنَّ مَنْ يعجز عن إقناع الآخر هو شخص فقد الحجة والمنطـق الـتي يقنـع بها الآخرين، فلذلك عليه أن يزيد من وعيه وفهمـه حـتى يسـتطيع أن يقنـع غـيره، أو يقتنع هو بالرأي الآخر.

أيها الوالد وأيتها الوالدة، لا تكونوا سبباً في عقوق أولادكم، لا تكونوا سـبباً في فقدانهم لصـوابهم وتـورطهم بـالعقوق، ووقـوعهم في غضـب الله وخـذلانهم في الدنيـا والآخرة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَـكُمْ وَأَهْلِـيكُمْ نَـاراً وَقُودُهَـا النَّـاسُ وَالحِجَارَةُ﴾، وقال رسول الله صلى الله عليه وسـلم: (كَـفَى بِـالمَرْءِ إِثْمًـا أَنْ يُضَـيِّعَ مَـنْ يَقُوتُ) [72]، وقال: (كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ) [73].

* * * * *

([72])ـ رواه أبو داود، في كتاب الزكاة، باب في صلة الرحم (١٦٩٤)، وأحمـد في المسـند (٦٤٩٥)، والحـاكم في المسـتدرك (١٥١٥).

([73])ـ رواه البخاري، في كتاب النكاح، باب المرأة راعية في بيت زوجها (٥٢٠٠)، ومسلم في كتاب الإمارة، بـاب فضـيلة الإمام العادل (٣٤٠٨).

حوارٌ بين العِلْم والمال

تبختر المال في مشيته أمام العِلْم واختال بمظهره البرَّاق ووميضه المشرق، فنظر إليه العلم نظرة المشفق المعلِّم وقال له: أَكُلَّ هذا الفرح بمظهرك وجمالك؟ وماذا يكون ممَّا ظاهره فيه الرحمة وباطنه مِنْ قِبَله العذاب؟

إنَّ الأفاعي وإنْ لانتْ ملامسها... عند التقلُّبِ في أنيابها العَطَبُ

وما أكثرَ ما تُخفي الحلاوة الظاهرة من المرارة الباطنة! وما أكثرَ ما يخفي جمال المنظر من قبح المخبر، بل ومن فقدان طيب الأصل والجَوْهر.

أم أنك تأخذ بالظاهر على مذهب الظاهرية كالإمام ابن حزم حين قال:

وَذِي عَذلٍ فِيمَنْ سَبَانِي حُسْنُهُ ... يُطِيلُ مَلامِي فِي الهَوَى وَيَقُولُ

أَمِنْ حُسْنِ وَجْهٍ لاحَ لَمْ تَرَ غَيْرَهُ ... وَلَمْ تَدرِ كَيْفَ الجِسْمُ، أَنْتَ قَتِيْلُ؟

فَقُلتُ لَهُ: أَسْرَفْتَ فِي اللَّوْمِ فَاتَّئِدْ ... فَعِندِيَ رَدٌّ لَوْ أَشَاءُ طَوِيلُ

أَلَمْ تَرَ أَنِّي ظَاهِرِيٌّ وَأَنَّنِي ... عَلَى مَا بَدَا حَتَّى يَقومَ دَلِيلُ

وماذا يفيد المال بدون العلم ألم ترَ كيف أصابك التيه والعجب بما لا يعجب منه العاقل الحكيم؟!

قال المال: ولماذا لا أفرح وكل الناس يعتزُّون ويفتخرون بوجودي عندهم، ويتكاثر الناس بما عندهم من مال، ولا يملون ولا يسأمون من الازدياد مني مهما ملكوا..

قال العلم: أيُّ عزٍّ هذا وأيُّ فخر؟ ألم تعلم أنَّ كلَّ عزٍّ لم يُوطَّد بعلم فإلى ذلٍّ مصيرُه، وإلى زوالٍ عبيرُه، أما علمتَ ما حصل بقارون كان مالُه وبالاً عليه، حتى الذين تمنَّوا أنْ يكونوا مكانَه فرحوا أنْ لم يكونوا مثلَه، وشعروا بمنَّة الله عليهم في ذلك، وصدق القائل:

أرى الدنيا لمن هي في يديه ... عذاباً كلما كَثُرَتْ لديه

تُهين المُكرِمينَ لها بصُغرٍ ... وتُكرِمُ كلَّ مَنْ هانت عليه

إذا استغنيت عن شيءٍ فدعهُ ... وخذ ما أنت محتاجٌ إليه

وبيَّن أبو الفتح البستي ذلك أجلى بيان فقال:

وَيَا حَرِيصاً عَلَى الأَمْوَالِ تَجْمَعُهَا ... أنسِيتَ أَنَّ سُرُورَ المَالِ أَحْزَانُ

زَعِ الفُؤَادَ عَنِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا ... فَصَفْوُهَا كَدَرٌ وَالْوَصْلُ هِجْرَانُ

وكان سقراط فقيراً فقال له بعض الملوك: ما أفقرَك! فقال: «لو عرفتَ راحةَ الفقر لشغلك التوجُّع لنفسك عن التوجُّع لي»، فالفقر ملك ليس عليه محاسبة.

وقيل له: لِمَ لا يُرى أثر الحزن عليك؟ فقال: «لأني لم أتخذ ما إنْ فقدتُه أحزنني».

وقال بعض الحكماء: «من أحبَّ أن تقل مصائبه فليقل قُنيته للخارجات من يده»، لأنَّ أسبابَ الهم فوتُ المطلوب وفقدُ المحبوب، ولا يسلم منهما إنسان، لأنَّ الثبات والدوام معدومان في عالم الكون والفساد، وأدرك ابن الرومي هذا فقال:

ومَنْ سرَّه أن لا يرى ما يسوؤه ... فلا يتخذ شيئاً يخاف له فقدا

وقال بعضهم:

(النار) آخر دينار نطقت به ... و(الهمُّ) آخر هذا الدرهم الجاري

والمرء بينهما ما لم يكن ورعاً ... معذَّب القلب بين الهمِّ والنارِ

وحكي أنه لما غرقت البصرة أخذ الناس يستغيثون، فخرج الحسن رضي الله عنه ومعه قصعة وعصا، وقال: نجا المخفون.

وتأمل في سعادة هذا الزاهد الذي لا همَّ له إلا العلم والتعليم للناس الذي وصفه أحدهم بقوله:

قليلُ الهمِّ لا ولدٌ يموتُ ... ولا أمرٌ يحاذره يفوتُ

قضى وطر الصبا وأفاد علماً ... فغايته التفرُّدُ والسكوتُ

قال المال: لكن لا يمكن لأحد أن ينكر فضلي وقيمتي، ومهما تكلَّموا وزهَّدوا الناسَ بي تبقى مكانتي عالية في نفوسهم، فهذا أبو سليمان الداراني يقول: «قد وجدتُ لكلِّ شيء حيلة إلا هذا الذهب والفضة، فإني لم أجد لإخراجه من القلب حيلة».

وقال بعض السلف: «من ادَّعى بغض الدنيا، فهو عندي كذاب، إلا أن يثبت صدقه، فإذا ثبت صدقه فهو مجنون».

وقال ابن الجوزي رحمه الله: «للنفس قوة بدنية عند وجود المال، وهو معدود عند الأطباء من الأدوية».

قال العلم: حسبُكَ أنْ تنظر في القرآن متى رفعَ اللهُ من شأنك وأعلى من مكانتك؟ وانظر إلى العلم كم مدحه الله عزَّ وجل ورفع أهلَه إلى أعلى المراتب، حتى عطفهم على الملائكة وعلى ذاته المقدَّسة جلَّ وعلا حيث قال: ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالمَلَائِكَةُ وَأُولُو العِلْمِ قَائِماً بِالقِسْطِ﴾، فبدأ الله عز وجل بنفسه ثم بملائكته ثم بأهل العلم، وقد جعلهم الله شهداء على أعظم أمر وهو توحيده وألوهيته، وكفى بذلك شرفاً وفضلاً، وهذا يدل على عدالة أهل العلم وتزكيتهم فإنه لا يُستَشهد إلا العدول، ومن ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿يَحْمِلُ هَذَا العِلْمَ مِنْ كُلِّ خَلَفٍ عُدُولُهُ﴾ رواه البزار والبيهقي.

وجعل اللهُ تعالى العلمَ سببَ خشيته فقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاءُ﴾، وسببَ الإيمانِ بالقرآن والانتفاع به، فقال: ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ: يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾، وقال تعالى: ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ: يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدَاً. وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولا. وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعَاً﴾، وقال: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾، وقال: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، ووصف الله تعالى الذي لا يؤمن بالقرآن ـ زيادة على عدم علمه ـ بأنه أعمى فقال: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾، فجعل العالِم المؤمن بالقرآن كالبصير، والجاهل الجاحد به كالأعمى.

العلمُ يجلو العَمَى عن قَلْبِ صاحبِهِ ... كما يجلِّي سوادَ الظُّلمةِ القمرُ

والعلمُ يُحيي قلوبَ الحاملينَ لَهُ ... كالأرض تُحيَا إذا ما مسَّها المطَرُ

قال أحد الحكماء: (العلم سراجٌ يجلي الظلمة، وضياءٌ يكشف العمى. التذلل مكروهٌ إلا في استفادته، والحرص مذمومٌ إلا في طلبه، والحسد منهيٌ عنه إلا عليه).

قال أفلاطون: (العلم مصباح النفس، ينفي عنها ظلمة الجهل، فما أمكنك أن تضيف إلى مصباحك مصباح غيرك فافعل).

وذكر تعالى أن الأمثال لا يفقهها إلا أهل العلم فقال سبحانه: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا العَالِمُونَ﴾.

وإنَّ أول ما نزل من القرآن: ﴿اقْرَأْ﴾، فكان حضاً على العلم إذ قال: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ. الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ. عَلَّمَ الْإِنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ﴾، ثم قال عن المال: ﴿كَلَّا إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى. أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾ أرأيتَ كيف قابل هنا بين العلم فرفع منزلتَه، وبين المال فحذَّر الناسَ فتنتَه.

قال المال: لكن ألم ترَ أنَّ الله تعالى قد سمَّاني في القرآن (خيراً) حين قال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ المَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ﴾، وقال: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ﴾ وقال: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾، فلماذا تتغافل عن هذا؟

قال العلم: لم أتغافل عن هذا، ولكن الشيء قد يكون خيراً بحدِّ ذاته ولكن يغلب على الناس استعماله في الشر فيكون شراً على صاحبه ولهذا حذَّر الله من فتنته فقال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾، وهذا الذي جعل يحيى بن معاذ يقول: «الدرهم عقرب فإنْ لم تحسن رقيته فلا تأخذه، فإنه إنْ لدغك قتلك سمه»، قيل: وما رقيته؟ قال: «أخذه من حلِّه ووضعه في حقِّه».

وقال الإمام الغزالي: «المال مثل حية فيها سم وترياق، ففوائده: ترياقه، وغوائله: سمومه، فمن عرف غوائله وفوائده أمكنه أن يحترز من شره، ويستدر من خيره».

وكان بعض السلف يقول: «احذروا دار الدنيا، فإنَّها أسحر من هاروت وماروت، فإنَّهما يفرِّقان بين المرء وزوجه، والدنيا تفرِّق بين العبد وربِّه».

قال المال: ألم تر أن الله عز وجل قد جعلني زينة الحياة إذ قال: ﴿المَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

قال العلم: لكن ألم تقرأ بقية الآية: ﴿وَالبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾، ثم إنه قال عن المال: ﴿زِينَةُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فهو زينة وليس (قيمة).

وقد رغَّب الله عز وجل في الازدياد من العلم فقال: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمَاً﴾ أما عن المال فقد قال تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾، وقال: ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ﴾.

قال المال: إذا كان الأمر كما تقول، فلماذا إذن امتنَّ الله تعالى على نبيِّه صلوات الله وسلامه عليه بقوله: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى﴾، وامتنَّ على قومه بتوفيقهم للتجارة الواسعة برحلة الشتاء والصيف، وامتنَّ الله به على عباده إذ قال: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَمْ تَطَئُوهَا﴾، وقال ممتناً على بني إسرائيل: ﴿وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً﴾، فلو لم تكن الأموالُ خيراً ونعمة عظيمة لما امتنَّ الله بها على عباده.

وجعلَ اللّهُ تعالى استخراجَ الكنز للغلامين رحمةً منه سبحانه فقال: ﴿وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾، وقال نوح لقومه داعياً لهم إلى الإيمان بالله والرجوع إليه: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارَاً﴾، وبيَّن عاقبةَ ذلك في الدنيا قبل الآخرة فقال: ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً. وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾.

ونبيُّ الله سليمان عليه الصلاة والسلام دعا ربَّه فقال: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكَاً لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾، ولم يلمه ربه على ذلك بل استجاب له وكان له ما أراد، ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ. وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ. وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ. هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ. وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ﴾.

فليس الزُّهد فَقْد المال وإنما الزُّهد: فراغ القلب منه، فقد كان سليمان عليه السلام في ملكه من الزاهدين.

ومن هنا قال الإمام ابن القيم: «فمتى كان المال في يدك وليس في قلبك لم يضرك ولو كثر، ومتى كان في قلبك ضرَّك ولو لم يكن في يدك منه شيء».

وقد وَعَدَ الله سبحانه بالرِّزق الوفير لمن آمن واتقى فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنْ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾، وقال صلى الله عليه وسلم: (مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَأَنْ يُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ) متفق عليه.

وفي مقابل ذلك جعلَ اللهُ تعالى المنع والحرمانَ عاقبة لمن ظلم نفسَه، فقال: ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدَاً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الجُوعِ وَالخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾.

وقال عليه الصلاة والسلام: (لاَ يَقْضِيَنَّ حَكَمٌ بَيْنَ اثْنَيْنِ وَهوَ غَضْبَانُ) متفق عليه، وقد قاس عليها الفقهاء: لا يقضي القاضي وهو جوعان، أو عطشان؛ لأنها انفعالاتٌ تؤثِّر على حُكْمه.

قال أحدهم:

إذا قلَّ مالُ المرءِ قلَّ صفاؤُهُ ... وضاقتْ عليه أرضُهُ وسماؤُهُ

وأصبحَ لا يدري وإنْ كانَ حَازماً ... أقُدَّامه خيرٌ له أمْ وَرَاؤُهُ

وقال آخر: إنَّ النفس إذا أحرزت قوتها ورزقها اطمأنت.

وكان يقال: لا تشاور صاحب حاجة يريد قضاءها ولا جائعاً.

قال العلم: نعم إنَّ حبِّ المالِ أمرٌ فطري جبلي، وهو مِنْ نِعَم الله العظيمة لا يلام المرء في حبِّه له، ولكنْ أنْ يُجعلَ هو الميزان لفضل الإنسان، ويُقَاسُ فضل الناس بما يملكون، ويكون هو الغاية التي يسعى الناس إليها وليس وسيلةً لفعل الخير، فهنا يكون الخلل ويأتي الزيغ والزلل..

فالمال نعمة عظيمة ولكن مَنْ يعرف حقَّ هذه النعمة ويؤدي شكرها؟ لا ريب أنهم قليلٌ جداً، فأين الأغنياء من قول القائل:

ملأتُ يدي من الدُّنيا مراراً ... فما طَمِعَ العَواذِلُ في اقتصادي

ولا وجبَتْ عليّ زكاةُ مالٍ ... وهل تجبُ الزكاةُ على جوادِ

بذرتُ المالَ في أرض العطايا ... فأصبحَتِ المكارمُ من حصادي

ولو نلتُ الذي يهواه قلبي ... لوسَّعتُ المعاشَ على العبادِ

فإننا لا نرى أصحابَ الأموال إلا مشغولين بمتعهم ولذائـذهم وتـرفهم، وينســون إخوانهم المحتاجين، بل قد يتكـبرون ويطغـون علـيهم، قـال تعـالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الإِنْسَـانَ لَيَطْغَى. أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾، والمصيبة الأعظم من ذلك أن لا يطغى على إخوانه فقط بل على ربِّه وخالقه جلَّ وعلا، فينسى أنَّ الله هو الذي أعطاه هذا المال ويقـول: ﴿إِنَّمَـا أُوتِيتُـهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾، وينسى أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منـه قـوةً وأكثر جمعاً، وانظر إلى صاحب الجنتين كيف أصابه الغـرور فـدخل جنتـه وهـو ظـالم لنفسه وقال: ﴿ما أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هذِهِ أَبَداً، وَما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَـةً، وَلَـئِنْ رُدِدْتُ إِلى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْها مُنْقَلَباً﴾ لقد أنساه الغرورُ بماله أنَّ كلَّ نعـيم في الدنيـا فهـو إلى زوال، واستبعد أنْ تقوم القيامة، وعلى فرض أنها قامت فإنَّ له خـيراً مـن جنتـه.. أرأيـتَ مـاذا يصنع المال بصاحبه؟

فأما صاحبه الفقير الذي لا مال له ولا نفر، ولا جنة عنده ولا ثمر، فإنه معتز بما هو أبقى وأعلى، معتز بعقيدته وإيمانـه: ﴿قـالَ لَهُ صـاحِبُهُ وَهُـوَ يُحـاوِرُهُ أَكَفَـرْتَ بِـالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً؟ لكِنَّا هُوَ اللهُ رَبِّي، وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً﴾، فهكذا تنتفض عزة الإيمان في النفس المؤمنة، فلا تُسـتعبد للمـال ولا يطغيهـا الغـنى، وهكذا يستشعر المؤمن أنه عزيزٌ أمام الجاه والمال، وأنَّ ما عنـد الله خـيرٌ مـن أعـراض الدنيا، وأنَّ فضل الله عظيم وهو يطمع في فضله وثوابه، وأن نقمة الله يوشك أن تصيب الغافلين المتبطرين.

فذُو المال يكون ممدوحاً إذا استعمله فيما يرضي الله عز وجـل، وصـان بـه دينَـهُ وعِرْضَهُ، وليس في التباهي والتكاثر والتفاخر، قال بعض الحكماء: من أصـلح مـاله فقـد صان الأكرمَيْن: الدِّين والعِرْض. وقيل في منثور الحكم: مـن اسـتغنى كَـرُمَ على أهلـه. وقيلَ لأبِي الزِّنَادِ: لِمَ تُحِبُّ الدَّرَاهِمَ وَهِيَ تُدْنِيكَ مِنَ الدُّنْيَا؟ قَالَ: «إِنَّهـا وَإِنْ أَدْنَتْـنِي منهـا صَانَتْنِي عَنْهَا».

وقال سعيد بن المسيب: «لا خَيرَ فِيمَنْ لا يُحِبُّ المالَ لِيَصِلَ بِـهِ رَحِمَـهُ، ويُـؤَدِّي بـه أمانتَهُ، ويَستَغني به عن خَلْقِ رَبِّهِ»، ولما حضره الموت ترك دنانيراً وقال: «اللهُمَّ إِنَّكَ تَعلَـمُ أَنِّي لَمْ أَجمعها إِلَّا لأَصُونَ بها حَسَبِي ودِينِي».

وقال سفيان الثوري مرةً لمن عاتبه في تقليب الدنانير: دعنا عنك فإنه لـولا هـذه لتمندلَ الناس بنا تمندلاً. وقال: المال في هذا الزمان سلاح المؤمن.

وقال سفيان بن عيينةَ: من كان له مال فليُصْلحه، فـإنكم في زمـانٍ مـن احتـاج فيه إلى الناس، فإن أول ما يبذله دِينه.

وفي وصية لقمان لابنه: «يا بني استعن بالكسب على الفقـر، فمـا افتقـر رجـل إلا أصابته ثلاث خصال: رقَّة في دينه، وضعف في عقله، وذهـاب في مروءتـه، وأعظـم مـن هذا استخفاف الناس به».

وقال يحي المسيحي:

نعمَ المعينُ على المروءةِ للفتى ... مالٌ يصونُ عن التبذلِ نفسَهُ

لا شيءَ أنفعُ للفتى من مالهِ ... يقضي حوائجَه ويجلبُ أنسَهُ

وإذا رمتهُ يد الزمانِ بسهمهِ ... غدتِ الدراهمُ دون ذلكَ تِرْسَهُ

قال المال: وأخيراً وافقتني في كلامي، إنَّ إنصافَك في موافقتـك لي أحـبُّ لي مـن كلِّ حُجَجك وأدلتك، فما أجملَ الإنصاف وما أقلَّه!

قال العلم: إذا لم يجعلني العلم منصفاً عادلاً فـلا خـير فيّ، فالإنصـافُ دليـلٌ على العقل والفضل، وقد أغلظ رجل على المهلب فحلم عنه، فقيل له: جهـل عليـك وتحلـم عنه؟ فقال: (لم أعرف مساوئه، فكرهتُ أن أبهته بما ليس فيه)! فأين من ينصف مثل هذا؟

ودعني أهمس في أذنك ما ينفعك في خطابك:

إنَّ الحماسةَ الزائدَةَ للفكرة وإعطاءَها أكبر من حجمها يسيء إليهـا، وقـد يـؤدي هذا إلى عدم قبول الناس لها وتحفظهم منهـا، قـال أحـدهم: (حـين تصـرخ في أذني لا أسمعك جيداً). ثم إن من يرد على فكـرة متطرِّفـة لا تخلـو مـن ردة الفعـل، عليـه: أن يحفظ توازنه ويبتعد عن المبالغة والتهويل، حتى لا يكـون رده أيضـاً عبـارة عـن ردة فعل ولكنها في الاتجاه الآخر.

وعوداً على حوارنا أقول: إنَّ العلم يستفاد منه لغذاء الروح، والمال لغـذاء الجسـد، وأيهما أشرف الروح أم الجسد؟

يَا خَادِمَ الجِسْمِ كَمْ تَشْقَى بِخِدْمَتِهِ ... أَتَطْلُبُ الرِّبْحَ فِيمَا فِيهِ خُسْرَانُ؟
أَقْبِلْ عَلَى النَّفْسِ وَاسْتَكْمِلْ فَضَائِلَهَا ... فَأَنْتَ بِالنَّفْسِ لاَ بِالْجِسْمِ إِنْسَانُ

قال فتح الموصلي رحمه الله: أليس المريض إذا مُنع الطعام والشراب والدواء يموت؟ قالوا: بلى، قال: كذلك القلب إذا منع عنه الحكمة والعلم ثلاثة أيام يموت.

فإنَّ غذاءَ القلب: العلمُ والحكمةُ وبهما حياته، كما أنَّ غذاء الجسد الطعام، ومن فقد العلم فقلبه مريضٌ وموته لازم ولكنه لا يشعر به.

وفي وصايا لقمان لابنه قال: يا بني جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك، فإن الله سبحانه يحي القلوب بنور الحكمة كما يحي الأرض بوابل السماء.

قال المال: لا شك بأنَّ الرُّوح أشرف من الجسد، لكن الجسد هو المجال والطريق لتحقيق مطالب الروح وأشواقها.

أم أنك تريد أن تكون كذلك المعذَّب الذي يقول:

جسمي معي غير أنَّ الروحَ عندكمُ ... فالجسمُ في غربةٍ والرُّوحُ في وَطَنِ
فليعجبِ الناسَ مني أنَّ لي بدناً ... لا روحَ فيه، ولي روحٌ بلا بَدَنِ

ألم يجعل الله العبادات مزيجاً من الرُّوح والعقل والجسد، فالذي يصلي مثلاً: يتوجه بروحه إلى خالقه الذي يناجيه، وبعقله فيتدبَّر ما يقرأه من القرآن والذِّكْر، وبجسمه فيقف ويركع ويسجد؛ وهكذا تعلِّمنا الصلاة أن لا نفصل بين الروح والجسد.

قال العلم: ألم تسمع إلى من قال: (حبيب المال لا حبيبَ له، وعدو ماله لا عدوَّ له)، ومن قال: (مَنْ أذلَّ ماله فقد أعزَّ نفسه، ومَنْ أعزَّ ماله فقد أذلَّ نفسه)؟

وقال الحسن البصري: (بئس الرفيقان: الدرهم والدينار، لا ينفعانك حتى يفارقانك).

فما فضيلةُ شيءٍ مَنْ أحبَّه لم يحبه الناس؟ ومَنْ أعزه أذل نفسه؟ ولا سبيل إلا بمعاداته وإذلاله حتى يعز نفسه ويحبه الناس! ولا سبيل إلى نفعه إلا بمفارقته؟

وقد لام أحدهم أفلاطون على الزهد في المال فقال: كيف أرغب فيما ينال بالبخت لا بالاستحقاق، ويأمر البخل والشره بحفظه، والجود والزهد بإتلافه.

فأي فضيلة في هذا؟

قال المال: دعك من هذه الفلسفة وانظر في واقع الناس، فواقعهم يجيبك ويـرد على هذا الكلام.

قال العلم: ما أراك إلا قد عجزتَ عن الجواب فأحلتني على واقع الناس.

قال المال: كلا، فإنَّ الواقع يثبت ما قاله الشاعر:

يُغَطَّى بالسَّمَاحَةِ كُلُّ عَيْبٍ ... وَكَمْ عَيْبٍ يُغَطِّيهِ السَّخَاءُ

ألم تر أن كثيراً من الحكَّام يدركون هـذه الحكمـة ويطبقونهـا، فهـم يعلمـون أنَّ عيوبهم كثيرة ولا يمكـن أن تُغَطَّى هذه العيـوب بشـيء كمـا تُغَطَّـى بالسـخاء فهـم يجودون على أتباعهم ابتداءً، وعلى مَنْ يمكـن له أن يكـون بالسخاء من أتباعهم، فيصير المعارض لهم موافقاً لهم بل ومدافعاً عنهم، أما سمعتَ بسياسة العصا والجزرة؟

قال العلم: من يُشترى بالمال قد يتظاهر أمام من اشتراه بمحبتـه وولائـه له، فـإذا ذهب عن سيِّده المال أو المنصب فقد يكون أول مَنْ ينقلب عليه، أمَّا مَنْ أحبه الناس لفضله وشرفه وصدقه وسلامة قلبه فيجتمع الناس عليه ولو لم يكـن ذا منصـب، ألا ترى الناسَ يحبون العلماء الصادقين أكثر من حبِّهم للسلاطين.

قال المال: لكـن الناس يجلون ويحترمون من يملك الأمـوال الكثـيرة، ويـبررون أخطاءه ويجعلون سيئاته حسنات، إن سـكت فهـو العاقـل الحكـيم، وإن تكلـم فهـو البليغ ذو الحجة والبرهان مما جعل أبو الفتح البستي يقول:

(سَحْبَانُ) مِنْ غَيْرِ مَالٍ (بَاقِلٌ) حَصِرٌ ... وَ(بَاقِلٌ) فِي ثَرَاءِ المَالِ (سَحْبَانُ)

ويقول الآخر:

وكان بنو عمي يقولون مرحباً ... فلما رأوني مُعدماً مات مرحبُ

وقال قيس بن عاصم:

وأوَّلُ مَنْ يجفو الفقيرَ لفقرِهِ ... بنوه، ولم يرضوه في فَقْرِهِ أبَا

كأنَّ فقيرَ القومِ في الناسِ مُذنِبٌ ... وإنْ لم يكـنْ مِنْ قبل ذلك أذنَبَا

ويُنسَب للإمام الشافعي:

أَلَمْ تَرَيَا أَنِّي مُقِيمٌ بِبَلْدَةٍ ... مَرَاتِبُ أَهْلِ الْفَضْلِ فِيهَا مَجَاهِلُ

فَكَامِلُهُمْ مِنْ قِلَّةِ الْمَالِ: نَاقِصٌ ... وَنَاقِصُهُمْ مِنْ كَثْرَةِ المَالِ: كَامِلُ

وقال أبو العيناء:

من كانَ يملكُ درهمينِ تعلمتْ ... شفتاه أنواعَ الكلامِ فقالا

وَتقَدَّمَ الفصحاءَ فاستمعوا له ... ورأيتَه بين الورى مُخْتالا

لولا دراهمُهُ التي في كيسِهِ ... لرأيته شَرَّ البريةِ حالا

إِن الغنيَّ إِذا تكلمَ كاذباً ... قالوا: صدقْتَ وما نطقْتَ مُحالا

وإِذا الفقيرُ أصابَ قالوا: لم يُصِبْ ... وكذبْتَ يا هذا وقُلْتَ ضلالا

إِن الدراهمَ في المواطنِ كُلِّها ... تكسو الرجالَ مَهابةً وجلالا

فهي اللسانُ لمن أرادَ فصاحةً ... وهي السلاحُ لمن أرادَ قِتالا

وقال الآخر عن الفقير:

يمشي الفقيرُ وكل شيء ضده ... والناسُ تُغلِقُ دونه أبوابَها

وتراه مبغوضاً وليسَ بمذنبٍ ... ويرى العَدَاوةَ لا يَرَى أسبابَها

حتَّى الكلاب إذا رأتْ ذا ثروةٍ ... خضعتْ لديه وحرَّكت أذنابها

وإذا رأتْ يوماً فقيراً عابراً ... نبحتْ عليه وكشَّرَتْ أنيابها

وكان يقال: الدراهم مراهم؛ لأنها تداوي كلَّ جرح، ويطيب بها كل صلح.

وقال البستي:

مَنْ جَادَ بِالمَالِ مَالَ النَّاسُ قَاطِبَةً ... إِلَيْهِ وَالمَالُ للإِنْسَانِ فَتَّانُ

وقال أحمد شوقي:

المالُ حَلَّلَ كُلَّ غَيرِ مُحَلَّلِ ... حَتَّى زَواجَ الشيبِ بِالأبكارِ

سَحَرَ القُلوبَ فَرُبَّ أُمٍّ قَلبُها ... مِن سِحرِهِ: حَجَرٌ مِنَ الأحجارِ

دَفَعَت بُنَيَّتَها لِأَشأَمَ مَضجَعٍ ... وَرَمَت بِها في غُربَةٍ وَإِسارِ

وَتَعَلَّلَت بِالشَرعِ قُلتُ: كَذِبتِهِ ... ما كانَ شَرعُ اللهِ بِالجَزّارِ

ما زُوِّجَت تِلكَ الفَتاةُ وَإِنَّما ... بيعَ الصِّبا وَالحُسنُ بِالدينارِ

وقيل لابن سيابة: قد كرهت امرأتك شيبك فمالت عنك، فقال: إنما مالت إلى الأنذال لقلة المال، والله لو كنت في سن نوح، وشيبة إبليس، وخلقة منكر ونكير،

ومعي مال لكنت أحب إليها من مقترٍ في جمال يوسف، وخلق داود، وجود حاتم، وحلم أحنف بن قيس.

وقال بعضهم: (إذا أثريتَ فكلُّ رجلٍ رجلك، وإذا افتقرتَ أنكرك أهلك).

وقال آخر: (الدنيا إذا أقبلتْ على أحد أعارته محاسنَ غيرِه، وإذا أدبرتْ عن أحد سلبته محاسنَ نفسِه).

وقال الشاعر:

أجَلَّكَ قومٌ حين صرتَ إلى الغِنَى ... وكلُّ غنيٍّ في العيونِ جليلُ

وليسَ الغِنَى إلَّا غنىً زيَّنَ الفَتَى ... عشيَّةَ يقري أو غداة يُنيلُ

قال العلم: إنَّ موازين الناس لا قيمة لها إذا لم تكن مبنية على أساس صحيح، فمجرد جمع المال لا يقرب من الله عز وجل قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾، وقال عن أبي لهب: ﴿مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾، والوليد بن المغيرة الذي قال عن القرآن ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ. إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾، قال الله عنه: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً. وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً. وَبَنِينَ شُهُوداً. وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً﴾، ثم كان جزاؤه: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾. فهل أغنى عنه ماله وولده؟

وقال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ. الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ. يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾، فمالُه جَعَلَه يستحقر الناسَ ويزدريهم فيهمز هذا ويلمز ذاك، وما تخفي صدورهم أكبر، يحسب أنه بماله قد اشترى البلاد والعباد فلم يعد لأحد قَدْر عنده، ويحسب أنَّ ماله سينجيه من كلِّ الشرور والآفات وسيخلِّده في نعيمه البائس الزائف الزائل، وهذه الآفات المدمِّرة للقوة المادية كما تكون في الأفراد تكون في الحكومات، ثم قال تعالى: ﴿كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الحُطَمَةِ. وَمَا أَدْرَاكَ مَا الحُطَمَةُ. نَارُ اللهِ المُوقَدَةُ﴾، فهؤلاء الذين أضلَّهم المال وأغواهم كما قال نوح عليه الصلاة والسلام: ﴿وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَاراً﴾.

وهذا الذي يحسب أنَّ ماله أخلده، ويحه أما يقرأ القرآن وهو يبيِّن بطلانَ هذه الأوهام، قال تعالى: ﴿كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾، أي: لم يقيموا ولم ينزلوا فيها، من قولهم:

غنيت بالمكان إذا أقمت به، والمغاني المنازل واحدها مغنى، وغني معناه: أقام إقامة مقترنة بتنعيم عيش ويشبه أن تكون مأخوذة من الاستغناء، فكأنهم لم تسبق لهم حياة يتنعمون فيها، كما قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ﴾، ومن أصدق من الله قيلاً، فإخبار الله لنا عن شيء ليس كرؤيتنا له، فإن الرؤية قد تخطئ وتزيغ أما إخبار الله فلا يمكن أن يتخلف أو يختلف.

فهذا المغرور بماله، ألا يعلم ذلك (علمَ اليقين)؟ أم أنه ينتظر أن يرى ذلك (عينَ اليقين) ثم يعرفه (حقَّ اليقين)؟

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ. وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ. كَلَّا﴾، (أي ليس كل من أعطيته ونعمته وخولته فقد أكرمته، وما ذاك لكرامته علي ولكنه ابتلاء مني وامتحان له، أيشكرني فأعطيه فوق ذلك، أم يكفرني فأسلبه إياه وأخول فيه غيره، وليس كل من ابتليته فضيقت عليه رزقه وجعلته بقدر لا يفضل عنه، فذلك من هوانه علي ولكنه ابتلاء وامتحان مني له، أيصبر فأعطيه أضعاف أضعاف ما فاته من سعة الرزق، أم يتسخط فيكون حظه السخط، فرد الله سبحانه على من ظن أن سعة الرزق إكرام وأن الفقر إهانة، فقال لم أبتل عبدي بالغنى لكرامته علي ولم أبتله بالفقر لهوانه علي، فأخبر أن الإكرام والإهانة لا يدوران على المال وسعة الرزق وتقديره، فإنه سبحانه يوسع على الكافر لا لكرامته ويقتر على المؤمن لا لإهانته؛ إنما يكرم مَنْ يكرمه: بمعرفته ومحبَّته وطاعته، ويهين من يهينه: بالإعراض عنه ومعصيته) مدارج السالكين.

قال بعضهم: نعمة الله علينا فيما طواه عنا أعظم من نعمته علينا في ما بسطه لنا.

وفي بعض المناجاة: يا مَنْ مَنْعُهُ عطاء.

قال الشاعر:

يَا لائِمَ الدَّهْرِ عَلَى مَا بِنَا ... لا تَلُمِ الدَّهْرَ عَلَى غَدْرِهِ

فَالدَّهْرُ مَأْمُورٌ لَهُ آمِرٌ ... يَنْصَرِفُ الدَّهْرُ إِلَى أَمْرِهِ

كَمْ كَافِرٍ بِاللهِ أَمْوَالُهُ ... تَزْدَادُ أَضْعَافًا عَلَى كُفْرِهِ

وَمُؤْمِنٌ لَيْسَ لَهُ دِرهَمٌ ... يَزْدَادُ إِيمَانًا عَلَى فَقْرِهِ

لا خَيْرَ فِيمَنْ لَمْ يَكُنْ عَاقِلاً ... يَبْسُطُ رِجْلَيْهِ عَلَى قَدْرِهِ

فالمال ظِلٌّ زائل وعارية مسترجعة وليس في كثرته فضيلة، ولو كانت فيه فضيلة لخص الله به من اصطفاه لرسالته، واجتباه لنبوته.

قال الشاعر عبد الرحمن العشماوي:

قد يعشق المرءُ مَنْ لا مالَ في يده ... ويكره القلبُ مَنْ في كفِّه الذهبُ

حقيقةٌ لو وعاها الجاهلون لما ... تنافسوا في معانيها ولا احتربوا

ما قيمة الناس إلا في مبادئهم ... لا المالُ يبقى ولا الألقابُ والرُّتَبُ

وقال الشاعر مصطفى قاسم عباس:

فالمالُ لن يُعلِيَ الإنسانَ منزلةً ... إنْ لم يكنْ بالمزايا يرتقي السُّحُبا

ومن مأثور الحِكَم: (ولا تحزن لقلة المال، فإنَّ الرجلَ ذا المروءة قد يُكرم على غير مال، كالأسد الذي يُهاب وإن كان رابضاً، والغني الذي لا مروءة له يُهان وإن كان كثيرَ المال، كالكلب لا يُحفَلُ به وإن طُوِّق وخُلخِل بالذهب، فلا تَكبُرَنَّ عليك غربتك، فإنَّ العاقلَ لا غربةَ له، كالأسد الذي لا ينقلب إلا ومعه قوَّته.

وقد قيل في أشياء ليس لها ثباتٌ ولا بقاء: ظل الغمامة في الصيف، وخلة الأشرار، والبناء على غير أساس، والمال الكثير، فالعاقل لا يحزن لقلته، وإنَّما مالُ العاقل: عقلُه، وما قدَّم من صالح، فهو واثق بأنه لا يُسْلَب ما عمل).

وقال الزبير بن أبي بكر كتب إلي أبي بالعراق: عليك بالعلم فإنك إن افتقرت كان لك مالا، وإن استغنيت كان لك جمالا.

وخطب اثنان إلى حكيم ابنته، وكان أحدهما غنياً والآخر فقيراً، فاختار الفقير، وسأله الاسكندر عن ذلك فقال: لأنَّ الغني كان جاهلاً فكنت أخاف عليه الفقر، والفقير كان عاقلاً فرجوت له الغنى.

وكم رفعَ الناسُ مِنْ قيمة مَنْ لا يزن عند الله شيئاً، واستهانوا ولم يبالوا بمَنْ هو خير من ملء الأرض ممن رفعوه، حتى قال ابن الرومي:

رأيتُ الدَّهرَ يرفع كلَّ وغدٍ ... ويخفض كلَّ ذي شيمٍ شريفهْ

كمثلِ البحر يغرق فيهِ حيٌّ ... ولا ينفكُّ تطفو فيهِ جيفهْ
وكالميزانِ يخفضُ كلَّ وافٍ ... ويرفعُ كلَّ ذي زنَةٍ خفيفهْ

وقال الآخر:

يا ذا الذي بصروف الدهر عيَّرنا ... هل عاند الدهر إلا مَنْ له خَطَرُ
أما ترى البحرَ يطفو فوقه جِيَفٌ ... ويستقرُّ بأقصى قاعه دُرَرَ
إنَّا وإنْ عبثتْ أيدي الزمان بنا ... ومسَّنا مِنْ تمادي بؤسه ضَرَرُ
ففي السماء نجومٌ ما لها عَدَدٌ ... وليسَ يُكسَفُ إلا الشمسُ والقمرُ

فكثرة المال والبنين لا تدل على رفعة صاحبه عند الله عز وجل فقد قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ. نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، وقال: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ. إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾، وقال: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾.

وجعل اللهُ قيمةَ الرجل بما في قلبه من التقوى إذ قال: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾، وقد بيَّن رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أنَّ الله عز وجل يعطي المال والدنيا لمن يحبه الله ولمن لا يحبه، أما الدِّين فلا يعطيه الله إلا لمن أحبَّه، فقد قال: (إِنَّ اللهَ قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَخْلَاقَكُمْ، كَمَا قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَرْزَاقَكُمْ، وَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لَا يُحِبُّ، وَلَا يُعْطِي الدِّينَ إِلَّا لِمَنْ أَحَبَّ، فَمَنْ أَعْطَاهُ اللهُ الدِّينَ، فَقَدْ أَحَبَّهُ) رواه أحمد في المسند، والحاكم في المستدرك.

إنَّ رفعةَ العلمِ وشرفَه هي التي جعلت الإمام سعيد بن المسيب رحمه الله يرفض أن يزوج ابنته لابن الخليفة عبد الملك ويزوجها إلى الطالب النجيب في حلقة درسه ابن أبي وداعة، الذي كان فقيراً في دنياه ولكنه غني بمولاه، لم يستجب ابن المسيب إلى كل المغريات التي عرضها عليه الخليفة بل رفضها رفضاً باتاً، لأنه يعلم أن ابنته أمانة عنده، فلن يزوجها إلا لمن يرتضي دينه وخلقه ولو كان لا يملك من الدنيا شيئاً..

وقد قال ابن المسيب لرسول الخليفة بعد أن رغَّبه بثواب الخليفة من مال ومتاع ورهَّبه من بطشه إن لم يستجب إلى طلبه: (قد روينا أن هذه الدنيا لا تعدل عند الله

جناح بعوضة، فانظر ما جئتني أنت به، وقِسْه إلى هذه الدنيا كلِّها، فكـم -رحمـك الله- تكون قد قسمتَ لي من جناح البعوضة؟!)

هذه هي عزة المؤمن التي لا تلقي بالاً للدنيا كلِّها، وهكذا يفلـح مَـنْ وزن الأمـورَ بميزان الله وليس بميزان الناس.

ولقد صدق الأديب مصطفى الرافعي إذ قال:

إنَّ المعارفَ للمعالي سُلَّمُ ... وأولو المعارفِ يجهدون لينعموا

والعلمُ زينةُ أهلِهِ بينَ الوَرَى ... سِيَّان فيه أخو الغِنى والمعدمُ

فالشمسُ تطلعُ في نهارٍ مُشرقٍ ... والبدرُ لا يخفيه ليلٌ مظلمُ

لا فخرَ في نسبٍ لمن لم يفتخرْ ... بالعلم، لولا النابُ ذَلَّ الضيغمُ

وقال إبراهيم الألبيري الأندلسي:

وَما يُغنيكَ تَشييدُ المَباني ... إِذا بِالجَهلِ نَفسَكَ قَد هَدَمتا

جَعَلتَ المالَ فَوقَ العِلمِ جَهلاً ... لَعَمرُكَ في القَضيَّةِ ماعَدَلتا

لَئِن رَفَعَ الغَنِيُّ لِواءَ مالٍ ... لَأَنتَ لِواءَ عِلمِكَ قَد رَفَعتا

وَإِن جَلَسَ الغَنِيُّ عَلى الحَشايا ... لَأَنتَ عَلى الكَواكِبِ قَد جَلَستا

وَمَهما افتَضَّ أَبكارَ الغَواني ... فَكَم بِكرٍ مِنَ الحِكَمِ افتَضَضتا

وقال أبو الأسود الدؤلي:

العِلمُ زَينٌ وَتَشْرِيفٌ لِصَاحِبِهِ ... فاطلُبْ هُدِيتَ فُنُونَ العِلمْ وَالأَدَبا

كَمْ سَيِّدٍ بَطَلٍ آبَاؤُهُ نُجُبٌ ... كَانوا الرُؤوسَ فَأَمْسَى بَعدَهُم ذَنَبَا

وَمُقرِفٍ خامِلِ الآبَاءِ ذِي أَدَبٍ ... نَال المَعَالِيَ بِالآدابِ وَالرُتبَا

الْعِلْم زَيْنٌ وَذُخْرٌ لا فَنَاءَ لَهُ ... نِعْمَ القَرينُ إِذَا مَا صَاحِبٌ صَحِبَا

قَدْ يَجْمَعُ المَرْءُ مَالاً ثُمَّ يُحْرَمُهُ ... عَمَّا قَلِيلٍ فَيَلْقَى الذُّلَّ وَالْحَرَبَا

وَجَامِعُ الْعِلْمِ مَغْبُوطٌ بِهِ أَبَداً ... فَلا يُحَاذِرُ مِنْهُ الْفَوْتَ وَالسَّلَبَا

يَا جَامِعَ العِلْمِ نِعْمَ الذُّخْرُ تَجْمَعُهُ ... لا تَعْدِلَنَّ بِهِ دُرّاً وَلا ذَهَبَا

وكان العلم متكئاً فجلس وقال: خلاصة الأمر أنَّ العلم هو أساس الفضائل، ومنبع الكمالات، وبالحض عليه جاءت الرسالات، والمال وسيلة من الوسائل فإن استُعمِلَ في الخير فهو خير على صاحبه، وإن استعمل في الشر فهو وبال وخسران عليه.

وعلينا أن نجعل من العلم والمال مجتمعَيْن أداةً لبناء الحضارات، وتشييد المنارات، وفعل الخيرات وإزالة المنكرات.. فيكون كلٌّ من العلم والمال يصبُّ في مصلحة الآخر ويكمِّله، ولا يعارضه أو يعطِّله.

قال حافظ إبراهيم:

وَالمالُ إِن لَم تَدَّخِرهُ مُحَصَّناً ... بِالعِلمِ كانَ نِهايَةَ الإِملاقِ

وَالعِلمُ إِن لَم تَكتَنِفهُ شَمائِلٌ ... تُعليهِ كانَ مَطِيَّةَ الإِخفاقِ

لا تَحسَبَنَّ العِلمَ يَنفَعُ وَحدَهُ ... ما لَم يُتَوَّج رَبُّهُ بِخَلاقِ

وعدم وجود المال قد يكون مانعاً للإنسان من بعض الفضائل، كما قال عبد الله بن معاوية:

أرى نفسي تتوق إلى أمورٍ ... يقصر دون مبلغهنَّ مالي

فلا نفسي تطاوعني ببخلٍ ...ولا مالي يبلِّغني فِعَالي

وقال آخر:

إنَّ الكريمَ الذي لا مالَ في يدهِ ... مثل الشجاعِ الذي في كفِّه شللُ

والمالُ مثل الحصا ما دام في يدنا ... فليس ينفع إلَّا حين ينتقلُ

والمُلْك يقوم على العلم والمال، وكلٌّ منهما يحتاج الآخر، قال أحمد شوقي:

يا طالباً لمعالي الملك مجتهداً ... خذها من العلمِ أو خذها من المالِ

بالعلمِ والمالِ يبني الناس ملكهم ... لم يُبْنَ مُلْكٌ على جهلٍ وإقلالِ

وشتَّان بين العلم ميراث الأنبياء، وبين المال ميراث الملوك والأغنياء.

وشتان بين العلم الذي يحرس صاحبه، وبين صاحب المال الذي يحرس ماله.

وشتان بين العلم الذي يزداد بالبذل والعطاء، وبين المال الذي تذهبه النفقات.

وشتان بين العلم الذي يرافق صاحبه حتى في قبره، وبين المال الذي يفارقه بعد موته، إلا ما كان من صدقة جارية.

وشتان بين المال الذي يحصل للبر والفاجر، والمسلم والكافر، وبين العلم النافع فلا يحصل إلا للمؤمن.

والعالِم يحتاج إليه الملوك ومَنْ دونهم، وصاحب المال يحتاج إليه أهل العدم والفاقة والحاجة.

والمال يعبِّد صاحبه للدنيا، والعلم يدعوه لعبادة ربه.

والعالم قَدْرُه وقيمته في ذاته، أما الغني فقيمته في ماله، قال بعضهم: (الولاية الوحيدة التي لا يملك أحدٌ أن يعزل صاحبها عنها هي: ولاية العلم).

والغني يدعو الناس بماله إلى الدنيا، والعالم يدعو الناس بعلمه إلى الآخرة.

فلم يكن من المال بعد أن سمع ما سمع إلا أن يقبِّل رأسَ العلم وينصرف وهو يقول: حفظك الله وأدامَك أيُّها العِلْم، فقد كنتَ لي شُعَاعاً ينير دربي، ونَجْماً هادياً في ظُلَمات نفسي، وعقلاً يقيِّدني عن الرذائل ويحفظني من المهالك، ورُوحاً يبعث فيّ مِنَ الفضل والجمال والخير ما أرتقي به مِنْ أرض الجَهَالة إلى سماء المعرفة، ومن قُبْح الأثَرة إلى جمال الإيثار، ومن بُؤس الطين إلى السَّعادة في صراط ربِّ العالمين.

ومدحي هذا لن يرفعك شيئاً، فما أنتَ إلا كما قال المتنبي:

مَنْ كانَ فوقَ محلِّ الشمسِ موضعُهُ ... فليس يرفعه شيءٌ ولا يضعُ

* * * * *

مِنْ فقه الأولويات

إن من الأهمية البالغة لكل مسلم أن ينضبط عنده ميزان الأولويات بشكل منطقي وصحيح حتى لا يقدِّم المهم على الأهم، أو يحرص على المفضول ويترك الفاضل، كمن يحرص على أداء بعض النوافل والمستحبات ويفرط في أداء الفرائض والواجبات أو يتساهل في فعل المحرمات، وكان ابن عمر يقول لأهل العراق: ما أَسْأَلَكم عن الصغيرة وأجرأكم على الكبيرة، تقتلون الحسين ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وتسألون عن دم البعوضة.

والذين يجلدون الإمام أحمد بن حنبل كانوا يسألونه عن الدم الذي ينضح على ثيابهم، وكانوا ينتقدونه على أن يصلي وهو جالس والقيد في يديه وفي رجليه.

وكالذي سأل شيخاً وقال: إني زنيت وصارت المرأة حاملاً من الزنا فماذا أصنع؟ فقال له الشيخ: ولماذا جعلت المصيبة مصيبتين، لماذا لم تعزل؟ فقال: بلغني أن العزل مكروه، فقال له الشيخ: بلغك أن العزل مكروه ولم يبلغك أن الزنا حرام؟

والفهم الصحيح للدين يستلزم معرفة فقه الأولويات وكيفية الموازنة والترجيح بين المصالح والمفاسد إذا تعارضت فكما يقال: (ليس العاقل الذي يعلم الخير من الشر، ولكن العاقل الذي يعلم خير الخيرين وشر الشرين).

وهذه بعض الأمور التي يجدر التنبيه إليها:

١ـ على من يقوم بالإصلاح أن يصلح نفسه أولاً ثم من يعوله، والبدء بالإصلاح الداخلي للمجتمع المسلم وتقويته قبل الاهتمام بفضح مخططات الأعداء ومؤامراتهم، فما كان للأعداء أن يتسلطوا لولا الفساد والضعف الداخلي من الابتعاد عن دين الله تعالى، والظلم بشتى صوره وأشكاله، وعدم تعيين الأكفاء في المناصب، والفساد الإداري والمالي، والتقصير في محاربة الفقر، والتفرقات العنصرية سواء بين المناطق والقبائل أو بين الجنسيات، ـ والأصل في ذلك أن لا يفرق بين أحد وغيره إلا على أساس الكفاءة والقدرة ـ، وعدم الاهتمام بالعلم والتعليم بالشكل المطلوب، والتقصير في تقدير العلماء والمبدعين بل وقد يصل الأمر إلى محاربتهم والتضييق عليهم.

ومن الضعف الداخلي: التفرُّق والاختلاف بسبب مسائل اجتهادية من فروع الدين لا ينبغي المعاداة والتفرُّق من أجلها، فليس من مصلحة الإسلام أن يحارِب أحدٌ مَنْ يخالفه في فروع الدِّين ويترك اليهود والمشركين، فيَسْلَم أعداؤه منه ولا يسلم منه أخوه المسلم، مع أنَّ الحقَّ قد يكون مع أخيه وليس معه كما يحسب، فليس من العقل والحكمة في شيء إذا دخل عدوٌّ على بيت أحد، أن يختلف أهل البيت فيما بينهم في أمور ثانوية ويتركوا عدوهم يفعل ما يشاء! لكن المصيبة أن هناك من يفعل هذا فيضخم الخلافات الفرعية ويغفل عن نقاط الاتفاق والكليات المشتركة وهو يحسب أنه يدافع عن الإسلام.

وقد أمر الله نبيّه عليه الصلاة والسلام أن يقول للمشركين: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾، هذا مع أنه صلى الله عليه وسلم مؤيَّدٌ بالوحي ولا يمكن أن يكون الحق إلا معه، وذلك تعليماً للناس بأن يكونوا منصفين في حوارهم مع من يختلفون.

٢ـ تقديم الاهتمام بأعمال القلوب على أعمال الجوارح، لأنه إذا صلح القلب صلح سائر العمل وإذا فسد القلب فلا عبرة بصلاح الظاهر عند فساد السرائر، فالإكثار من العبادات الظاهرة والاجتهاد فيها من غير إصلاح للباطن قد يقترن بما يحبط العمل ويفسده، فقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن قوم (يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلاَتَهُ مَعَ صَلاَتِهِمْ، وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ، يَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ لاَ يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ) متفق عليه، وفي رواية في البخاري: (يَقْتُلُونَ أَهْلَ الإِسلامِ وَيَدَعُونَ أَهْلَ الأَوثَانِ)، فهؤلاء مع كثرة عبادتهم يمرقون من الدين ويخرجون منه، وقد علَّل كثير من العلماء ذلك بأنَّ في باطنهم من الكبر الخفي الذي يقودهم إلى تضليل المسلمين أو تكفيرهم ويجعلهم يعتقدون أنهم وحدهم على الحق المبين ومن سواهم على الضلال، وهذا الحديث وإن كان في الخوارج إلا أنَّ فِكْرَهم ما زال موجوداً، فالحذرَ الحذرَ من فكر الخوارج وتطرفهم ومغالاتهم.

٣ـ ومن الأولويات: البدء بصغار العلم قبل كباره، وتقديم التربية بالقدوة الحسنة والأفعال الصالحة على مجرد الكلام الخالي من التطبيق، فلما جيء إلى عمر رضي الله عنه بسيف كسرى ومنطقته وزبرجده قال: إن أقواماً أدوا هذا لذو أمانة، فقال علي رضي الله عنه: «إنك عففت فعفت الرعية» [٧].

وكتب عمر رضي الله عنه إلى أبي موسى: «أما بعد، إن أسعد الرُّعاة من سَعِدت به رعيَّتُه، وإن أشقى الرعاةِ عند الله من شقيت به رعيَّته، وإياك أن ترتعَ فيرتعَ عُمَّالُك» [٨].

---

(٧) ـ رواه الدارقطني في فضائل الصَّحابة (١٩)، والطبري في تاريخه ٣: ١٢٨، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٤٤: ٣٤٣.

(٨) ـ رواه ابن أبي شيبة في المصنف ٨: ١٤٧، وأبو نعيم في الحلية ١: ٥٠.

وكَانَ عُمَرُ إِذَا نَهَى النَّاسَ عَنْ شَيْءٍ جَمَعَ أَهْلَ بَيْتِهِ فَقَالَ: «إِنِّي نَهَيْتُ النَّاسَ كَذَا وَكَذَا، وإِنَّ النَّاسَ لَيَنْظُرُونَ إِلَيْكُمْ نَظَرَ الطَّيْرِ إِلَى اللَّحْمِ، وَايْمُ اللهِ، لَا أَجِدُ أَحَداً مِنْكُمْ فَعَلَهُ إِلَّا أَضْعَفْتُ لَهُ الْعُقُوبَةَ ضِعْفَيْن» (١).

وفي رواية أخرى: «والناس إنما ينظرون إليكم نظر الطير إلى اللحم، فإن وقعتم وقعوا، وإن هبتم هابوا، وإني والله لا أوتى برجل منكم وقع في شيء مما نهيت عنه الناس إلا أضعفت له العقوبة لمكانه مني، فمن شاء فليتقدم ومن شاء فليتأخر» (٢).

وفي عهد السلف كان الكثير من الناس يصحبون أهل العلم للاستفادة من سمتهم وأخلاقهم قبل أن يستفيدوا من كلامهم.

٤ـ تقديم الفرض والواجب على السنة والنفل، فلا يقوم أحد مثلاً بأداء بعض النوافل إذا كان في أدائها إخلال بالواجب، كمن يشق عليه صيام النفل بحيث لا يستطيع أداء واجباته على الوجه المطلوب.

ومن ذلك نهي النبي صلى الله عليه وسلم للزوجة أن تصوم تطوعاً، وزوجها حاضر إلا بإذنه، لأن حق الزوج واجب عليها، والصوم نافلة.

قال بعض العلماء: (من شغله الفرض عن النفل فهو معذور، ومن شغله النفل عن الفرض فهو مغرور).

وقال أبو سليمان الداراني: كُلُّ مَنْ كان في شيء من التطوُّع يلذ به، فجاء وقت فريضة، فلم يقطع وقتها لذة التطوع، فهو في تطوُّعه مخدوع (٣).

وكان بعض المتقدمين يحج ماشياً على قدميه كل عام فكان ليلة نائماً على فراشه، فطلبت منه أمه شربة ماء، فصعب على نفسه القيام من فراشه لسقي أمه الماء، فتذكر

---

(١)ـ رواه ابن أبي شيبة في المصنف ٧: ٢٦٨ (١١٠).

(٢)ـ رواه عبد الرزاق في مصنفه ١١: ٣٤٣، (٢٠٧١٣)، ومعمر بن راشد في جامعه (١٣٢٤)، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٤٤: ٢٦٨.

(٣)ـ رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ٩: ٢٦٩.

حجه ماشياً كل عام و أنه لا يشق عليه، فحاسب نفسه فرأى أنه لا يهونه عليه إلا رؤية الناس له و مدحهم إياه، فعلم أنه كان مدخولاً [84].

وتقديم فرض العين على فرض الكفاية ومن ذلك أن رَجُلاً جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فَاسْتَأْذَنَهُ فِي الْجِهَادِ فَقَالَ أَحَيٌّ وَالِدَاكَ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَفِيهِمَا فَجَاهِدْ. متفق عليه.

٥ـ تقديم الاهتمام بترك المنهيات على الاهتمام بفعل المأمورات، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: (فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ) متفق عليه، فهذا يؤخذ منه أنَّ النَّهيَّ أشدُّ من الأمر؛ لأنَّ النَّهيَّ لم يُرَخَّصْ في ارتكاب شيء منه، والأمر قُيِّدَ بحسب الاستطاعة، ورُوي هذا عن الإمام أحمد.

وعن أبي هريرة أن النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم قال له: (اتَّقِ المَحَارِمَ تَكُنْ أَعبدَ النَّاسِ) رواه الترمذي. وقالت عائشة رضي الله عنها: من سرَّه أنْ يسبق الدائبَ المجتهدَ فليكفَّ عن الذنوب. وقال الحسن: ما عبد العابدون بشيءٍ أفضل من ترك ما نهاهم الله عنه. وقال ميمون بن مِهران: ذكرُ اللهِ باللسان حسن، وأفضلُ منه أنْ يذكر اللهَ العبدُ عندَ المعصية فيمسك عنها.

ويشبه هذا قول بعضهم: أعمال البرِّ يعملُها البرُّ والفاجرُ، وأمَّا المعاصي فلا يتركها إلا صِدِّيق. وقال بعض السَّلفِ: تركُ دانق مما يكره الله أحبُّ إليَّ من خمس مئة حجة.

وقال ابنُ المبارك: لأنْ أردَّ درهماً من شبهة أحبُّ إليَّ من أنْ أتصدَّقَ بمئة ألفٍ ومئة ألف، حتّى بلغ ست مئة ألف [85].

وقال مَالِكُ بنُ دِينَارٍ: لَأَنْ يَترُكَ الرَّجُلُ دِرْهَماً حَرَاماً خَيرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَتَصَدَّقَ بمئة أَلْفِ دِرْهَمٍ [86].

وقال سفيان الثَّورِي: كُلِ الحَلالَ وَصَلِّ آخِرَ الصُّفُوفِ تُقْبَلْ مِنْكَ، وَلَا تَأْكُل حَرَاماً وَتُصَلِّ أَوَّلَ الصُّفُوفِ فَلَا يُقْبَلُ مِنْكَ [87].

---

(84) ـ لطائف المعارف لابن رجب: ٢٥٧.

(85) ـ انظر: جامع العلوم والحكم شرح الحديث التاسع.

(86) ـ رواه الدينوري في المجالسة وجواهر العلم ٥: ١٢٥.

٦ـ تقديم العمل المتعدي نفعه إلى الغير على العمل القاصر نفعه على صاحبه، كمن حج حجة الفريضة، وأراد أن يتنفل بحجة أخرى، وكان الحج سيكلفه الكثير من المال، فإن الأَوْلى أن ينفق هذا المال على مَنْ يحتاج إليه كمساعدة من يريد الزواج أو أنْ يقومَ بكفالة يتيم أو فقير، أو أن يسدِّدَ دَيْناً عن مُعْسِرٍ ونحو ذلك.

وكمن يستطيع أن يعلم الناس علماً نافعاً في وقت من الأوقات أو يذكر الله وحده منفرداً، فقيامه بتعليم الناس أولى، وذلك لتعدي نفعه وشمول خيره.

٧ـ تقديم العلم الذي يترتب عليه ثمرة وعمل على العلم النظري الذي لا يترتب عليه شيء، فهناك من يشغل نفسه بقضايا لا تقدِّم ولا توخِّر، ويضيع وقته وأوقات الآخرين فيما لا ينفع، أو فيما ضرره أكبر من نفعه، كمن يبحث هل والدي النبي صلى الله عليه وسلم في الجنة أم في النار، وقد يستغرق أحدهم سنة كاملة في البحث ويخرج للناس بمجلد ضخم يؤيد فيه أحد الأقوال، وهناك الكثير من المسائل المستجدة التي تحتاج إلى بحث ودراسة هي أولى بالعناية من هذه المباحث.

وكمن يبحث في الخلاف بين علي ومعاوية رضي الله عنهم، ومن الذي كان الحق معه، وكأن أحداً قد نصَّبه قاضياً عليهم، أو محامياً عن أحدهم، وخير ما يقال لمن يفعل هذا هو ما قاله أبو زُرْعة الرَّازي رحمه الله: (ربُّ معاوية ربٌّ رحيم، وخصمُ معاوية خصمٌ كريم، فما دخولك بينهما)؟![1] ثم ماذا يترتب على هذا من عمل، وهل هو الذي سيعطيهم الأجر والثواب أو سيصيبهم بالإثم والعقاب، وقد قال تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَا كَسَبْتُمْ، وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، وقال عليه الصلاة والسلام: (مِنْ حُسْنِ إِسْلامِ المَرْءِ تَرْكُهُ مَا لا يَعنِيه) رواه الترمذي، والاشتغال فيما لا يعني وإعطاؤه أهمية أكبر من حجمه سيؤدي إلى التفريط فيما يهمنا ويعنينا.

* * * * *

[1]ـ رواه الدينوري في المجالسة وجواهر العلم ٥: ١٢٧.

حتى تكون عزيزاً

إذا أردتَ أن تكون عزيزاً عليك أن تعلم أولاً أن العزة هي لله وحده، قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فللهِ العِزَّةُ جَمِيعَاً﴾، وقال: ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ العِزَّةَ للهِ جَمِيعاً﴾، وقال سبحانه: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ العِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾، فجعل الله العزة له وحده.

وكذلك في قوله تعالى: ﴿وَللهِ العِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾، فالعزة هنا هي لله سبحانه، فكل من اتصل بالله فهو عزيز لاتصاله به سبحانه، ومن هنا جاءت العزة لرسل الله ولعباده المؤمنين، ونعتز بالإسلام لأنه دين الله تعالى، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه (نحن قومٌ أعزَّنا اللهُ بالإسلام مهما ابتغينا العزةَ بغيره أذلَّنَا الله)، فالعزة من عند الله وقد أعزنا الله بدينه الإسلام، ومن ابتغى العزة بغيره أذله الله.

فبالإسلام يسمو الإنسان بنفسه فلا يعبد إلا الله تعالى ويتحرَّر من العبودية لغيره.

فالعزة تكون بطاعة الله سبحانه والقُرْب منه، والذلة والمهانة بمعصيته والبعد عنه، وأبى الله إلا أن يذل من عصاه، قال الإمام الشافعي: (مَنْ لم تُعِزُّهُ التقوى فلا عِزَّ له).

ولَمَّا فُتِحَتْ مدائنُ قُبْرُسَ، تَنَحَّى أَبُو الدَّرداءِ وجعل يَبكِي، فَأَتَاهُ جُبَيْرُ بنُ نُفَيْرٍ فَقَالَ: مَا يُبْكِيكَ يَا أَبا الدَّرْدَاءِ؟ أَتَبْكِي فِي يَوْمٍ أَعَزَّ اللهُ فِيهِ الإِسْلاَمَ وَأَهْلَهُ، وَأَذَلَّ فِيهِ الْكُفْرَ وَأَهْلَهُ؟ فقال أبو الدرداء: (مَا أَهْوَنَ الْخَلْقَ عَلَى اللهِ إِذَا تَرَكُوا أَمْرَهُ، بَيْنَا هِيَ أُمَّةٌ قَاهِرَةٌ ظَاهِرَةٌ عَلَى النَّاسِ، لهم المُلكُ حَتَّى تركوا أمرَ اللهِ، فَصَارُوا إِلَى مَا تَرَى).

والعلو والرفعة هي للمؤمنين بالله سبحانه، قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، واللهُ وَلِيُّ المؤمنين، قال تعالى: ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾، وقال سبحانه: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾، والنصر والعاقبة للمؤمنين المتقين، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ

عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، وقال: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾.

فالشرف كل الشرف أن تكون عبداً لله تعالى، من أوليائه الذين يعملون الصالحات ويجتنبون المحرَّمات.

وممّا زادني شَرَفاً وتيهاً ... وكدتُ بأخمصي أطَأُ الثُريَّا
دخولي تحت قولك: «يا عبادي» ... وأنْ صيَّرْتَ «أحمدَ» لي نبيَّا

* * * * *

لماذا أنت كثير التبسُّم؟

قال له: لماذا أنت كثير التبسُّم، كثير المَرَح والضحك، تمزح بمناسبة وبدون مناسبة؟

فأجابه: ولماذا لا أكون كذلك وقد قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾، وبما أننا نعيش في كل لحظاتنا بفضل الله ورحمته، فعلينا أن نفرح ونسعد في كل أوقاتنا.

ألم يقل النبي عليه الصلاة والسلام: (عَجَباً لأَمْرِ المُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إلا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْراً لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْراً لَهُ)، فالمؤمن يعيش في خير مهما حصل له.

ثم ماذا سيفيدنا العبوس والحزن، هل سيعيد لنا شيئاً فقدناه، أو هل سيحل لنا المشاكل التي نعاني منها، أو سيجعلنا نعيش حياة مثالية ونسرح في أحلام وردية لا وجود لها إلا في الخيال!

فمن فكَّر بعقله لن يحزن على أمر لا طائل من وراء الحزن عليه، بل سيفكر بواقعية وإيجابية فيما يمكنه فعله وفي البديل الذي يستطيع القيام به، ولا ينجرُّ وراء عاطفته التي لا تسوقه إلا إلى ما يلبي رغباته وحاجاته الوقتية.

من الصعب أن لا تجد ما تفرح به، فكلٌّ منا عنده من النعم ما يعجز عن شكره، فلا تكن ممن يغفل عن الموجود، ويبحث عن المفقود، فمثل هذا لن يسعد؛ لأنه مهما أخذ ومهما ملك سيظل هناك ما يفقده، فالعاقل يفرح بالموجود ولا يحزن على المفقود.

وهَبْ أنك عجزت عن رؤية ما تفرح لأجله، فلماذا لا تفرح لفرح غيرك؟ فتطهِّر بذلك قلبك من الغلِّ والحسد وتملأ قلبك بمحبة الخير الناس، فتكون سليمَ القلب طاهرَ النفس.

فعندما تفرح لفرح غيرك وسعادته فأنت بذلك تزيد من فرصة الفرح لديك، أما الذي لا يفرح إلا لنفسه فسيكون فرحه محدوداً.

ولكن الذي يحزن لفرح غيره فهذا يحتاج إلى علاج، ويكفيه من العلاج أن يعرف أنه بذلك قد قضى على نفسه بأن يكون دائم الأحزان.

حتى عند وجود مصائب في الأمة الإسلامية، فالمصائب لم يَخْلُ منها زمن، فهل يريد البعض أن يبقى الناس في حزن دائم؟ ونبيُّنا عليه الصلاة والسلام وهو أكثر الناس حرصاً على أمته، وأثقلهم حملاً لهموم دعوته كان كثير التبسم وما أكثرَ ما تجد في سيرته والأحاديث التي رويت عنه: (ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ).

المصائب لا تُحَلُّ بالبكاء على الماضي، والتشاؤم من المستقبل، والغفلة عن الحاضر الذي نعيشه، بل بالاستفادة من الماضي، والتفاؤل والثقة بمستقبل مشرق، والعمل في الحاضر والواقع حسب القدرة والاستطاعة، بتوازن بين المثالية والواقعية، وبين الواجب والممكن، فنحرص على المثالية ولا نغفل عن الواقع، ونعمل من الواجب ما هو ممكن فعله منه.

* * * * *

حتى ترتاح نفسُك

حتى ترتاح نفسُك، ويهدأ ضميرك، عليك أن تكون واسع الصدر، فأعقل الناس وأسعدهم هو أعذرهم للناس، وأبعدهم عن العقل والحكمة هو أسرعهم لوماً وأقلُّهم تحقُّقاً وتثبُّتاً فيما صدر عنهم.

ما أجمل أن يعذر بعضنا بعضاً، فأنت لا تعلم ظروف الآخرين الغائبة عنك، ولا تدري ما الذي قاده إلى ذلك التصرف الذي لم يعجبك.

فعندما تجد من أحد موقفاً لا يليق فعله أو خطأً لا ينبغي الوقوع فيه، فلا تنسَ أنه قد يكون وراء ذلك أسبابٌ لم تدركها، وأمورٌ اضطرته إلى هذا التصرف.

ويزداد هذا أهمية حينما لا تعرف عن إنسان إلا كل خير، ورأيتَ تصرفاً يناقض ما تعرف عنه، فإن استطعت أن تسمع منه وتعرف ماذا حصل فعلتَ ذلك، وإلا فالتمس الأعذار له.

حين تكون النفسُ سليمةً جميلةً ترى الأشياء بصورتها الإيجابيـة، وتصـنع مـن الليمون الحامض شراباً حلواً، وتجعل من المِحَن مِنَحَاً وعطايا وفوائد عظيمة.

حين يكون الصدر واسعاً يتسع المكان الضيق لعدد كبير من الناس، أمـا إذا كان الصدر ضيقاً فإن أوسع المساحات تضيق على أقل عدد منهم.

لَعَمْرُكَ مَا ضَاقَتْ بلادٌ بأَهْلِهَا ... وَلـكِنَّ أَخْلاقَ الرجَالِ تَضِيقُ

حين يكون المعدنُ أصيلاً، والقلبُ صافياً سليماً، فلا تنتظر من صاحبه إلا خيراً عميماً، وفضلاً جسيماً..

وحين يكون الأصلُ الشريفُ معدوماً، والباطنُ خواءً فارغاً مذموماً، والإحسـاسُ بالجمال مفقوداً، فلا تنتظر إلا شراً مَهِيناً وضلالاً مبيناً.

لا تَلُمْ صديقَك على تقصيره معك، فلستَ الوحيد في هذا الكون الفسيح، ولسـت الوحيد في قلبه، فقد يكون عنده من الأصدقاء والأحباب من هم أكثر محبـة له منـك، وهو أشد حباً لهم من محبته لك ـ مع كامل الاحترام والتقدير ـ ومع هذا لا يلـتقي بهـم إلا نادراً، فالناس عندهم ما يشغلهم من أعمال ومهمات، وأهل وأصـدقاء، فـلا تتعلـق بإنسان تعلقاً شديداً يجعلك لا تستطيع العيش بدونه.

ومَا كُلُّ مَنْ تَهْوَاهُ يَهواكَ قلبُهُ ... وَلا كلُّ مَنْ صَافَيْتَه لَكَ قَدْ صَفَا

فَفِي النَّاسِ أَبْدَالٌ وَفي التَّرْكِ رَاحةٌ ... وفي القلبِ صبرٌ للحبيبِ ولو جفا

فلا تجعل سعادتك مرهونة لشخص أو لعمل أو متاع، فسـعادتك في نفسـك وفي نظرتك للأشياء من حولك، فلا تعلقها بأمر خارجٍ عنها.

فالنظرة السليمة والإيجابية للأشياء هي طريقك إلى السعادة، فمثلاً حينمـا تنظـر إلى نقد الناس لك على أنه طريق للترقي نحو الأفضل، فهذا يجعلك تسعد بالنقد وتطلبـه من أهله.

حتى النقد الهدام الذي يقصد به التحطيم والتحقير، يمكن أن تسعد بـه عنـدما تعرف أنه لا تُرمَى إلا الشجرة المثمرة، وأنه لا يُعرَف طِيب العود إلا باشتعال النار فيـه، وأن النقد ضريبة طبيعية لكلِّ مـن يعمـل شـيئاً، فتجعـل ذلـك محفـزاً لـك على العمـل والإبداع.

فهناك أناس لا يخطؤون؛ لأنهم لا يعملون شيئاً، فهذا الذي لا يعرف إلا أن ينقد الناس، لو كان مكان مَنْ ينتقده فقد يخطئ أكثر من أخطائه بكثير، فعلى من يَنتقِد أن يكون واقعياً، منصفاً.

تأكد أنه لا يمكن لكلمة قالها أحدهم فيك، أو لموقف حصل، أن يغير هذا من الحقيقة والواقع شيئاً، فآراء الناس ليست حقائق قطعية، وإنما هي وجهات نظر تحتمل الصواب والخطأ، فلا تبالغ وتهتم كثيراً في الرد على من أساء إليك بشيء، فدع أفعالك تكذب ما قال، واترك الناس يحكمون بما يرونه.

إذا أساء إليك أحدٌ فلا تعامله بما يستحق أو بمثل ما يعاملك، بل بما ترضاه لنفسك وبما يعبر عن أخلاقك ومبادئك، فكما قال الشيخ سلمان العودة: (أنت لستَ مسؤولاً عمَّا يعمله الآخرون تجاهك، بل عمَّا تعمله أنت تجاه الآخرين).

فبالتسامح وسعة الصدر، تحسن إلى نفسك وتسعدها قبل أن تحسن إلى غيرك.

* * * * *

هل أحسنتَ إلى جارك؟

من الحقوق التي أُهملت وشاع التفريط فيها، حقُّ الجار والإحسان إليه، فالإسلام ما ترك أمراً صغيراً أو كبيراً مما يصلح به حال الناس إلا حثَّ عليه ورغَّب به، ومن هذه الحقوق والآداب: حق الجار.

والجار هو كلُّ مَنْ جاورك سواء كان مسلماً أو كافراً، برَّاً أو فاجراً، محسناً أو مسيئاً.

وتَعْظُم أهمية الجار حين يكون مسلماً، وتجمعك به صلة القرابة، فهنا تجتمع ثلاثة حقوق، حق الإسلام والقرابة والجوار.

ودون ذلك من اجتمع فيه: حق الإسلام والجوار فقط، ودون ذلك أيضاً من لم يكن مسلماً وكان جاراً فهنا حق الجوار وحده.

فالجار له حقوق وآداب ينبغي مراعاتها والعمل بها، وهذه الآداب تتلخص في: الإحسان إليه، وكفِّ الأذى عنه، والصبر على إيذائه، قال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا

تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً﴾، فالله سبحانه ذكر الإحسان إلى الجار بعد ذكر عبادته وحده لا شريك له، وبعد ذكر حقوق الوالدين وذي القربى واليتامى والمساكين، ممَّا يدل على عِظَم هذه الحقوق وتأكيدها.

قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى﴾: (يعني الذي بينك وبينه قرابة). وقيل: الجار المسلم.

و﴿الْجَارِ الْجُنُبِ﴾ قال ابن عباس: (الذي ليس بينك وبينه قرابة).

وقيل: الجار المشرك. وقيل: الجار الغريب من قوم آخرين.

والصاحب بالجنب: الرفيق في السفر، وقيل المرأة.

فالإحسان إلى الجار أن ينصره ويعينه، ويعوده إذا مرض، ويشاركه في أفراحه وأتراحه، ويساعده إذا احتاج، يأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر، ويصفح عن زلاتِه، فكل هذا من الإحسان إلى الجار الذي أمرنا الله تعالى به.

والإحسان إلى الجار وكف الأذى عنه من لوازم الإيمان، فقد قال صلى الله عليه وسلم قَالَ: (وَاللَّهِ لا يُؤْمِنُ وَاللَّهِ لاَ يُؤْمِنُ وَاللَّهِ لاَ يُؤْمِنُ قِيلَ، وَمَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ الَّذِي لاَ يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَايِقَهُ). رواه البخاري. فلا يؤمن الإيمان الكامل، ولا يبلغ أعلى درجاته من كان لا يَأمن جارُه مِنْ شرِّه.

وقَالَ عليه الصلاة والسلام: (مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلاَ يُؤْذِ جَارَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا، أَوْ لِيَصْمُتْ). متفق عليه.

وقد عظَّم الإسلامُ حقَّ الجارِ وحضَّ عليه، قال صلى الله عليه وسلم: (مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُه). متفق عليه.

والإحسان إلى الجار خلق كريم، يُؤَلِّف بين القلوب، ويُشِيع المحبة والسَّلام بين الناس، ويقودهم إلى الخير والإحسان.

قال صلى الله عليه وسلم: (الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لاَ يَظْلِمُهُ، وَلا يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِماً سَتَرَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) متفق عليه.

فينبغي للجار أن يَمُدَّ يد العون والمساعدة لأخيه الجار، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَليهِ وسَلَّمَ: (خَيْرُ الأَصْحَابِ عِنْدَ اللهِ: خَيْرُهُمْ لِصَاحِبِهِ، وَخَيْرُ الجِيرَانِ عِنْدَ اللهِ: خَيْرُهُمْ لِجَارِهِ). رواه الترمذي، وابن حبان وابن خزيمة في صحيحيهما.

وكان الصحابة رضي الله عنهم يقومون بحقِّ الجار حتى مع الكفار، فكانوا من أحرص الناس على ذلك، عَنْ مُجَاهِدٍ أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرٍو ذُبِحَتْ لَهُ شَاةٌ فِي أَهْلِهِ، فَلَمَّا جَاءَ قَالَ: أَهْدَيْتُمْ لِجَارِنَا الْيَهُودِيِّ؟ أَهْدَيْتُمْ لِجَارِنَا الْيَهُودِيِّ؟ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: (مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ)، رواه أبو داود والترمذي.

فهذه هي أخلاقُ الإسلامِ وآدابُه، ما أحوجَنا إلى العودة إليها والعملِ بها، فسعادةُ المجتمع وترابطه، لا تتمُّ إلا بالقيام بهذه الحقوق والآداب التي جاء بها الإسلام.

* * * * *

كيف تنظر إلى غيرك؟

إنَّ مِنَ الناسِ مَنْ يَنظُرُ إلى غيره نظرةً مملوءةً بالشكِّ وسُوءِ الظنِّ وعَدَمِ التماسِ العُذْرِ للآخَرِينَ، فتَرَاه لا يَنظُرُ إلا إلى الجانبِ السيءِ فيهم، ويُضَخِّمُ الأخطاءَ التي عندَهُم ويُغْفِلُ الحسناتِ الموجودةَ فيهم..

إنَّ مَنْ يُعَاني مِنَ القَحْطِ والجَدْبِ الرُّوحيِّ والخُلُقيِّ إذا رأى مائةَ حسنةٍ من إنسان وسيئةً واحدةً، أغفل المائةَ حسنةٍ وقامَ بتضخيمِ السيئةِ الواحدةِ، واكتشفَ بأنَّهُ كان مخدوعاً به والآن عَرَفَهُ على حقيقتِهِ، وعَرَفَ أنَّ حسناتِه، لم تكنْ إلا للتغطيةِ على سيئاتِه!

ولا يستطيعُ أنْ يكونَ مُنْصِفاً ومُحْسِناً للظَّنِّ بغيرِهِ ويقول: إنَّ هذه السيئةَ ليست إلا زلةً غيرَ مقصودةٍ وهي مغمورةٌ في بحرِ حسناته..

إنَّ النظرةَ السليمةَ والإيجابيةَ للأشياءِ هي طريقُـكَ إلى السـعادةِ والفـلاحِ، فحـينَ تكونُ النفسُ سليمةً جميلةً ترى الأشياءَ بصورتِهَا الإيجابية، وتجعلُ من المِحَـن مِنَحَـاً وعطايا وفوائد عظيمة.

وحينَ يكونُ المعدنُ أصيلاً، والقلبُ صافياً سليماً، فلَنْ تجدَ مِنْ صاحبِهِ إلا خيراً عميماً، وفضلاً جسيماً..

وحين يكون الأصلُ الشريفُ معدوماً، والباطنُ خواءً فارغاً مذموماً، والإحسـاسُ بالجمال مفقوداً، فلا تنتظرْ إلا شراً مَهِيناً وضلالاً مبيناً.

إنَّ المـؤمنَ لا يَظُـنُّ بأخيـه إلا خـيراً، ولا يُفَسِّرُ تَصَرُّفَاتِ غـيرِهِ إلا على أحسـنِ المحاملِ، وكيفَ لا يكونُ حَسَنَ الظنِّ بغيره وهو يقرأُ قولَ الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾، وهو يَسمَعُ قولَ النبيِّ عليـه الصـلاةُ والسلام: (إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الحَدِيثِ).

فحتى ترتاحَ نفسُك، ويهدأَ ضميرُكَ، لا بُدَّ أنْ تكونَ واسعَ الصَّدْرِ، فأعقلُ النـاسِ وأسعدُهُمْ هو أعذرُهُمْ للناس، وأبعدُهُمْ عَنِ العقلِ والحكمةِ هـو أسرعُهُـمْ لَومـاً وأقلُّهـم تحقُّقاً وتثبُّتاً فيما صَدَرَ عنهم.

فما أجملَ أنْ يَعْذُرَ بعضُنَا بعضاً، فأنتَ لا تَعلمُ ظُرُوفَ الآخَرِينَ الغائبةَ عنك، ولا تدري ما الذي قادَهُ إلى ذلك التصرُّفِ الذي لم يعجبْكَ.

فعِنْدَمَا تَجِدُ مِنْ أحدٍ خطأً أو موقفـاً لا يليـقُ فِعْلُـهُ، فمـا عليـكَ إلا أنْ تَلْـتَمِسَ الأعذارَ له، فقد يكونُ هناك أسبابٌ لا تَعْرِفُهَا عنه جَعَلَتْهُ يتصرَّفُ ذلك التصرُّفَ..

وكيف لا يلتمسُ العاقـلُ الأعـذارَ لغـيره، وهـو يعلـمُ أنَّ النـاسَ مطبوعـونَ على الضَّعْفِ والتقصيرِ، وهو لا يَرَى الكمالَ في نفسِهِ، فكيفَ يرجو الكمالَ ويطلبُهُ منهم؟

قال عمرُ بنُ الخطابِ رضي الله عنه: (لا تَظُنَّنَّ بكلمةٍ خَرَجَتْ مِـنْ مسـلمٍ شراً، وأنتَ تجدُ لها في الخيرِ محَمَلاً).

إنَّ إحسانَ الظنِّ بالناسِ يحتاجُ إلى كثيرٍ من المجاهدةِ للنفسِ لِيَحْمِلَهَا على ذلـك، فالشيطانُ يَجْرِي مِنَ الإِنسَانِ مَجْرَى الدَّم، ولا يَفْتُرُ ولا يَمَلُّ من التفريقِ بـينَ المسـلمينَ

والتحريشِ بينهم والتحريضِ عليهم، وأهمُّ الأسبابِ التي تقطعُ الطريقَ على الشيطان: هو إحسانُ الظنِّ بالمسلمين.

قال بَكْرُ المُزَنِيُّ: (إيَّاك مِنَ الكلام ما إنْ أصبتَ فيه لَم تُؤجَر، وإنْ أخطأتَ فيه أثِمْتَ، وهو سوءُ الظنِّ بأخيك).

وقال أبو قِلابةَ الجَرْمِي: (إذا بلغَكَ عن أخيكَ شيءٌ تَكْرَهُهُ، فالتمسْ لَهُ العُذْرَ جُهْدَكَ؛ فإنْ لم تجدْ له عُذْراً، فقل في نفسك: لعلَّ لأخي عُذْراً لا أعلَمُهُ).

إنَّ سوءَ الظنِّ بالآخرين إنما يَنشَأُ من: الغرورِ بالنفسِ والإعجابِ بها، والازدراءِ للغير وانتقاصِهم، ومن هنا كانتْ أولُ معصيةٍ لله هي: معصيةُ إبليسَ، وأساسُها: الغُرُورُ والكِبْرُ حينَ قال: ﴿أنا خيرٌ مِنه﴾.

فطوبى لمن اشتغلَ بِعُيُوبِ نفسِهِ وإصلاحِهَا، وابتعدَ عَنِ النظرِ في عُيُوبِ غيرِهِ، فمن شَغَلَ نَفْسَهُ بعيوبه، لم يجدْ وقتاً ولا فِكْراً يَشْغَلُهُ في الناس وسوءِ الظن فيهم.

وقد نَهَى النبيُّ صلى الله عليه وسلم عن تَتَبُّعِ عَوْرَاتِ الناسِ فقال: (لا تَغْتَابُوا المُسْلِمِينَ، وَلا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنْ اتَّبَعَ عَوْرَاتِهِمْ، يَتَّبِعُ اللهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ يَتَّبِعِ اللهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ فِي بَيْتِهِ).

وذَكَرَ سُفْيَانُ بنُ حُسَيْنٍ رجلاً بسُوءٍ، عِنْدَ إِيَاسِ بْنِ مُعَاوِيَةَ فَجَعَلَ إِيَاسُ يَنْظُرُ فِي وَجْهِهِ ولا يَقُولُ شَيْئاً حَتَّى فَرَغَ، فَقَالَ له: أَغَزَوْتَ الدَّيْلَمَ؟ قال: لا. قَالَ: فَغَزَوْتَ السِّنْدَ؟ قال: لا. قَالَ: فَغَزَوْتَ الْهِنْدَ؟ قال: لا. قَالَ: فَغَزَوْتَ الرُّومَ؟ قال: لا. قَالَ إياس: (فَسَلِمَ مِنْكَ الدَّيْلَمُ وَالسِّنْدُ وَالْهِنْدُ وَالرُّومُ، وَلَيْسَ يَسْلَمُ مِنْكَ أَخُوكَ هَذَا) فَلَمْ يَعُدْ سُفْيَانُ إِلَى ذَلِكَ.

إنَّ المؤمنَ يُحِبُّ الخيرَ للناسِ جميعاً، ولا يرجو الخيرَ لنفسه فقط، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: (إِنِّي لآتِي عَلَى الآيَةِ مِنْ كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَلَوَدِدْتُ أَنَّ جَمِيعَ النَّاسِ يَعْلَمُونَ مِنْهَا مَا أَعْلَمُ مِنْهَا، وَإِنِّي لأَسْمَعُ بِالْحَاكِمِ مِنْ حُكَّامِ الْمُسْلِمِينَ يَعْدِلُ فِي حُكْمِهِ فَأَفْرَحُ بِهِ، وَلِعَلِّي لا أُقَاضِي إِلَيْهِ أَبَداً، وَإِنِّي لأَسْمَعُ بِالْغَيْثِ قَدْ أَصَابَ الْبَلَدَ مِنْ بِلادِ الْمُسْلِمِينَ فَأَفْرَحُ، وَمَا لِي بِهِ مِنْ سَائِمَةٍ).

وهذا أبو دجانةَ رضي الله عنه، دخل عليه زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ في مرضه، ووجهُهُ يتَهَلَّلُ! فقال له: مَا لَكَ يَتَهَلَّلُ وَجْهُكَ؟

فقال: (مَا مِنْ عَمَلِ شَيْءٍ أَوْثَقُ عِنْدِي مِنَ اثنَتَيْنِ: أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكُنْتُ لا أَتَكَلَّمُ فيمَا لا يَعْنِينِي، وَأَمَّا الأُخْرَى: فَكَانَ قَلْبِي لِلْمُسْلِمِينَ سَلِيماً).

وكَانَ الشيخ مَعْرُوفٌ الْكَرْخِيُّ رحمه الله عَلَى الدِّجْلَةِ وَمَعَهُ أصحابه، إِذْ مَرَّ أَقْوَامٌ أَحْدَاثٌ فِي زَوْرَقٍ يُغَنُّونَ وَيَضْرِبُونَ بِالدُّفِّ، فقالوا لَهُ: يَا أَبَا مَحْفُوظٍ، أَمَا تَرَى هَؤُلاءِ فِي هَذَا الْبَحْرِ يَعْصُونَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ، ادْعُ اللهَ عَلَيْهِمْ، قَالَ: فَرَفَعَ يَدَهُ إِلَى السَّمَاءِ، فَقَالَ: (إِلَهِي وَسَيِّدِي، اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ أَنْ تُفَرِّحَهُمْ فِي الآخِرَةِ، كَمَا فَرَّحْتَهُمْ فِي الدُّنْيَا)، فَقَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ: إِنَّا سَأَلْنَاكَ أَنْ تَدْعُوَ عَلَيْهِمْ، وَلَمْ نَسْأَلْكَ أَنْ تَدْعُوَ لَهُمْ، فقَالَ: (إِذَا فَرَّحَهُمْ فِي الآخِرَةِ تَابَ عَلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا، وَلَمْ يَضُرَّكُمْ شَيْءٌ).

إنَّ المؤمنَ العاقلَ ينظر إلى حسناتِ الناسِ وإيجابياتِهم وينمِّيها، ولا يضخِّمُ سيئاتِهم ويُغْفِلُ حسناتِهم، وقد ضَرَبَ النبيُّ عليه الصلاة والسلام أروعَ الأمثلةِ في ذلك، فعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه أَنَّ رَجُلاً عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم كَانَ اسْمُهُ عَبْدَ اللهِ، وَكَانَ يُضْحِكُ رَسُولَ اللهِ، وَكَانَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم قَدْ جَلَدَهُ فِي الشَّرَابِ فَأُتِيَ بِهِ يَوْماً فَأَمَرَ بِهِ فَجُلِدَ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: اللَّهُمَّ الْعَنْهُ مَا أَكْثَرَ مَا يُؤْتَى بِهِ. فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: (لاَ تَلْعَنُوهُ، فَوَاللهِ مَا عَلِمْتُ إلا أَنَّهُ يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَه).

لقد قال عليه الصلاة والسلام عن ذلك العاصي لله: (لاَ تَلْعَنُوهُ، فَوَاللهِ مَا عَلِمْتُ إلا أَنَّهُ يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَه). فقد مَدَحَهُ وذَكَرَ صفةً عظيمةً وحميدةً له وهي (أَنَّهُ يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَه)، فالمعصيةُ لا تنافي أصلَ المحبةِ لله ورسولِهِ، ولكنها تنافي كمالَ المحبةِ لهما. فالعاصي لم يَخْرجْ عن الإيمانِ كلِّه، ولم يصبحْ عدواً لله ورسوله..

إنَّ بعضَ مَرْضَى القلوبِ إذا رأى سيئةً مِنْ غَيرِهِ يَقُومُ بالمُزَايدَةِ في التشنيعِ والإنكارِ عليه، يُرِيدُ أنْ يُظْهِرَ للناسِ كَمْ هُوَ وَرِعٌ وتَقِيٌّ، وقد يتجاوزُ ويَبْتَعِدُ بِتَصَرُّفِهِ عن أدنى التقوى وعن أدنى حقوقِ الأُخُوَّة، وأنَّى للسِّبَابِ والشتائم والانتقاصِ من الآخرين أن تكون دِيناً يُتَقَرَّبُ بها إلى الله تعالى..

ومن الأمثلة الرفيعة التي يعلمنا فيها النبيُّ عليه الصلاة والسلام كيف نتعامل مع الآخرين، ما ذكره عَبَّادُ بْنُ شُرَحْبِيلَ حين قال: أَصَابَنَا عَامُ مَخْمَصَةٍ، فَأَتَيْتُ الْمَدِينَةَ، فَأَتَيْتُ حَائِطاً مِنْ حِيطَانِهَا (أي بستاناً)، فَأَخَذْتُ سُنْبُلاً فَفَرَكْتُهُ فَأَكَلْتُهُ، وَجَعَلْتُهُ فِي كِسَائِي، فَجَاءَ صَاحِبُ الْحَائِطِ، فَضَرَبَنِي وَأَخَذَ ثَوْبِي، فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وسَلَّمَ، فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ لِلرَّجُلِ: (مَا عَلَّمْتَهُ إِذْ كَانَ جَاهِلاً، ولا أَطْعَمْتَهُ إِذْ كَانَ جَائِعاً أَوْ سَاغِباً)، فَأَمَرَهُ النَّبِيُّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وسَلَّمَ، فَرَدَّ إِلَيْهِ ثَوْبَهُ، وَأَمَرَ لَهُ بِوَسْقٍ مِنْ طَعَامٍ، أَوْ نِصْفِ وَسْقٍ.

فقَدْ أرشَدَ عليه الصلاةُ والسلامُ هذا الذي سُرِقَ منه أنْ يَنْظُرَ في حاجةِ هذا السارقِ، فهو لم يسرقْ إلا عن حاجةٍ وجهل، فقال عليه الصلاة والسلام لمن سُرِقَ منه: (مَا عَلَّمْتَهُ إِذْ كَانَ جَاهِلاً، ولا أَطْعَمْتَهُ إِذْ كَانَ جَائِعاً) ثم أمَرَ النبيُّ عليه الصلاةُ والسلامُ بطعامٍ إلى ذلك الذي سَرَق عن فَقْرٍ وحاجةٍ وأعطاه إياه..

إنَّ الشريعةَ الإسلاميةَ تَهْتَمُّ بالحقوقِ قَبْلَ الحُدُودِ، فقَبْلَ تطبيقِ الحُدُودِ على الناس، لا بدَّ مِنْ أداءِ الحقوقِ إليهم، ولهذا أوقفَ عمرُ بنُ الخطابِ رضي الله عنه إقامةَ حدِّ السرقَةِ في عامِ الرَّمَادَةِ حين عمَّتِ المجاعةُ، لأنَّ السارقَ قد يكونُ مُضطَراً، والحدودُ تُدْرَأُ بالشبهاتِ.

ولم يقطعْ عمرُ بنُ الخطابِ كذلكَ عِنْدَمَا سَرَقَ غِلْمَانٌ لحاطبِ بنِ أبي بَلْتَعَة ناقةً لرجلٍ من مُزَيْنَةَ، فقَدْ أمَرَ بِقَطْعِ يَدِهِمْ في بدايةِ الأمرِ، ولكنْ حينَ تبيَّنَ له أنَّ سيِّدَّهم هو الذي كان يُجِيعُهُم، دَرَأَ عنهمُ الحدَّ، وغرَّمَ سيِّدَّهم ضِعْفَ ثمنِ الناقةِ تأديباً له.

وهكذا تَظْهَرُ عَظَمَةُ هذا الدينِ الإسلاميِّ، إنه دينٌ يَكْفُلُ الحقوقَ ويُراعي احتياجاتِ الناس، ويُحَقِّقُ مصالحَهُم، ويُسْعِدُهُم في الدنيا والآخرة.

أيُّها المؤمنون، لقد كانَ النبيُّ عليه الصلاةُ والسلامُ يَنْظُرُ إلى جوانِبِ التميُّزِ في أصحابِهِ، فيُنَمِّيهَا ويُبَارِكُهَا، فقد قال لأحَدِ أصحابِهِ: (إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ، الْحِلْمُ وَالأَنَاةُ). فقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَنَا أَتَخَلَّقُ بِهِمَا؟ أَمِ اللهُ جَبَلَنِي عَلَيْهِمَا؟ قَالَ: (بَلِ اللهُ جَبَلَكَ عَلَيْهِمَا). فقَالَ: (الْحَمْدُ للهِ الَّذِي جَبَلَنِي عَلَى خُلُقَيْنِ، يُحِبُّهُمَا اللهُ وَرَسُولُهُ).

وقَالَ عليه الصلاةُ والسلامُ عن الصحابيِّ عبدِ اللهِ بنِ عمرَ رضي الله عنهما: (نِعْمَ الرَّجُلُ عَبْدُ اللهِ لَوْ كَانَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ) فَكَانَ عبدُ اللهِ بنُ عمرَ بعد ذلك لاَ يَنَامُ مِنَ اللَّيْلِ إِلا قَلِيلاً).

وقال صلى الله عليه وسلم لأبي موسى رضي الله عنه: (لَوْ رَأَيْتَنِي وَأَنَا أَسْمَعُ قِرَاءَتَكَ الْبَارِحَةَ، لَقَدْ أُوتِيتَ مِزْمَاراً مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ). فَقَالَ: لَوْ عَلِمْتُ مَكَانَكَ لَحَبَّرْتُهُ لَكَ تَحْبِيراً).

هَكَذا كانَ عليه الصلاةُ والسلامُ يتعامَلُ مع أصحابِهِ، وهكذا يُعَلِّمُنَا كيفَ تكونُ الحِكْمةُ في التعامُلِ، وكيف تكونُ التربيةُ والتعليمُ..

إنَّ المؤمنَ متفائلٌ، لا يَعْرِفُ اليأسُ طريقاً إلى قلبِهِ، لأَنَّهُ مُوقِنٌ بوعدِ اللهِ تعالى، فهو يَعلَمُ أنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْراً، وأنَّ مَعَ المِحَنِ تكونُ المنحُ والعَطَايا، فالتفاؤل روحٌ تسري فيه، فتجعلُهُ قادراً على مواجهَةِ الحياة على أحسنِ وجهٍ وسبيل، فالمتفائلُ يَنظُرُ إلى الجانبِ المُشْرِقِ ويتوقَّعُ الخيرَ والأفضلَ، فالتفاؤُلُ يُبْعِدُهُ عَنِ الكَسَلِ، ويُفَجِّرُ فيه الطاقاتِ العظيمةَ، فيكون منه العطاءُ والخيرُ..

* * * * *

كثرة المشاكل والعقبات قد تنتج عقلاً ذكياً في ابتكار الحلول..

* * * * *

ما أجملَ العلمَ ممزوجاً بالروحانيات والإيمانيات، وما أجملَ الروحانيات محكومة بالعلم والمعرفة..

* * * * *

يقولون في أمثالهم: (بعد الأب، لك الرب)، إشارة إلى أنك لن تجد بعد الأب من يقوم مقامه..

ولكنني أقول: لك الرب قبل الأب وبعد الأب وفي وجوده..

فنعمة الأم والأب والرحمة التي وضعها الله فيهم، لم تأتِ إلا من الله الرحيم بعباده..

* * * * *

تكلم على عيوب غيرك كما تشاء، لكن بعد أن تفرغ من عيوبك كلها وتعالجها.

* * * * *

عجيب ذلك الذي يلحد ليعيش في شهواته كما يشاء، لماذا لا يحتفظ على الأقل بتوحيده وإسلامه، فيكون له ما ينجيه في نهاية الأمر ويخرجه من النار!

* * * * *

جميلٌ أنْ تكونَ واثقاً بنفسك، ولكن احذر أن تؤدي بك هذه الثقة الى الغرور.

وجميلٌ أنْ تنقدَ ذاتك، ولكن احذر أن يصل بك ذلك إلى تحطيم النفس وفقدان الثقة فيها.

فالمغرور لا يمكن أن يتقدم أو يتطور، وفاقد الثقة لا يمكن أن يعمل أو ينجز شيئاً..

فلا بد من الثقة من غير غرور، والنقد من غير تحطيم.

* * * * *

متعة الأحلام والأهداف تكون في السعي إلى تحقيقها، وليس في اكتمالها، فتظل الأهداف جميلةً ورائعةً طالما أنها لم تتحقق بشكل كامل..

فإذا تحققتْ بشكل كامل أصبحتَ بحاجة إلى أهداف أخرى تسعى إلى وصولها، لتشعر أن لحياتك معنى يستحق أن تعيش من أجله..

* * * * *

عندما تتمكن المحبة في القلب، يهون ما عداها من خلاف، وتصغر الأخطاء في عين الطرف الآخر.

ومن هنا كان تعميق المحبة ضرورياً للنجاح وصلاح الحياة.

* * * * *

تراودني أحياناً الحكمة التي ذكرها الشيخ ابن عطاء الله رحمه الله: (ادْفِنْ وجودَك في أرضِ الخمولِ فما نَبَتَ مما لم يُدْفَنْ لا يَتِمُّ نَتَاجُه).

فأقول لنفسي: لماذا لا أدفن وجودي في أرض الخمول وأترك الكتابة والفيس بوك وغيره، حتى أتفرغ للتعلم والقراءة..

لكنني أجد في نهاية الأمر أن التوازن مطلوب بين التحمُّل والأداء، وبين الأخذ والعطاء، وبين العُزْلة والمخالطة..

حتى يتعود الإنسان من الصِّغَر على العطاء والأداء وتكون له تجربة ويستفيد من أخطائه ويصححها.

على أن تكون النسبة الأكبر هي للتحمُّل والتعلُّم والنسبة الأقل للأداء.

وحتى لا يكون الإنسان بعيد العهد بالعمل والإنجاز، فالعضلات التي لا تُقَوَّى وتُمَرَّن تَضعف وتضمر.

* * * * *

في الثورة الكلُّ يضحِّي، فهذا يضحي بماله، وذاك بنفسه، والآخر بوقته، وآخر بعلمه وخبرته..

والبائس هو الذي ضحَّى بدِينه.

* * * * *

مهما بلغت من العلم عليك أن تعتقد في نفسك أنك لا زلـت في بدايـة الطريـق وأوله، فهذا ما يحفزك على الاستزادة والاستمرار في التعلم، فالعلم بحر لا ساحل له..

أما من يحسب أنه قد اكتمل، فقـد حكـم على نفسـه بـالوقوف في مكانـه وعـدم ازدياده وتقدمه.

* * * * *

هناك علاقة عكسية بين (الإيمان) و(الأنانية وسائر الأخلاق المذمومـة)، فكلمـا زاد الإيمان نقصت الأنانية والأخلاق السيئة!

وهناك علاقة طردية بين الإيمان والسعادة، فكلما زاد الإيمان زادت السعادة.

* * * * *

مال قليل يبارك الله فيه، خير من مال كثير لا بركة فيه.

فكم ممن يملك الأموال الكثيرة، ولكنه لا يشعر بالبركة فيها، وقد يقـترض مـن هذا وذاك، ويعمل في الليل والنهار ليسد احتياجاته.

وهناك من يملك القليل ولكنه يكفيه ويزيد عن حاجته..

ولعلَّ من أهـم أسـباب البركـة في المـال: أن يأخـذه مـن حلِّـه وينفقـه في حلِّـه، ويتصدق مما عنده، ويؤدي شكر ما أعطاه الله إياه، ولا يستكبر على غيره بما عنده مـن مال..

* * * * *

المجانين يحسبون العاقل مجنوناً..

ولا يفيق العاقل من جنونه (عندهم) إلا إذا صار مثلهم..

فهم يرون أنفسهم أنهم هم العقلاء، ولا يدركون أنهم مجانين إلا إذا أفاقوا..

فالعاقل لا يحرص على أن يعتبره المجانين عاقلاً، لأنه سيكون عاقلاً بمفهومهم.

* * * * *

ما أجملَ أنْ تكون كالنهر الجاري الذي يجدد ماءه فيبقى طاهراً في نفسه مطهِّراً لغيره.

أو كالسحاب العالي الذي لا يمطر إلا عذباً نقياً..

أو كالبحر العميق الذي لا يكدره كثرة الدِّلاء، ولا يغيره اختلاف ما يَرِد عليه.

* * * * *

كثرة النقد قد يكون سببه أزمة نفسية، أو مشكلة شخصية، أو عدم رضى عن الذات.

* * * * *

تؤدي المبالغة في المدح والتشجيع إلى العُجْب والغرور..

ويؤدي التقصير في التشجيع والتقدير إلى تكوين شخصية مهزوزة وغير واثقة من نفسها، وغير قادرة على الإنجاز والعطاء..

فينبغي الابتعاد عن الإفراط في المدح وعن التفريط فيه.

* * * * *

تأملت في أكثر صفة تجعل الإنسان محبوباً، فوجدت أنها التواضع والبساطة..

وتأملت في أكثر صفة تجعل الناس يفرُّون من صاحبها فإذا هي العُجْب والتكلُّف!

* * * * *

الصادق في محبته يَظهر صدقه في المحبة من غير أن يُكثر من الكلام في التعبير عن حبه..

والكاذب في محبته قد يبالغ في التعبير عن حبه، ومع ذلك لا تجده محبوباً من الطرف الآخر.

كن صادقاً في محبتك ثم لا تهتم بعدها بإظهار حبك، فهو ظاهر لا محالة!

ومهما تَكن عِندَ امرئٍ مِن خليقةٍ... وإن خَالها تَخفَى على الناسِ تُعلَمِ

* * * * *

يقولون: (لا شكر على واجب)، مع أن الواجب هو أفضل الأعمال وأولاها بالشكر، فإذا كان الواجب لا يشكر عليه فعلى ماذا يكون الشكر؟

ألم يقل الله تعالى في الحديث القدسي: (وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ).

فالله تعالى يشكر عباده على طاعته وهي واجبة عليهم، بالتوفيق والحسنات والإكرام في الدنيا والآخرة، قال سبحانه: ﴿وَكَانَ اللهُ شَاكِراً عَلِيماً﴾.

وما أروع ما قَالَه ابْن طباطبا:

لا تُنْكِرَنْ إهداءَنا لَك منطقاً ... مِنْك استفدنا حُسْنَهُ ونِظَامَهُ

فَاللهُ عزَّ وَجل يشْكر فِعْلَ مَنْ ... يَتْلُو عَلَيْهِ وحيَهُ وَكَلامَهُ

إذا كان حقاً (لا شكر على واجب)، فمعنى ذلك أن لا نشكر المعلم على تدريسه، ولا الطبيب على معالجته، ولا نشكر الوالدين على تربيتهم، ولا الأولاد على برهم ولا كل من يقوم بواجبه!

قال صلى الله عليه وسلم: (لا يَشْكُرُ اللهَ مَنْ لا يَشْكُرُ النَّاسَ).

نعم الذي يفعل واجبه عليه أن ينتظر الجزاء من الله ولا يحرص على شكر الناس له، ولكنه يشكر من يقوم بواجبه.

* * * * *

قد تكون المحبة بعد عداوة وبغض، وقد يكون البغض بعد محبة ومودة، والسبب في ذلك التحول هو معرفة الإنسان على حقيقته، فمعرفته قد تؤدي إلى محبته أو بغضه.

* * * * *

لماذا لا تفرح الآن!

الذكريات التي تحن إليها الآن، لم تكن راضياً عنها حين كانت حاضراً..

والأيام التي تعيشها الآن، ستكون بعد فترة من الذكريات التي قد تحن إليها..

فلماذا لا تفرح بالأيام إلا بعد أن تمضي؟ ولا تعرف فضلها إلا بعد أن تذهب؟

فافرح في هذه الساعة وفي هذه الأيام التي تعيشها الآن فقد يأتي يوم تحن فيه إليها وتتمنى أن تكون فيها.

وسيأتي يوم وتكون الدنيا كلها عبارة عن ذكريات

فهل سنتمنى العودة إليها؟

إذا كنا في الجنة ـ جعلنا الله كذلك ـ فلن نتمنى العودة إلى الدنيا.

* * * * *

كثير من الناس لا يعرفون فضل الشيء إلا إذا ذهب، ولا يرون جماله إلا بعد أنْ يبتعدوا عنه، ولا يدركون أهميته إلا إذا فقدوه..

* * * * *

النفوس الصغيرة هي التي تضيق ذرعاً بأي تفوق وإبداع من غيرها، أما النفوس العظيمة فهي التي تسعى في أن تجعل غيرها متفوقاً وناجحاً، حتى لو عرفت أنه سيتفوق عليها.

* * * * *

هناك من يحسن إليك ليس لأنه يحبك، ولكن لأنه يحب نفسه

فقد يتخلى عنك إذا لم يعد له مصلحة عندك..

* * * * *

من أسباب سوء الخلق: أن يتكل أحدهم على محبة الناس له، أو على إحسانه للناس..

فيحسب أنَّ سيئاتِه ستكون مغمورةً في بحر حسناتِه، ولا يدري أن بعض السيئات ـ وإن كانت قليلة ـ فقد تكون شديدة التركيز فتفسد الحسنات الكثيرة.

فقولٌ معروفٌ ومغفرة خيرٌ من صدقةٍ يتبعها أذى.

* * * * *

أسرعَ كثيراً ليلحق بموعد القطار، وبعد أن وصل رأى القطار أمامه قد مشى، فتألم كثيراً وتمنَّى لو وصل قبل دقيقة واحدة، ولكنه عرف بعد ذلك أن القطار قد انقلب بمن فيه وكان هذا آخر عهدهم بالدنيا..

فإذا فاتك قطار من قطارات الحياة بعد أن بذلت ما عليك فلا تحزن، فربما كانت نجاتك وسلامتك في عدم ركوبه!!

* * * * *

يقال: (الذاكرة ملكة مستبدة) فهي تنسى بعض الأمور وتتذكر الأخرى من غير سبب ظاهر!

وقد تنسى أموراً قريبة العهد بها، وتتذكر أموراً أخرى حصلت من زمن بعيد.

إلا أن الذاكرة تحتفظ بالأمور التي فيها فرح عظيم أو حزن شديد أو أمر غير مألوف، أما الأمور العادية فتُنْسَى بسرعة،

وكذلك الأصدقاء والمعارف من كان على درجة عالية من المحبة والصداقة فيبقى حاضراً في الذهن بخلاف الأصدقاء العاديين..

وكثير من المدرسين يتذكرون الطلاب المتفوقين جداً والمشاغبين جداً وقد ينسون غيرهم.

* * * * *

إذا كنت عاشقاً للفضيلة، فستنطلق في سبيلها وتحرص على تحقيقها ولن يردك عنها من الناس رادّ، أو يصدك عن وصالها صادّ، وهل يستمع العاشق إلى كلام من يلومه وهل يبالي بعُذَّاله؟

وهل يبالي النجم بمن ظنه صغيراً؟ أو هل تغيب الشمس عمن أنكرها وجحد ضيائها؟

إن من ينتظر من الناس أن يؤيدوه ويشدوا أزره ويشجعوه فهو ضعيف في نفسه، يريد أن يستمد قوته من غيره ممن قد يكون حاسداً له ناكراً لفضله، ينتظر سقوطه ليطير بذلك فرحاً.

* * * * *

بساطة بدون سطحية، وعمق بدون غموض:

احرص في طرحك على البساطة وتجنب معها السطحية..

واحرص على العمق وتجنب معه الغموض..

وبهذا يكون الكلام عميقاً من غير غموض، وبسيطاً من غير سطحية.

* * * * *

حياتنا كلها بتفاصيها وأحداثها مثل الرواية لا تزال تكتمل فصولها، فالأشخاص المهمون مثل (أبطال الرواية)، وهدفنا في الحياة مثل (هدف الرواية)، لا ندري ما خاتمة هذه الرواية، اللّهُمَّ اجعل (حبكة الرواية) هي خير أيامنا.

* * * * *

من الناس من يتسولون المال بعاهاتهم الجسدية، ومنهم من يتسولون المشاعر والعواطف بعاهاتهم النفسية بإظهار آلامهم وأحزانهم المصطنعة.

* * * * *

إذا أصابته مصيبة قال لماذا جاءتني أنا من بين غيري من النـاس؟ لكنـه إذا أتتـه نعمة لا يقول: لماذا جاءتني أنا من بين غيري من الملايين الذين لم تأتهم هذه النعمة!

أليس الكريم هو من إذا رأى حسنة نشرها وإذا رأى سيئة دفنها؟ فما بال البعض إذا جاءته مصيبة غضب واعترض وإذا أتته نعمة سكت ودفنها..

* * * * *

كثيراً ما يفلح الإنسان المغمور، مسـتور الحـال، أكـثر ممـن يعـرف النـاس نسـبه وحسبه ووجاهته؛ لأن مستور الحال لا يتَّكِل إلا على عمله فيبالغ في إحسـانه وإتقانـه، أما الذي يتكل على ماله أو وجاهته فسيقل اهتمامه بعمله بقدر ما يتكل عليه من أمـور أخرى..

* * * * *

شتان بين من يسيطر على نفسه وبين من تسيطر عليه نفسه.

* * * * *

كلما ازداد ارتفاع الإنسان كان ضرر سقوطه أكبر، فبالغ في الحـذر مـن السـقوط أيها المرتفع.

* * * * *

كلُّ صفقة يمكن أن تكون رابحة عند البيع، إلا الدِّين، فإنه لا يباع إلا بخسـارة عظيمة..

* * * * *

الحقيقة وإن كانت مرة، ففائدتها عظيمة وكبيرة.

والباطل وإن كان في بعضه حلاوة فستكون عاقبته: الحسرة والمرارة.

* * * * *

السعي إلى الكمال مطلوب، لكن المبالغة والإفراط في حب الكمال والمثالية الزائدة يحول دون إنجاز الكثير من الأعمال.

* * * * *

المتفائلون قسمان، قسم لا يعرف الواقع الذي قد يكون سيئاً، فتفاؤله عن جهل وعدم إدراك.

وقسم يعرف الواقع السيء لكنه يعلم أن لكل داء دواءً ولكل مشكلة حلاً، وأنه مع العسر يأتي اليسر. فهذا هو المتفائل بحق.

* * * * *

حل أي ظاهرة لا بد أولاً من تنمية الوازع النفسي والديني عند الإنسان وإيقاظ ضميره، لكن إذا لم ينفع معه الوازع ولم يكن عنده ضمير، فلا بد من قانون يردع.

* * * * *

كثيراً ما أجد الفارغ من الجوهر يبالغ في تحسين المظهر

* * * * *

كثرة المادة مع ضعف الإيمان شقاء، وقوة الإيمان مع قلة المادة سعادة.

وكثرة المادة مع قوة الإيمان: جمع بين الحسنيين.

* * * * *

(الأخلاق الجيدة إنما تظهر في أوقات القوة)، فـلا تحكـم على أحـد بأنـه حسـن الخلق وهو في حالة ضعف، فقد يكون ممن يتمسـكن حـتى يـتمكن، فحـتى تعـرف الإنسان انظر إليه وهو في حالة من القوة والاستغناء، فهنا تظهر أخلاقه على حقيقتها..

* * * * *

إياك أن تغتر بظواهر الأشياء وحلاوتها الظاهرة، وانظر إلى حقائق الأمور

إن الأفاعي وإن لانت ملامسها ... عند التقلب في أنيابها العطب

* * * * *

الأخلاق الحسنة دليل على الإيمان

الأخلاق الحسنة أكبر دليل على قوة الإيمان بالله وسلامة العقيدة، قال صـلى الله عليه وسلم: (مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَـلاَ يُـؤْذِ جَـارَهُ، وَمَـنْ كَانَ يُـؤْمِنُ بِـاللهِ وَاليَوْمِ الآخِـرِ فَلْيُكْـرِمْ ضَـيْفَهُ، وَمَـنْ كَانَ يُـؤْمِنُ بِـاللهِ وَاليَـوْمِ الآخِـرِ فَلْيَقُـلْ خَـيْراً، أَوْ لِيَصْمُتْ). فقد جعل النبي عليه الصلاة والسلام هذه الأخلاق الحسنة من الإيمان.

فالأخلاق الحسنة مرآة تعكس سلامة القلب وصفاء النفس وحبها للخير..

ولهذا هناك علاقة عكسية بين (الإيمان) و(الأنانية وسائر الأخـلاق المذمومـة)، فكلما زاد الإيمان نقصت الأنانية والأخلاق السيئة!

فهل عرفت لماذا يبلغ الرجل بحسن خلقه درجة الصائم القائم؟ ولماذا قـال عليـه الصلاة والسلام: (أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ لِمَنْ حَسُنَ خُلُقُهُ)؟

فلا يكون هذا الأجر والثواب العظيم إلا على عمل جليل..

* * * * *

قيمة الإنسان بالمعاني التي يُـدْرِكها، والآثـار الـتي يتركهـا، ولـيس بـالأموال الـتي يملكها، أو الألقاب التي يحملها.

* * * * *

العود لولا اشتعال النار فيه ما كان يُعرف طِيبُ عَرْفه، والذهب لو لم يدخل الكير لما خرج ذهباً خالصاً، ولا يظهر حلم الحليم بدون جهل الجاهلين، ولا تختبر قوة اليقين بمثل المصائب والأحداث المؤلمة.

* * * * *

بين المصالح والمبادئ

قد تتعارض مصالح الإنسان مع مبادئه، ولا بد لمن يريد المحافظة على مبادئه أن يضحي بشيء من مصالحه.

ومتعة المحافظة على المبادئ أعظم من متعة الحصول على المصالح.

* * * * *

لكل أمر قدره المناسب

الشمس التي تضيء الأرض إذا اقتربت أكثر مما هي عليه أحرقتها كلها. فتتحول من نعمة لأهل الأرض إلى نقمة. فلكل شيء قدره المناسب، بُعْداً وقُرْباً، كمَّاً وكيفاً.

* * * * *

خلود الذكر

لماذا يحبُّ الناس خلود الذِّكْر بعد الموت، مع أن الإنسان إذا مات لم يعد له همّ في هذه الدنيا بل همُّه سيكون في حياته الأخرى التي يعيشها..

وماذا سيستفيد إذا ذكروه في الدنيا أو لم يذكروه؟

* * * * *

الحرية هي القدرة على الاختيار، أو هي تحديد ذاتي، فمن ألزم نفسه بشيء فهو حر حتى لو كان في العمل بعض التقييدات، لأنـه هـو الذي اختـار ذلـك. وفي بعـض أنـواع الحريات: عبودية. وفي بعض أنواع العبودية: حرية.

* * * * *

السماء تعلمنا أنه كلما علا الإنسان عليه أن يكون أكثر صفاء.

* * * * *

البحر والإنترنت

مَثَل الإنترنت ومن يحمِّل الأشياء منه كمَثَل البحـر يصـيد النـاس فيـه الأسـماك ويستخرجون منه الأصداف واللآلـئ، فالمتصـفح للإنترنـت كالسـابح في البحـر، والذي يحمِّل الأشياء منه كالصيَّاد يصيد الأسماك من البحر، والذي يبحث فيه كالغـواص الذي يغوص في البحر ويستخرج منه ما يريد.

وفي البحر ظلمات بعضها فوق بعض، وكذلك في الإنترنـت المواقـع المظلمـة الـتي تبعد العبد عن ربه، وتجعل قلبه في ظلمات بعضها فوق بعض.

والبحر يأكل الناس منه لحماً طرياً، ويسـتخرجون حليـة يلبسـونها، والإنترنـت يأخذ الناس منه جديد الأخبار، وطرائف المعاني.

وفي البحر يتوالد الأسماك ويتكاثرون، وفي الإنترنت يضع النـاس فيـه مـا أنتجـوه فيه من أعمال وما ولدوه من بنات الأفكار..

والبحر يغرق فيه بعض النـاس فتنـتهي حياتـه في الدنيـا، والإنترنـت يغـرق فيـه بعضهم بالمعاصي والذنوب والآثام، فلا ينجو إلا بفضل من الله ورحمة.

وهناك البحر الميت الذي لا يمكـن العيش فيـه لكـثرة ملوحتـه، وهنـاك المواقـع الفاسدة المنحرفة، وهناك المليئة بالفيروسات فلا تستطيع التصفح فيها.

وبعض الأماكن في البحـر ممنـوع فيهـا السـباحة، وكـذلك في الإنترنـت مواقـع محجوبة لا يسمح بتصفحها إلا بالتحيل عليها.

وفي البحر بعض الأسماك قد تؤذي من يقترب منها أو يمسكها، وفي الإنترنت ملفات فيها فيروسات مؤذية للجهاز.

وفي البحر الأسماك والحيتان التي تأكل الناس، وفي الإنترنت المواقع التي تأكل أوقات الناس وتبعدهم عن مبادئهم.

وفي البحر ماء عذب سائغ شرابه، وفيه الملح الأجاج، وفي الإنترنت كذلك ما يسوغ لذوي القلوب السليمة، والاعتقادات القويمة، والفِطَر المستقيمة، وفيه ما لا يمكن استساغته من الضلالات والانحرافات..

فالبحر هو البحر وإنما يختلف السابح فيه، فمن منتفع به ومن متضرر، فمن أحسن استخدامه كان نفعاً له وخيراً.

* * * * *

تعجب حين تراه يضحي بكل ما يستطيع في سبيل إسعاد غيره..

وتعجب حين تغيب الحسابات المادية ولا يبقى لها وجود..

وتعجب حين تجده بعد كل ذلك، لا ينتظر منه جزاءً ولا شكوراً..

وتعجب حين تختلف نظرته إلى الأمور، فتتغير الكثير من أفكاره..

ولكن العجب يزول حين تعرف أن الحُبَّ يقلب الموازين! فيجعل التعبَ في سبيلِ المحبوب راحةً، ويبدِّل الشقاءَ من أجله نعيماً.

* * * * *

الحاجة أمُّ الاختراع، والحُبُّ أبو الإبداع..

* * * * *

في الحُبِّ حيث تغيب الحسابات المادية ولا يبقى لها وجود..

* * * * *

الذي يريد أن يفهم الحياة وما يحدث فيها من غـير أن ينظـر مـن زاويـة الحُـبِّ، سيعجز عن فهم الكثير من الأمور..

* * * * *

إذا جاءته نعمة قال: إنما أوتيته على علم، ولكنه حين يصاب بمصيبة يقول: قضاء وقدر لا حول لي ولا قوة به..

مع أن الأقدار فيها النعم والمصائب، والابتلاء يكون بالخير والشر.

وكون الشيء قدَراً لا يعني أنه ليس له أسباب يتحمل الإنسان مسؤوليتها.

* * * * *

الذي يجعل من أسرار الآخرين سلاحاً يوجهه ضدهم، عليه أن لا ينتظر منهم أن يثقوا به مرة أخرى..

* * * * *

ليس هناك ما يجري عبثاً في هذه الحياة.. تجد من يغضب ويحزن لما يحصل معه في الحياة من منغصات، مع أنها ليست إلا صدى لما عمله ويعمله..

فلن يحصد الإنسان إلا ما زرع، ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلَّا الإِحْسَانُ﴾، ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ﴾، ﴿وَلَا يَحِيقُ المَكْرُ السَّيِّئُ إلا بِأَهْلِهِ﴾.

نعم، ليس كل ابتلاء سببه الأخطاء والذنوب، فمنه ما يحصل لرفعة الدرجات

* * * * *

كم من شخص يرى غيرَه مسكيناً يستحق الشفقة، والآخر يراه هو الأَوْلى منه بالشفقة عليه..

قيل لهوميروس: ما أصبرك على عيب الناس لك..

قال: لأنَّا استوينا في العيب، فأنا عندهم مثلهم عندي!

* * * * *

(قوة الإيمان) لا تُعرَف في أوقات الرخاء، فأوقات الرخاء يستوي فيها قوي الإيمان وضعيفه..

و(صِدقُ الاتباعِ) لا يَظهر فيما للنفس هوى فيه،

و(عمق المحبة) لا يَظهر في الظروف الاعتيادية والأحوال المستقرة،

ففي أحلك الظروف وأصعبها يتميَّز المؤمن عن غيره، وصادقُ المحبة عن مُدَّعيها، ويذهب الزبد ولا يبقى إلا ما صَلح أصلُه، فطَابَ فَرعُه، وزَكا ثمرُه..

* * * * *

ما معنى أن لا يتحدث أحدهم إلا عن إنجازات قام بها من عشرين سنة أو أكثر..

إنه لم يجد بعد إنجازاته القديمة إنجازاً يستحق الذكر بعدها..

إنه يجد في حديثه عن الماضي سلوة وتعويضاً عن إخفاقاته أو عدم إنجازه بعد تلك الفترة.

* * * * *

كم هو الفرق كبير بين من يلتمس لك الأعذار دون أنْ تُبدي له عذرك، وبين من لا يعذرك حتى تبدي له عذرك..

ودعك ممن لا يعذر حتى مع إبداء العذر، فهذا لا يستحق الكلام عنه.

* * * * *

يدَّعي أنه يحبه ويريد مصلحته، ولكن تصرفاته معه لا تصب في مصلحته..

فإما أنه غير صادق في دعوى محبته، أو هو كالصديق الأحمق الذي يريد أن ينفعك فيضرك..

* * * * *

جميلٌ أنْ يكون الإنسان ذا لباقة وذوق أمام غيره، ولكن الأجمل أن يَحفظَه ويصون عِرْضَه حال غيابه عنه..

* * * * *

هل رأيتم أحداً يضع أمامه العقبات التي تَحُول دون توفيقه!

نعم، هناك من يفعل ذلك.. إنه العاق لوالديه..

ولا شك أن البر درجات متفاوتة، والعقوق دركات متفاوتة.

وعلى قدر زيادة البر يكون التوفيق، وعلى قدر العقوق يكون الخذلان.

وحتى لو لم يأمر الإسلام بالبر لكان العقل والخُلُق الرفيع والذوق السليم يقتضي البر.

فالعاق سقط أخلاقياً وإنسانياً قبل أن يسقط دينياً..

* * * * *

عندما تجد أحداً يُعَظِّم صاحب المال أكثر من صاحب الدين والأخلاق والعلم، فاعلم أن حبه للمال قد طغى على حبه للدِّين.

فهناك من يجعل معياره لتقدير الناس هو رأس مالهم، مع أن قيمة الإنسان ليست بما يملك، بل بما يُعطي وبما يُضَحي، وبحاله بعد أن يُعطي كيف يكون..

* * * * *

في البلدان المتخلفة، يحرصون على المناصب لأنه كلما كبر المنصب، استطاع المسؤول التنصل من عمله بشكل أكبر..

* * * * *

ما نافقَ أحدٌ إلا مِن قلة يقينه بالله تعالى أو انعدام يقينه به..
فلو أيقن أحد أنَّ مصالحه كلها بيد الله تعالى لا بيد المخلوقين لما نافق..

* * * * *

لـمَّا كثُرَ علماءُ السلطان، ذهبَ سلطانُ العلماء!

* * * * *

(الإحسان المُرَكَّب) و(الإساءة المركَّبة) مصطلحان ظهرا لي من خلال التعامل مع الناس، فالإحسان المركَّب هو الذي يعمل عملاً يجمع فيه إحسانات كثيرة، فهو (نُورٌ عَلَى نُورٍ).

و(الإساءة المركبة) هو الذي يجمع إساءات كثيرة متعددة في آن واحد، (ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ)..

فمن الإحسان المركب أن يقول أحدهم كلاماً فتجد فيه الإحسان المركب من الذوق الرفيع، والخلق العظيم، والعلم الواسع العميق، والأسلوب البليغ..

ومن الإساءة المركبة أن يقول بعضهم كلاماً جمع فيه من الإساءة الشيء الكثير من الجهل وسوء الخلق وقلة الأدب وضعف العقل.

هناك أشخاص مبدعون جداً في القدرة على الإتيان بتصرف يجمع إساءات متعددة في آن واحد، يكاد الإنسان معها يفقد قدرته على الحلم والصبر..

فالأعرابي الذي جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم يطلب المال أولاً، وبأسلوب فظ غليظ ثانياً، ولم يراع منزلة النبي عليه الصلاة والسلام ثالثاً، ولكن النبي عليه الصلاة والسلام الذي لم تزده شدة الجهل عليه إلا حِلْماً، لم يكن منه إلا أن حلم عنه

ولم يعنفه وأعطاه ما يريد.. فما كان من الأعرابي إلا أن شهد بفضل النبي عليه الصلاة والسلام وعظيم مكانته.

وهكذا لا يرشح الطيب إلا طيباً، فكل إناء بالذي فيه ينضح.

* * * * *

(ثقل الدم) ما خافه على نفسه إلا (خفيف الدم)، وما أمِنَه على نفسه إلا (ثقيل الدم).

* * * * *

ليس دائماً تُرمَى الشجرة المثمرة، فأحيانا تُرمَى الشياطين..

* * * * *

سَتُؤتِي الكلمة الصادقة ثمارها الطيبة ولو بعد حين..

* * * * *

مِنْ حقِّ البنت أن لا توافق على الزواج ممن لم تنسجم معه ولم تشعر بالارتياح إليه، ولا يصح لأحد أن يجبرها عليه. فالمحبة في القلب، ولا سلطان للإنسان على قلبه.

والنبي عليه الصلاة والسلام لم يُلزِم (بريرة) أن تحب (مغيثاً) وترضى به زوجاً، ولكنه شفع في ذلك ولما امتنعت عن ذلك تركها وشأنها..

كما أنه لا يَعيب الرجل أن لا تَقبل به امرأة ما، فذلك ليس نقصاً منه ولا منها، فالطِّبَاع والأذواق والأرواح تختلف.

* * * * *

القواعد الذهبية في السعادة الزوجية:

ـ الحب والمشارطة لا يجتمعان.

فالمحب يثق في محبوبه ولا يرضى أن يجعل بينه وبين محبوبه مشارطات.

ـ تضخيم الخلافات هو أكبر خدمة للشيطان.

فهناك الكثير من المشاكل التي تبدو كبيرة، لكنها في الحقيقة ليست كذلك، فالعاقل يحرص قدر المستطاع على تصغيرها، ويخمدها حتى تموت في مكانها..

فلا يسمح لشَرَرها أنْ يتطاير ويعظم ويزداد.

ـ عدم وجود خصوصية يفتح المجال لإفساد الآخرين.

فلا تخبر الآخرين بتفاصيل حياتك.

ـ تدخل الأهل في حلِّ الخلافات يزيدها ويعقِّد حلها. والخلافات لا بد أن تبقى بين الزوجين فقط.

ـ المصارحة والوضوح وعدم كتمان الأمر الذي يسبب إساءة من الطرف الآخر.

فقد يكون الآخر لا يقصد الإساءة ولا يدري أنه أساء.

ـ الابتعاد عن ذكر الخلافات التي حصلت في الماضي.

ـ التغافل والتجاوز عن الهفوات هو طريق الراحة.

* * * * *

الزواج من امرأة لا يعني أن مالها أصبح حلالاً للزوج..

فضلاً عمَّا في الطمع في مال الزوجة من الدناءة وقلة المروءة وفساد الذوق..

* * * * *

كثير من المشاكل والخلافات سببها: النقص في المحبة..

فتعميق المحبة هو الذي يُبْعِدُ هذه الخلافات.

* * * * *

وربما فرح الإنسان وضحك مما يَبكي منه الآخرون، وربما حزن وبكى مما يفرح منه الآخرون!

* * * * *

ليس كل ما يصلح لك يصلح لغيرك، فلا تبالغ في الحماسة لإقناع الآخرين بميولك ورغباتك..

* * * * *

كلَّما غابتْ عنك الحكمة فيما يجري حولك، تذكَّر قوله تعالى: ﴿واللّهُ يَعلَمُ وأنتُمْ لا تَعلَمُونَ﴾.

* * * * *

بعض الناس يساعدون الآخرين على الإخلاص بطريقة غير مباشرة، فهم لأن طبيعتهم النكران والجحود يجعلون الآخر إما أن يبتغي وجه الله تعالى، أو يمتنع عن عمله..

* * * * *

عجباً لمن يُحصِي حسناتِه، وهو يعلم أنَّ سيئاتِه لا تُحصَى، وحسناته مملوءة بالشوائب التي تُفسد عملَه لولا رحمة الله به.

* * * * *

ليس من الذوق أن يستنطقَ أحدٌ الأطفالَ والصغارَ ليكتشف منهم أسرار البيت.

* * * * *

ما أكثر ما يتظاهر الناس بكراهة ما يحبون، حفاظاً على مشاعرهم وكرامتهم!

* * * * *

من مزايا التغافل عن الهفوات أنه يمنع القيل والقال، ويَحُول دون تضخيم الخلافات.

* * * * *

لا تكن مبالغاً في التحفُّظ من الآخرين فينفرَ الناسُ منك، ولا تكن كثير الانبساط فيكرهَك الناس ولا يحبوا مجالستك.

* * * * *

من السهل أن تنقد تصرفات الآخرين وتكتشف أخطاءهم، ولكن التحدي هو أن تنقد ذاتَك وتكتشف أخطاءك.

فما أكثر الذين يَرون الأخطاءَ في غيرهم ولا يَرون نَفْس هذه الأخطاء في أنفسهم ولا يعترفون بها.

* * * * *

لا أخاف من الناجحين؛ لأنهم في الغالب لا يحملون عُقَداً نفسية، ولا يحبون الانتقام من غيرهم..

ولكني أخاف من الفاشل؛ لأنه كثيراً ما يخفي فشله بالإساءة إلى الآخرين والانتقاص منهم.

* * * * *

مِنَ الخزي الذي يصيب مَنْ يسيء الظن أنه يكشف عيوبه للآخرين فكل إناء ينضح بما فيه، وأنه يصاب بالغرور إذْ يظن الذكاء في نفسه حين عَرَف الآخرين على حقيقتهم، ولم يعلم أن ظنونه هي محض أوهام.

* * * * *

كان يتحدث معه بكلام مفهوم، فحسب أن ذلك الشخص قريب من مستواه العلمي..

ثم وجده يتحدث مع آخرين بكلام لا يفهم الكثير منه، فعلم أنه كان يخاطب كل شخص بما يتناسب معه.

وهكذا هم أهل الرقي والفضل لا يُشعِرون الآخرين بالنقص عنهم.

* * * * *

متى رأيت أحداً يُكثر من التحكُّم والتسلُّط والتعنُّت، فاعلم أنه ضعيفُ الثقة بنفسه، وفاقدٌ لشعوره بالاحترام والتقدير..

فلا يرى حيلةً ولا سبيلاً للدفاع عن نفسه وتعويض هذا النقص خيراً من التعنُّت والتسلُّط.

وما أكثرَ حِيَل النفس التي لا يشعر بها الإنسان.

* * * * *

بين الزجاج الشفاف والصندوق الأسود

بعضهم لشدة وضوحه وصراحته كأن عقله وقلبه مغطى بزجاج شفاف لا يخفى شيء مما فيه.

وآخر كالصندوق الأسود الذي يكون في الطائرة، لا يكاد أحد يعلم ما في نفسه..

ولا شك أن الإنسان يحتاج في بعض الأمور أن يكون كالصندوق الأسود، وفي أخرى أن يكون كالزجاج الشفاف.

(وإن كان (الصندوق الأسود) في الطائرة يسمى كذلك، ولكنه ليس أسود اللون).

* * * * *

الله لم يكلفنا أن ننتظر شخصاً مثل صلاح الدين الأيوبي، ولم يكلفنا أن نقف وننتظر المهدي..

ولكن الله أمرنا أن نعمل ما نستطيعه، وجعل كل شخص مسؤولاً عن نفسه أولاً..

ولن يؤاخذنا الله إذا لم يحصل النصر على أيدينا، ما دمنا قد فعلنا ما أمرَنَا اللّهُ به. قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾.

فقد جعلهم الله في مرتبة واحدة، مع أن أحدهم قد قُتِل والآخر قد غَلب، لأن جميعهم كانت غايتهم ﴿فِي سَبِيلِ اللّهِ﴾.

* * * * *

الذي يتحدث كثيراً عن إنجازاته السابقة عليه أن يعلم أنه بعيد عن الإنجاز..

فلا يمكن أن يجتمع في نفس الوقت العيش في الماضي وأمجاده مع العمل والإنجاز.

* * * * *

كيف تتدبر القرآن؟ (خطوات عملية)

إنَّ القرآن العظيم لا تنقضي عجائبُه، ولا تُحصَى معانِيهِ وفوائدُه، فهو كلامُ اللهِ العليمِ الخبيرِ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولهذا حثنا اللهُ سبحانَهُ على قراءته وتدبره، ففي تدبُّرِ القرآنِ والعملِ بِهِ شفاءٌ للفردِ وللمجتمع من أمراضه الحسية والمعنوية، وتلبيةٌ لحاجاتِهِ الدنيوية والأخروية، قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فالله الذي خلق عباده هو أعلم بما يصلحهم، قال تعالى: ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾، وقال سبحانه: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾.

فمَنْ عَرَفَ فَضْلَ القرآنِ تلهَّفَ إليه تَلَهُّفَ الظمآنِ إلى الماء، والزُّروعِ إلى السَّماء، والمريضِ إلى الشفاء، والغريقِ إلى الهواء، والمسجونِ إلى الحرية والفضاء..

والذي يعيش بدون القرآن والعمل به والاستهداء بهديه، فإنَّ حياتَه ﴿كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾.

وقد بيَّنَ اللهُ سبحانَهُ الغايةَ من إنزالِ القرآنِ فقال سبحانه: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾، فالتفكر في آيات الله والتدبر لها يوصل إلى الهداية بكتاب الله ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾.

فتدبر القرآن هو مفتاحٌ للعلوم والمعارف، وبه يزداد الإيمان في القلب. وكلما ازداد العبد تأملاً فيه ازداد علماً وعملاً وبصيرة.

وقد نعى الله على المشركين إعراضَهم عن القرآن وعدمَ استفادَتِهم من عِبَرِه وهديه فقال سبحانه: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾.

إنَّ تدبر القرآن هو التأمُّلُ لفهم المعنى، والتوصُّلُ إلى معرفةِ مقاصدِ الآياتِ وأهدافها، وما ترمي إليه من المعاني والحِكَمِ والأحكام، وذلك بقصد الانتفاع بما فيها من العلم والإيمان، والاهتداء بها والامتثال بما تدعو إليه..

ولكن كيف يمكن تدبر القرآن الكريم؟ هناك خُطُواتٌ عمليةٌ ووسائلُ تعين على تدبر القرآن الكريم، منها:

١ـ تنويرُ البصيرةِ بالإقبالِ على الله تعالى والقُرْبِ مما يحبُّه الله والامتثالِ لأمره، والابتعادِ عما نهى عنه، قال سبحانه: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ﴾، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً﴾، فالعلمُ نورٌ، والمعصيةُ ظُلْمَةٌ، ولا بدَّ لمن يريدُ النورَ أنْ يبتعدَ عن كلِّ ما فيه ظُلْمَة، فكلما ابتعدَ المسلمُ عن المعاصي كان أقربَ إلى التوفيقِ والسداد.

٢ـ ومما يعين على تدبر القرآن: استشعارُ عَظَمَةِ القرآنِ، وذلك باليقينِ التام بأنك مع القرآن حيٌّ وبدونه ميت، ومع القرآن مُبْصِرٌ وبدونه أعمى، ومع القرآنِ مُهْتَدٍ وبدونه ضَال.

والاستشعارُ بأن القرآن كلام الله تعالى وأنه رسائلُ أرسَلَها الله إلى عباده لهدايتهم لأفضل السُّبُل التي فيها نفعهم في الدنيا والآخرة، فالإسلام هو أكملُ نظامٍ عرفته البشرية لإصلاح الناس، وخيرُ ما يعبِّرُ عن الإسلام هو القرآن العظيم.

فالقرآن شفاءٌ من أمراض الشهوات والشبهات، والقرآن يعطي منهجاً سليماً في الحياة ويُصْلِحُ الفردَ والمجتمع.

وكيف لا يَسْتَشْعِرُ عَظَمَةَ القرآن مَنْ عَرَفَ أنَّ القرآنَ هو كلامُ الله تعالى، فإذا كان القرآنُ هو كلام اللهِ سبحانه فإنَّ فضلَ القرآنِ على سائر الكلام كفضلِ اللهِ تعالى على خلقه.

لقد وصف الله تعالى تأثُّرَ المؤمنين بالقرآن فقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً﴾، وقال تعالى: ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾.

فقد وَصَفَ اللهُ المؤمنين الذين يخشونه بأنهم تَقْشَعِرُّ جلودُهُم من هذا القرآن الكريم تعظيماً له، وذلك الذي بعثهم على الخضوع له والانقياد، ولذلك قال بعدها: ﴿ثُمَّ

تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ﴾. فالتدبر لا يكون إلا بالتعظيم لله ولكتابه العظيم.

٣ـ ومن الوسائل التي تعين على تدبر القرآن: أنْ يَحْسَبَ أنه هو المخاطب بالقرآن الكريم، فماذا لو حَسِبَ كلٌّ منَّا أنَّ القرآن قد أنزل عليه، وأنه هو المخاطب به، فكيف سيَتَلَقَّى رسائلَهُ ومواعظَهُ، وأوامرَهُ ونواهيَهُ، فما أنفسَها وما أعظمَها مِنْ رسائلَ قالها الخالقُ العظيمُ لخلقه وعباده الذين لا يعرفون من الخير إلا ما عرَّفهم به ربهم، ولا نجاة لهم من الشرور والآثام إلا بابتعادهم عما نهى الله عنه.

قال الحسن بن علي رضي الله عنهما: (إنَّ مَنْ كان قَبْلَكُمْ رأوا القرآنَ رسائلَ مِنْ ربِّهِمْ، فكانوا يتدبَّرونها بالليل، ويَتَفَقَّدُونَها في النهار).

٤ـ ومن الوسائل المعينة على التدبر: معرفةُ أنَّ القرآنَ لا تنقضي عجائبُهُ، فلا يَقْتَصِرُ على ما وردَ في تفسيرِ الآية، بل يُعْمِلُ الفِكْرَ والنَّظَرَ ويَتَأَمَّلُ في الآياتِ وما تَدُلُّ عليه، وبهذا تُفْهَمُ الآيةُ على أوسع معانِيها التي تدل عليها، ولا تُقْصَرُ الآيةُ على معنًى واحدٍ من المعاني، فالآيةُ تُفهم على معانٍ كثيرةٍ لا تعارض بينها، فمعرفةُ سببِ النزولِ يُفيدُنَا في فهم الآية، لكنه لا يعني قَصْرَ مَفْهُومِ الآيةِ على ما وَرَدَ في سبب النزول، فالعبرةُ بعمومِ اللفظِ لا بخصوصِ السبب، فيُمْكِنُ أنْ تُحمَلَ الآيةُ على الكثيرِ من المعاني الحقيقية والمجازية التي تُفْهَمُ من الآية، ويَسمح بها التركيب، إذا لم يكن هناك تعارضٌ بين هذه المعاني.

٥ـ ومما يعين على التدبر: تَكْرارُ الآيةِ وتَرديدُها، والعَوْدَةُ المُتَجَدِّدَةُ للآياتِ، فذلك له أثرٌ عظيمٌ في حضورِ القلبِ واستحضارِ الآياتِ والتأثُّرِ بها..

ففي التَّكْرَارِ تقريرٌ للمعاني في النفس، وتثبيتٌ لها في الصدر، وسكينةٌ وطمأنينةٌ للقلب.

وقد ورد ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن السلف من بعده، عن أَبِي ذَرٍّ أن النَّبِيَّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وسَلَّمَ قَامَ بِآيَةٍ يُرَدِّدُهَا حَتَّى أَصْبَحَ وهي قوله تعالى: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الحَكِيمُ﴾. رواه النسائي وابن ماجه.

وقال بعض السلف: إني لأفتتحُ السورةَ، فَيُوقِفُنِي بعضُ ما أشْهَدُ فيها عَنِ الفـراغ منها، حتى يطلعَ الفجرُ.

وعن الحسن أنه ردَّدَ في ليلة حتى أصبحَ قولَ اللهِ تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، فقيل له في ذلك؟ فقال: إن فيها مُعْتَبَراً، ما نرفع طَرْفاً ولا نَرُدُّهُ إلا وَقَعَ على نِعمَةٍ، وما لا نعلمه من نِعَمِ اللهِ أكثر).

وقام تميمٌ الداريُّ في ليلة بهذه الآية: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

وقَالَ مُحَمَّدُ بنُ عَوْفٍ: رَأَيْتُ أَحْمَدَ بنَ أَبِي الحَوَارِيِّ، بعد أن صَلَّى العَتَمَةَ، قَامَ يُصَلِّي، فَاسْتَفْتَحَ بِـ ﴿الحَمْدُ للهِ﴾ إِلَى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، فَطُفْتُ الحَائِطَ كُلَّهُ، ثُمَّ رَجَعْتُ، فَإِذَا هُوَ لا يُجَاوِزُهَا، ثُمَّ نِمْتُ، وَمَرَرْتُ فِي السَّحَرِ وَهُوَ يَقْرَأُ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، فَلَمْ يَزَلْ يُرَدِّدُهَا إِلَى الصُّبْحِ.

وقرأ عامرُ بنُ عبد قيس في ليلة سورة غافر، فلما انتهى إلى هذه الآية: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ إِذِ القُلُوبُ لَدَى الحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ﴾، لَمْ يَزَلْ يُرَدِّدُهَا حتى أصبح.

وقال عَبَّادُ بْنُ حَمْزَةَ: دَخَلْتُ عَلَى أَسْمَاءَ وَهِيَ تَقْرَأُ: ﴿فَمَنَّ اللهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾، قَالَ: «فَوَقَفَتْ عَلَيْهَا، فَجَعَلَتْ تَسْتَعِيذُ وَتَدْعُو» قَالَ عَبَّادٌ: فَذَهَبْتُ إِلَى السُّوقِ، فَقَضَيْتُ حَاجَتِي، ثُمَّ رَجَعْتُ وَهِيَ فِيهَا بَعْدُ تَسْتَعِيذُ وَتَدْعُو.

٦ـ ومما يعين على تدبر القرآن: التفاعل مع الآيات بالسؤال والتعوذ والاستغفار ونحوِهِ عند مناسبة ذلك، فذلك يعين على حضور القلب عند التلاوة.

وهكذا كان هدي النبي عليه الصلاة والسلام، فقد وصف حُذَيْفَةُ رضي الله عنه قراءة النبي صلى الله عليه وسلم بأنه: (يَقْرَأُ مُتَرَسِّلاً، إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ، وَإِذَا مَرَّ بِسُؤَالٍ سَأَلَ، وَإِذَا مَرَّ بِتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ). رواه مسلم.

وقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: مَنْ قَرَأَ مِنْكُمْ: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾، فَانْتَهَى إِلَى آخِرِهَا: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الحَاكِمِينَ﴾، فَلْيَقُلْ: بَلَى، وَأَنَا عَلَى ذَلِكَ مِنَ الشَّاهِدِينَ. وَمَنْ قَرَأَ: ﴿لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ القِيَامَةِ﴾، فَانْتَهَى إِلَى: ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ

يُحْيِيَ المَوْتَى﴾، فَلْيَقُلْ: بَلَى. وَمَنْ قَرَأَ: ﴿وَالمُرْسَلاَتِ﴾، فَبَلَغَ: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾، فَلْيَقُلْ: آمَنَّا بِاللهِ. رواه أبو داود والبيهقي في السنن الكبرى.

وقال جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ: قَرَأَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُورَةَ الرَّحْمَنِ حَتَّى خَتَمَهَا، ثُمَّ قَالَ: (مَا لِي أَرَاكُمْ سُكُوتاً، لَلْجِنُّ كَانُوا أَحْسَنَ مِنْكُمْ رَدّاً مَا قَرَأْتُ عَلَيْهِمْ هَذِهِ الآيَةَ مِنْ مَرَّةٍ: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إلا قَالُوا: وَلَا بِشَيْءٍ مِنْ نِعَمِكَ رَبَّنَا نُكَذِّبُ فَلَكَ الحَمْدُ. رواه الترمذي، والبيهقي في شعب الإيمان وفي دلائل النبوة.

وقَالَ حُسَيْنٌ الْكَرَابِيسِيُّ: بِتُّ مَعَ الشَّافِعِيِّ فَكَانَ يُصَلِّي نَحْوَ ثُلُثِ اللَّيْلِ وَمَا رَأَيْتُهُ يَزِيدُ عَلَى خَمْسِينَ آيَةً فَإِذَا أَكْثَرَ فَمِائَةٌ وَكَانَ لا يَمُرُّ بِآيَةِ رَحْمَةٍ إلا سَأَلَ اللهَ لِنَفْسِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ أَجْمَعِينَ، وَلا يَمُرُّ بِآيَةِ عَذَابٍ إلا تَعَوَّذَ بِاللهِ مِنْهُ، وَسَأَلَ النَّجَاةَ لِنَفْسِهِ وَلِجَمِيعِ المُؤْمِنِينَ، فَكَأَنَّمَا جُمِعَ لَهُ الرَّجَاءُ وَالرَّهْبَةُ مَعاً.

فالمؤمنُ عندما يَمُرُّ على آياتِ الوعيدِ يَخَافُ أنْ يَكُونَ داخلاً فيها، ويَسألُ اللهَ السلامةَ من ذلك، وعند ذِكْرِ المغفرةِ والرحمةِ يَستبشرُ ويَفرَحُ ويَسألُ اللهَ أنْ يكونَ مِنْ أهلِ ذلك.

وعند ذِكْرِ اللهِ وصفاتِهِ وأسمائِهِ تتملَّكُهُ المحبةُ للهِ والهيبةُ له والخضوعُ لجلالِهِ وعَظَمَتِهِ.

٧ـ ومن وسائل التدبر: القراءةُ بتأنٍ وهدوء، والتفاعلُ مع الآيات بحضور القلب، وإلقاء السمع، وإمعان النظر، وإعمال العقل. فلا يكون هَمُّهُ الإكثارَ من القراءة بدون تأمُّلٍ وفَهْمٍ لما يقرؤه.

٨ـ ومن الوسائل التي تعين على التدبر: الاطلاع على ما ورد في تفسير الآية والعودة إلى فهم السلف للآية وتدبرهم لها وتعاملهم معها.

٩ـ ومن وسائل التدبر: فهمُ اللغةِ العربيةِ التي نزل بها القرآن، ومعرفة معاني الكلمات ودِلالاتها، وما توحي إليه من اللطائف والظلال، فالقرآن نزل بلسان عربي مبين، فكلما ازداد الإنسان معرفة باللغة العربية استطاع أن يفهم القرآن بطريقة أفضل، وأدرك مِنْ بلاغته وإعجازه ما يُحَرِّكُ القلوبَ ويُبْهِرُ الألباب.

١٠ـ ومما يعين على التدبر: أنْ يربطَ الإنسانُ بين آياتِ القرآنِ والواقعِ الذي يعيشُهُ، ويجعلَ من الآيات منطلقاً لإصلاح حياتِه وواقعِه، وميزاناً لمن حوله وما يحيط به.

وذلك من غير تكلُّفٍ وتمحُّل في إنزال الآيات على الواقع.

١١ـ ومن وسائل التدبر: التأمُّلُ في سِياقِ الآيةِ، والسياقُ يتكونُ مِنَ السِّبَاقِ واللحاقِ، فالسِّباقُ هو ما قبل الآية، واللحاق هو ما بعد الآية.

وبما أنَّ ترتيبَ الآياتِ والسُّوَرِ هو توقيفيٌّ من الله تعالى، فلا بد أن يكون هناك الكثيرُ من الحِكَمِ والأسرارِ في هذا الترتيب، ولهذا اهتمَّ العلماءُ بعلمِ المناسباتِ بينَ الآياتِ بعضِهَا مع بعض، وكذلك بين السُّورةِ مع غيرِهَا من السُّوَرِ في القرآن الكريم.

١٢ـ ومما يعين على التدبر: التساؤل، وذلك بأنْ يسألَ القارئُ نفسَهُ، لماذا ابتُدِئتِ السورةُ أو الآيةُ بذلك واختُتِمَتْ بذلك؟ ولماذا جاءتْ بهذا السياق؟ ولماذا هذه اللفظةُ دونَ غيرِهَا؟ وغير ذلك من التساؤلات.. والتساؤل بماذا يمكنُ أنْ أعمَلَ بهذه الآياتِ.

وبهذا يَأخذُ العِبَرَ من القَصَصِ والأمثالِ وغيرِ ذلك، ويَمتثلُ بما في القرآنِ مِنْ أمرٍ ونهيٍ.

فالتساؤلُ يُثِيرُ الفِكْرَ والنَّظَرَ عند الإنسان، ويحفِّزُهُ على البحث عن معنى الآية ودِلالاتها، ويُرَسِّخُ المعنى في الذهن.

١٣ـ ومما يعين على التدبر أنْ يَعْرِضَ المؤمنُ نفسَهُ على كتاب الله، فينظرَ في صفات المؤمنين هل هو من المتصفين بها، وفي صفات المنافقين والكافرين هل هو بعيد عنها، أم أنه يتصف بشيء منها، عَنِ الأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ أَنَّهُ كَانَ جَالِساً يَوْماً فَعَرَضَتْ لَهُ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فَانْتَبَهَ فَقَالَ: عَلَيَّ بِالمُصْحَفِ، لِأَلْتَمِسَ ذِكْرِي اليَومَ حَتَّى أَعْلَمَ مَعَ مَنْ أَنَا وَمَنْ أُشْبِهُ، فَنَشَرَ المُصْحَفَ فَمَرَّ بِقَوْمٍ: ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ. وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ. وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾، وَمَرَّ بِقَوْمٍ: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾، وَمَرَّ بِقَوْمٍ: ﴿يُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ﴾ قَالَ: فَوَقَفَ ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ لَسْتُ أَعْرِفُ نَفْسِي هَهُنَا. ثُمَّ أَخَذَ فِي السَّبِيلِ الآخَرِ، فَمَرَّ بِقَوْمٍ: ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ

يَسْتَكْبِرُونَ﴾، وَمَرَّ بِقَوْمٍ: ﴿إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾، وَمَرَّ بِقَوْمٍ يُقَالُ لَهُمْ: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ المُصَلِّينَ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ المِسْكِينَ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ حَتَّى أَتَانَا اليَقِينُ﴾. قَالَ: فَوَقَفَ ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِنْ هَؤُلَاءِ. قَالَ: فَمَا زَالَ يُقَلِّبُ الوَرَقَ وَيَلْتَمِسُ حَتَّى وَقَعَ عَلَى هَذِهِ الآيَةِ: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، فَقَالَ: اللَّهُمَّ أنا مِنْ هَؤُلَاءِ.

فهكذا يقرأ المؤمنُ القرآنَ ليرى أينَ هُوَ مِنَ الامتثالِ بالصفاتِ التي يَمدَحُهَا القرآنُ، وأينَ هو من الابتعادِ عن الصفاتِ المذمومةِ فيه.

* * * * *

وأينَ ضياءُ الشَّمسِ مِنْ نُوره؟!

الشمس تشرق كل يوم ومع ذلك لم تفقد بريقها، ولم يستغنِ أحد عنها، بل إنَّ الشمس إذا كسفت ضج الناس وصلوا صلاة الكسوف، والناس بحاجة إلى الهواء، ولا يستطيعون العيش بدونه.. والمال من يملك منه الكنوز العظيمة تراه أشد الناس حرصاً عليه، ويضحي بالكثير من أجل الحفاظ عليه، والوطن يصعب على الناس تركه وفراقه.. والماء قد جعل الله منه كل شيء حي.. والسماء رغم بقائها من سالف الأزمان لا يمل الناس من التأمل فيها والنظر إليها..

هذا مع أنَّ كلَّ هذه مخلوقات من خلق الله، الناس بحاجة إليها، وقد تنتهي حياتهم إذا فقدوا بعضها، ويصيروا في عداد الأموات، فكيف بكلام الله عزَّ وجلَّ وكتابه العظيم ونوره المبين، فمن البدهي أن لا يمل الناس منه، ولا يشبعوا من قراءته وتدبره، ولا يستغنوا عنه في أيِّ حال وفي أيِّ زمان ومكان، وإذا كان القرآن كلام الله سبحانه فإنَّ فضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله تعالى على خلقه.

إنَّه نورُ الله الذي أخفى نورُه كلَّ ما كان يسمَّى نُورا، وأزال ومحى كلَّ ما سواه فجعله هباءً منثورا، وأشرق فجرُه على دُجَى الظُّلمات فأضحتْ سراجاً منيرا، خاطب عقول

الناس وقلوبهم وجاء إليهم هادياً ومبشِّراً ونذيرا، فأنكر على مَنْ يتخذون مِنَ الآلهة مَنْ لا يملكون لأنفسهم موتاً ولا حياة ولا نشورا، وقص علينا من أخبار الأمم من كذبوا وعصوا ربَّهم فأهلكهم وتَبَّرهم تتبيراً، فكيف لعاقل بعد هذا أن يتخذ القرآن مهجورا..

وأينَ ضياءُ الشمس مِنْ نُور القرآن، وأين جمال القمر مِنْ جمال معناه وبديع وَصْفِه، وحُسن سَبْكه وانسجام رَصْفِه، فطوبى لمن اغترف من غرْفه، واستنشق من عبيره وطِيب عَرْفه، فهو الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأين فصاحة العرب وبلاغتهم مِنَ القدرة على الإتيان بأقصر سورة منه..

فالقرآن نور يضيء القلب حتى ينعكس ضوؤه على كلِّ تصرف يفعله، يميِّز بنوره ما يضره مما ينفعه، ويعرف به ما يخفضه وما يرفعه..

فلا ريبَ أنْ يموت قلب مَنْ لا ينهل مِنْ معينه، ولا يتعرض لشمسه وأنواره، ولا يستمسك بحبله المتين.

وإذا كان الناس جميعهم لا يستطيعون أن يستخرجوا من البحر كلَّ ما فيه من موارد ولآلئ ودرر، ولكن يأخذ كلٌّ منه ما يستطيع، فكيف ببحر العلوم والمعارف، وبحر الفضائل واللطائف..

بحرٌ ولكنَّهُ بالدُّرِّ مُنفَرِدٌ ... والبَحرُ يُجمَعُ فيهِ الدُّرُّ والزَّبَدُ (٩٨)

وأين البحر في طغيان مائه، وهدير أمواجه، من وعيد القرآن وزجره، وتهديده وتخويفه..

كالغَيثِ فِيهِ للطُّغَاةِ زَلازِلٌ ... ولمن يُؤَمِّلُه الزُّلالُ البَارِدُ

وأين ما يخفيه البحر من أمور عظيمة، وما يكتنفه من أسرار وخبايا جسيمة، من خفايا القرآن وأسرارِه، وعظمةِ معانيه وبريقِ أنوارِه..

بحرٌ ولكنَّهُ صَافٍ مَوَاهِبُهُ ... والبَحْرُ تَلقَى لَدَيهِ الصَّفْوَ والكَدَرَا

وأين عمق البحر من عمق معناه، وأين عظمته من عظمة مبناه، وأين روعته من روعة محياه، فرحماه ربنا على تقصيرنا فيه رحماه..

---

(٩٨)ـ الزَّبَد: الطين.

لماذا أنزل الله عز وجل علينا كتابه العظيم؟

لقد أجاب الله سبحانه عن هذا بقوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾، وقال: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾، وقال: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ. يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

فمن أراد رحمة الله ورأفته فليتبع هذا القرآن ليخرج به من الظلمات إلى النور، من ظلمات الحيرة والشك إلى نور الثبات واليقين، ومن ظلمات الضلال والانحراف إلى نور الهدى والاستقامة، ومن ظلمات الباطل إلى نور الحقِّ المبين.

فإن القرآن يهدي إلى سُبُل السَّلام، وهي طرق النجاة والسلامة ومناهج الاستقامة، وهو سبيل الله الذي شرعه لعباده ودعاهم إليه، وابتعث به رسله، وهو الإسلام الذي لا يقبل من أحد عملاً إلا به.

(وما أدقَّ هذا التعبير وأصدقه، إنَّه «السَّلام» هو ما يسكبه هذا الدين في الحياة كلِّها، سلام الفرد، وسلام الجماعة، وسلام العالم، سلام الضمير، وسلام العقل، وسلام الجوارح.. سلام البيت والأسرة، وسلام المجتمع والأمة، وسلام البشر والإنسانية.. السلام مع الحياة، والسلام مع الكون، والسلام مع الله رب الكون والحياة.. السلام الذي لا تجده البشرية - ولم تجده يوماً - إلا في هذا الدين وإلا في منهجه ونظامه وشريعته، ومجتمعه الذي يقوم على عقيدته وشريعته) [1].

والسَّلام هو الله عزَّ وجلَّ، فالقرآن يهدي إلى معرفة الله سبحانه بأسمائه وصفاته وأفعاله، والطريق الموصل إلى رضوانه.

وقد وصف الله تعالى الجنة بأنها دار السَّلام، فقال سبحانه: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، وقال: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾، وسميت بذلك لسلامتها من جميع الآفات والنقائص، وذلك لكمال نعيمها وتمامه وبقائه، وحسنه من كلِّ وجه.

---

(1) - من كلام الأستاذ سيد قطب رحمه الله.

وعلى هذا فالقرآن يهدي إلى طريق السلامة وهي شريعة الله، ويهدي إلى معرفة الله سبحانه، ويهدي إلى الجنة.

وقد وصف الله سبحانه كتابه بأنَّه نُور فقال: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ﴾، وقال: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً﴾، وقال: ﴿فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا﴾، وقال: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، وقال: ﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾، وهل يمكن لأحد أنْ يسير على الطريق الصحيح السليم من غير نورٍ يهتدي به؟ وهل يمكن لنفس أن تطمئن وتنعم بالسكينة والأمان وهي تمشي في الظلمات؟

﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ﴾.

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾.

والله سبحانه هو وحده الذي ينجي من الظلمات، ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ. قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾.

ولكن كيف سيخرجنا القرآن من الظلمات إلى النور؟

إن ذلك يكون بأمرين:

١ـ التدبر والفهم لآيات الله سبحانه، قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾، وقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً﴾، وقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: فلو علِم الناس ما في قراءة القرآن بالتدبُّر، لاشتغلوا بها عن كلِّ ما سواها، فإذا قرأه بتفكُّر حتى إذا مرَّ بآية وهو محتاج إليها في شفاء قلبه، كرَّرها ولو مائة مرة ولو ليلة، فقراءة آية بتفكُّر وتفهُّم خير من قراءة ختمة

بغير تدبُّر وتفهُّم، وأنفع للقلب، وأدعى إلى حصول الإيمان وذوق حلاوة القرآن، وهذه كانت عادة السلف يردد أحدهم الآية إلى الصباح، وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قام بآية يرددها حتى الصباح وهي قوله: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾، فقراءة القرآن بالتفكُّر هي أصل صلاح القلب [1].

ولما كان أعظم المطبقين للقرآن الكريم هو سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإنَّ مَنْ أراد أن يفهم القرآن فعليه بسيرة خير الأنام عليه الصلاة والسلام، فإنَّ سيرته وحياته هي تطبيق عملي وتفسير للقرآن، فعندما سئلت عائشة رضي الله عنها عن خلق النبي صلى الله عليه وسلم قالت: (كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ) [2]؛ فلا يكفي الاقتصار على قراءة ما ذكره المفسرون، فإن الاطلاع على السيرة النبوية وفهم الدروس والعبر منها تجعل الإنسان يفهم القرآن بطريقة أفضل.

٢ـ التطبيق لما جاء في القرآن العظيم، بفعل أوامره واجتناب نواهيه والتأدب بآدابه، قال تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾، وقال: ﴿وَأَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، وقال: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُبِيناً﴾.

وقال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ﴾، قال ابن عباس: ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ﴾، يتبعونه حق اتباعه. وقال مجاهد: يعملون به حق عمله. وقال عبد الله بن مسعود: والذي نفسي بيده، إنَّ حقَّ تلاوته: أن يحلَّ حلاله ويحرِّم حرامه، ويقرأه كما أنزله الله، ولا يحرِّف الكلم عن مواضعه، ولا يتأوَّل منه شيئاً على غير تأويله.

---

(١) ـ مفتاح دار السعادة ١: ١٨٧.

(٢) ـ رواه أحمد في المسند (٢٤٦٠١).

قال الإمام ابن القيم: أهل القرآن هم العـالمون بـه، والعـاملون بمـا فيـه، وإن لـم يحفظوه عن ظهر قلب، وأما من حفظه ولم يفهمه ولم يعمل بما فيه فلـيس مـن أهلـه، وإن أقام حروفه إقامة السهم [1].

وقد بيَّن الله سبحانه أنَّ في طاعته وطاعة رسوله عليـه الصـلاة والسـلام الحيـاةَ الحقيقيةَ فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾، وقال: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾، وقال صلى الله عليه وسلم: (مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لا يَذْكُرُ رَبَّهُ مَثَلُ الحَيِّ وَالمَيِّتِ) [2].

قال الإمام الرازي: ذكروا في قوله: ﴿إِذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ﴾ وجوهاً:

الأول: قال السدي: هو الإيمان والإسلام وفيه الحيـاة لأن الإيمـان حيـاة القلـب والكفر موته، يدل عليه قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ﴾، قيل المؤمن من الكافر.

الثاني: قال قتادة: يعني القرآن أي أجيبوه إلى ما في القرآن، ففيـه الحيـاة والنجـاة والعصمة، وإنما سمي القرآن بالحياة؛ لأن القرآن سبب العلم، والعلـم حيـاة، فجـاز أن يسمى سبب الحياة بالحياة.

الثالث: قال الأكثرون: ﴿لِما يُحْيِيكُمْ﴾ هـو الجهـاد، ثـم في سـبب تسـمية الجهـاد بالحياة وجوه، أحدها: هو أن وهن أحد العدوين حياة للعدو الثاني، فأمر المسلمين إنمـا يقوى ويعظم بسبب الجهاد مع الكفار.

وثانيها: أن الجهاد سبب لحصول الشهادة وهي توجب الحيـاة الدائمـة قـال تعـالى: ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْواتاً بَلْ أَحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾.

وثالثها: أن الجهاد قد يفضي إلى القتـل، والقتـل يوصـل إلى الدار الآخـرة، والدار الآخرة معدن الحياة. قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الحَيَوانُ﴾، أي الحياة الدائمة.

---

[1] - زاد المعاد ١: ٣٣٨.

[2] - رواه البخاري في كتاب الدعوات، باب فضل ذكر الله عز وجل، (٦٠٤٤)، ومسلم في باب استحباب صـلاة النافلـة في بيته وجوازها في المسجد، (١٨٥٩).

والقول الرابع: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ أي لكلِّ حقٍّ وصواب، وعلى هذا التقدير فيدخل فيه القرآن والإيمان والجهاد وكل أعمال البر والطاعة، والمراد من قوله: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ الحياة الطيبة الدائمة قال تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [4].

فلو طبق المسلمون ما في القرآن لما تأخر نصرهم ساعة واحدة من زمانهم، ولا تجرأ عليهم شجعان الأعداء فضلاً عن جبنائهم، ولا أتاهم الأعداء من قِبَل تفرقهم واختلافهم، ولا أتتهم المصائب التي لم تكن فيمن قبلهم، ولا عانى الضعيف من ظلم القوي، ولا عانى الحاكم من شعبه ولا الشعب من حاكمه.

فلو أن دولة طبقت هذه الآية: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالمُنْكَرِ وَالبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، لأفلحت في الدنيا ونجت الآخرة.

ولو أن أحداً عرف أن ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾، وأن ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ﴾، وتأمل قوله: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ فهل سيعمل السوء؟

ولو أن أحداً أيقن بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيراً﴾، فهل سيكفر بربه؟

ولهذا قال سبحانه: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾، وقال: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الهُدَى وَالفُرْقَانِ﴾، وسماه الله تعالى بالفرقان فقال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً﴾، وقال: ﴿وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾، فهو يفرق به بين الحق والباطل وبين طريق الخير وطريق الشر، فيعلم السالك إلى أين يتجه، ويكون على بصيرة من أمره، قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾، وقال تعالى: ﴿هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدَىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، فمن اتبع هدى القرآن فقد فاز ونجا، فطوبى لأهل العقول والحِجَى، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، وقال:

---

(4)ـ تفسير الرازي ١٥: ١١٨.

﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، وقال: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى﴾، وقال: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللهِ﴾.

وقد وصف الله القرآن بأنه شفاء ورحمة للمؤمنين، تشفى به الصدور من وساوسها وشكوكها وأمراضها، أمراض الشبهات وأمراض الشهوات، قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً﴾، وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، وقال: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفَاءٌ﴾، وهذا الشفاء يمتد من الفرد إلى الأمة في علاج أمراضها الحسية والمعنوية.

فَمَنْ عرف فضل القرآن تلهف إليه تلهف الظمآن إلى الماء، والزُّروع إلى السَّماء، والمريض إلى الشفاء، والغريق إلى الهواء، والمسجون إلى الحرية والفضاء..

ويشتاق إليه شوق الغريب إلى وطنه، والوالد إلى ولده، والمحب المفارق إلى محبوبه..

والذي يعيش بدون القرآن والعمل به والاستهداء بهديه، فإنَّ حياتَه ﴿كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾.

حاله كما قيل:

كأنَّهُ فارسٌ لا سَيفَ في يَدِهِ ... والحَربُ دائرةٌ والنَّاسُ تَضطرِبُ
أو أنَّهُ مُبْحِرٌ تَاهَتْ سَفِينَتُهُ ... والموجُ يَلطُمُ عَينَيْهِ ويَنسَحِبُ
أو أنَّهُ سَالِكُ الصَّحْرَاءِ أظمَأَهُ ... قَيْظٌ وأوقَفَهُ عَنْ سَيرِهِ التَّعَبُ

فالقرآن هو سلاحُ المُحَارِب النافذ، ودرعُ المقاتل السابغ، وسفينةُ النجاة الآمنة، وراحةُ المُتْعَب، ونور الدرب، وَرَيُّ الظمآن، وملاذُ الخائف وحصنه، ونجاةُ الهالك وحياته..

لقد وصف الله سبحانه القرآن بأنه رُوح، فقال: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا﴾، وقال: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾، وهل يمكن للإنسان أن يعيش بدون روح؟ فالقرآن هو الرُّوح والحياة للإنسان، فكما أنَّ الجسد بدون

الروح هو جسد ميت لا يوصف بالحياة، كذلك القلب لا يحيا بدون روح الـوحي الذي فيه نفع العباد ومصلحتهم في الدنيا والآخرة.

وإذا كانت الأرواح جنوداً مجنَّدة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منهـا اختلـف، كما جاء في الحديث الصحيح، فإنَّ المؤمنين إذا أرادوا أن تتعارف أرواحهم ولا تختلف، ويكونوا كالجسد الواحد فإنَّ عليهم أن يكونـوا روحـاً واحـدة، ولا يمكـن لهـم أن يكونوا كذلك إلا إذا حلَّ فيهم روح القـرآن، فـإذا حـلَّ فـيهم روح القـرآن ائتلفـت قلوبهم وتعارفت أرواحهم، فصارت روحاً واحدة واتحدوا جميعاً.

وفي وصف القرآن بأنه رُوح إشارةٌ وتصديقٌ لقـوله تعـالى: ﴿قُـلْ لَـئِنِ اجْتَمَعَـتِ الإِنْسُ وَالجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُـرْآنِ لَا يَـأْتُونَ بِمِثْلِـهِ وَلَـوْ كَانَ بَعْضُـهُمْ لِبَعْـضٍ ظَهِيراً﴾؛ وذلك لأنَّ الله عز وجل يقول: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَـنِ الـرُّوحِ قُـلِ الـرُّوحُ مِـنْ أَمْـرِ رَبِّي﴾، فكما أنَّ البشر عاجزون عن صنع الروح هم كذلك عاجزون عن الإتيـان بمثـل القرآن أو سورة منه.

والقرآن هو القائد إلى التقدُّم والرقي والحضـارة، وإلا فـأيُّ حضـارة لمـن يعلمـون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون؟ وأيُّ حضارة لمن صعد إلى القمـر أو المريخ ورأى آيات الله ظاهرة في الكون ثم لم يعرفه كل ذلك بالله سبحانه؟ بـل إنَّ مَـنْ تأمل في بعوضة وعرَّفته بالله هو أعظم حضارة منـه، لأنَّ علمـه بـذلك قـد آتى ثمرتـه وقاده إلى الإيمان بالله تعالى، فليست الحضارة هي مجرد التفوق في الأمور المادية، بل إنَّ الجانب الأعظم من الحضارة هو العلم النافع، والعلم النافع هو الذي يورث الخشية مـن الله، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاءُ﴾، ولهذا وصف الله سـبحانه الذيـن لا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا وهم غافلون عن الآخـرة بـأنهم لا يعلمـون، قـال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ. يَعْلَمُـونَ ظَـاهِراً مِـنَ الحَيَـاةِ الدُّنْيَـا وَهُـمْ عَـنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾.

وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾، وقال: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ

مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ووصفهم الله سبحانه أيضاً بأنهم لا يعقلون، فقال: ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ﴾، وكذلك في الآية التي بعدها: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾، وقال: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُواً وَلَعِباً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾، وقال: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾، وقال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

وحقاً فهم لا يعلمون ولا يعقلون؛ لأنهم يحصرون تفكيرهم وجهدهم ونجاحهم في حياة قصيرة فانية، لا تساوي نسبتها شيئاً بالنسبة إلى الحياة في الآخرة، ولا يلقون بالاً لمصيرهم الأبدي، وحياتهم الدائمة التي لا تنتهي ولا تفنى.

وبعد؛ فماذا لو حسب كلٌّ منَّا أنَّ القرآن قد أنزل عليه، فكيف سيتلقى رسائله ومواعظه، وأوامره ونواهيه، فما أنفسَها وما أعظمَها من رسائل قالها الخالق العظيم لخلقه وعباده الذين لا يعرفون من الخير إلا ما عرَّفهم به ربهم، ولا نجاة لهم من الشرور والآثام إلا بابتعادهم عما نهى الله عنه، قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾، وقال: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾.

فإنْ أردت سبيلَ السَّلام بأوسع معانيه، فاقرأ القرآنَ قراءة مهتدٍ بآياته إلى الصراط المستقيم، ومستنيرٍ بها ومسترشد إلى السلوك القويم، فيكون وزنك للأمور وتقويمها هو بميزان القرآن، ومنهجك هو منهجه، وصراطك هو الصراط الذي يدعو إليه.

* * * * *

القرآن كله في ترابطه وانسجامه كالسورة الواحدة، بل كالآية الواحدة، بل كالكلمة الواحدة.

* * * * *

على قدر الحُجَّة تكون المنزلة..

﴿وتِلكَ حُجَّتُنَا آتَينَاها إبرَاهِيمَ عَلَى قَومِهِ نَرفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشَاء﴾..

* * * * *

المحبة لا يمكن أن تُشتَرى بالمال..

﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾.

* * * * *

الملك هو لله تعالى، ولكن يؤتيه من يشاء.. ﴿واللهُ يُؤتِي مُلكَهُ مَنْ يَشَاء﴾.

فقد أضاف المُلْك إلى نفسه: ﴿مُلكَهُ﴾.

* * * * *

في رمضان أكثر المسلمين يتنافسون في الإكثار من الختمات، ولكنَّ قليلاً منهم من يحرص على الفهم والتدبر للقرآن، مع أن الأجر والثواب لا يقتصر على قراءة حروف القرآن، بل تدبر القرآن له أجر كبير أيضاً، ونفعه يتعدى، وخيره يعم.

أنْ تقرأ ختمة واحدة مع الرجوع إلى التفاسير وكلام العلماء لإزالة ما لديك من نقص في الفهم أَوْلى بكثير من الإكثار من الختمات دون أن تضيف إلى رصيدك فهماً عميقاً للقرآن..

* * * * *

قال سبحانه في سورة يس: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقصَى المَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا المُرْسَلِينَ﴾، فقدم ﴿مِنْ أَقصَى المَدِينَةِ﴾ على ﴿رَجُلٌ﴾ أما في سورة القصص، فقال: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقصَى المَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَامُوسَى إِنَّ المَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾، ولعل سبب تقديم: ﴿مِنْ أَقصَى المَدِينَةِ﴾ في سورة يس هو للإشارة أن أهل أقصى المدينة وأطرافها أقرب إلى اتباع الحق من غيرهم؛ لأن أهل السيادة والعظمة في الغالب لا يسكنون في الأطراف، ولهذا كان كثير من الضعفاء أسرع إلى الاستجابة للحق من كبار القوم؛ لأن كبار القوم كثيراً ما يمنعهم من الحق ما هم فيه من الجاه والكبر الذي يصدهم عن الحق.

* * * * *

تأملات في سورة الكهف

١ـ قد تكون العزلة مفتاحاً لرحمة الله.

﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقاً﴾.

٢ـ حين يكون الله معك يحفظك في كل أحوالك.. حتى وأنت غائب عن وعيك.

﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ المُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُرْشِداً﴾.

٣ـ ليس كل ما يظهر لك هو الحقيقة.

(وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ).

٤ـ ربما كان مظهرهم مخيفاً ولكنهم ينعمون بالأمن في داخلهم.

﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً﴾.

٥ـ الكتمان مطلوب في بعض الأحيان.

﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحداً. إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً﴾.

٦ـ لا تجادل فيما لا طائل من ورائه.

﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِراً﴾.

٧ـ لا تجادل ولا تستفتِ من يرجم بالغيب ويتحدث بلا علم ولا برهان.

﴿سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلا قَلِيلٌ فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلا مِرَاءً ظَاهِراً وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَداً﴾.

٨ـ أفعالك المستقبلية علقها بمشيئة الله.

(وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً. إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ)

٩ـ علاج النسيان أن تذكر ربك. وتوفيقك يكون على قدر ذِكرك لله واستحضارِك لِفضله عليك وحاجتِكَ إليه.

﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَداً﴾

١٠ـ الذين يستحقون الصحبة هم من يعبدون الله ويريدون وجهه.

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.. ﴾.

١١ـ مَنْ كان من الغافلين عن ذكر الله فلا يستحق أن تلتفت إليه أو تطيعه فأموره ضائعة ومعطلة.

﴿..وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾.

١٢ـ لا تحزن إذا فقدت ما تحب، فقد يبدلك الله تعالى خيراً منه.

﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً﴾.

١٣ـ إذا كنت تريد الرحمة لأولادك وأحفادك، فعليك أن تكون صالحاً.

﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾.

١٤ـ ذو القرنين الذي مكّنه الله في الأرض وآتاه من أسباب القوة والتمكين، لم تغره قوته وقدرته، بل نسب ذو القرنين الفضل إلى الله ابتداء وانتهاء؛

فابتداءً ﴿قَالَ: مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾، وانتهاءً بعد أن أحكم السد خير إحكام: ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾..

* * * * *

في ظلال سورة يوسف

١ـ من أراد الإفساد عامله الله بنقيض قصده.

فحين قال إخوة يوسف: ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ﴾ [يوسف: ٩]، ظنوا أنهم بقتل يوسف أو إبعاده سيقبل عليهم أبوهم إقبالة واحدة ولا يلتفت عنهم إلى غيرهم، وأنه لن يشاركهم أحد في محبتهم، فلم يزده ذلك إلا محبة واشتياقاً ليوسف.. حتى قالوا له: ﴿تَاللهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ [يوسف: ٨٥].

٢ـ معايير الناس وموازينهم قد لا تكون صحيحة، فقد يزهدون بالعظماء وهم لا يشعرون!

﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ) [يوسف ٢٠].

٣ـ المحسن جزاؤه الإحسان من الله تعالى.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٢٢].

﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ. وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يوسف: ٥٦، ٥٧].

﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

كما قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلَّا الإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، فهَلْ جَزَاء الإحسان في العمل إلَّا الإحسان في العاقبة والثواب.

٤ـ لقد شهدوا ليوسف عليه الصلاة والسلام بالإحسان وهو في السجن حين قالوا له: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٣٦].

وكذلك حين أصبح في الملك قالوا له: ﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٧٨].

٥ـ إكرامُ الوالدين وبرُّهم من أهم صفات المحسنين المفلحين.

فحين دخلوا على يوسف عليه الصلاة والسلام رحَّب بهم جميعاً، ولكنه خصَّ أبويه بفضل ترحيب واهتمام، ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٩].

وكذلك حين أكرم أبوَيْه ورفعهما على العرش: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً﴾ [يوسف: ١٠٠].

وخرُّوا له سجداً سجودَ تحيةٍ وإكرام. وكان ذلك جائزاً في شريعتهم.

وهناك من يرى أن الضمير في (لَهُ) لله أي خروا ساجدين لله سجود شكر.

٦ـ الفاسد لا يريد أن يبقى وحده فاسداً، ولهذا تجده حريصاً على إفساد غيره.

فحين راودت امرأة العزيز يوسف أرادت من النسوة أن يقعوا بمثل ما وقعت فيه. ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَراً إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ. قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾ [يوسف: ٣١ـ ٣٢].

كما يعبِّر عن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ [النساء: ٨٩].

٧ـ في الطاعة يتسع السجن على ضيقه، وفي المعصية يضيق القصر على سعته. ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ٣٣].

فالحرية حرية القلب، وعندما ينتصر الإنسان على هواه يتحرر من أي عبودية لغير الله تعالى.

٨ـ لقد نجح نبينا يوسف عليه الصلاة والسلام في امتحان الشدة، فكان من الصابرين، ونجح في ابتلاء الرخاء فكان من الشاكرين.

فأما صبره فقد صبر عن المعصية وانتصر على الهوى، حين قال لامرأة العزيز وقد راودته وغلقت الأبواب: ﴿مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣].

وصبر على الشدة حين أُدخِل في السجن.

وأما شكره فيظهر في حسن معاملته لأخوته حين عفا عنهم وهو في قوَّتِه وقُدرته، وقال لهم: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢].

وحين قال لهم: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ [يوسف: ١٠٠]، فلم يذكر لإخوته ما صنعوا حين جعلوه في غيابة الجب.

وكذلك حين قال لهم: ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ فقد التمس لهم عذراً ولم يشنع عليهم سوء فعلهم.

وكذلك يظهر شكر يوسف عليه الصلاة والسلام حين دعا ربه فقال: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]، فنسب هذه النعم كلها إلى الله تعالى، ﴿آتَيْتَنِي﴾ ﴿وَعَلَّمْتَنِي﴾، ودعا ربه أن يتوفاه مسلماً ويلحقه بالصالحين، وكأنه يشير إلى أن شكر النعم هو في استعمالها فيما يرضي الله والابتعاد عما يسخطه.

كما دعا نبينا موسى عليه الصلاة والسلام فقال: ﴿رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص: ١٧]، فنسب النعمة إلى الله ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ وذكر استعمال النعمة فيما يرضي الله فقال: ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ﴾.

٩ـ قال الله سبحانه: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ [يوسف: ٢٤] لم يهم يوسف عليه الصلاة والسلام بامرأة العزيز؛ لأنه رأى برهان ربه وهو ما آتاه الله من العلم والإيمان، فالعلم والإيمان هما أهم أسباب الثبات، فبالعلم يدرك الإنسان شؤم المعصية وخطرها في الدنيا والآخرة، وبالإيمان يعرف الإنسان حلاوة الطاعة ويشعر بجمالها ويدرك مرارة المعصية وقبحها، فشجرة الإيمان تثمر العمل الصالح. وما تزال شجرة

الإيمان تؤتي ثمارها غير منقطعة؛ لأن الحسنة تقود إلى الحسنة، وهكذا تتكاثر الحسنات وتستمر.

١٠ـ المؤمن بالله تعالى لا ييأس؛ لأنه يستمد تفاؤله من الله الذي بيده ملكوت كل شيء وعنده خزائن كل شيء، ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّا القَوْمُ الكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

١١ـ الداعية إلى الله تعالى لا تمنعه الظروف من دعوته، فحين أدخل يوسف عليه الصلاة والسلام السجن وسألوه عن تأويل الرؤيا دعاهم إلى الله تعالى قبل أن يجيبهم إلى تأويل الرؤيا.

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْراً وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ. قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٣٦ـ ٣٧].

* * * * *

﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾

عندما تستصعب شيئاً أو تيأس تذكر قول الله تعالى: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾.

قالها الله سبحانه للنبي زكريا عليه الصلاة والسلام: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيّاً. قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً﴾ [مريم: ٨ـ ٩].

وقالها كذلك لمريم بنت عمران: ﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً. قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْراً مَقْضِيّاً﴾ [مريم: ٢٠ـ ٢١].

فرحمة الله تعالى أوسع بكثير مما تظن، وقدرته أعظم مما تتخيل..

* * * * *

بدأت سورة الفاتحة بالحمد لله رب العالمين، ثم بدأت سورة البقرة بذكر القرآن العظيم..

فكأن أعظم ما يستوجب الحمد هو ذلك الكتاب الذي لا ريب فيه..

واختتمت سورة الفاتحة بدعاء الهداية إلى الصراط المستقيم، غير المغضوب عليهم ولا الضالين، وكذلك اختتمت سورة البقرة بدعاء النصر على الكافرين ﴿أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى القَوْمِ الكَافِرِينَ﴾، فكأن النصر على الكافرين يكون بالهداية إلى الصراط المستقيم.

فثباتك على دينك هو انتصار، ويقودك إلى الانتصار.

* * * * *

الذي يأمر بالخير غيرَه وينسى نفسَه، عليه أن يراجع عقلَه، ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

* * * * *

بعض الطلبات تستحق العقاب..

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾.

* * * * *

التعنُّتُ في الدين والتنطُّعُ يُتْعِبُ صاحبَه ويُرهقه، وقد يمنعه من العمل الصالح..

﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾.

* * * * *

تفوُّقك على غيرك ليس هو بالضرورة إكراماً لك، وإنما هو ابتلاء من الله لينظر كيف تعمل..

﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

* * * * *

مَنْ يُثير العداوة والبغضاء بين الناس، فقد شارك الشيطان في صفة من صفاته..
﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ العَدَاوَةَ وَالبَغْضَاءَ﴾.

* * * * *

﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا. إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّاً﴾ [مريم: ٢ـ ٣].
المحب يحب أن يكون هناك خصوصية بينه وبين مَن يحب.

* * * * *

حين تتصدَّق فأنت أوَّل مَنْ ينتفع بهذه الصدقة..
﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾..

* * * * *

﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥].

كأنَّ الذي لا ينفق في سبيل الله يلقي بيده إلى التهلكة، فقبل قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ قال سبحانه: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ﴾، وبعدها قال: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ﴾.

* * * * *

الإيمان لا بد أن يثمر عطاء

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى. وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى. فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى. وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى. وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى. فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ [الليل: ٥ـ ١٠].

فقد ربطت الآيات بين الإيمان والسلوك، فمن آمن وصدق بالحسنى سيثمر ذلك العمل الصالح والإنفاق، ومن كذب بالحسنى فسيثمر ذلك سوء الأعمال.

فالبخيل ينقصه الإيمان واليقين بوعد الله تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾، وبقوله عليه الصلاة والسلام: (ما مِن يومٍ يُصْبحُ العِبادُ فيهِ إلَّا مَلَكانِ يَنزلانِ، فيقولُ أحَدُهُما: اللّٰهُمَّ أعط مُنفِقاً خَلَفاً، ويقولُ الآخَرُ: اللّٰهُمَّ أعطِ مُمْسِكاً تَلَفاً)..

وينقصه كذلك المروءة والذوق.

* * * * *

إذا منَّ الله عليك بنعمة وفتح لك من فضله فسبح بحمد ربك شكراً له على ما وهبك، واستغفره توبةً من تقصيرك، وحمداً له أنْ لم يمنع عنك فضله بما كسبت يداك.

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ. وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجاً. فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً﴾ [النصر: ١ـ ٣].

وتسبيح الله هو سبب النجاة.

﴿فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ المسبحين لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٣ـ ١٤٤].

والتسبيحُ بحمد الله تعالى وذكرُه يعين على الصبر ويقود إلى سعة الصدر.

﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ [طه: ١٣٠].

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ. فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ. وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٧ـ ٩٩].

* * * * *

لن يعطيَك القرآنُ بعضَ أسرارِه إلا إذا أعطيتَه كُلَّك..

* * * * *

ما أكثرَ المفسدين الذين يدَّعون أنهم مصلحون..

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ. أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ المُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

* * * * *

ما أكثرَ الذين يتَّهمون الناس بصفة سيئة، هم أولى بهذه الصفة ممَّن اتَّهموهم..

﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

* * * * *

أوَّل ما نزل من القرآن: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾، وآخر ما نزل: ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾.

فكل علم لا يهدي صاحبه إلى تقوى الله تعالى ولا يزيده خشية فإنه لا يُعَوَّل عليه.

* * * * *

من أهم أسباب الخوف والقلق: الجهل، ولهذا قال تعالى على لسان الخليل إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾، فقد جَعلَ إبراهيم عليه السلام عدمَ خوفه هو نتيجة معرفته بسعة علم الله تعالى؛ لأنه عليه الصلاة والسلام يعتمد ويتوكل على الله الذي وسع ﴿كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً﴾..

ثم استنكر عليهم كيف يريدون منه أن يخاف وهم لا يخافون مع أنهم يشركون بالله ما ليس لهم به علم ولا سلطان، ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ

أَشْرَكْتُمْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُون﴾.

وبيَّن أنهم لو كانوا يعلمون لعرفوا أن المؤمن الذين لم يلبس إيمانه بظلم هو الأحق بالأمن، ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾.

فكلما ازددت معرفةً بالله وإيمانا، كنتَ أكثرَ سكينةً وأمانا.

* * * * *

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوَرِيدِ﴾

من استحضر هذه الآية وأيقن أن الله مطلع على ما في نفسه، وأنه يعلم سرَّه كما يعلم جهرَه، وهو أقرب إليه من حبل الوريد، فهل يمكن له أن يظهر الخير ويبطن الشر والسوء أو أن يكون ظاهره حسناً وباطنه سيئاً؟!

* * * * *

جاء النهي عن مد العينين إلى ما عند الآخر، ﴿لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ﴾، فكيف بمَنْ يمد يديه ويسرق ما عند غيره؟

* * * * *

﴿لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ المُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً﴾..

الذي يظن بالمؤمنين شراً، كأنه يظن بنفسه شراً، والذي يُحسِنُ الظنَّ بهم هو يحسن الظن بنفسه..

لأن المؤمنين كالجسد الواحد.

* * * * *

في الآخرة يتبرأ المتبوعون الظالمون من أتباعهم، ولن يشفع للأتباع عند الله أنهم كانوا تابعين لغيرهم، فانظر أيها التابع من تتابع..

﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ. وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾.

﴿حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لا تَعْلَمُونَ. وَقَالَتْ أُولاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾.

* * * * *

لقد قال لهم إبراهيم عليه الصلاة والسلام أفصح حجة تنكر عليهم كفرهم: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ. وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾.

فكيف تعبدون شيئاً أنتم صنعتموه بأيديكم ونحتموه، وتكفرون بمن خلقكم وخلق ما تعملونه!

وعندما عجزوا عن مقارعة الحجة بالحجة، لجؤوا إلى استعمال العنف: ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَاناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾.

لكن إرادة الله فوق الجميع: ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ﴾.

* * * * *

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾..

لا تسارع برد وتكذيب كل ما لا تعرفه!

* * * * *

قال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ العَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾

الراجح والله أعلم أن المراد بـ ﴿مِنَ العَذَابِ الأَدْنَى﴾ هو ما يصيبهم في الدنيا من الابتلاءات لعلهم يعودون إلى الله تعالى..

وليس المراد بـ ﴿مِنَ العَذَابِ الأَدْنَى﴾ عذاب القبر؛ لأنه قال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ولا يمكن أن يرجعوا وهم في قبورهم..

فمن رحمة الله بالبعيدين عنه وبالظالمين أن يريهم شيئاً من عاقبة فسقهم وظلمهم في الدنيا، لعلهم يرتدعون بذلك ويعودون إلى دينهم ويبتعدون عن الظلم..

ولكن ما أكثر العبر وما أقل المعتبرين..

* * * * *

الخوف من الفقر لن يزيله كثرة المال، بل يزيله قوة الإيمان بالله تعالى والتوكل عليه والثقة بوعده وكرمه.

ولهذا تجد ضعيف الإيمان مهما اتبع من الأسباب ومهما ملك من الأموال يبقى خائفاً من الفقر، وخوفه من الفقر يمنعه من الإحسان وفعل الخير.

قال تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

وقال: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾.

ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يعطي عطاء من لا يخشى الفقر، لكمال إيمانه بالله تعالى ووعده ورحمته.

* * * * *

الله تعالى أرحم وأكرم من أن يزيل نِعَمه عن عباده وهم شاكرون له، بل يزيد الله الشاكرين من واسع فضله.

﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً﴾ [النساء: ١٤٧].

﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [البقرة: ٥٣].

نعم، قد يُبتلَى الشاكرون ولكن الله ينزل عليهم الطمأنينة والرضا، وينجحون في امتحانهم.

* * * * *

لا ضير على مَنْ ضاقت عليه الأرضُ بما رحبت وضاقتْ عليه نفسُهُ إذا اتسعت له رحمة الله تعالى..

﴿حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللّهِ إلا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

* * * * *

رحمة الله بالتائبين، ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾ ولم يقل: (تخلَّفوا)..

* * * * *

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾..

الصدق لن تكون عاقبته إلا خيراً، فالثلاثة الذين خُلِّفوا وصدقوا مع الله ورسوله عليه الصلاة والسلام: تاب الله عليهم وأكرمهم..

أما المنافقون الذين كذبوا وتوهموا أنهم نجوا من المؤاخذة: خرجوا من الدنيا ولم يتوبوا ولم يستغفر لهم النبي عليه الصلاة والسلام، ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّاباً رَحِيماً﴾..

فحين نزل قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ...﴾ إلى قوله: ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾..

قال كعب رضي الله عنه: فو الله ما أنعم الله علي من نعمة قط بعد أن هداني الله للإسلام، أعظم في نفسي من صدقي رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ ألا أكون

كذبته، فأهلك كما هلك الذين كذبوه، فإن الله قال للذين كذبوه حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد، فقال: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ. يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللهَ لا يَرْضَى عَنِ القَوْمِ الفَاسِقِينَ﴾.

* * * * *

إن المؤمن الصادق ليس هناك ثمن دنيوي مهما كثر يمكن أن يشترى به، فصفقته هي مع الله وحده وليس مع المخلوقين: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ المُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ..﴾..

وما تم شراؤه لا يمكن بيعه، وكيف يبيع الإنسان ما لا يملكه!

* * * * *

يكفي للحرص على إتقان عملك أن تعرف أن الله يراه ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ..﴾.

* * * * *

يَنصر اللهُ المؤمنين بأنْ يربط على قلوبهم، ويُنزل السكينة عليهم، ويُشعرهم بضعف الأعداء، ويَهزم الله أعداءه بأنْ يُلقي الرعبَ في قلوبهم ويشعرهم بقوة المؤمنين وكثرتهم..

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾.

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً﴾.

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾.

﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾.

﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً﴾.

﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللهِ فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾.

* * * * *

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً﴾ لقد بنوا مسجداً يُذكر فيه اسم الله ويُصَلَّى فيه، ولكن الله وصف الباعث على هذا العمل بقوله: ﴿ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ﴾..

ونهى الله عن الصلاة فيه: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾..

ولن يشفع لهم ادعاءُ سلامةِ القصد: ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلا الْحُسْنَى وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

كم هو مهم وضروري تصحيح النية ومراقبة الباعث على العمل ولو كان ظاهره الصلاح والخير..

نفس العمل يفعله قوم فيرتقون به ويرتفعون، ويفعله آخرون فيهبطون به وينحدرون، والذي فرق بينهم هو النية والباعث على العمل..

* * * * *

مما يدل على أهمية سلامة الأساس قوله تعالى: ﴿لَمَسْجِدٌ (أُسِّسَ) عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾، وقوله سبحانه: ﴿أَفَمَنْ (أَسَّسَ) بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ (أَسَّسَ) بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾..

ومما يدل على أهمية تصحيح البدايات: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ (أَوَّلِ) يَوْمٍ أحقُّ أنْ تقومَ فيه﴾..

* * * * *

بعد أن قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ أردف ذلك بقوله سبحانه: ﴿لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، وكأن الآية تشير إلى أن من عنده نعمة القرآن العظيم لا ينبغي له أن يلتفت ويتعلق بمتاع غيره؛ لأن نعمة القرآن أعظم من كل ما عداها..

وكيف لمَنْ عنده النور المبين أنْ يتعلق قلبه بعيش المترفين..

* * * * *

يا مَنْ يريد العزة بغير الله، ألم تقرأ قول الله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزاً. كَلا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِداً﴾.

وكم هي الحالات التي يشهدها التاريخ والواقع ممن عبدوا الطواغيت، ثم لم يكن من الطواغيت إلا أن تخلوا عنهم وحاربوهم، فخسروا الدنيا والآخرة..

* * * * *

مَنْ وجد في نفسه فتوراً عن الطاعة والخير، فليحذر أن يكون ممن: ﴿كَرِهَ اللهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾..

أو ممن قال الله فيهم: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْراً لأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾..

اللّهُمَّ استعملنا ولا تستبدلنا.. ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾.

* * * * *

قال تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً﴾.

قد يكون من الحكمة في قوله تعالى: ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً﴾، أن الذي يقتل نفساً يجرِّأ الآخرين على القتل ويجعلهم يستهينون بهذه الكبيرة..

فصار قاتل النفس الواحدة كأنه قاتلٌ للناس جميعاً لأنه أعان على قتلهم بفعله الذي جعل غيره يتهاون بذلك، والله أعلم..

وقال الإمام ابن عطية رحمه الله: إن الشبه بين قاتل النفس وقاتل الكل لا يطرد من جميع الجهات، لكن الشبه قد تحصل من ثلاث جهات، إحداها: القود فإنه واحد.

والثانية الوعيد، فقد توعد الله قاتل النفس بالخلود في النار، وتلك غاية العذاب، فإن فرضناه يخرج من النار بعد بسبب التوحيد فكذلك قاتل الجميع ان لو اتفق ذلك.

والثالثة: انتهاك الحرمة، فإن نفساً واحدة، في ذلك وجميع الأنفس سواء، والمنتهك في واحدة ملحوظ بعين منتهك الجميع، ومثال ذلك رجلان حلفا على شجرتين ألا يطعما من ثمرهما شيئاً، فطعم أحدهما واحدة من ثمر شجرته وطعم الآخر ثمر شجرته كله، فقد استويا في الحنث.

* * * * *

من أسباب الثبات: البعد عن كسب السيئات..

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾.

* * * * *

قال تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ التوبة، جعل الله قتال المؤمنين للكافرين هو من تعذيب الله للكافرين وإن كان حصل بأيدي المؤمنين.

وفي آية أخرى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللّهَ رَمَى﴾ الأنفال، نسب الله قتل الكافرين إلى نفسه وإن كان المؤمنون هم الذين باشروا القتل..

وجعل رمي المؤمنين أيضاً هو من رمي الله ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾!

وهذا يفسر بعض ما جاء في الحديث القدسي الذي يرويه النبي عليه الصلاة والسلام عن الله عز وجل: (فَإِذَا أَحبَبتُهُ كُنتُ سَمعَهُ الذِي يَسمَعُ بِهِ، وبَصَرَهُ الذِي يُبصِرُ بِهِ، ويَدَهُ التِي يَبطشُ بِهَا وَرِجلَهُ التِي يَمشِي بِهَا) رواه البخاري.

* * * * *

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد يكون سبب نجاتك..

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾.

* * * * *

قال تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾.

﴿اقْرَأْ﴾ حثٌّ على العلم..

وفي ﴿بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ ربطُ العلمِ بالله، والاستعانة به في تحصيله.

﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ السبب الذي يجعلنا نستعين بالله لأنه هو الذي خلق كل شيء، وخلق الإنسان من علق..

﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ. الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ. عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ فكل علم هو من علم الله الذي علَّم به المخلوقات.

وبعد أن أمر بالاستعانة به في قوله: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾، قال: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى. أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾ فعدم الاستعانة بالله من أكبر أسباب الطغيان، فمن ظن أنه مُستغنٍ عن الله طغى وتجبر.

ثم قال: ﴿إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴾ فكيف يبتعد عن الاستعانة بالله من كان مرجعه ومرده إلى الله تعالى.

وفي نهاية السورة: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ﴾..

فعدم الاستجابة للظالمين هو نتيجة وثمرة للعلم المتصل بالله تعالى، الذي أمر به في بداية السورة: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾..

فمن تعلم مستعيناً بربه، كانت ثمرة علمه هي عدم الركون والاستجابة للظالمين.

ثم قال: ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ فمن سجد لله وتحقق بعبوديته له سبحانه، لا يمكن له أن يخضع لغيره مهما كان.

* * * * *

النصر للمؤمنين والعاقبة للمتقين، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، وقال: (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾.

وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ، أما الكافرون فلا مولى لهم وسيُغْلَبُون، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾.

وقال سبحانه: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا، ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً، ثُمَّ يُغْلَبُونَ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾.

* * * * *

ليس كل من يدَّعي الإصلاح صادقاً في دعواه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ. أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ المُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

* * * * *

العزة هي لله وحده، قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ العِزَّةَ فلله العِزَّةُ جَمِيعَاً﴾، وقال: ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ المُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ العِزَّةَ فَإِنَّ العِزَّةَ للهِ جَمِيعاً﴾، وقال سبحانه: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾، فجعل الله العزة له وحده.

وكذلك في قوله تعالى: ﴿وَلِلهِ العِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾، فالعزة هنا هي لله سبحانه، فكل من اتصل بالله فهو عزيز لاتصاله به، ومن هنا جاءت العزة لرسل الله ولعباده المؤمنين، ونعتز بالإسلام لأنه دين الله تعالى.

* * * * *

أول آية بعد البسملة: ﴿الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾.

وأعظم ما يحمد به أنه ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، وأن له العبادة والاستعانة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾..

ومنه الهداية إلى الصراط المستقيم: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ﴾.

ومَنْ هداهم الله إلى الصراط المستقيم هم الذين أنعم الله عليهم: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾.

ثم جاء التنبيه إلى خطر فئتين، فئة تعرف الحق ولا تعمل به: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ وهم اليهود ومن فعل فعلهم ممن عرف الحق ولم يعمل به..

وفئة ضلت عن طريق الحق فلم تهتدِ إليه: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾، وهم النصارى ومن كان مثلهم ممن ترك الحق عن جهل وضلال.

* * * * *

ـ أهم المقاصد في سورة الفاتحة، والمناسبة بين الفاتحة وبين غيرها من السور

ـ المناسبة بين افتتاح القرآن بالفاتحة، واختتامه بسورة الناس

من المعلوم أن افتتاح الكلام يشتمل على أهم المقاصد التي يراد إثباتها،

وبما أن الفاتحة هي أم القرآن فهي تشتمل على أهم المقاصد التي يثبتها ويقررها القرآن العظيم،

فيمكن الربط والبحث عن المناسبة بين سورة الفاتحة والمقاصد التي اشتملت عليها، وبين كل سورة بمفردها، (فمثلاً: المناسبة بين الفاتحة والبقرة، المناسبة بين الفاتحة وآل عمران، وهكذا..)

وقد ظهر لي والله أعلم أن أهم المقاصد والمعاني في الفاتحة هي:

١ـ أن الله له الخلق والأمر، قال تعالى: ﴿الحَمْدُ لِلهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾، والربُّ هو الخالق المتصرف الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، فله الأمر كله، وكذلك في قوله: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ والمالك: هو من اتصف بصفة الملك، ومن مقتضيات الملك أن يكون له الخلق والأمر فيأمر وينهى، ويثيب ويعاقب.

وكذلك اختصاصه بهداية التوفيق والإلهام في قوله سبحانه: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ. صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، فالهداية تُلْتَمس من الله تعالى.

٢ـ أن العالَم قائمٌ بصفة الرحمة: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، وبصفة العدل: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، ويوم الدِّين هو يوم الجزاء والعدل المطلق، ﴿اليَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ و﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾.

٣ـ إفراد الله تعالى بالعبادة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فالعبادة له وحده، وهو الهادي إلى الصراط المستقيم: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ. صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾.

٤ـ البراءة من الكفر وأهله: ﴿غَيْرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾.

ويمكن استنباط هذه المقاصد من أي سورة في القرآن، والتأمل والربط بينها وبين الفاتحة، لأن الفاتحة ـ كما تقدم ـ هي أم القرآن، فهي تحتوي على المقاصد التي تشتمل عليها جميع سور القرآن، ومما يستأنس به في ذلك أن الله ذكر الفاتحة وعطف عليها القرآن فقال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي وَالقُرْآنَ العَظِيمَ﴾.

ـ المناسبة بين افتتاح القرآن بالفاتحة، واختتامه بسورة الناس:

لا ريب أن القرآنَ كلَّه في ترابطه وانسجامه بين سوره، وآياته، وكلماته، كالسورة الواحدة، بل كالآية الواحدة، والكلمة الواحدة.

وقد بدا لي وجه في المناسبة بين أول القرآن (الفاتحة) وبين آخره في سورة الناس، ففي سورة الفاتحة:

١ـ ذكر ربوبية الله تعالى: في قوله: ﴿الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾، وفي سورة الناس ذكر الربوبية أيضاً: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾.

٢ـ وفي الفاتحة: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، وفي الناس: ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾.

٣ـ وفي الفاتحة: إفراد الله تعالى بالعبادة في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وفي الناس: ﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾.

٤ـ وفي الفاتحة: البراءة من الكفر وأهله: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾، وفي الناس: ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ. الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ. مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾.

وبهذا يكون اختتام القرآن بسورة الناس: بياناً وتلخيصاً وتأكيداً للمعاني التي تضمنتها سورة الفاتحة.. والله أعلم.

* * * * *

القرآن هداية للمتقين المؤمنين، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ. الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالغَيْب﴾.

وفي سورة النمل: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ. هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ. الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾.

وفي سورة لقمان: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ الحَكِيمِ. هُدىً وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ. الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾.

وفي سورة فصلت قال عن القرآن: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمىً﴾.

وقال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِالقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾.

وقال: ﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالغَيْبِ﴾ أي إنما ينفع إنذارك.

* * * * *

الذي يرغب عن الإسلام قد سفه نفسه، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾، وقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾..

وقال تعالى عن المعترضين على حكم الله سبحانه: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ﴾.

وأي سفاهة أعظم ممن يترك الإسلام الذي فيه صلاحه في الدنيا والآخرة.

* * * * *

قال تعالى: ﴿لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيّاً﴾، فلا ينتفع بالقرآن وإنذاره إلا مَنْ كان حيَّ القلب والبصيرة.

* * * * *

مَنْ ينتفع بالقرآن؟

القرآن العظيم يكون هداية لأقوام وحُجَّة لهم، ويكون وبالاً وحسرة على آخرين وحُجَّة عليهم، ألم يقل الله تعالى عن القرآن: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾، وقال سبحانه: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً﴾، فالقرآن هداية وشفاء للمؤمنين به والمتبعين له، أما المعرضون عنه فبينهم وبين هدايته حجاب، ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً. وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً﴾. وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾.

فالقرآن هداية للمتقين المؤمنين، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ الكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ. الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالغَيْبِ﴾، وفي سورة النمل: ﴿تِلْكَ آيَاتُ القُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ. هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ. الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾، وفي سورة لقمان: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الحَكِيمِ. هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ. الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾.

وأما قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ القُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الهُدَى وَالفُرْقَانِ﴾، ففي هذه الآية ذكر أنه هدى للناس عامة ولم يقل للمؤمنين،

فالقرآن فيه هداية للناس وإرشاد لهم إلى سبيل الحق والخير، لكن لا ينتفع به إلا من آمن به واتبع هدايته.

فالقرآن تذكرة وعبرة لمن يخشى اللهَ والدارَ الآخرة، قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾، وقال تعالى: ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى. إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾، وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾ أي إنما ينفع إنذارك من خشي الله تعالى.

قال تعالى: ﴿لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيّاً﴾، فلا ينتفع بالقرآن وإنذاره إلا مَنْ كان حيَّ القلب والبصيرة.

وبعد أن عرفتَ هذا، فاختر لنفسك أي الفريقين تريد أن تكون؟ فليس بينك وبين أن يكون القرآنُ هدايةً لك ورحمةً وشفاءً إلا أن تتدبر آياته وتعمل بها وتهتدي بهدي القرآن.

* * * * *

القرآن فيه الحياة

القرآن رُوح وحياة للناس، فالقرآن فيه الحياة، فأنت بالقرآن حيٌّ وبدونه ميت، قال تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾، وكيف لا يكون فيه الحياة وقد وصف الله سبحانه القرآن بأنه رُوح فقال: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا﴾، وقال: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾، وقال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ﴾، وهل يمكن للإنسان أن يعيش بدون روح؟ فالقرآن هو الرُّوح والحياة للإنسان، فكما أنَّ الجسد بدون الروح هو جسد ميت لا يوصف بالحياة، كذلك القلب لا يحيا بدون روح الوحي الذي فيه نفع العباد ومصلحتهم في الدنيا والآخرة.

وقد بيّن الله سبحانه أنَّ في طاعته وطاعة رسوله عليه الصلاة والسلام الحياةَ الحقيقيةَ فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾،

ففي القرآن: الحياةُ والنجاةُ والعصمةُ، وإنما سمّي القرآن بالحياة؛ لأنَّ القرآنَ سببُ العلم، والعلم حياة، فجاز أن يسمى سبب الحياة بالحياة.

فبالقرآن يكون الهداية إلى الإيمان، وفي الإيمان حياةُ القلب، والكفر موتٌ للقلب، يدل عليه قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾، قيل المؤمن من الكافر.

والمراد من قوله: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ الحياة الطيبة الدائمة قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾، وقال صلى الله عليه وسلم: (مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لا يَذْكُرُ رَبَّهُ مَثَلُ الحَيِّ وَالمَيِّتِ) متفق عليه.

والحياة الطيبة هي السعادة في الدنيا من اطمئنان القلب والرضا عن الله، والتوفيق إلى الطاعات والشعور بحلاوتها، وما يَهَبُ الله من حسنات في الدنيا، ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ أي في الآخرة ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

* * * * *

﴿وَاللَّهُ يَعلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعلَمُونَ﴾

قال تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

ما أجملَ أنْ تضع هذه الآية نصب عينيك عندما تواجه أمراً تكرهه، فأنتَ لا تدري أين الخير هل هو فيما تحب أو فيما تكره، فلا تنظر إلى ظاهر الأمور وتغفل عمَّا تنطوي عليه من الحِكَم والفوائد.

ولَكَ في قصة الخَضِر مع موسى عليهما السلام عبرةٌ، فانظر كيف كان الخضر يعمل أعمالاً يحسبها موسى عليه الصلاة والسلام شراً فيكلمه فيها، ثم بعد أن يبيِّن له حقيقة الأمر وملابسات الموقف عرف أنَّ ما فعله الخضر هو الخير والصواب؛ وهكذا في حياتك حينما تُفَاجأ بما لا تحب وما لا تريد تذكَّر قصة الخضر مع موسى عليهما السلام، واعلم أن الله أعلم بما يصلحك وهو أحكم الحاكمين، وتذكر في حياتك كم هي الأمور التي كنت تحسبها شراً ثم تبين لك أنها خير ومصلحة لك.

وها هو نبيُّ الله يوسف عليه الصلاة والسلام، كاد له إخوته كيداً وأرادوا أن يخفضوا من شأنه ومكانته، فجَعَلَ اللهُ كيدَهم رِفْعَةً ليوسف عليه السلام وجعله عزيز مصر، فإرادة الله غالبة وهي فوق إرادة الكل، وصَدَقَ الله: ﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْرَاً كَثِيراً﴾.

فلا مكان في الوجود للمصادفة العمياء، فكل ما يحصل هو بإرادة الله وحكمته وتقديره، قال سبحانه: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْناهُ بِقَدَرٍ﴾، وقال: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾، فكل أمر له حكمة. ولكن هذه الحكمة قد تغيب عن الناس ولا يدركونها.

ثم إنَّ الدنيا دارُ ابتلاء واختبار للعباد، قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرجَعُونَ﴾، فالصحة والمرض، والغنى والفقر، وكل ما في هذه الدنيا من خير أو شر، هو امتحان للناس، فعطاء الله ومنعُه في الدنيا لا يستدل به على رضوان الله عن العبد أو سخطه، فهو يعطي الصالح والطالح، ويمنع الصالح والطالح؛ إنه يعطي ليبتلي، ويمنع ليبتلي، والمعول عليه هو: نتيجة الابتلاء، فمن صبر على الضَّرَّاء وشكر عند السَّرَّاء، فهو من المفلحين.

قال عبد الملك بن أبجر: ما من الناس إلا مبتلى بعافية لينظر كيف شكره، أو مبتلى ببلية لينظر كيف صبره.

فما على المؤمن إلا أنْ يأخذ بالأسباب ثم يطمئن إلى حكمة الله وعدله ورحمته، ﴿وَاللهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللهُ واسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

* * * * *

﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجَاً﴾

يا لها من قاعدة عظيمة تدلُّنا على المخرج من مصائبنا وهمومنا، إنَّ المخرج هو تقوى الله ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجَاً﴾، مخرجاً من الضيق والعنت في الدنيا والآخرة، ورزقاً من حيث لا يتوقع الإنسان ولا يحتسب.

والتَّقْوَى من الوِقَاية وهي: حفظُ الشيءِ ممّا يضرُّه ويؤذيه، وجعل الإنسان نفسه في وِقَايَةٍ مما يخاف منه، فالتَّقْوَى هي حفظ النفس عمَّا يؤثم، وذلك بفعل المأمور وترك المحظور.

وقد ورد أنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه سأل أُبَيّ بن كعب عن التقوى فقال له: أما سلكتَ طريقاً ذا شوك؟ قال: بلى! قال: فما عملت؟ قال: شمَّرت واجتهدت. قال: فذلك التقوى.

فالتقوى هي الضمير الحي لدى الإنسان والوازع الداخلي فيه، ورقابته الذاتية لنفسه، فيكون ذا إحساس عالٍ في ضميره، ويَقَظَة في شعوره، وخشية مستمرة، وتَوَقٍ لأشواك الطريق.

قال طلق بن حبيب رضي الله عنه في التقوى هي: (العمل بطاعة الله، على نور من الله، ترجو ثواب الله، وترك معصية الله، على نور من الله، تخاف عقاب الله). فبالتقوى يحرص المؤمن على رضا الله تعالى، ويبتعد عمَّا يسخطه ويغضبه.

فتقوى الله هي سبب تفريج الشدائد والمصائب، وهي التي تزيد إيمانه ويقينه بالله سبحانه، قال ابن عطاء: (على قدر قربهم من التقوى أدركوا من اليقين).

قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾، والكريم حقاً هو الكريم عند الله تعالى، فالميزان الصحيح لقيمة الإنسان هو ميزان التقوى، ميزان الاتصال بالله وذكره وتقواه.

وكفى المتقين جزاءً أنَّ الله معهم بنصره ومعونته وتأييده، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾.

فازرع التقوى في قلبك، حتى تنبت نباتاً حسناً، تحصد منه ثماراً يانعة، قطوفها دانية، من التوفيق والفلاح والخيرات والمسرَّات في الدنيا والآخرة، فالله سبحانه أكرم من أن يعامله العبد نقداً فيجازيه نسيئةً، بل يَرَى العبدُ مِنْ ثواب عمله في الدنيا قبل الآخرة من السعادة والسرور وما يكرمهم الله تعالى به من النِّعَم.

* * * * *

﴿إِنَّ الحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾

يقترف أحدهم من السيئات والآثام فيحزن لذلك ويندم، وهذا أمر مطلوب ولكنْ على أن لا يصل حزنه على معصيته وخوفه من الله إلى القنوط من رحمة الله تعالى، فالقنوط من رحمة الله أشد إثماً وأعظم جُرْماً، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلا الضَّالُّونَ﴾، وقال: ﴿إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلا القَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾، فالخوف من الله له حدٌّ ينبغي أن لا يتجاوزه، حتى لا يقنط العاصي من رحمة الله وقبول توبته.

فهذه الآية ﴿إِنَّ الحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ تجعل المسلم يكثر من فعل الحسنات حتى لو ظلم نفسه وعصى الله تعالى، بل هو في هذه الحالة أحوج من غيره إلى الحسنات، فالحسنات تذهب السيئات، فلا يكون لسان حاله:

... أنا الغريقُ فما خَوْفي مِنَ البَلَلِ

بل يعلم أنَّ رحمةَ اللهِ واسعةٌ، قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾، وقال سبحانه على لسان ملائكته: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمَاً﴾.

ولن يدخل أحدٌ الجنةَ بعمله مهما كانت عبادته وتقواه، بل برحمة الله تعالى، قال عليه الصلاة والسلام: (لَنْ يُنْجِيَ أَحَدَاً مِنْكُمْ عَمَلُهُ)، قَالَ رَجُلٌ: وَلا أنت يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: (وَلا أنا إِلا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ) متفق عليه.

ومِنْ أفضل ما يعتقده المؤمن هو حسن الظن بالله تعالى، فقد قال الله سبحانه في الحديث القدسي: (أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي) متفق عليه.

وقال صلى الله عليه وسلم فِيمَا يَحْكِي عَنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ: أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبَاً فَقَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي. فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْباً فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبّاً يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ. ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي. فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: عَبْدِي أَذْنَبَ ذَنْبَاً فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبّاً يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ. ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي. فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبَاً فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبّاً يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، غَفَرْتُ لِعَبْدِي - ثَلاَثَاً - فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ. متفق عليه.

فما أوسعَ رحمة الله بخلقه وعباده، وما أعظمَ هذا الكرم الإلهي الذي يفوق تصوُّرَ البشر وحساباتهم، ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

وهذه الرحمة لا تدعو إلى معصية الله، وإنما إلى شكر الله على رحمته بعباده، وعدم القنوط من رحمته عند معصيته، بل المسارعة بالتوبة إلى الله والرجوع إليه. ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى﴾.

* * * * *

﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾

(حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ) قالها إبراهيمُ عليه الصلاة والسلام حين أُلقي في النار، فجَعَلَ اللهُ النارَ برداً وسلاماً عليه، ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾، فلا يمكن لشيء أن ينفع أو يضر إلا بإذن الله تعالى، فالله هو الذي جعل النار محرقة فهي لا تحرق بذاتها، فإذا أراد لها أن تكون برداً وسلاماً صارت كذلك، قال ابن عباس: (لو لم يتبع بردها سلاماً لمات إبراهيم من شدَّة بردها).

فالله الذي جعل النار برداً سلاماً هو الذي يجعل المِحَن مِنَحاً وعطايا، ويجعل الفقرَ والحاجةَ سعةً وغنى، ويجعل الهمومَ والأحزانَ أفراحاً ومسرَّات، ويجعل المنعَ عطاءً ورحمةً، وهذا كلُّه لمن توكَّل على الله تعالى وأيقن به وأحسن الظن بالله سبحانه.

﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾.

﴿حَسْبُنَا اللهُ﴾ أي الله كافينا، ﴿وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾، لمن وَكَّل حاجته إليه وتوكل في قضائها عليه.

فماذا كان جزاؤهم: ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللهِ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾.

لقد انتصروا عندما أيقنوا أنَّ الله معهم فتوكلوا عليه، وعلموا أنَّ النصر من عند الله، ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى﴾.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ، إِنَّ اللهَ بالِغُ أَمْرِهِ﴾، فمن يتوكل على الله يَكْفِهِ ما أهمه، فالله بالغ أمره. فما قدَّر الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فالتوكُّل عليه هو توكُّل على القويِّ القادر الفعَّال لما يريد.

والتوكل أن يوقن العبد بكفاية الربِّ، قال الجنيد: (التوكل هو سُكُون الْقَلْب إِلَى مَوْعُودِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ)، وقال بعضهم: (التوكل هو علم القلب بكفاية الربِّ للعبد).

ومتى كان العَبْدُ حَسَنَ الظنِّ بالله، حَسَنَ الرجاءِ له، صادقَ التوكُّلِ عليه: فإن اللهَ لا يخيب أمله فيه، فإنه سبحانه لا يخيب أمل آمل، ولا يضيع عمل عامل.

* * * * *

﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾

قال الله سبحانه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾، فقد خلق الله الإنسان ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ من حيث: الخَلْق والصورة، ومن حيث الفطرة السوية والعقل والإيمان بالله تعالى، فذلك أعظمُ أمرٍ فضَّل اللهُ به الإنسانَ على غيره من المخلوقات، ثم قال عزَّ وجلَّ: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ وهو مَنْ انتكس عن الفطرة والإيمان بالله، فمَنْ ضلَّ عن الإيمان بالله بلغ انحطاطُه أسفلَ سافلين من عبادته لغير الله تعالى، وتخبُّطه في الظلمات، وابتعاده عن طريق الحقِّ، وتعطيله لعقله الذي أكرمه الله به، وفسَّر جماعةٌ من السلف ﴿أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ أي: في النار يوم القيامة، لضلالهم وكفرهم بالله تعالى، ولهذا قال تعالى: ﴿إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فهؤلاء لم يُرَدُّوا إلى أسفل سافلين لإيمانهم بالله وعملهم الصالح. ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ لا يشوبه كدر ولا انقطاع.

فالإيمان والعمل الصالح هو خير ما يرتقي بالإنسان ويفضله على غيره وقد تكرر في القرآن ذِكْر: ﴿آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ في مواضع كثيرة، مما يؤكد ارتباط

العمل الصالح بالإيمان، فالإيمان لا بدَّ أنْ يثمر عملاً صالحاً ويقود صاحبه إلى الخير، وإلا فهو دعوى لا بيِّنة عليها ولا برهان.

فمن ثمرات الإيمان: الأخلاق الحسنة والسلوك السليم والعمل الصالح، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: (لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ) متفق عليه. وقال عليه الصلاة والسلام: (مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلاَ يُؤْذِ جَارَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْراً، أَوْ لِيَصْمُتْ) متفق عليه.

فالإيمان هو المنبع الأساسي لكلِّ فضيلة، وهو المقوِّم لسلوك الإنسان، فكلما ازدادَ الإيمانُ وقوي وارتفع، ظَهَرَ ذلك في سلوك الإنسان وجوارحه.

جعلك الله من المؤمنين الذين يقودهم إيمانهم إلى العمل الصالح، وحفظك الله وعافاك مِنْ أن تُرَدَّ إلى أسفل سافلين، فاللّٰهُمَّ يا مقلِّب القلوب والأبصار ثبِّت قلوبَنا على دينك وطاعتك، ولا تضلنا بعد إذ هديتنا، وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب.

* * * * *

بَينَ إنصَافِ العِـلْم، وإجحَافِ الجَهْل

الحماس للحق، لا يبرر الخروج عن الحق.

* * * * *

والنجمُ تستصغرُ الأبصار رؤيته... والذنبُ للطرفِ لا للنجمِ في الصغرِ

فالنجوم نراها صغيرة لأنها بعيدة عنا، ولن يعرف حجمها الهائـل إلا مـن اقـترب منها..

وهكذا لا يعرف فضل الناس إلا صاحب الفضل، (إنما يعرف الفضل من النـاس ذووه)، ولا يعرف قيمة العلماء إلا من رزقه الله فهماً وعقلاً، فلهذا تجد مـن يطعـن في العلماء ويتهجم في الرد عليهم بأسلوب سيء، هو شخص ضعيف الفهـم، قليـل العلـم، صغير العقل، فمَنْ قَلَّ علمُه كَثُرَ اعتراضُه فيما لا ينبغي الاعتراض عليه.

* * * * *

الفِكْر المتشدِّد لا يدلُّ بالضرورة على قوة التدين عند صاحبه..

فكثيراً ما يكون التشدُّد سببه قلة العلم وضعف الفهم، وليس قوة الدين والإيمان.

* * * * *

كلما قَلَّ العِلْم، زادت احتمالية الوقوع في التطرُّف.

وكثيراً ما تجد المبتدئ في الطلب متطرفاً، ثم يحمله التوسُّع في العِلم إلى الاعتدال.

* * * * *

ليس كلُّ ثباتٍ ممدوحاً، وليس كلُّ تغير مذموماً.

فقد يكون الثباتُ ثباتاً على أمر تبيَّن خطؤه، وظهر فساده.

وقد يكون التغيُّرُ تغيراً عن الخطأ، ورجوعاً إلى الصواب.

ولو كان كلُّ ثباتٍ ممدوحاً لما جاء الحث على الرجوعِ إلى الحق.

ولو كان كلُّ تغير مذموماً لكان كبار العلماء والأئمة الذين تغير اجتهادهم، هم أكثر الناس حظاً من هذا الذم، مع أنهم موعودون بالثواب بين الأجر والأجرين.

* * * * *

شتَّانَ بين مَنْ تأتيه المعلومة فيقف عندها ويعتبرها نهاية المطاف..

وبينَ مَنْ يأخذ المعلومة فيحلِّلها ويتأمَّل فيها، وينظر ماذا ينبني عليها، ويعرضها على النقد فينظر أتصح أم لا، وينطلق منها إذا صحَّت إلى ما بعدها..

* * * * *

عندما تجد: (فلان بن فلان في الميزان)!

لا بد أن تتأكد هل الميزان الذي يستعمله ذلك الشخص صحيح ودقيق؟ أم هو ميزان مختل يُضخِّم السيئات ويُغفِل الحسنات، بل قد يزيد على ذلك بأن يحول الحسنات التي عنده إلى سيئات!

وعندما تجد (فلان في ميزان أهل السنة والجماعة) لا بد أن تتأكد هل نظرته صحيحة عن أهل السنة والجماعة أم أنه لا يرى أهل السنة إلا مَنْ كان على مذهبه..

وحتى يمكنك التأكد من صحة الميزان أو عدم صحته عليك أن تقرأ أو تسمع لنفس الشخص الذي وُضِعَ في الميزان..

وأحسب أنك بعد ذلك ستفرح وتحمد الله أنه لم يجعل الحساب والجزاء إلا له سبحانه، وليس بيد أحد من الخلق..

* * * * *

بعضهم حين تتعرف على إنتاجه العلمي وتتابعه، تمر معه بثلاث مراحل:

الأولى: الانبهار به، لما يظهر لك للوهلة الأولى من سعة العلم وما يتميز بـه مـن أسلوب جذاب.

ثم تمر بالمرحلة الثانية: وهي ذهاب بريقـه، فـلا تـبقى معجبـاً بـه كمـا كنـتَ في السابق.

ثم أخيراً تتوصل إلى المرحلة الثالثة: وهي الزهد فيه، والرغبة عنـه والتحـذير مـن أخطائه وانحرافاته التي قد تزيد على صواباته..

وبعضهم على العكس من ذلك، فتكون المرحلة الأولى: هي الحذر منه، وذلك إمـا للدعاية المُغرِضة ضده، أو التأثر بأمور لا يصح أن تجعلها ميزاناً للحُكْم عليه.

ثم في المرحلة الثانية: تعرف أن عنده ما يستحق النظر فيه والاستماع إليه.

ثم تتوصل في المرحلة الثالثـة: أنـه أفضـل بكـثـير ممـن كنـت تسـمع كلامَهـم في التحذير منه!

* * * * *

تشبَّث بمنهج العلماء وليس بأقوالهم.

فمَنْ تشبَّث بأقوالهم دون أن يَفهمَ منهجَهم يكون قد خالفهم، ولـن يسـتطيعَ أن يبني كما بنوا ويجتهدَ كما اجتهدوا.

* * * * *

هل لحوم العلماء مسمومة؟

نعم، لحوم العلماء مسمومة، وهذا يعني الحـذر مـن ازدرائهـم والانتقـاص مـنهم وظلمهم.

ولكن هذا لا يعني الامتناع عـن نقـدهم النقـد العلـمي الذي يمـتزج بـالأدب والاعتراف بالفضل.

ولا يعني الامتناع عن التحذير ممن جعل علمه لخدمة الظلم والطغيان.

ولا يعني أن لحوم علماء بعض الطوائف والمذاهب مسمومة وغيرها ليست مسمومة..

فهناك من يقول هذه العبارة عندما يدافع عن أحد من علماء طائفته، أما غيرهم فلا يبالي بمن ظلمهم بل قد يبادر هو بظلمهم ولا يجد حرجاً في ذلك.

* * * * *

حين يدافع بالباطل عن أستاذه أو إمام مذهبه، أو يتجاوز الحدود المقبولة في ذلك..

فإنه يسيء إلى أستاذه أو إمام مذهبه، من حيث يريد الدفاع عنهم.

فهم لا يريدون أن ينتصر لهم بهذه الطريقة..

* * * * *

لم تنضح ولم تحترق

أكثر العلوم لم تنضج ولم تحترق، ومن يرى أنها نضجت واحترقت فهذا مبلغ علمه منها.

فالعلوم تقبل التطوير والإضافة بما لا يتعارض مع أصولها ومبادئها.

* * * * *

كيف توهم الآخرين وتقنعهم أنك مجدد مجتهد؟

ـ أخبرهم أولاً أنك اطلعت على ما ذكره الناس في هذا الموضوع، وأن كل ما ذكروه هو مع احترامك لهم في غاية الضعف والسطحية.

ـ قل لهم: ليس الهدف من هذا الكلام هو إعطاء قيمة لي أو لكلامي، ولكنها الحقيقة.

ـ حاول أن تأتي بمصطلحات جديدة وإن كان من سبقك قد ذكر هذا المعنى دون هذا الاصطلاح، لتوهم الناس أنك تأتي بالجديد من خلال هذا المصطلح حتى وإن كان معناه مذكوراً عند من سبقك.

ـ أخبر الناس أن اهتمامك بالموضوع قديم جداً، ويعود لسنوات وعقود طويلة وأنك كنت في كل هذه السنوات لا يهمك إلا هذا الموضوع.

طبعاً قد يكتشف الآخرون أن هناك العديد من القضايا التي تزعم أن اهتمامك بها قديم ويزيد على عشرين أو ثلاثين سنة، ثم لا يجدون جديداً فيها إلا الدعاوى العريضة!

* * * * *

باب فيمن يناقض نفسه في نفس الجملة التي يقولها..

ويصبح في درجة أقل سوءا منه من يناقض نفسه في كلام قاله سابقا، أو في مناسبة أخرى.

من الأمثلة على ذلك:

ـ (أنا لست متعصباً لفلان ولكنه لم يخطئ أبداً).

ـ (أنا لست حاسداً لفلان ولكنه لا يستحق هذا الخير الذي رزقه الله إياه).

ـ يقول: مع احترامي لك، ثم يقول كلاماً ليس فيه ذرة احترام.

ـ يقول: (أنا لا أميع دين الإسلام ولكن أصحاب الأديان الأخرى ناجون يوم القيامة).

ـ يقول: (أنا أحترم وأقدر تراث المسلمين ولكن ليس فيه ما يستحق القراءة).

فهذه الكلمات تناقض نفسها!

* * * * *

(من تكلم في غير فنه أتى بالعجائب)

عبارة صحيحة ولكنها تستعمل أحياناً في غير موضعها: (من تكلم في غير فنه أتى بالعجائب).

فترى البعض يريد ممن تخصص في الفقه مثلاً أن لا يتكلم في تفسير القرآن بكلمة، أو يريد ممن تخصص في الفقه أن لا يتكلم في التفسير، وهكذا.

مع أن علوم الشريعة مترابطة مع بعضها، ولا يصح للفقيه أن يكون جاهلاً بالتفسير، أو للمفسر أن لا يكون على معرفة بالفقه.

أليس هناك الكثير من العلماء الذين تحدثوا في أكثر من علم من العلوم الشرعية، وألفوا فيها المؤلفات النافعة، فهل يقال لهم: لا تتحدثوا في غير تخصصكم.

وكثير من كتب التفسير مليئة بالأحكام الفقهية، والفوائد الأصولية، والمسائل اللغوية.

فهناك من يستعمل هذه العبارة لإقصاء من يختلف معه، فذلك أسهل من نقاش كلامه بالعلم والبرهان.

نعم، من ثبت أنه جاهل في علم من العلوم وتحدث فيما لا يعلم، فهذا الذي يقال له: (من تكلم في غير فنه أتى بالعجائب).

* * * * *

من تجربتي في الانتقاد

في الغالب حين أنتقد أحداً من أهل العلم والفضل ـ وقد يكون أكبر وأعلم مني بكثير ـ أراه يتقبل الانتقاد بسرور ورحابة صدر.

وحين أنتقد غيرهم: في الغالب أكسب عداوتهم مهما كان الأسلوب هادئاً ولطيفاً.

يبدو أن سعة العلم عند الإنسان تجعله يدرك أن النقد أمر طبيعي وأنه ليس فيه انتقاص منه.

بينما ضعف العلم والفهم يجعله يظن أن النقد عـداوة له وانتقـاص منـه، فلهـذا يسارع بمحاربته ومحاربة قائله.

* * * * *

طعام الكبار ربما يكون سُماً قاتلاً للصغار، وطعام الصغار قد لا يشبع الكبار.

والعجيب أن بعضهم لا يفرق بين المتخصص وغـيره، فيخاطـب غـير المتخصـص بكلام لا يمكن له أن يفهمه على وجهه الصحيح، أو يخاطب المبتـدئ وكأنـه يخاطـب عالِماً..

هذا الكلام ليس المقصود منه الانتقاص لأي طرف، ولكن المقصـود هـو الحـذر من الفهم المغلوط الذي يكون سببه عدم مراعاة حال المخاطب ومستواه العلمي.

وقد لاحظت أن عدداً من الناس يفهم بعض الكلام على غير وجهـه، فيسـيء إلى صاحب الكلام، ويسيء إلى الحقيقة.

* * * * *

لا يكفي أن يصف أحدهم كلاماً بالسطحية دون أن يبين سبب ذلك..

ولا أن يصف كلاماً بالتنـاقض حـتى يبـين وجـه التنـاقض، ولا أن يصـف كلامـاً بالضعف حتى يبين ذلك، وهكذا..

والاقتصار على هذه الأوصاف وغيرها دون شرح ذلك بمـا يناسـبه، لا يـؤدي إلى نتيجة ولا يقنع الطرف الآخر..

فهو تبادل اتهامات دون بيِّنة عليها.

* * * * *

صحيح أن كل شخص (إلا مَنْ عصمه الله) يصيب ويخطئ، ويُؤخذ منه ويُرَد..

ولكن هذه الأخطاء حين تَكثر وتزيد، وتكون أخطـاءً فاحشـة وليسـت مـن الخلاف المعتبر، ويظهر أن صاحبها يتبع هواه وليس له منهج يسير عليه..

عندها تصعب الاستفادة منه ويصبح من العسير عند الكثير أن يستفيدوا من صوابه ويَحذروا من أخطائه، ويصبح التحذير منه أمراً مطلوباً..

نعم، إذا بلغ الماء قلتين لم يحمل الخبث، ولكنه إذا غلب على ريحه وطعمه ولونه؛ فسد الماء ولم يصح التطهر به..

* * * * *

الذي يأتي بأحكام جازمة وقاطعة في مسائل الخلاف فيها معتبر، يحكم على نفسه بعدم النضج وأنه بعيد عن الموضوعية والعقلانية مهما أكثر من ادعائها..

فكيف بمن يجزم بتخطئة العلماء في الأمور التي أجمعوا عليها ويصف الأمر الذي أجمعوا عليه بأنه كلام فارغ!

وعندما سُئِلَ: لماذا تصف الكثير مما تخالفه بأنه (كلام فارغ)؟ أجاب: لأنني لا أصف القول بـ(فارغ)، إلا وهو أقل من (فارغ)!!

فمَنْ هو الأولى بوصف كلامه بأنه (فارغ)، الذي أراد أن يجعل آراءه الظنية: قطعية، وخرَجَ على الثوابت والقطعيات وكأنها ظنيَّات، أم الذي احترم الخلاف المعتبر، ولم يخرج على الثوابت، وعرَفَ قَدْرَه فوقف عنده!

* * * * *

صحيح أن وجود الأعداء قد يدل على نجاح الإنسان وتميزه، لكنْ ما أبعدَ النجاحَ عمَّن يسعى في صناعة الأعداء.

فهناك من يتعمد صناعة الأعداء ليظهر بمظهر العظيم الذي ملأ الدنيا وشغل الناس وجعلهم يختلفون فيه!

ولكن ما أسرع أن يذهب الزبد مهما كان طافياً، وتزول الأوهام مهما كانت خادعة، وتظهر الأمور على حقيقتها.

والإنسان الحكيم هو الذي يستطيع أن ينجح دون أن يثير الكثير من الأعداء، بل يحاول أن يُحَيِّد الأعداء إذا لم يستطع أن يجعلهم أصدقاء.

وأبعد الناس عن العقل والحكمة هو الذي يحوِّل أصدقاءه إلى أعداء.

* * * * *

كثرة الكلام لا تدل بالضرورة على كثرة العلم، كما أن قلة الكلام لا تدل على قلة العلم..

فالعبرة بنوعيَّة الكلام وقيمته، فرُبَّ جملة كانت أبلغ من محاضرة.

ورُبَّ مقالٍ صغير كان أنفع من كتاب كبير.

* * * * *

لن تجد إنساناً نسخة منك، فالعاقل لا ينتظر من غيره أن يوافقه في كل أموره، بل يتعامل مع الآخرين ويحبهم رغم اختلافه معهم.

وهذا يحتاج إلى ميزان دقيق، لا يُضَخِّم الأخطاء ويُغفِل الحسنات.

* * * * *

هل العوام هوام؟

ينتقد بعضهم العامة في أمر من الأمور فيصفهم بقوله: (العوام هوام).

وهذه عبارة لا يليق وصفهم بها، ولماذا يوصف العوام بهذا الوصف السيء؟

ولماذا هذا الازدراء لهم والنظر إليهم نظرة دونية بدلاً من النظر إليهم بعين الرحمة والشفقة، والحرص على نصحهم وتعليمهم؟

ثم إن موازين الأعمال عند الله، وقد يكون في العوام من هو أرفع منزلة عند الله من كثير ممن يعظمه الناس ويحسبون فيه الخير والصلاح.

نعم، العلم والدين لا يؤخذ عن العوام، ولا يحق للعوام أن يتكلموا ويخوضوا فيما ليس لهم به علم، ولكن لا يوصفون بهذا الوصف، وقد قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾.

* * * * *

مما يدل على أهمية النظر من الخارج وعدم الاقتصار على النظر داخل الإطار:

أنك عندما تكون داخل مبنى من المباني قد تراه مستقيماً ولا تشعر بانحرافه، لكنك عندما تخرج من المبنى وتنظر إليه من الخارج تدرك أنه منحرف عن غيره..

وهكذا الكثير ممن لا يرون انحرافاً عندهم يكون نظرهم قاصراً ولا يوسِّعون مجال النظر الذي ينظرون منه.

وقد تحسب أن المبنى جميل ولا ينقصه شيء، لكنك عندما تقارنه بغيره تدرك الفرق وتعلم ما الذي ينقصه.

وهكذا الذي يقتصر على الآراء والأفكار التي عنده، ولا ينظر في الأفكار التي عند غيره؛ لا يعرف مواطن الخلل والضعف الموجودة لديه.

* * * * *

بناءُ الحقِّ أهمُّ من هدم الباطل.

وترسيخُ الثوابتِ أهمُّ من الانجرار للدفاع عن أي شبهة.

والتعاونُ في المتفق عليه أولى من التنازع في المختلف فيه..

* * * * *

البناء الهادئ لا يحدث جلبة وضجيجاً لكنه أبقى وأنفع من معارك تحدث الكثير من الزوابع، لكنها سرعان ما تنطفئ وتنتهي.

* * * * *

القوة في اللين، والضعف في العنف..

ألا ترى القوي الواثق من نفسه سهلاً ليناً، والضعيف الخائف فظاً غليظاً.

وألا ترى أن الدولة القوية يقل استعمالها للعنف، والضعيفة تكثر من استعماله.

وألا ترى الصادق هادئاً ساكناً، والكاذب قلقاً مضطرباً..

وألا ترى العالِم بالأمر يناقش بالحجة والدليل، والجاهل به يلجأ إلى السب والشتم أو الكذب على الآخر والافتراء عليه بقصد الإطاحة به.

* * * * *

كثير من الناس يكرهون النقد ولو كان فيه صلاحهم، ويحبون المدح ولو كان فيه هلاكهم، ولكن العاقل يعلم أن الناقد الناصح أولى بالمحبة ممن لا يعرف إلا المدح ولو كان في غير موضعه، فصديقك من صَدَقَك لا من صدَّقَك وجاملك في كل أمر.

* * * * *

بين الغلو والجفاء:

هناك قوم بحاجة لأنْ يُقَالَ لهم: والله ما الغلو في المشايخ والعلماء أخشى عليكم، ولكنِّي أخشى من الجفاء وسوء الأدب!

وهناك قوم آخرون ينبغي أنْ يُقَالَ لهم: والله ما الإساءة إلى المشايخ والعلماء أخشى عليكم، ولكنِّي أخشى من التَّبعيَّة العمياء وتعطيل العقل..

* * * * *

الذي يرى من غيره أخطاء يسيرة فيُخْرِجُه بذلك من قائمة الفضلاء والنبلاء، هو بهذا يكيل بمكيالين لأنه هو نفسه لا يخلو من الأخطاء والعيوب، فلماذا لا يرى من نفسه إلا الخير والفضل، ولا يرى في غيره إلا السوء والجهل؟

* * * * *

الساعة، تمشي باستمرار، وإذا توقفت لا بد من إعادة ضبطها، وكذلك الإنسان إذا توقف بحاجة إلى إعادة ضبط ومراجعة لمعلوماته ومعارفه حتى يسير بشكل صحيح، وإلا مشى بطريقة خاطئة.

* * * * *

هناك من يترك الممكن والمستطاع، ويعوض عن ذلك بالمزايدة على أدوار غيره وإلقاء اللوم والتقصير على الآخرين.

* * * * *

قال الأصمعي: شر الناس الدلالون، لأن أول من دلَّ إبليس، حيث قال لآدم: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الخُلْدِ ومُلْكٍ لا يَبْلَى﴾. نثر الدر.

وأرى أن الأَوْلى أن يقال: شر الدلالين إبليس حيث قال لآدم: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الخُلْدِ ومُلْكٍ لا يَبْلَى﴾؛ لأن هناك من يدل على الخير، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

وقال صلى الله عليه وسلم: (أَلا أَدُلُّكَ عَلَى كَلِمَةٍ هِيَ كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ لا حَوْلَ، وَلا قُوَّةَ إِلا بِاللهِ).

وقال: (أَلا أَدُلُّكُمْ عَلَى أَمْرٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ أَفْشُوا السَّلامَ بَيْنَكُمْ).

* * * * *

الذي يقفز إلى الأعلى دون أن يتدرج في الصعود، لا يمكنه البقاء عالياً فترة طويلة..

وكثيراً ما يؤدي الارتفاع المفاجئ إلى هبوط مفاجئ.

وأما مَنْ تدرَّج خطوة خطوة في صعوده، فهذا لا يصل عالياً إلا بعد أن يكون مؤهلاً ومستحقاً لذلك.

* * * * *

الكثرة أصبحت سمةً ظاهرة في الحياة، فالناس كثيرون، والأعمال كثيرة، والكتب والمقالات والخواطر كثيرة،

وكثير من الأمور العادية تضيع مع الكثرة ولا يُلتفَت إليها،

فحتى يكون للأمر قيمة لا بد فيه من التميز والإتقان والإبداع..

* * * * *

الأفكار كالأرزاق، فمنها ما يأتي بعد كدح وعناء، ومنها ما يأتي من حيث لا تحتسب.

* * * * *

سبحان من قسم العقول والأفهام.

فهناك من يستخرج من فائدة واحدة خمسين فائدة، وهناك من لا يكاد يفهم من خمسين فائدة، فائدة واحدة!

وهناك من يفهم من أدنى إشارة، وهناك من لا يفهم حتى من أصرح عبارة..

* * * * *

إذا كان كلما ظهر من يسيء إلى الدين، أعطيناه أكبر من حجمه وتفرغنا للرد على انحرافاته، لَـمَا تركنا وقتاً ولا جهداً للبناء الصحيح الهادئ الذي يحصن الناس ضد هذه الانحرافات.

فإن العاقل يترك المُنكَر إذا كان مغموراً، ولا يجعله معروفاً مشهوراً بذِكره والرَّدِّ عليه.

* * * * *

كثيراً ما يكون كلام الإنسان عن نفسه غير مقبول، سواء كان كلامه مدحاً أم ذماً..

لأنه قد يكون معجباً بنفسه فيمدحها بما لا تستحق ويعطيها أكبر من حجمها..

وقد يكون متواضعاً لا يرى نفسه شيئاً فلا يعطي لنفسه المكانة التي يستحقها.

* * * * *

كثيراً ما يعلِّق الفاشلون سبب فشلهم على غيرهم.
لكن ماذا سيقولون عن الكثير من الناجحين الذين مروا بظروف أصعب من ظروفهم، ومع ذلك تغلَّبوا على هذه الصعوبات، ولم يجعلوها شماعة لتبرير أخطائهم.

* * * * *

من أهم أسباب النجاح: الواقعية، وهي فهم الواقع ومراعاته، وعدم الخروج على سننه وقوانينه.
فالحال المثالية يتمناها الجميع، ولكن الحرص على هذه المثالية مع إغفال الواقع هو الذي يؤدي إلى خسارة القليل والكثير.
وعندها يتمنى هذا المثالي أنْ لو كان واقعياً وحقق أمراً يسيراً مما كان يطمح إليه.

* * * * *

كثيراً ما تتأثر أفكار الإنسان بحالته والظروف التي تحيط به..
فتجد مثلاً أفكار الفقير تصب في مصلحة الفقراء، وعندما يصبح غنياً يقتنع بالآراء التي كان ينتقدها على الأغنياء.
وتجده ينتقد من له سلطة على كثير من تصرفاته، ثم لما يصبح هو ذا سلطة يبرر لنفسه ما كان يلوم عليه غيره.. وهكذا.
ولذلك كان من المهم: معرفة الخلفية لصاحب الفكرة، فهي تفيد كثيراً في فهم ظروفها ودوافعها..

* * * * *

قيل عن أحد الفلاسفة المتشائمين: إن نظام فلسفته قائم على معاناته من سوء الهضم. وصدق من قال: (العقل السليم في الجسم السليم).

فكثير من الانحرافات الفكريـة والسـلوكية قـد يكـون سـببها أزمـة معينـة أو مشكلة أو مرض نفسي.

* * * * *

تعميم التجربة الشخصية

من الأخطاء التي تحدث في طريقة تفكير بعض الناس: هو تعميم تجربتهم الشخصية.

فما رآه أحدهم نافعاً له أو مضراً، ظنَّه كذلك لكل الناس..

وربما دخل في بلد وعاش فيها منعَّماً مكرَّماً، فظن الناس فيها كذلك، أو عاش فيها حياة صعبة، فعمَّم ذلك على البلد كله وجعله لا يصلح للعيش!

إن التجربة الشخصية هي جزء يسير من الواقع، وليست هي الواقع.

* * * * *

هل كان من هدي النبي عليه الصلاة والسلام والصحابة والسلف الصالح: التشكيك في عقائد المسلمين، والسؤال عن عقيدة كل مسلم، وكأن الأصل في المسلمين هو فساد العقيدة!

أليس السؤال عن عقيدة المسلم والتنطُّع بذلك، هو بحد ذاته بدعة!

والأدهى من ذلك حين يكون لهذا المسؤول عنه تاريخ عريق في خدمة الإسلام والمسلمين، وله إنتاج علمي متميز، فيتركون ذلك كله، ويحاولون اكتشاف ما لديه من أخطاء عقدية، ثم يحذِّرون الناس منه..

* * * * *

شتان بين من يتعامل مع الأقوال والمذاهب كالقاضي العادل الذي ينظر بحيادية مع كل الأطراف..

وبين من يكون كالمحامي الذي يجعل هدفه أن يربح القضية حتى لو كانت جائرة..

* * * * *

في البداية يكون النقد صادماً على الإنسان، ولكن حين يصبر على مرارته، يبدأ في طريق التطور والترقي، وتصير مرارته حلاوة

* * * * *

عجباً لمن يجعلون تعظيم الأنبياء والعلماء ذريعة إلى الشرك، ولا يجعلون تعظيم الحكام ذريعة إلى الشرك!

* * * * *

الذي يعرف (النتيجة) دون أن يعرف كيف توصلوا إلى هذه النتيجة، فهذا (مقلد) في هذا الأمر، وقد لا تفيده هذه النتيجة كثيراً، فهو غير قادر على إثباتها والاستدلال عليها.

وكم هو الفرق كبير بين مَنْ يردد كلام غيره دون معرفة حقيقية به، وبين مَنْ يقول ما يقتنع به وما توصل إليه بعد البحث والنظر.

* * * * *

صحيح أن هناك تقصيراً كبيراً في تقدير المبدعين والعلماء والمفكرين، ولكن لعل من حكمة ذلك أن لا يتصدى لهذه الجوانب إلا من كان باعثه هو خدمة الأمة في هذا المجال، لا من كان باعثه المطامع الدنيوية.

ولا أقصد من هذا الكلام: التبرير لهذا التقصير، وإنما التماس الحكمة في أحداث الحياة.

* * * * *

عندما يدَّعي أحد ما ليس له ويدَّعي ما هو أكبر من حقيقته، يحمِّله الناس مسؤولية أكبر من حجمه، ثم حين يعجز عن القيام بحقها، سيصبح اللوم عليه أكبر، وستكون الصدمة عليه وعلى الآخرين كبيرة..

ولأنْ يكون الإنسان في موضع هو أقل مما يستحق ثم يرتفع شيئاً فشيئاً، خيرٌ له من أن يكون في الأعلى وهو غير مهيأ لهذا العلو، فإنه لا بد أن يَهوِي ويهبط، وكلما ازداد علوه الوهمي كانت صدمته حين السقوط أكبر..

* * * * *

قالوا للمنافق: قل: أشهد أن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله!

فقال في نفسه: جاءَ الفرَج!! ونطق بالشهادتين!!

لن يعجز المنافق أن يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله ويأتي بما يناقضها، فنفاقه ليس له حدود..

* * * * *

كان يشكو لصاحبه فساد الزمان وغربة الدين.

فسأله صاحبه: وماذا تقصد بغربة الدين؟

فذكر له مظاهر كثيرة لغربة الدين، هي من مسائل الخلاف المعتبر.

فقال له: لو كان غربة الدين هو ما ذكرت لكان السلف الصالح يعيشون في غربة الدين أيضاً لأنهم اختلفوا في هذه المسائل..

إن عدداً ممن يشكو غربة الدين، لا يفرق بين المسائل القطعية التي لا يجوز الاختلاف فيها، وبين الظنية التي يكون الناس فيها في سعة من أمرهم..

ولا يفرق كذلك بين الغايات الثابتة وبين الوسائل المتغيرة.

* * * * *

التجديد والإبداع ينقدح عندما تخرج من تخصصك إلى تخصصات أخرى..

أو تخرج من بيئتك إلى بيئة أخرى..

أو تخرج من الصندوق الذي تفكر فيه إلى خارج الصندوق.

* * * * *

لن تصل إلى ما تحتاجه وينفعك، حتى تصبر على ما لا تحتاجه ولا ترغب فيه.

* * * * *

لماذا الحرص على التوسع في العلم؟

قد يقول قائل: لماذا الحرص على التوسع في العلم مع أن القليل منه قد يكفي!

والجواب عن هذا أن العلم سلاح، وإنك لا تدري متى تحتاج إلى سلاحك..

فربما استغنيت عن بعضه في فترة ما، إلا أنك ستراه أحوج ما تكون إليه، وذلك حين يأتي من يحارب العلم بأسلحة ثقيلة من الأوهام والشبهات، فتحتاج معها إلى أسلحة قوية ومتطورة من العلم.. فتقصف هذه الأوهام بطيران العلم الجوي!

وتحتاجه حين تعصف بك رياح التغيرات وتلتطم أمواج الحياة، فلا تجد مُنقذاً كالعلم، ولا ملاذاً كالفهم..

والعلم كذلك منبعٌ لا ينضب، وإنك لَمحتاجٌ إلى نبعه حين تتيه في الصحراء، وتفقد الغذاء والدواء، فلا تجد غذاء كالعلم.

والعلم طاقة متجددة، وكلما قويت هذه الطاقة، زاد نورُها وشعاعُها، وعَظُمَ تأثيرُها ونفعُها..

* * * * *

سرعة القراءة ليست هي المطلب المهم، بل الأمر المهم هـو أن تضـيف القـراءة إلى نفسك علماً وفهماً..

فلا تحرص على السرعة ولا على الكثرة، وإنما على الفائدة التي ستخرج منها بعد قراءتك..

ففي نهاية المطاف لن تستفيد من كثرة الكتب التي قرأتها، ولن يهمك الفترة التي قضيتها في ذلك الكتاب، ولكن الذي يفيدك هو الإضافة التي أضفتها إلى نفسك من هذه القراءة..

وكثيراً ما تكون السرعة على حساب الجودة والدقة، والذي يأتي سريعاً يذهب سريعاً..

وحتى تحتفظ بمعدة جيدة لا بد أن تمضغ الطعام جيداً، وكذلك حتى تحتفظ بعقلية متميزة لا بد أن تهضم المعلومة وتفهمها وتضعها في إطارها الصحيح..

* * * * *

على طالب العلم أن يتوازن بين العلوم التي يطلبها والتي تهمه في تخصصه.

فمَنْ مكث في تعلم علم معين سنوات عديدة، وترك علماً آخر يرتبط ارتباطاً وثيقاً به، فهذا عليه أن يبدأ في تعلم ذلك العلم الذي ليس له أي معرفة به.

فمن الخلل الذي يحصل عند البعض أن تكون أكثر قراءاته ومعرفته في علم واحد وليس له أي اطلاع على العلم الآخر الذي يرتبط بتخصصه، كارتباط العلوم الشرعية مثلاً بالعلوم اللغوية، والفكرية، والسياسية.

فمن اقتصر على علم واحد منها، ستكون معرفته بتخصصه قاصرة ومحدودة، لشدة ارتباط هذه العلوم ببعضها.

* * * * *

عندما تقرأ في علم جديد عليك، تواجهك العديد من المصاعب، حيث تجد الكثير من المصطلحات التي لا تعرفها وتضطر إلى البحث عن معناها، وتعاني من بطء قراءتك، وتكاد تترك القراءة في ذلك العلم وتعود إلى القراءة فيما يسهل عليك.

ولكن حين تتجاوز تلك الصعوبات، تعرف ثمرة العلم، وثمرة الصبر الذي أوصلك إليه.

* * * * *

عندما تصبح فرحتنا بولادة الكتاب من المؤلف، كفرحتنا بالمولود، نبدأ في طريق العلم والتطور..

علينا أن نفرح بأبناء وبنات الأفكار، كما نفرح بالأبناء والبنات..

* * * * *

عند (الإلقاء) أو (الكتابة) يحمد القوم (القراءة).

فلن تعرف قيمة القراءة إلا عندما تلقي محاضرة أو درساً أو تكتب موضوعاً..

* * * * *

لكل قارئ عددٌ من الكتَّاب تراه معجباً بكتاباتهم، ويحب أن يقرأ لهم كثيراً، وربما كرر قراءة بعض أعمالهم أكثر من مرة..

ولعل سبب ذلك هو التقارب في (الأفكار) و(الشخصية) بين الكاتب والقارئ..

وحين يكون اختيار القارئ للكاتب موفقاً، يفتح لنفسه أبواباً من العلم والفهم، وربما أصبح خليفةً للكاتب وحاملاً لعلومه ومجدداً لمفاهيمه..

ولكن عليه أن يحذر أن تقوده شدة المحبة له إلى تقليده تقليداً أعمى يجعله لا يميز بين صوابه وخطئه.

* * * * *

المزية في الكتابة أن الذي يكتب يجمع بين طلب العلم، وإفادة الآخرين بكتابته.

وأنه يقوم بترتيب أفكاره والتعبير عنها، مما يساعده في ترسيخها في ذهنه أكثر بكثير مما لم يَكتب فيه..

* * * * *

بين قرَّاء الخواطر وقرَّاء الكتب

الذين يقرؤون المقالات أكثر من الذين يقرؤون الكتب..

والذين يقرؤون الخواطر أكثر من الذين يقرؤون المقالات..

فقُرَّاء الخواطر هم الأكثر وقُرَّاء الكتب هم الأقل.

لكن ينبغي الحذر من الزهد في كتابة المقالات والكتب لقلة من يقرؤها؛

لأن هذه القلة لها تأثير كبير على الكثرة، بل قد تكون في يوم من الأيام هي القائد لهم..

فالاقتصار على قراءة الخواطر وكتابتها لن يبني ذلك علماً مؤصلاً وعميقاً ولن ينتج ذلك علماء أو مفكرين مبدعين..

* * * * *

الكتاب: هو الذي يفيدك في أي وقت من غير أن تضطر للصبر على أخطائه.

* * * * *

الكثيرون يميلون إلى قراءة ما يفهمونه من غير أدنى جهد أو مشقة، وينفرون مما يصعب عليهم.

لكن الذي يريد أن يضيف إلى نفسه علماً نافعاً، لا بد أن يقتحم ما يثقل ويصعب عليه قليلاً، حتى يرتفع مستواه ويعلو عما هو عليه..

فمَنْ أبى أنْ يتجرَّعَ مرارة التعلم ساعة، لن يجد حلاوتَهُ..

ومَن احتمل مرارته، ذاق حلاوتَهُ..

* * * * *

في بداية البحث تظن أن من سبقك قد استقصى ولم يترك لك أمراً يمكنك الإضافة عليه..

ثم مع كثرة القراءة والبحث تكتشف أن أمامك الكثير مما يمكنك إضافته.

* * * * *

إذا لم يكن لك هدفك ومشروعك، فإن مشروع الآخرين هو مشروعك.

* * * * *

بين الحفظ والفهم

هناك اهتمام كبير بالحفظ في مقابل قلة الاهتمام بالفهم، فكثير من الناس يبذلون وقتاً طويلاً في الحفظ لكنهم لا يبذلون مثله أو أكثر منه في الفهم.

وهناك من يحزن لأنه نسي بعض ما حفظه، لكنه لا يحزن على عدم فهمه له، أو على اقتصاره على الفهم الظاهري فقط..

أزمة البعض في تعاملهم مع القرآن والسنة هي أزمة فهم وليس أزمة حفظ واستحضار، فبعضهم يكثر من الاستشهاد أو الاستدلال بنصوص الكتاب والسنة، لكن استدلالاته بعيدة عن الصواب.

والمشكلة التي تحصل معهم أنهم لا يقبلون ما عند غيرهم لأنهم يحسبون أن كلام غيرهم هو في معارضة هذه النصوص وتركها!

هناك عدد كبير ممن يحفظون القرآن من أوله إلى آخره، لكن قلة منهم من حرص على فهم القرآن كما ينبغي.

كثيرون حفظوا حروف القرآن ووقفوا عندها، وقليلون فهموا مراد القرآن وانطلقوا من خلالها.

أي الشخصين أفضل: الذي يحرص على الإكثار من الختمات في رمضان أو غيره، ثم يخرج بعد ذلك ولم يزدد فهماً لكتاب الله تعالى..

أم الشخص الذي يقرأ القرآن بتدبر، ويكثر من الرجوع إلى التفاسير، ويخرج بعد ذلك بفوائد عظيمة وفهم متميز لم يكن يعرفه من قبل، ثم يمكن أن يتحول هذا الفهم إلى عمل يتعدى نفعه!

* * * * *

كم تتشابه (الكتابةُ) مع (آلة التصوير)! فآلة التصوير تصور الأجسام المحسوسة، والكتابة تصوِّر الوقائع والأحداث،

وتصور ما يدور في النفس، وتخلِّد الكثير من المشاعر والأحاسيس..

كم يكون فرحك كبيراً عندما تعثر على صورة قديمة، تُرجعك إلى الماضي وتُحرِّك فيك المشاعر، وتُثير الأشجان..

فكيف إذا كانت هذه الصورة هي من (الكتابة) التي خلدت لك ذلك الموقف، وذكَّرتك بما كنت غافلاً عنه وناسياً له..

* * * * *

ليست الكتابة دائماً معبرةً عن شخصية الكاتب، فبعض الكُتَّاب يكتب ما يريد الناس منه، أو ما يريده هو من الناس، وبعضهم يكتب ما يريد أنْ يَظهرَ به أمام غيره، وبعضهم يكتب ما يتمنى أنْ يفعلَهُ، وما يَنقصه ويعجز عن تحقيقه!

* * * * *

كان هناك وضاعون للحديث تنبَّه لهم العلماء وبيَّنوا كذبهم في الرواية، ماذا عن الوضاعين في هذا الزمان..

يذكر بعضهم أموراً ليس لها أصل وليس لها وجود في كتب التراث، فهي موضوعة حديثاً..

لماذا يضعون الأحاديث والأخبار؟ هل هناك شك بأن الإسلام لا يحتاج في أي جانب من جوانبه إلى اختلاق الأكاذيب؟

هل هناك شك في أن الله قد أكمل لنا الدين وأتـم علينـا النعمـة! فالحـث على أي عبادة والتحذير من أي معصية لا يكون بما لم يثبت..

هل هناك شك بأن النبي عليه الصلاة والسلام ليس بحاجة إلى اختلاق معجـزات لم تثبت عنه، وأن الصحابة ليسوا بحاجة إلى اختلاق كرامات لم تثبـت عـنهم وهكـذا من دونهم ومن بعدهم..

* * * * *

(القرآنيون) أساؤوا للقرآن قبل أن يسيئوا للسنة؛ لأنهم خالفوا أمر القرآن باتباع السنة.

* * * * *

الإسلام دين يتوافق مع العقل، فلا تعارض بين العقل الصريـح والنقـل الصـحيح القطعي الثبوت والدلالة.

وإذا ظهر شيء من التعارض فإما أن النقل غير صحيح ثبوتاً أو غير صريح دلالة، أو العقل غير قطعي صريح، أو هو تعارض في فهم مَـنْ قَصُرَ- فهمُـه عـن إدراك المسـألة إدراكاً سليماً.

فالعقل من آيات الله الكونية والنقل من آيات الله الشرعية، وآيات الله تنسـجم مع بعضها ولا تتعارض ولا تختلف.

* * * * *

أَلَّفَ كتاباً في الرد على الإمام ابن تيمية رحمه الله، ولم يصفه في الكتاب كله بكلمة الإمام،

وإنما يكتفي بذكر اسمه فقط..

إساءة الأدب لا تكون فقط بالألفاظ السيئة والنابية،

وإنما تكون أيضاً بعدم إعطائهم المكانة التي يستحقونها وعدم وصفهم بما يستحقون من فضل.

* * * * *

بعض المفكرين يُظهِرون قدراً كبيراً من التشاؤم من أوضاع العالم الإسلامي.. ويكادون يفقدون الأمل من صلاح الأمور..

قد يكون ذلك لأن المعرفة العميقة تجعل الإنسان يدرك الكثير من المخاطر، وتزداد حساسيته نحو الكثير من الأمور،

لكن ينبغي أن تكون سعة المعرفة والاطلاع سبباً للتفاؤل أيضاً، لأن واسع المعرفة لا بد أن يدرك أن لكل مشكلة حلاً، ولكل أزمة نهاية، وأن مع العسر يسراً..

* * * * *

هناك فرق بين الاستقلالية والتمرُّد.

فالاستقلالية تكون بالابتعاد عن تقليد غيره من غير معرفة بالحجج التي جعلته يقول به، لكن مع احترامه لغيره وتقديره لجهوده، والاستفادة من صوابه..

وأما التمرُّدُ فهو الغرور الذي يقوده إلى تحطيم الآخرين وإنكار فضلهم، للصعود على أكتافهم، والادعاء الذي يحاول به إظهارَ تميُّزِه عليهم.

* * * * *

لاموه حين تساهل في الفروع، لكنهم تشددوا في الفروع وتساهلوا في الأصول..

وذلك الذي ما زالوا يلومونه في تساهله، تبين أنه أكثرهم محافظة على أصول الدين وجوهره وحقيقته، وأقواهم في الجهر بالحق والصدع به!

* * * * *

يقول: أنا لا آخذ بالسنة إلا ما وافق العقل!

وهو لا يستطيع أن يميز بين العقل والمزاج والعاطفة والهوى، وما أكثرَ ما يُلَبَّس الهوى والمزاج لبوس العقل!

ثم ما يراه غيرَ موافقٍ للعقل في نظره يراه غيره موافقاً للعقل، فبأي عقل نأخذ؟!

ولا يخفى على عاقل أنه لا يمكن للسُّنَّة الثابتة أن تخالف العقل..

ولو صدَقَ في اتِّباعه للقرآن لجعل السنةَ النبويةَ حاكمةً على هواه، ومصححةً لمفاهيمه، ولم يسمح لنفسه أن يأخذ من السُّنَّة ما يريد ويترك ما لا يريد..

* * * * *

الإكراه الناعم هو أن يتظاهر الذي يريد إكراهك بأنه لا يريد إكراهك وإنما يريد أن يقنعك أو يبين ما عنده وأن الأمر في النهاية إليك.

لكنك حين تبين له وجهة نظرك وأنك تخالفه في ذلك؛ لا يزال يُحرِجك ويضغط عليك بسيف الحياء، فإذا لم تستجب عندها يضغط عليك بسيف قلة الحياء!

صاحب الإكراه الناعم يحب أن يظهر بمظهر الإنسان المحترم الذي لا يَفرض على الآخرين شيئاً، لكن حقيقته للأسف أنه مستبدٌّ ومتسلِّط يريد أنْ يفرض ما يريد ولكن يُغَطي على ذلك بغطاء ناعم يُخفي فيه حقيقتَه.

تحتاج عندما تُوَاجَه بالإكراه الناعم أن تكون ذا شخصية قوية، فلا تسمح للآخرين أن يُكرهوك على أمر تعلم أن مصلحتك في خلافه.

* * * * *

هناك من يتسع نطاق محبته لكل المسلمين، فلا يميل إلى فئة منهم دون أخرى، ولا ينفر من فئة لأنها ليست من جماعته أو بلده.

وهناك من يضيق صدره فلا يتسع إلا لمن وافقه في أدق التفاصيل، ويوشك أن يضيق بمن يوافقه أيضاً فلا يتسع صدره إلا لنفسه!

وكيف لمن لا يتسع صدره إلا لنفسه أن يكون خطابُه عالَـمياً مُصلحاً يقدِّر ظروفَ المسلمين عامةً ويُراعي احتياجاتهم!

إذا لم يجاهد هؤلاء أنفسهم حتى يكونَ عندهم من سعة القلب وسعة العقل ما يحتوي كل المسلمين، فلن يكونوا نافعين مؤثرين إلا في أضيق نطاق، بل قد يكونون عقبةً تقف أمام وَحْدَة المسلمين وتقدُّمهم.

* * * * *

الذي يردُّ على شبهة أو قول باطل بكلام ضعيف وحُجَج لا تَرقى لأنْ تكونَ بمنزلة الكلام الذي يردُّ عليه، فضلاً عن أنْ تكونَ أعلى منها وأفضل، هذا عليه أنْ يَعلمَ أنه يسيء بذلك إلى الحقِّ الذي يحمله لأنه عَرَضه بصورة لا تليق به، وقدَّمَه بما ينفِّر الناس منه..

* * * * *

إذا كان الكلام مُبَالَغاً فيه، فلا يعني أنه ليس فيه جزء من الصحة، فقد يشتمل الكلام المبالغ فيه على جزء من الصواب.

وإذا كانت الأمثلة والتطبيقات التي يذكرها على كلامه غير صحيحة، فلا يعني أن تنظيره غير صحيح.

* * * * *

كلما كثرت معارف المرء، أصبح ينظر للأمور من زوايا أخرى، ويرى ما لم يكن يراه في السابق.

* * * * *

الشكُّ المحمود هو أن تشك في المعلومة التي لم تتأكد منها، حتى تبحث فيها وتطمئن على صحتها أو خطئها..

وأن تشك في رأيك وتطرح عليـه تسـاؤلات، حـتى تسـتطيع أن تـبرهن لنفسـك وتستدل على صحة ما ترى. أو تقتنع برأي آخر أفضل منه.

* * * * *

تحتاج أحياناً إلى الاقتراب من أمر حتى تزول عنك الأوهام التي نسجتَها حوله.
وكثيراً ما يبني الإنسان على وهمـه أوهامـاً كثـيرة، ولا تـزال هـذه الأوهـام تتـوالد وتزداد، فلا يوقفها ويقطع زيادتها ويجتثها من أصلها إلا الاقـترابُ ومعرفـةُ الأمـر على حقيقته.

* * * * *

كان الأحرى به أن يقول: (لم أجد كذا)، لا أن يقول: (لا يوجد كذا)؛ لأن عدم الوِجْدان لا يستلزم عدم الوجود.

* * * * *

عندما تتدافع الأدلة والحُجَج، وتتضارب الرؤى والأفكار، نبدأ في الاقتراب من الحقيقة.

* * * * *

التقريب لا يكون بالتنازل عن بعض الحق، وإنما ببيان الحقيقة كما هي، بعيداً عما شابَها مِنَ الإفراط والتهويل، أو التفريط والتهوين.
لأن الإفراط في الحقيقة أو التفريط بها، كثيراً ما يَحُول دون قبولها.

* * * * *

ليس من الوسطية في شيء: إمساك العصا من المنتصف، ومحاولة إرضاء الجميع، فذلك من التذبذب المنهي عنه، قال تعالى: ﴿مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾.

فالوسطية هي حق بين باطلين أو أكثر، أو هي التوسط والاعتدال فلا إفراط ولا تفريط.

أما إرضاء جميع الأطراف فهذا غير ممكن؛ لأن كل قول أو موقف له مَنْ يؤيده ومَنْ يعارضه.

فالذي يحاول إرضاء جميع الأطراف غالباً ما يخسر كل هذه الأطراف.

* * * * *

يحسب أن موقفه هو الوسطي الذي لا غلو فيه ولا انحراف، لكن غيره يراه متشدداً أو متساهلاً.

فكلهم يفهمون الوسطية وفق اجتهاداتهم.

* * * * *

جراءة غير المتخصص

أحد الأشخاص كان يتحدث في مسائل شرعية أكبر من حجمه وهو ليس متخصصاً في الشريعة، وكان يناقش كثيراً ورُبَّما أصر على رأيه..

وفي بعض المرات اختلف مع غيره في بعض المسائل، وبعد قليل دخل أحد العلماء المختصين بالشريعة، فسألوه عن اختلافهم في هذا الموضوع وطلبوا منه الإجابة..

فقال ذلك المتخصص في جوابه: (هذا الموضوع لا يمكن أن أتكلم فيه أنا بمفردي، فهو موضوع كبير ويحتاج للرجوع إلى المجامع الفقهية).

فعجبتُ كثيراً من جراءة غير المتخصص التي جعلته يتكلم في هذه المسائل العويصة، بينما يتورع المتخصص أن يحكم فيها بمفرده!

* * * * *

أساليب عاطفية في الرد

بعضهم حين يريد إقناع غيره يلجأ إلى أساليب عاطفية يحاول من خلالها أن يجعله يتبرأ من هذا الرأي حتى لا يُوصَف بتلك الأوصاف.

فتراه يصف الكلام الذي يَرِدُّ عليه بأوصاف يتبرأ منها كل العقلاء.

مع أن الحقيقة أن هذه الأوصاف السيئة للكلام هي وجهة نظر من ذلك الشخص، قد لا يكون عنده من الأدلة ما يكفي لإثباتها.

* * * * *

تلك مصيبة كبرى أنْ يكون الإنسان فكره منحرفاً، ولكنه يشعر بعِظَم المسؤولية الملقاة على عاتقه في هداية الناس وإرشادهم!

فتجد عنده من الهمة العالية والدأب والاستمرار الشيء الكثير، ولكن كل ذلك يكون في غير موضعه الذي ينبغي أن يكون فيه..

فالحرص على العلم وسلامة المنهج، لا بد أن يكون مُقَدَّماً على الحرص على هداية الناس وتعليمهم..

فالرأيُ قبلَ شجاعة الشجعانِ؛ لأن الشجاعة في غير موضعها: تضر صاحبها ولا تفيده، ولا تحقق الغرض المطلوب..

* * * * *

ليس كلُّ مَنْ نقد انحرافاً، سَلِمَ هو منه، بل قد يقع في نقده بما هو أسوأ منه..

* * * * *

الذي يشعر وهو يحاور أحداً أنه لن يقتنع بكلامه، عليه أن يبتعد عن الإصرار على إثبات رأيه، فلا يكون حريصاً على أن يبقى متحدثاً إلى ختام الكلام ليثبت أنه هو المنتصر!

فما دام أنه قد قال ما عنده وقال الآخر ما عنده، فقد حصل المقصود من فهم الآخر ومعرفة ما لديه من الأفكار في ذلك، وما عدا ذلك من الحوار سيكون مفسداً للمحبة بينه وبين أخيه، وقاطعاً لأواصر الأخوَّة..

ولَأنْ يبقى الإنسان على المودة والمحبة بينه وبين أخيه، خيرٌ له من غَلَبَته وإثبات انتصاره عليه..

* * * * *

ينبغي على الإنسان أن يهتم بالأفكار أكثر من اهتمامه بالأحداث، فالأحداث كثيرة، وتتشابه من بعض الوجوه..

والإكثار من قراءة الأحداث وتتبع أدق التفاصيل فيها، لا يفيد كثيراً إذا كان من غير ربطها بالأفكار والتحليلات التي تجعله يفهمها في سياقها الصحيح..

وكثيراً ما يؤدي الاقتصار على متابعة الأحداث إلى أن يمشي الإنسان مع التيار من غير معرفة بصحة الطريق أو خطئه.

* * * * *

بعض الناس مثل النافورة الاصطناعية التي ترسل الماء بشكل مستمر، لكنها لا تأتي بماء جديد، بل هي تعيد نفس الماء في كل مرة..

* * * * *

قال لي: أنا ملتزم ولكني لا أحب التشدُّد والتنطُّع..

فقلت له: نعم، فالدين هو الذي ينهى عن التنطع، فمِنَ الالتزام بالدين: كراهةُ التنطُّع..

* * * * *

ما أكثرَ الذينَ يَفهمونَ الدِّينَ كما تَهْوَى نُفُوسُهُمْ، وليسَ كَمَا يُرِيدُ اللهُ منهم، فيُبَالِغُونَ في الاهتمامِ ببعضِ الصالحاتِ ويُهمِلُونَ ما هو أهمُّ منها في مِيزَانِ الشَّرْعِ..

فهُنَاكَ مَنْ يَحرِصُ حِرْصاً كبيراً على النوافلِ وهو في المُقَابِلِ لا يُبَالي بفعل المحرمات والكبائر، فهناك مَنْ يَحرِصُ عَلَى الصَّفِّ الأَوَّلِ ويُكثِرُ مِنَ الحَجِّ والاعتمارِ لكنَّهُ يَأكُلُ حُقُوقَ الآخرينَ ويَظلِمُهُمْ ويَعتَدِي عليهم ولا يَشعُرُ بتأنيبِ الضَّمير، ولا يَرَى أنَّهُ متناقضٌ متذبذب، فهو يأخذُ مِنَ الدين ما يَسْهُلُ عليه وما يُوَافِقُ هواه ويَترُكُ ما هو أهمُّ منها عند اللهِ تعالى، فهو ليس منضبطاً في أمرِ دينِهِ بميزانِ الشرعِ، بل بِمَا تَهوَاهُ نَفْسُهُ..

* * * * *

يقول: لا أقبل كلام هذا (النكرة)!

ومتى كان الحقُّ محصوراً فيمَنْ كان مشهوراً؟!

* * * * *

لا يغرنَّك مَنْ يتكلم بثقة عالية، فيجعلك تصدق كلامه دون أدنى نقد أو تمحيص، ولا تزهد بكلام مَنْ يتكلم دون أنْ يجزمَ أو يقطعَ بصحة كلامه..

فأحياناً تُخَالِف غلبةَ الظن التي عندك لليقين الذي تتوقعه عنده..

فتفاجَأ بأنَّ غلبة الظن كانت أفضل من أوهامه التي يحسبها حقائق قطعية..

* * * * *

ما أسهل أن تكون مُحَلِّلاً بعد فوات الأوان.

المحلِّل الناجح هو الذي يرى ما لا يراه الكثير، وفي مرحلة مبكرة، فيمكن له أن يستفيد من تحليله..

* * * * *

إذا كان (غسيل الأموال) هو إضفاء الشرعية على الأموال غير الشرعية، فإن (غسيل العقول والأفكار) هو إضفاء العقلانية على الأفكار البعيدة عن العقلانية.

و(غسيل المشاعر والعواطف) هو إضفاء النزاهة وسلامة القلب على العواطف غير النزيهة.

و(غسيل الأذواق) هو إضفاء الذوق الراقي على الأمور التي ينبو عنها الذوق السليم..

و(غسيل الأرواح) هو إضفاء الروحانية على الخرافات والدعاوى..

* * * * *

ذكر بعض الباحثين أن الأولوية هي لتطبيق الشريعة والعبادة، وليست الأولوية لبناء الحضارة وتحقيق العدالة، ومعالجة الفقر، وغير ذلك..

وهذا الكلام غير صحيح لأنه يفترض أن هذه الأمور ليست من الشريعة ولا من العبادة..

مع أن الإسلام شامل لكل مناحي الحياة، وهذه الأمور جاء الحث عليها في الدين..

فما أكثر ما حث الدين على العدل وأمر به..

وكذلك الحضارة هي كلمة عامة يدخل فيها كل ما يقدم من خير للإنسان، والله تعالى يقول: ﴿وَافْعَلُوا الخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

ومن الخير: إصلاح الفساد الإداري ومعالجة الفقر وإعطاء الحقوق لأصحابها وغير ذلك..

وكذلك بناء الحضارة هو استجابة لقول الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ فيدخل في القوة: القوة العلمية والاقتصادية والسياسية وغيرها.

* * * * *

قال بعضهم: (لو كان الغزالي حياً ويعيش بيننا اليوم لكتب إحياء علوم الدنيا بدلاً من إحياء علوم الدين).

لماذا هذه النظرة إلى العلاقة بين (الدنيـا) و(الديـن) وكـأن (الديـن) عـدو مبـين (للدنيا)؟

(الدين) يصلح (الدنيا) ولا يفسدها ويعمرها ولا يهدمها..

(الدين) لا يأمر باعتزال (الدنيا)، وإنما يأمر بعدم تقديم (الدنيا) إذا تعارضت مع (الدين).. والمباحات هي أكثر بكثير من المحرمات..

والمحرمات ليست إلا حماية للإنسان حتى لا يقع فيما يضره في دنياه وآخرته..

ولا يمكن أن يكون الابتعاد عن المحرمات عائقاً عن التقدم والتطور..

بل الوقوع في المحرمات وخاصة في المعاملات هو سبب الكثير من المصـائب الـتي يعاني منها الناس..

* * * * *

التعبير بالقطع والجزم في مسألة ظنية لا يجعلها قطعية.

والعجيب أن بعضهم يلجأ إلى هذا الأسلوب ظناً منه أن ذلك أدعى لقبول كلامه، وما علم أن ذلك يُفقِد الثقة بسائر كلامه.

إن المتعمق في العلم لا يعبِّر بالجزم في مواطن الظن، ولا يعبِّر بالظن في مواطن الجزم، بل يعطي كل ذي حق حقه.

* * * * *

لا فائدة ترجى مِنَ النقاش مع مَنْ يريد من نقاشه إقامة الحجة عليك، ولا يريد أن يسمع شيئاً منك؛ لأنه يوقن أنك على خطأ وأنه على صواب!

فهذا ينتظر منك فقط أن تشكره على هدايته لك وتعليمه إياك، وإذا لم تقتنع معه فلا يراك إلا مكابراً ومعانداً..

إن العاقل يضع في نفسه احتمال أن يكون رأيُه خطأً ورأيُ غيرِه صواباً.

* * * * *

في الخصومات، كل طرف يرى أنه هو المصيب وأن الخطأ هو من الطرف الآخر.

فلهذا إذا أصرَّ كلُّ طرف على عدم التغاضي والتجاوز لأنه يحسب أن الحق معه، فلن تصلح الأمور؛ لأن الجميع يَرَون أن الحق معهم.

* * * * *

ـ (التلفيق) عند المقلِّد هو الإتيان بكيفية لا يقول بها مجتهد واحد، وإنما هي مركَّبة من أكثر من اجتهاد.

ـ و(التلفيق) عند المجتهد هو أن يكون اجتهاده مركَّباً مِنْ أكثر مِن اجتهاد، فيكون اجتهاده مأخوذاً من بعض هذا القول، ومن بعض القول الآخر، ويكون مذهبه هو مجموع ذلك.

ـ ومن التلفيق ما لا شك في بطلانه كمن يلفِّق بين القول الذي يرى بجواز النبيذ، والقول الآخر الذي يرى أن النبيذ خمر؛ فيستنتج أن من قال بجواز النبيذ قال بجواز الخمر!

ويمكن أن أضيف على ذلك: (التلفيق) عند المغرور، وهو أن يطير فرحاً بكلام مدحه بعضهم فيهم، ثم يضيف إليه كلاماً قاله غيره في مدحه، وما يزال كذلك حتى يمدح نفسه في مناسبة واحدة بأوصاف كثيرة جمعها من أشخاص مختلفين..

مما لو اطلع عليه أحد هؤلاء المادحين لما رضي بهذه الزيادات.

* * * * *

صحيح أن الاهتمام بالكيف مقدم على الاهتمام بالكم، لكن هذا لا يعني أن من أكثر من الكم هو بالضرورة مفرِّط في الاهتمام بالكيف..

فهناك أمثلة عديدة على مَنْ جمع بين الأمرين.

كما أن بعضهم يتخذ مبرراً لتقصيره بأن العبرة بالكيف لا بالكم.

نعم، من كان هاجسه هو الإكثار من الكم دون الاهتمام بالكيف فهذا هو المذموم.

* * * * *

تصنيفات الناس

كثير من تصنيفات الناس عن شخص ما بأنه ملتزم أو غير ملتزم، هي تصنيفات مختزلة وبعيدة عن الصواب.

فهناك الكثير من الملتزمين حقيقة والناس لا يصنفونهم كذلك، وهناك أشخاص يصفونهم بالالتزام وهم أبعد الناس عنه.

* * * * *

التدين بين المظهر والجوهر

ما أكثر الذين يفهمون الإسلام فهماً ظاهرياً شكلياً، بعيداً عن جوهره وروحه وحقيقته..

هناك من يبالغ في التمسك ببعض الأحكام وكأنها هي الدين كله، ويهمل ويترك ما هو أهم منها وأفضل وكأنها ليس من الدين..

فمثلاً، الذي يلتزم بتقصير ثوبه وإعفاء لحيته قد فعل أمراً حسناً فهو قد التزم بأمرين من أوامر الإسلام، ولكن أوامر الإسلام كثيرة جداً، فأين هو من بقية هذه الأوامر؟ ولماذا يجعلون هذين الأمرين هما دليل الالتزام دون غيرهما!

والذي ابتعد عن هذين الأمرين وقصر فيهما هو مفرط في هذين الأمرين، لكنه قد يكون ملتزماً بغيرها من الأوامر، فكيف يُحكَم على الأول بأنه ملتزم بالدين وعلى الثاني بأنه بعيد عن الالتزام!

* * * * *

يضحك الإنسان ويَعجب من أفكاره ومواقفه السابقة التي اكتشف خطأها..

وما يدريه، لعله يعجب من الأفكار التي يقتنع بها الآن ويتحمس لها..

فحين تعجب من أفكارك السابقة، لا تبالغ في التشبث بأفكارك الحاضرة.

* * * * *

ويل للجماعات والفِرَق من بعضها البعض..

* * * * *

قد تختلط الموازنات الشرعية، بالموازنة بين اتباع الحق وتحمل ما فيه من مشاق وصعوبات، وبين اتباع الهوى والإخلاد إلى الأرض والركون إلى الظالمين..

فيظن الشخص نفسه متبعاً للحق بناءً على الموازنات الشرعية، ولا يدرك أنه متبع للهوى تحت مظلة الموازنات الشرعية..

* * * * *

أنْ تَصدمَ الآخرين بالحقائق، خيرٌ من أنْ تخدِّرَهم بالأوهام.

فحين يعلم الآخرون الأمر على حقيقته، يسيرون في الطريق الصحيح، ويعدُّون للأمر عدَّته، ويستعدون لمواجهة ما في ذلك من أخطار.

ليس المقصود بـ (أنْ تَصدمَ الآخرين بالحقائق) أن يكون الأسلوب صادماً، لكن الحقيقة قد تكون صادمة حتى لو كان الأسلوب لطيفاً..

* * * * *

من السهل أن ترفض ما عند الآخر، لكن التحدي هو أن تأتي ببديل أفضل من الذي رفضته.

* * * * *

ما أسهل التنظير المثالي، ولكنه كثيراً ما يبقى حبراً على ورق ولا ينتفع الناس منه، ولكن التحدي هو في التنظير الواقعي الذي ينطلق من فهم الواقع ومعرفة الحلول الممكنة، فهذا هو الذي يمكن الاستفادة منه والعمل به.

* * * * *

بعض الكافرين ليس بينهم وبين الإسلام إلا شهادة أن لا إلٰه إلا الله وأن محمداً رسولُ الله.

وبعض المسلمين ليس بينهم وبين الكفر إلا شهادة أن لا إلٰه إلا الله وأن محمداً رسولُ الله!

* * * * *

إلى مَنْ يسارع بالتكفير واستحلال القتل:

قال أُسَامَةُ بْنُ زَيْد رضي الله عنه: بَعَثَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْحُرَقَةِ مِنْ جُهَيْنَةَ، فَصَبَّحْنَا الْقَوْمَ فَهَزَمْنَاهُمْ، وَلَحِقْتُ أَنَا وَرَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ رَجُلًا مِنْهُمْ، فَلَمَّا غَشِينَاهُ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ.

فَكَفَّ عَنْهُ الأَنْصَارِيُّ، وَطَعَنْتُهُ بِرُمْحِي حَتَّى قَتَلْتُهُ.

قَالَ: فَلَمَّا قَدِمْنَا بَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ لِي: (يَا أُسَامَةُ، أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ)؟

قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّمَا كَانَ مُتَعَوِّذاً.

قَالَ: فَقَالَ: (أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ)؟

قَالَ: فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا عَلَيَّ حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَسْلَمْتُ قَبْلَ ذَلِكَ اليَوْمِ.

رواه البخاري في كتاب الديات، باب قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: {وَمَنْ أَحْيَاهَا} (٦٨٢٧)، ومسلم في كتاب الإيمان، بَاب تَحْرِيمِ قَتْلِ الْكَافِرِ بَعْدَ أَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ (١٥٩).

فقد جعل النبي عليه الصلاة والسلام شهادة أن (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ) عاصمة للإنسان من الحُكْم بكفره، حتى لو كان الظاهر أنه قالها خوفاً من القتل، فحسابه عند الله وهو العالِم بالسرائر، أما الناس فليس لهم أن يعاملوا غيرهم بناءً على سرائرهم.

فلَأَنْ تُخطِئ في الحكم بإسلامه وهو غير مسلم في حقيقة الأمر، خيرٌ لك من أن تخطئ في الحكم بكفره وهو ليس بكافر.

* * * * *

مَنْ رضي لنفسه أنْ يأخذَ الأحكام المسبقة من الآخرين ويقتنع بها دون أن يتأكد من صحتها، فقد جعل بينه وبين المعرفة حجاباً مستوراً.

* * * * *

العاقل لا يستهين برأي وتحليل صاحب العلم والخبرة حتى لو لم تظهر له أدلة واضحة على تحليله، فقد تكشف له الأيام صحة قوله، بعد أن تصبح الأمور واضحة للناس جميعاً.

* * * * *

الكثير يظن أنه لو عاش في حياة النبي عليه الصلاة والسلام لكان من أوائل أتباعه.

لكن الواقع يُثبِت أنَّ طريقة تفكير الناس وسرعة مهاجمتهم لكل من يختلف معهم

تدل على خلاف ذلك..

فهم يُحَاربون مَنْ يختلفون معه في فروع الدين، فكيف إذا كان الخلاف في أصل الدين!

فلنحمد الله أننا ولدنا مسلمين ولم نتعرض لابتلاءات وامتحانات قد لا نكون فيها من الناجحين.

* * * * *

مع بطلان هذا القول (بأن القرآن معجز بالصرفة) إلا أنه يدل على الإعجاز، فهل يمكن لإنسان أن يصرف الناس عن الإتيان بمثل القرآن أو سورة منه؟!

فلا بد أن هناك قدرة ربانية تفوق قدرة البشر.

* * * * *

يا من سُئِلت عن أمر سؤال استفهام، وليس سؤال اختبار أو إنكار أو اتهام..
إياك أنْ تحطِّمَ السائلَ أو تُظهرَ له استغرابَك الشديد من سؤاله البدهي..
فهو سألك لِتُزيلَ عنه الإشكال ولم يسألك لأنه بشوق إلى تحطيمك وتحقيرك..
ثم إنك بهذا الأسلوب تُضْعِفُ التواصلَ بينك وبينه، وتمنعه من السؤال مرة أخرى، وتجعل من الحواجز ما يحول بينه وبين التعلُّم.

* * * * *

الثقةُ بغير محلِّها: جهلٌ، والشكُّ في محلِّه: عِلْمٌ وعَقْلٌ.
فالثقة بغير محلها كمَنْ يَثِقُ بترجيحه الظنيِّ ثقةً زائدةً تمنعه من إعادة النظر، أو احترام الآراء الأخرى..
وكمَنْ يَثِقُ بأعدائه، بل ويواليهم من دون المؤمنين..
وكمَنْ يَثِقُ بكلِّ خبر يسمعه، ويصدِّق كلَّ ما يُقَال، فلا يتأكد من مصدره، ولا يعرضه على النقد والتحليل.
والشكُّ في محلِّه: كمَنْ يشكُّ في أغلب كلام الإعلاميين الذين لم يُعرَفوا بالصدق والنزاهة والذين باعوا نفوسهم ومبادئهم بعَرَضٍ من الدنيا قليل، فأصبحوا صدى لما يهواه أسيادهم..

* * * * *

عندما ينقدهم ويخالفهم يقولون: من تكلم في غير فنِّه أتى بالعجائب..
وإذا وافقهم طاروا فرحاً بكلامِه، وجعلوه عبقري زمانِه..

* * * * *

يحسب أنَّ الحقَّ لم يترك له صاحباً، ولم يُدرِك أنَّ أسلوبه المخالف للحق هـو الذي أدى به إلى ذلك..

* * * * *

مُتعَةُ المَوْضُوعِيَّةِ والاتِّزَان!

١ـ آفة الكلام سطوة الهوى، ونشوة النفس بالتميُّز والترفُّع على الأقران، فإذا اجتمع إلى ذلك نقد أفكار الآخرين وأقوالهم، وكشف أخطائهم كان لذلك متعـة للـنفس، تزيـد من غلوائها، وتتجاوز حدَّها إلى التجريح والتسفيه والاتِّهام..

وقلَّ مَنْ ينتبه لآفات النفس في ذلك، ويقف بها عنـد حـدِّ الشرع وأدب الحـوار والقول.. ومن يجاهد نفسَهُ، ويتجـرَّد عـن تلـك الآفـات يثمـر حـواره، وينتفـع النـاس بكلامه، ويعوِّضه الله بفضله متعة أعظم، ألا وهي متعةُ الموضوعيةِ والاتِّزانِ!

٢ـ لقد ضاعتْ كثيرٌ من الحقائق بين المبالغين في المدح والمجاملة وبين المبـالغين في الذم والانتقاص..

أصبحتُ لا أثق بكثير مما يقال في تراجم الناس وسِيَرهم.

فبعضهم لمحبته لشيخه لا يترك فضيلة إلا وينسبها إليه ويجعله عالمـاً متفننـاً في أكثر العلوم. وفي المقابل إذا كان بينه وبين غيره خلاف أنكرَ فضلَهُ وجحدَ علمَهُ..

رَحِمَ اللهُ المحدِّثين أصحابَ النزاهةِ والدقةِ في الحكم على الرجال.

٣ـ إنَّ الذي يريد أنْ يصلَ إلى الحقيقة عليه أنْ يبتعدَ عـن كلِّ أشـكال التعصـب، فتكون غايته هي الوصول إلى الحقِّ، فلا يهمه من أيِّ شخص جاء هذا الحـق، ولا في أيِّ مذهب أو جماعة أو اتجاه وُجِد.

٤ـ إنَّ الحقَّ ليس محصوراً في شخص أو فئة واحدة، فما معنى أنْ يزعم أحدهم أنـه يبحث عن الحقِّ ثم لا تجده إلا منتصراً لشخص واحد أو طائفة واحدة في كل اجتهاداته، ويبالغ في الرد والتعنيف على كلِّ من يخالف ذلك!

٥ـ وكثيراً ما يكون الحق موزعاً بين طرفين أو أطراف، فيكـون هنـاك جـزء مـن الحق عند طرف وجزء آخر عند الطرف المقابل، وقد يكون عند كلا الطرفين شيء من

التطرف، وكلاهما متطرف في اتجاهه، فالباحث عن الحقيقة عليه أنْ يأخذَ الحقَّ من كلا الطرفين، ويترك الخطأ والتطرف من كلا الطرفين.. ولا يكون همه منصرفاً إلى الدفاع عن اتجاه معين فيلوي النصوص والأدلة، ويتكلف في الاستدلال له بأدلة بعيدة، وكل هذا فقط ليوافق الاتجاه الذي هو عليه!

٦ـ إنَّ الحماسَ للحقِّ، لا يبرِّرُ الخروجَ عن الحقِّ.

من العجيب أن تجد من يريد الدفاع عن الحق، فلا يتورع من الوقوع في أباطيل كثيرة في سبيل الوصول إلى غايته من الحق! عجباً له، ألم يعلم أنَّ الغايةَ لا تبرر الوسيلة، وأنَّ الحقَّ لا يحتاج في إثباته إلى باطل يقوِّيه، فالحقُّ يستمدُّ قوَّته من ذاته، والباطلُ ضعيفٌ في نفسه، يكفي أنْ تدحضه بكل حيادية وموضوعية، فلا يلبث أنْ ينكشفَ زيفُه وعوارُه، وتُمحَى معالمه وآثارُه، فهي مبنية من خيوط العنكبوت الواهية..

إن الحماسَ للحقِّ، لا يبرِّرُ الخروجَ عن الحقِّ، فلا يصح لمن يبيِّن الحقَّ أنْ يعتذر لشدته وقسوته في كلامه أنه مع الحقِّ؛ لأنَّ الحقَّ يقتضي منه أنْ يدافع عنه بمنهج الحقِّ فيكون هادئاً بعيداً عن الإساءة والتجريح لمن يختلف معه.

أما من يجعل اهتمامه بالشخص أكثر من اهتمامه بالفكرة، ويسيء إلى مَنْ يختلف معه ويلمزه وينتقصه، فعليه أن يعلم أنه صاحبُ هوى وأنَّ نيَّتَهُ غيرُ خالصة وإن ادَّعى الإخلاص والنزاهة!

٧ـ منهج (لَيْسُوا سَوَاءً). عندما تحدَّثَ الله تعالى عن أهل الكتاب الكافرين بما أُنزل على النبي عليه الصلاة والسلام وذمَّهم بقوله سبحانه: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلا بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاؤوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ الأنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾.

قال تعالى بعد ذلك: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ. يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الخَيرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ. وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالمُتَّقِينَ﴾.

ما أجملَ هذا الإنصاف، وما أحسنَ هذا العدل! فأهل الكتاب لم يجعلهم الله في مرتبة واحدة ولا أطلق عليهم حكماً واحداً، وإنما بيَّن أصنافَهُم وأنواعَهُم وحَكَمَ على كلِّ صنف بما يستحق، وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أحَداً..

فهل يتعلَّم من هذه الآيات من يطلق الأحكام على من لا يحبه من الناس أو الجماعات والمذاهب والطوائف ويعمم في كلامه ويجعلهم كلهم في مرتبة واحدة.

٨ـ ليس هناك مانع أن ينتمي المسلم إلى أي مذهب من المذاهب الإسلامية، لكن المصيبة أن بعضهم يتعصب لمذهبه تعصباً يُبْعِدُه عن العقل والحكمة، فيوالي ويعادي من أجلها، ويقوم بالتقليل والانتقاص من المذاهب الأخرى، فيكون سبباً في تفريق المسلمين وفي إيقاع العداوة والبغضاء بينهم، ويخدم بذلك أعداء الإسلام من غير أجر يتقاضاه منهم.

إنَّ الاختلافَ في الفروع والظنيَّات وليس في الأصول والقطعيَّات، وتعدُّدَ المذاهب الإسلامية هو من الاختلاف المحمود الذي يثري الفكر الإسلامي، ويوسِّع على الناس في عباداتهم ومعاملاتهم، ولا يصح أنْ يكون سبباً للعداوة والبغضاء بين المسلمين.

إنَّ الأعداءَ يعلمون أنَّ غايةَ المسلمين واحدةٌ وهدفَهُم واحدٌ، فلذلك يعادونهم جميعا، فعلى المسلمين أن يتحدوا ويتعاونوا جميعا، كما يعاديهم أعداؤهم جميعا.

٩ـ وجِّه نقدك ونقضك للفكرة، ودعك من الحكم على قائلها، كي لا تقع في هوَّة الخصومة الشخصيَّة، والتكفير والتبديع لمعيَّن بغير حقٍّ.

إنَّ تكفيرَ المسلمِ يعني الحكمَ عليه بالخلود في النار، ويعني بطلانَ زواجه من المسلمة، وأنه ليس له حقوق المسلمين فلا يتوارث منهم ولا يدفن في مقابرهم، ويعني جراءةَ البعضِ على استحلال دمه وقتله، بل والتقرُّب إلى الله بذلك.

١٠ـ إنَّ الذي يربِّي أتباعَهُ على التعصُّب والإقصاء وانتقاص الآخرين، غالباً ما يشرب من نفس الكأس التي ملأها وربَّى الناس عليها، فالجزاء من جنس العمل، وكم هي الحالات التي انقلب فيها السحر على الساحر! فمَنْ يزرعِ الشوكَ فلنْ يَحصدَ إلا ما زرع..

ولأنْ تعلِّمَ الأتباع على الإنصاف واتباع الحقِّ الذي يظهر لهم، فيوافقوك في رأيك واجتهادك مرةً ويخالفوك أخرى وهم يحكِّمونَ دينَهُم وعقولَهُم، خيرٌ من أن ينقادوا لك بعاطفةٍ مَبنيَّةٍ على شفا جُرُف هارٍ، لا يضبطها عقلٌ ولا عِلْمٌ، ولا تَثْبُتُ على حال، فسرعان ما تتحوَّل وتنقلب من أقصى اليمين إلى أقصى ـ الشمال، وعندها قد يصبح الصديق عدواً، والعدو صديقاً، فتنقلب هذه العاطفة وتصبح معادية لمن كانت له موالية.

اللّٰهُمَّ أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه..

* * * * *

بَينَ إنصَافِ العِلْم وإجْحَافِ الجَهْل!

كم هو عجيب ومؤسف ما يتعامل به الكثير من الناس في حواراتهم وخلافاتهم وأحكامهم على الآخرين، من ابتعادهم عن العدل والإنصاف، ووقوعهم في الظلم والإجحاف.. فما هو سبب ذلك وما علاجه؟

١ـ العلم أساسُ كلِّ فضيلة، ومنبعُ كلِّ خصلة حميدة، فكلما ازداد الإنسان علماً نقصت المصائب والمشكلات التي قد يقع فيها، ونقصت المداخل والحيل التي يستطيع الشيطان من خلالها أن يفسد على المؤمن عبادته..

فالذي يقنط من رحمة الله، ينقصه العلم بسعة رحمة الله وفضله وكرمه..

والذي يعجب ويفخر بعمله، ينقصه العلم بضعفه وتقصيره، وينقصه العلم بعظيم حق الله عليه..

والذي يكفِّر المسلمين ويستحل دماءهم، ينقصه العلم بأحكام الدين..

والذي يضيع وقته فيما لانفع فيه أو فيما هو قليل الأهمية، ينقصه العلم بالأولويات..

وهكذا كلما تعلم الإنسان أكثر استطاع أن يعمل ما هو أفضل، وابتعد عن كثير من الأخطاء والمصائب..

فليس هناك ما يعظم نفعه على الفرد والمجتمع مثل العلم، وليس هناك ما يعظم ضرره وفساده مثل الجهل..

فكثير من المشاكل أهم أسبابها الجهل، وحلولها لا تكون إلا بالعلم.

٢ـ إن مَنْ يريد أن يتعلم العلم على أصوله الصحيحة ويكون منصفاً متزناً، عليه أن يأخذ العلم عن أهله الموثوقين، ويُنوِّع مصادره، ويُكثِر من الذين يستفيد منهم ويأخذ عنهم..

فكلما ازدادت معرفة الإنسان، اتسع صدره لما يسوغ فيه الخلاف، وزاد احترامه للأطراف الأخرى.

ومن قلَّ علمُهُ كَثُرَ اعتراضه فيما لا ينبغي الاعتراض عليه.

فليس كلُّ نقدٍ سببه: العلم، فكم من نقدٍ لم يأتِ إلا من الجهل وضيق الفهم..

فزيادةُ العلمِ مع سلامةِ القَصْدِ يحلّقانِ بصاحبهما إلى سماء الإنصاف، والجهلُ واتباعُ الهوى يهويانِ بصاحبهما إلى هُوَّةِ الإجحاف..

٣ـ والجهلُ خيرٌ من علمٍ مقترنٍ بالهوى والبغي..

قال تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ إلا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ العِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ﴾، فبيَّنَ اللهُ سببَ اختلافِهم بقوله: ﴿بَغْياً بَيْنَهُمْ﴾. وهكذا العلم حين يقترن بالظلم والبغي يكون وبالاً على صاحبه..

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾..

ولهذا قال أحد الحكماء: (العلمُ كالماء، يزيد الحلوَ حلاوةً، ويزيد المرَّ مرارةً)!

وقال بعض العلماء: (زيادةُ العلمِ في الرجل السوء كزيادة الماء في أصول الحنظل، كلما ازداد ريّاً ازدادَ مرارةً).

٤ـ كم هو مؤسف أن يجد بعض الناس متعتهم في إخراج الكثير من المسلمين من أهل السنة، وتضليلهم وتبديعهم، ويريدون تضييق دائرة الإسلام الكبيرة وحصرها في مذهبهم فقط، فالدين العظيم الذي جعله الله رحمة للعالمين، يجعلونه على الناس نقمة وعذاباً..

وكأنهم يقصرون أبواب الجنة على أنفسهم ولا يريدون لها أن تكون لغيرهم!

فهل مصيبة هؤلاء: الجهل؟ أم ضيق العقل والنظر؟ أم اتباع الهوى؟ أم الأنانية وعدم حب الخير للآخرين؟ أم هي مزيج من ذلك كله؟

٥ـ شتان بين من يحاور وهو يريد الوصول إلى الحق، وبين من يريد أن يثبت ويبرهن أن الطرف الآخر على ضلال، فتراه إذا تراجع الآخر عن خطئه لا يزال يقرِّعه ويؤنِّبه ويبيِّن له أنه الآن قد غيَّرَ كلامه بعد أن كان منحرفاً وضالاً..

وكان الأحرى به أن يساعده على قبول الحق باحترامه لأنه تراجع عن خطئه، وليس بأن يحول بينه وبين قبوله للحق بتقريعه وتأنيبه!

٦ـ إذا حاور أحداً ولم يقتنع بكلامه، اتهمه بأنه لا يريد الرجوع إلى الحق وسرد له الأدلة على أهمية الرجوع إلى الحق!

ومن قال له أنه قد اقتنع بكلامه ولكنه لا يريد الأخذ به! فقد تكون حجته غير مقنعة، وقد يكون عنده من الأدلة ما ينقض به كلامه..

٧ـ يختلف معه في الرأي فيقول له بلهجة حادة: اتق اللّٰه!

وكأنه لم يختلف معه إلا لنقص في التقوى عنده..

الحث على التقوى مطلوب ومحمود، لكن عندما يأتي بسياق يفهم منه اتهام الآخر، فاتهام الآخر لا يمكن أن يكون محموداً..

٨ـ المواقف التي تستفز الإنسان لها فوائد كثيرة، فهي تدرب على الصبر، وتشحذ العزيمة، وتثير الذهن، فيأتي بالأفكار والمعاني التي لم تكن لتخطر له لولا هذا الموقف..

وكم مِنْ أعمالٍ علميةٍ عظيمةِ الفوائد، كان سببها: التدافع والاختلاف في المواقف والأفكار..

أو وجود أعداء يريدون الإساءة، مما أدى بكثير من الناس إلى ردة فعل معاكسة دعتهم إلى الانتصار للحق.

فمن العقل والحكمة أن يتعامل الإنسان مع مَنْ يختلف معه، ولا يقتصر على مَنْ يوافقه..

فالذي لا يتعامل إلا مع مَنْ يوافقه، سيخسر الكثير من الفوائد، ولن تتاح له الفرصة ليكون أكثر نضجاً وعقلاً واتزاناً..

٩ـ يذمُّونَ شخصاً، لأنه تغيَّرَ ولم يَعُدْ كما كان عليه!

وهل التغير لا يكون إلا إلى الأسوأ؟ أليس هناك تغير إلى الأحسن!

فما معنى أنَّ الحقَّ قديمٌ والرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل..

ألم يقل الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه في مسألة: (تِلْكَ عَلَى مَا قَضَيْنَا يَوْمَئِذٍ، وَهَذِهِ عَلَى مَا قَضَيْنَا الْيَوْمَ)..

وهل يمكن للإنسان عندما يزداد علماً وفهماً أن تبقى أفكاره كما كانت قبل أن يزداد علماً..

أليس للإمام الشافعي: المذهب القديم والمذهب الجديد؟

أليس للإمام أحمد أكثر من رواية في كثير من المسائل؟

ثم بعد كل هذا يأتي من يلمز الآخر وينتقصه بحجة أنه تغير!

ولا شك أن الحديث عن التغير في الظنيات والوسائل، وليس في القطعيات والمحكمات.

ولكن من الخلل الكبير أيضاً أن يحسب أحدهم أن كل مسألة اقتنع بها هي قطعية لا يصح فيها الاختلاف، وأن كل ما نشأ عليه هو الحقُّ وما سواه هو الضلال..

١٠ـ الإمام أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصاري والإمام محمد بن الحسن الشيباني رحمهما الله هما من أكبر تلاميذ الإمام أبي حنيفة رحمه الله، ومع هذا لم يتعصب الصاحبان لقول الإمام أبي حنيفة، فكثيراً ما يذكر الفقهاء قول الإمام أبي حنيفة ومخالفة الصاحبَيْن له، وقد تكون الفتوى في المذهب على قولهما..

لقد كانوا يعلمون أنَّ الانتصارَ للحقِّ هو انتصارٌ للإمامِ نفسِه، وليس الدفاع عن قول الإمام بحقٍّ أو بغير حقٍّ هو انتصارٌ له..

كم هو الفرق كبير بين هذا الموقف ـ من الإمام في تقبله للحوار ومن تلاميذه في نقدهم له ـ وبين موقف بعض الأساتذة الذين لا يقبلون النقاش من تلاميذهم، وكذلك بعض التلاميذ الذين لا يتقبلون من أحد أن ينتقد أستاذهم..

١١ـ بعض الذين ليس لهم معرفة ودراية بحقيقة العلم وعمقه واتساعه إذا ذكرتَ له قولَ أحدِ الأئمةِ الأربعةِ أو غيرِهم من الأئمة والعلماء.. يقول لك غاضباً مستنكراً: أنا أريد الأخذ بالدليل!

وهل الأئمة الأربعة وغيرهم من العلماء لا يأخذون بالدليل؟ سواء أكان الدليل نصاً أم قياساً على نص، أو سواء أكان الدليل نقلياً أم عقلياً..

أو يريد بعضُهم الأخذَ بفقه السنة، مع أنَّ جميعَ هؤلاء الأئمةِ فقههم هو فقهٌ للسنة، فكلُّهم من أصول مذهبهم: الكتاب والسنة والإجماع والقياس.

لكن القرآن والسنة فيهما ما يحتمل أكثر من دلالة، وفيهما العام والخاص، والمطلق والمقيد، وفيهما ما هو ناسخ وما هو منسوخ، وغير ذلك..

فهل يستطيع أي إنسان أن يميز بين دلالات الألفاظ المختلفة، ويفرق بين الناسخ والمنسوخ.. وهل يستطيع أن يجمع بين الأدلة إذا تعارضت في الظاهر..

فكل الأئمة يريدون الأخذ بالدليل، ولكن السؤال: هل ثبت الدليل وصح عند هذا الإمام؟ فإذا ثبت وصح، فكيف فهم هذا الدليل.. وكيف يكون الجمع بينه وبين غيره من الأدلة.

فالخلاف قد يكون سببه: ثبوت الدليل أو عدم ثبوته، وقد يكون سببه: اختلاف الفهم للدليل.

فالذي يريد أن يستغني عن كلام الأئمة ويأخذ بالدليل الذي يراه ويجعل خلاف الناس لفهمه هو خلافاً للدليل، هذا إنما يحذِّرُ الناسَ من التقليد للأئمة الكبار ثم يريد منهم أن يكونوا مقلدين له!

وليس معنى هذا الكلام: استنكار الاجتهاد من العلماء المتخصصين أهل الاجتهاد، وإنما هو استنكار لمن يريد الاجتهاد وهو لا يملك شيئاً من أداوته..

* * * * *

لا يخفى على مَنْ يتابع الساحة العلميَّة والفكريَّة أن هناك أموراً كثيرة تحتاج إلى إصلاح وإلى إعادة نظر، فهناك مَنْ يتطرَّق إلى بحوثٍ قليلة الأهميَّة، وهناك مَنْ يضخِّم بعضَ الخلافاتِ الفرعيَّة، وهناك مَنْ يتوهَّم وجودَ الخلافِ الحقيقيِّ في خلافاتٍ لفظيَّةٍ وشكليَّة..

١ـ فبعضُ الباحثين يبذل جهداً كبيراً في تأليف كتاب يرجِّحُ فيه قولاً على قول، وتكون المسألة من الخلافات الفرعية التي يسوغ فيها الاجتهاد والخلاف ـ سواء أكان الخلافُ الفرعيُّ في العقائد أم في الأحكام ـ..

وهو لن يستطيع بترجيحه واجتهاده أنْ يلغي الخلاف في المسألة، فلماذا لا يقتصر على ذكر أقوال العلماء في المسألة وما تبين له أنه هو الراجح، من غير تشنيع لمن يخالفه فيها، ومن غير أن يضخِّمَ الأمر ويجعله كأنه صراعٌ بين الحق والباطل..

فمثلُ هذه الأمورِ الخلافُ فيها هو خلافٌ بين راجح ومرجوح، وليس بين حق وباطل..

والإغراق في هذه المسائل الجزئية لا بدَّ أنْ يؤدي إلى الإهمال في القضايا الكبرى والأكثر أهمية منها..

٢ـ ممَّا يعين على الإنصاف: عدمُ الاقتصارِ على أخذ الكلام من الخصوم:

كثيرون ممن يتحدثون عن الفِرَق أو المذاهب أو الأشخاص يبتعدون عن الإنصاف؛ لأنهم يقعونَ ضحيةً لتشويه الخصوم لهم، ولا ينظرون نظرةً مستقلةً في كلام مَنْ يتحدثون عنهم..

ولو ابتعدَ هؤلاء الناقدون عن تقليد بعضهم لبعض، ونظروا في كلام مَنْ ينتقدونهم، وسمعوا الكلام منهم، ولم يقتصروا على السماع عنهم، لأدركوا كم كانوا بعيدين عن الحقيقة، التي كانوا يحسبون أنفسهم مدافعين عنها!

٣ـ ومما يعين على الإنصاف: الجمعُ بين الدِّقَّةِ وسعة الاطلاع:

فالدِّقَّةُ وحدها لا تكفي مع قلة الاطلاع، وكثرة الاطلاع لا تجدي مع عدم الدقة، فلا بد من التوازن والجمع بين الأمرين: التدقيق في الكلام وسعة الاطلاع..

لأنَّ كثيراً ممن يفقد الموضوعية والاتزان، ينقصه إما الدقة أو سعة الاطلاع أو كلاهما.

وأساسُ العلم: الدقة، وعمقُ الفهم.

٤ـ مَنْ يتكلم بعلم وإنصاف وأدب، تجد كلامه مقبولاً عند الكثير من أتباع المذاهب والاتجاهات، إلا مَنْ كان متعصباً منهم.

وبهذا تكثر الاستفادة من المنصف، خلافاً للمتعصب الذي يكون تأثيره غالباً داخل مذهبه أو جماعته فقط.

فضلاً عن الخصومات والمعارك والعداوات التي كان هو سبباً فيها بتعصُّبه وضيق نظره..

٥ـ الانضباط بالعلم والاحتكام إلى الحجة والبرهان:

ما على مَنْ كان منضبطاً بالعقل والعلم، ومحتكماً إلى الحجة والبرهان، وبعيداً عن التعصب: أن يكون منضماً لأي جماعة أو منتسباً لأي مذهب، ما دام داخلاً في دائرة الإسلام..

فهو باحتكامه إلى العلم سيأخذ الحقَّ أنَّى وَجَدَه، وسيترك الخطأ متى عَرَفَه..

أما المتعصبُ والمتطرِّفُ، فانتسابُه لأيِّ مذهبٍ أو جماعةٍ سيجعله متبنِّياً ومدافعاً عن كلِّ ما عندهم من خطأ أو صواب..

٦ـ عندما تَرُدُّ على الأفكار وليس على الأشخاص، تُبْعِدُ نفسَكَ عن أيِّ بغيٍ أو فجورٍ في الخصومة، ولا يستطيع أحد أنْ يتهمَك أنَّ دافعَك هو الغيرة والتحاسد..

ويكون كذلك الرَّدُّ شاملاً لكلِّ من يقول بذلك الكلام ولا يقتصر على واحد بعينه.

وكذلك إذا تراجع الآخر عن كلامه لا تذهب قيمة كلامك؛ لأنه ليس موجهاً إليه بالذات وإنما إلى الفكرة.

٧ـ الإسلامُ دينُ اللهِ تعالى، فليس لإنسان أنْ يُحَكِّمَ هواه ومزاجَه في حديثه عن الدِّين أو بيانه لأحكامه، وأهواءُ الناسِ قد تميل نحو التشديد أو نحو التيسير.

فالأمرُ الذي جعله الله مكروهاً بإجماع العلماء، لا يجوز لأحدٍ أنْ يحرِّمَهُ احتياطاً للدِّين.

وكذلك الأمر الذي جعله الله ظنياً، لا يجوز لأحدٍ أنْ يدَّعي أنه قطعيٌّ لا يقبل الاختلاف.

وما جعله الشرعُ صغيرةً من الصغائر لا يجوز ادعاء أنه من الكبائر..

وهذا الكلام قد يبدو بدهياً عند التنظير، إلا أنَّ هناك مَنْ تضيق نفوسُهُم بسعة الدِّين، ويأبون إلا أنْ يحكِّموا أهواءهم وأمزجتهم، فلا تكون موازينُهم منضبطةً بشرع الله تعالى.

٨ـ مِنْ تعاليمِ الإسلام: الولاءُ والبراءُ، والمحبةُ في الله والبغضُ في الله.

فلماذا لا يعرف بعضهم إلا البراء والبغض في الله، ولا يوجد عندهم موضع للولاء والمحبة في الله..

ومِنْ منهج المحدِّثين: الجَرْحُ والتعديل، وليس الاقتصار على الجرح، مع التزامهم بشروط ذلك وآدابه.

فلماذا يقتصر البعض على الجَرْح ويتركون التعديل، ولا يلتزمون بأحكام ذلك وآدابه..

٩ـ كلما سمعوا نقداً تساءلوا:

١ـ لماذا في هذا الوقت؟

٢ـ من وراء هذه الحملة؟

٣ـ لماذا يتوجه النقد إلينا وليس إلى غيرنا؟

والجواب:

١ـ النقد ليس له وقت محدد.

٢ـ ينبغي أن يكون الاهتمام بالأفكار وليس بالأشخاص.

٣ـ للحرص على تطوُّرِكم وتقدُّمِكم.

فالنقدُ البنَّاء هو دليل المحبة والوفاء، وليس علامة على الكراهية والجفاء..

١٠ـ من أسباب الخلافات اللفظية:

كثيرٌ من الخلافات عند التحرير والتدقيق يتبيَّن أنها خلافاتٌ لفظيَّةٌ، لا يترتب عليها اختلاف حقيقي.

ومِنْ أهمِّ أسباب وجود هذه الخلافات اللفظية: عدمُ تحريرِ المصطلح بشكل دقيق..

فتراهم يختلفون في الأمر، وكلٌّ منهم له مفهوم مختلف عن الآخر لذلك المصطلح!

فهناك من ينكر دليل (الاستحسان) لأنه يحسب أنه استحسان بالرأي من غير ضابط ولا دليل.

وهناك من يعتبر الاستحسان دليلاً مقبولاً، ويرى أنه العدول بحكم المسألة عن نظائرها لدليل خاص أقوى.

أو أنه عدول عن قياس جلي إلى قياس خفي، فيكون الاستحسان هنا نوعاً من القياس لكنه ليس قياساً جلياً ظاهراً..

وكذلك الأمر فيمن أنكر المجاز في اللغة العربية، فالذين يثبتون المجاز وهم أكثر العلماء، يعرِّفونه بأنه استعمال اللفظ في غير ما وضع له في أصل اللغة.

لكن الذين أنكروا المجاز قالوا: اللفظ في أصل اللغة يُستعمَل في هذين المعنيين، فلهذا لا يجعلون استعماله في المعنى الآخر من باب المجاز..

فالفريقان أثبتوا المعنى نفسَهُ، لكن أحدهم اعتبره حقيقة لأنه يرى أن اللفظ يستعمل في أصل اللغة في هذين المعنيين، والآخرون اعتبروه مجازاً لأنهم يرون أنه استعمالٌ للفظ في غير ما وضع له في أصل اللغة.

فالخلاف بين الفريقين لفظي وليس خلافاً معنوياً، فلا يوجد اختلافٌ جوهري بين الفريقين..

١١ـ يحسب أحدهم أنه استطاع بحنكته وخبرته أن يقرأ ما وراء السطور، وهو لم يفهم حتى ظاهر السطور!

فقد استطاع أن يتهم الآخر باتهامات كثيرة من خلال فهمه لما وراء السطور، ولم يستطع من قراءته لمنطوق كلامه أن يصحح لنفسه هذه الظنون الخاطئة.. وكأنه لم يعلم أنَّ المنطوقَ مقدَّمٌ على المفهوم، وأنَّ الأصلَ هو براءةُ الذمة، فالبراءةُ هي اليقين، وما ثَبَتَ باليقين لا يزول بالشك..

١٢ـ مِنْ صور اختلال الموازين واضطرابها:

أ ـ يطالبه أن يكون مَلَكاً عندما يكون هو شيطاناً!

فينسى ويترك أقل ما يجب عليه، ويتذكر ويطالب الآخرين أن يؤدوا له أعلى الحقوق..

لهذه الدرجة تصل الأنانية عند بعض الناس، فلا يرون إلا أنفسهم وما لهم من الحقوق، وما عدا ذلك فلا يعنيهم في شيء..

ب ـ عندما ينتقد أستاذَهُ أو أحداً من جماعته أو مذهبه، تراه في غاية اللطف والأدب، ويتأول له الأعذار الكثيرة، ويبيِّنُ أنَّ هذا الخطأ ليس إلا زلةً مغمورةً في بحر حسناته..

لكنه عندما ينتقد مَنْ يخالفه في المذهب أو الاتجاه تَذهب هذه اللغةُ اللطيفةُ أدراجَ الرياح، ويَطعن في دينه وعِرْضِه بأمْضَى الرِّمَاح، ولا يترك للمحبة والصلح مكاناً ولا موضعاً يستقر فيه..

فهذا الصنف يُحمَدُ له أنه ينقد أموراً في اتجاهه ومذهبه ولا يقتصر على نقد غيرهم من الاتجاهات الأخرى، إلا أنه ينقصه أن يكون نقده للاتجاهات الأخرى بنفس الأسلوب اللطيف الذي يفعله مع اتجاهه.

فيكفيه من الإنصاف أن ينقد الآخرين بنفس اللهجة التي ينقد فيها شيخه وأستاذه..

ج ـ يرضون لأنفسهم أن يكونوا من (الخوارج) مع العلماء والدعاة وعامة المسلمين، فيسارعون بتضليلهم وتفسيقهم عند أدنى خلاف ولو كان معتبراً وسائغاً..

ولكنهم يكونون (مرجئة) مع الحكَّام الظالمين، فمهما أجرموا وأفسدوا، سكتوا عن كل ذلك، بل قد يبررون لهم هذه الجرائم..

لماذا اختلفت موازينهم بين الحكام وغيرهم؟ فإما أن يكونوا متسامحين متساهلين مع الجميع، أو متشددين معهم كلهم..

١٣ـ يأتي بعضهم بألفاظ عائمة وعبارات فضفاضة، ولا يشرح مقصوده ومراده بشكل واضح ودقيق، حتى إذا جاءه مَنْ يحاوره في كلامه ويلزمه به، استطاع أن يتنصل من كلامه ويخرج منه ولا يتحمل عاقبته..

فهو لهذا لا يحب الوضوح والصراحة، ولكنه يحب الغموض والضبابية في التعبير..

أما أصحابُ المبادئِ فهم حريصون على إيصال رسالتهم بأوضح طريقة وأيسر سبيل حتى يفهمها أكبر عدد ممكن، وهم مستعدُّون لتحمل تبعاتها ونتائجها مهما كانت كبيرة..

١٤ـ ما أحوجَ الباحثَ إلى الشجاعةِ الأدبية، ـ وهي أنْ يقولَ الإنسانُ ما يعلمه مِنَ الحقائق أو ما توصّل إليه اجتهاده، من غير خوف ولا مداهنة لأحد من الناس ـ، وهذه الشجاعة الأدبية ليست أقل أهمية من الشجاعة في الحروب والمعارك!

فالشجاعة الأدبية قد تستجلب أعداء كثيرين يحاولون الإساءة إلى قائل ذلك الكلام.

وبالشجاعة الأدبية يَعرفُ الناسُ الحقيقةَ بشكلٍ واضح ولا تلتبس عليهم الحقائق.

وإذا عرفوا الحقيقة على ما هي عليه استطاعوا أن يجعلوا سلوكهم سليماً، فالفكرُ السليمُ هو الطريقُ إلى السلوكِ السليم.

وكثيرٌ من الانحرافات السلوكية سببها: الانحراف في الفكر والمفاهيم عند الإنسان..

فالمصيبةُ التي تحدث كثيراً أنْ يعرفَ أناسٌ الحقيقة ولا تكون عندهم الشجاعة لقولها، ويكون عند آخرين الشجاعة ولكن ليس عندهم الحقيقة، فتضيع الحقيقةُ بين عالم بها وخائف من قولها، وبين شجاع ولكنه جاهلٌ بها!

فخير الناس من اجتمع عنده:

ـ سلامة القصد ـ ومعرفة الحقيقة ـ والشجاعة لذكرها..

١٥ـ متى رأيت باحثاً أو عالماً قد كثر أعداؤه والمتحاملون عليه، فاعلم أنه بعيد عن التعصب لجماعته أو مذهبه، وأنه لا يفعل إلا ما يمليه عليه ضميره، ولا يقول إلا ما وصل إليه اجتهاده، ـ ولكل قاعدة استثناءات ـ

فما أكثرَ الكارهين للنقد والإصلاح، وما أكثرَ العاشقين لتعصُّبِهم وأخطائهم..

١٦ـ تلاميذ المصلحة: يلوم الناس كثيراً (أصدقاء المصلحة)؛ لأنهم يصادقون الآخر لالتماس مصلحتهم منه فقط، ولا يحبونه محبة صادقة، فيَظْهَر زَيْفُ محبَّتِهم عند أول اختبار وامتحان..

ولكنْ هناك أيضاً فريق آخر هو أحقُّ باللوم منهم، وهم (تلاميذ المصلحة)، الذين يريدون من أستاذهم أو شيخهم أنْ يوافقَهم في آرائهم، فإذا تكلَّم بما يخالفهم هجروه وناصبوه العداء..

نعم لا مانع أن يختلف أحد مع أستاذه، لكن أن يكون ذلك مع الاحترام والتقدير له ولرأيه، أما من يعادي لأجل هذا الاختلاف فهو من (تلاميذ المصلحة)..

وهم أسوأ من أصدقاء المصلحة؛ لأنهم قاموا بمعاداة من له فضل عليهم، وتنكروا له لمجرد الاختلاف اليسير، وقد يكونون هم المخطئين في رأيهم..

١٧ـ السبب في سعة العلم مع ضيق العقل والنَّظَر:

عندهم من الثقافة والاطلاع الشيء الكثير، لكن هذه الثقافة لم تجعلهم على قدر كبير من الانفتاح وسعة العقل وبُعْد النظر، بالقدر الذي يتناسب مع ذلك العلم..

وذلك لأنهم أحاطوا أنفسهم بأسوار وسياجات كثيرة، وجعلوا حدودها ضيقة، واعتبروها قطعية لا تقبل الاختلاف أو إعادة النظر فيها،

فأصبحت هذه السياجاتُ سداً منيعاً يحول دول الاستفادة من زيادة العلم..

١٨ـ الجمع بين النصوص والمقاصد:

هناك من يأخذون بالنصوص بعيداً عن فهمها والنظر في مقاصدها، وهناك من ينظرون في المقاصد ولا يهتمون بالنصوص..

ولا بد من الجمع والتوازن بين الأمرين، فالنصوص تُؤخَذ مع النظر في مقاصدها، والمقاصد تستند إلى النصوص وتؤخذ منها..

فالأخذ بالنص من غير فهمه فهماً سليماً ليس أقل ضرراً من تركـه؛ لأنـه ينسـب إلى النص معنى غير صحيح، وقد يسيء إلى الإسلام بذلك الفهم المغلوط.

فمعنى النظر في النصوص والمقاصد: هو النظر في مجموع الأدلة، ولـيس الاقتصـار على دليل واحد وترك غيره من الأدلة، فالأخذ بالمقاصد ليس تركاً للأدلة لأن المقاصد لها أدلتها من القرآن والسنة والإجماع والقياس وغير ذلك..

١٩ـ الرأي والفكر لا بد أن ينضج على نار هادئة:

بعض الكتابات مثل القهوة المُرَّة، فهي شـديدة التركـيز، لا يسـتطيع الإنسـان أنْ يشربَ منها الكثير..

وهي كتابات مُنَبِّهة مثل القهوة أيضـاً، تُبْعِـدُ الإنسـانَ عـن النـوم، وتوقظـه مـن السُّبَات العقلي والفكري..

وحتى تُعَدّ هذه القهوة بشكل جيد لا بد أنْ تبقى فترة على نار هادئة..

وكذلك الرأي والفكر حتى يكون سليماً قويـاً عميقـاً لا بـد أنْ ينضـجَ على نـار هادئة، ومن أكبر الأخطاء: التسرعُ في إطلاق الأحكام وفي استنتاج الأفكار واكتشافها..

٢٠ـ يا معشر الباحثين والكُتَّاب والمؤلفين!

إياكم واحتكار العلم والحَجْر على الناس في الاستفادة منه..

أنتم أصحاب مبادئ، تفرحون وتُسَرُّون كلما انتشرت الفائدة وعمَّت الآخرين.

أنتم تعلمون أن الله هـو الـرزاق، فنشرـكم للكتـاب إلكترونيـاً لـن يـنقص مـن أرزاقكم شيئاً، بل سيبارك الله لكم بفضله..

لا مانع من بيع الكتاب والاستفادة منه، لكن هذا لا يعني أن يحتكر هذا العلـم ويمنع غيره من الاستفادة منه بأي وجه آخر..

ونشر الكتاب في النت لن يحول دون شراء الكتاب من آخرين، فهناك من لا يقـرأ إلا في النت ولا يشتري شيئاً مـن المكتبـات، وهنـاك مـن لا يحـب إلا الكتـاب الـورقي فيشتريه حتى مع وجوده في النت.. فلكلِّ طريقةٍ في النشر مَنْ يميل إليها..

فلا ينبغي لباحث أن يغضب لأن أحداً قد نشر كتاباً له على النت مثلاً، بل ينـبغي أن يكون هذا مدعاة لغبطته بذلك..

أئمة الإسلام الكبار الذين غمرونا بكتبهم وعلمهم لم يأخذوا مقابلاً مادياً على أعمالهم العظيمة..

هل أخذ الإمام الطبري مثلاً على كتبه أجراً مادياً أو الإمام الغزالي أو الإمام النووي أو الحافظ ابن حجر، أو الإمام ابن قدامة، وغيرهم الكثير..

صحيح أن الزمن اختلف، لكن المبادئ السامية لم تختلف..

الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كان شعارهم:

﴿قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً﴾.

﴿وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى اللَّهِ﴾.

﴿يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

* * * * *

المعارك العلمية السنوية!

هناك معارك علمية تتجدد كل عام، (وتسميتها بالعلمية تكون من باب التوسع في كثير من الأحيان لأنها تخرج عن ضوابط العلم وآدابه).

فمن معركة الاحتفال بالمولد النبوي، إلى معركة فضل ليلة النصف من شعبان وحكم إحياء هذه الليلة، إلى معركة رؤية الهلال وهل يصح الاعتماد على الفلك، واختلاف البلدان في رؤية الهلال، إلى معركة هل يجوز إخراج القيمة في زكاة الفطر، ومعركة هل تجب صلاة الجمعة إذا صادف ذلك يوم العيد، وغير ذلك من المعارك.

هذه المعارك تدل على خلل كبير عند كثير من الناس الذين لا يعترفون بالقول الآخر الذي لا يقل منزلة عما أخذوا به من الأقوال والأحكام.

والمشكلة عندما يكون الخلاف قد حصل منذ زمن الصحابة فمن بعدهم من التابعين والأئمة الأربعة، ثم يأتي من يريد مصادرة هذه المذاهب والأقوال التي صدرت عن أئمة التقوى والورع والعلم والفهم، ويدّعي أن هذا القول أو الحكم شاذٌّ أو ضعيف لا يجوز العمل به..

ولو سألته عن سبب ضعف هذا الرأي أو شذوذه وعدم ضعف القـول الذي أخـذ به لَـمَا وجد فرقاً علمياً يستطيع أن يفرِّق به بين منزلة القول الذي أخـذ والقـول الذي يريد رده وإلغاءه..

فتجده لم يحكم على القول بالضعف أو الشذوذ إلا لأنه لم يألف هـذا القـول، أو لم يجد عليه شيوخه، مع أنه قد يكون القول الآخر الذي يريد إلغـاءه هـو أقـوى أدلـة واستدلالاً من القول الذي يتحمس له ويوالي ويعادي من أجله!

وقد يغتر أحدهم بكثرة من رجح هذا القول أو ذاك من المعـاصرين، وكـأن هـذه الكثرة ستغلب فقه أئمة القرون الأولى وستجعل قولهم ضعيفاً!

نعم، قد يصح في بعض الحالات جعل الكـثرة قرينـة على صـحة القـول، ولكـن بشرط أن تكون هـذه الكـثرة مـن نفـس المرتبـة، كـأن يكونـوا كلهـم مـن العلمـاء المتقدمين..

أما أن يُفضَّل القول الذي قال به عدد كبير من المتأخرين على القول الذي قال به عدد قليل من المتقدمين فهذا ليس بشيء في ميزان العلم.

* * * * *

القول الشاذ

هناك من يجعل (القول الشاذ) هو كل قول لم يَعرفه أو لم يَألَفه حتى لـو كان قـولاً سائغاً ومعتبراً.

وكأنه وصل إلى مرتبة عالية في العلم تجعل كلَّ ما لا يعلمه شاذاً ومردوداً!!

ولهذا لا تجده منضبطاً في حكمه على قول بالشذوذ أو عدم الشذوذ، فتراه يصـف قولاً بالشذوذ وآخر بعدم الشذوذ مع أن المسألتين في نفس الدرجة،

بل قد يصف ما هو أقوى أدلةً واستدلالاً بالشذوذ وما هـو أضـعف دليـلاً بعـدم الشذوذ!

الحكم على قول بالشذوذ يحدده العلماء بعد دراستهم للمسألة والنظر في أدلتهـا، بعيداً عن التحيز للقناعات المسبقة أو لما هو شائع.

* * * * *

يتحدث في كل شيء!

كيف يمكن أن تثق في كلام شخص يتحدث في كل شيء، ودون أن يستند إلى علم، وعنده ثقة زائدة في كل ما يقوله..

فلا يحسن أن يسكت عما لا يعلمه، ولا يحسن أن يقول: لا أدري،

ولا يحسن أن يشك في رأيه أو يستمع إلى رأي غيره ليستفيد منه، ولكنه ربما استمع ليرد عليه لا ليكمل نقصاً عنده..

* * * * *

وشتان بين من يستطيع أن يصمت وهو يعرف الجواب، وبين من لا يستطيع أن يصمت حتى حين يجهل الجواب.

* * * * *

كثيرٌ من الأمور بُنِيَتْ على غيرها فهي (فرع) بالنسبة لها، وكذلك غيرُها بُنِيَ عليها فهي (أصلٌ) بالنسبة لها، فإذا نقضتها بغير حق لأنها صحيحة ولا تستحق النقض، فقد هدمت ما بُنِيَ عليها من فروع صحيحة.

وإذا نقضتها وهي تستحق النقض، فقد ساهمت في تصحيح الكثير من الأخطاء التي بُنِيَتْ على ذلك الأصل الفاسد.

وهذا يدل على شدة ارتباط قضايا العلم بعضها ببعض، وأن القضية لا يمكن أن تنفصل عن غيرها..

فبعضهم يريد أن يرد بعض القضايا الصحيحة التي لا يصح ردها، لأنه ينظر إليها من زاوية معينة، ويغفل عما يحصل في ردها من الأخطاء الكبيرة التي تزيد على ما يريد إنكاره..

ومن الأمثلة على ذلك:

ـ (القياس) مبني على الكتاب والسنة فهو فرع عنهما، وينبني على القياس الكثير من الفروع الفقهية. فهو أصل لهم.

فإذا نفيت القياس رددت ما ينبني عليه من فروع.

ـ الذي ينكر (حد الرجم) وقع في كثير من الأخطاء المنهجية، من رد للسنة المتواترة الثابتة بشكل قطعي، وأن الخلفاء الراشدين وفقهاء الصحابة الذي عايشوا نزول الوحي لم يعلموا بالناسخ والمنسوخ حتى جاء في هذا العصر من يتوقع أن الرجم منسوخ من غير دليل على ذلك.

وكذلك ما يلزم من كلام من يقول أن حد الرجم غير إنساني أن النبي عليه الصلاة والسلام لم يكن إنسانياً (والعياذ بالله من ذلك)..

* * * * *

ما أكثرَ ما حذَّروا من الديمقراطية، وما أقل ما حذروا من الاستبداد..

إذا استُعملت الديمقراطية في الأمور التي لا تعارض نصاً شرعياً، ولا تصادم إجماعاً،

ولم تُؤخذ الديمقراطية بكل خلفيتها، وإنما أُخذ منها ما يناسب المسلمين ولا يتعارض مع دينهم، فيمكن لها أن تكون آليات لتطبيق الشورى؛ فما الحرج في ذلك؟

وعلى اعتبار أن الديمقراطية مَفسدة على كل حال: كيف غابت الموازنة في ذلك بين هذه المفسدة وغيرها من المفاسد، فأي المفسدتين أكبر، مفسدة الاستبداد التي تنبت فيها كل الشرور والآثام أم مفسدة الديمقراطية!

وبمعنى آخر: أيهما أكثر ضرراً، حكم الشعب للشعب، أم حكم فرد من الشعب للشعب؟

وكذلك أي المفسدتين أكبر، أن لا يشارك فيها ويترك المجال لأعداء الإسلام يفعلون ما يريدون دون وجود من يزاحمهم، أم يشارك ويكون له قوة وتأثير ونفوذ يمكن له من خلاله أن ينصر الإسلام والمسلمين..

ليست الديمقراطية هي الحل الوحيد ولا الأفضل، فليس معنى كلامي أن الناس مخيرون فقط بين الديمقراطية أو الاستبداد، فالديمقراطية هي جهد بشري قابل للتطوير، ويمكن الإتيان بأفضل منها، فإذا ظهر ما هو أفضل فالانتقال إليه أَوْلى..

(تنبيه: أعتقد أنني ما زلت مسلماً ومعتزاً بديني، فلا تستمتع بتضليلي أو تكفيري)

* * * * *

ما هو الفرق بين السلفية والأشاعرة؟

جوابي:

الفرق بين السلفية والأشاعرة هو في المسائل الفرعية الظنية التي لا يضر الاختلاف فيها، فهم متفقون في أصول الإسلام، وكلُّهم من أهل السنة والجماعة، فجميعهم يؤمنون بالله تعالى رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد عليه الصلاة والسلام نبياً ورسولاً.

فالخلاف بينهم إما أنه خلاف في الفروع والظنيَّات، أو هو خلاف لفظي اعتبره البعض خلافاً حقيقياً..

أما تراشق الاتهامات بين بعض السلفية للأشعرية، وبعض الأشعرية للسلفية فهو مما يسيء إلى الإسلام ويفرّق الأمة، ويوغر الصدور، ويشمت بنا الأعداء.

* * * * *

هل انتشر الإسلام بحد السيف؟!

كيف يكون الإسلام منتشراً بحدِّ السَّيف ولم يدخل فيه في البداية إلا قلَّة على خوف من النَّاس أن يفتنوهم عن دينهم ويضلوهم..

وكيف يكون ذلك وقد دخل فيه ضعفاء النَّاس من العبيد وغيرهم ولاقوا الأذى في سبيل ذلك ولم يصدهم عن دينهم شيء.

ثم نرى أروع النماذج من حبِّهم لهذا الدين، وتضحيتهم من أجله مهما كلَّف الأمر.

لقد جاء النبي ﷺ إلى النَّاس بشريعة مهداة تجعل مَنْ أراد الحق يدخل فيه عن اقتناع فيه دون انتظار لمعجزة تجعله موقناً بأنَّه دين حق.

وما منع مَنْ لم يدخل في الإسلام إلا العناد والمكابرة مع اليقين أنَّ ما جاء به هو الحق ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾، أو الحرص على الزعامة وخشية العار من قومهم، وقد قال قائلهم:

وعرضتَ ديناً قد علمتُ بأنَّه ... مِنْ خيرِ أديانِ البريَّةِ دِينَا

لولا الملامة أو حذارِ مسبَّة ... لوجدتني سمحاً بذاك مبينا

لقد وسع النبيُّ ﷺ النَّاس برحمته فكان أبغضُ النَّاس إليه أحبَّ النَّاس إليه قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ القَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾.

وقد جاء عمر إلى النبيِّ ﷺ يريد قتله والقضاء عليه، فما لبث إلا أن صار مؤمناً نصر الله به الدين.

وكان النبيُّ ﷺ رحيماً حتى بأعدائه، فكان يعفو عنهم مع كامل القدرة عليهم، ولم يكن ليتعامل معه بالقوَّة والقهر، فقد قال لهم بعد فتح مكة: ما ترون أنِّي فاعل بكم؟ قالوا: خيراً أخٌ كريم وابنُ أخ كريم. فقال لهم: اذهبوا فأنتم الطلقاء.

وعندما توشح المشرك سيفه وهو غورث بن الحارث، وقام على رأس رسول الله ﷺ بالسيف وقال له: مَنْ يمنعك مني؟ قال: الله. فسقط السيف من يده فأخذه رسول الله ﷺ، وقال: من يمنعك؟ قال: كن خير آخذ، قال: تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول

الله؟ قال: أعاهدك على أن لا أقاتلك، ولا أكون مع قوم يقاتلونك، قال: فخلى رسول الله ﷺ سبيله فجاء إلى قومه، فقال: جئتكم من عند خير النَّاس [٩٥].

ولم يستغلها النبي ﷺ فرصة لإجباره على الإسلام.

وعندما بعث رسول الله ﷺ سعد بن عبادة في كتيبة من الأنصار أمرهم أن يكفوا أيديهم فلا يقاتلوا أحداً إلا مَنْ قاتلهم. ولما قال سعد: اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل الحرمة، أرسل رسول الله ﷺ إلى سعد بن عبادة فعزله [٩٦].

وعن ابن عمر أنَّ رسول الله ﷺ رأى في بعض مغازيه امرأة مقتولة فأنكر ذلك ونهى عن قتل النساء والصبيان [٩٧].

وكان ﷺ ينهى أصحابه عن قتال من لم يقاتل، فعن أنس قال: كنا إذا استنفرنا نزلنا بظهر المدينة حتى يخرج إلينا رسول الله ﷺ، فيقول: (انطلقوا بسم الله وفي سبيل الله تقاتلون أعداء الله، لا تقتلوا شيخاً فانياً، ولا طفلاً صغيراً، ولا امرأة، ولا تغلوا) [٩٨].

وهكذا كان الصحابة من بعده فقد أوصى أبو بكر حينما بعث جيوشاً إلى الشام وقال ليزيد بن أبي سفيان: وإنِّي موصيك بعشر، لا تقتلن امرأة ولا صبيّاً ولا كبيراً هرماً، ولا تقطعن شجراً مثمراً، ولا تخربن عامراً، ولا تعقرن شاة ولا بعيراً إلا لمأكلة، ولا تحرقن نخلاً ولا تغرقنه، ولا تغلل ولا تجبن [٩٩].

فالإسلام إنَّما انتشر بالحبِّ والعقيدة التي أكرمت الإنسان وحرَّرته مِنْ سوى الله جلَّ وعلا، واعترفت بحاجات النَّاس فلم تعارضها، بل كانت مقرة بها وشرعت لها ما يناسبها من تعاليم وأحكام، فكانت صالحة لكل زمان ومكان.

---

(٩٥)ـ انظر المستدرك على الصحيحين كتاب المغازي والسرايا رقم (٤٢٩٠)، ودلائل النبوة للبيهقي رقم (١٢٧٢).

(٩٦)ـ انظر صحيح البخاري كتاب المغازي رقم (٣٩٤٤)، السنن الكبرى للبيهقي ٩: ١٢١.

(٩٧)ـ رواه مالك في كتاب الجهاد رقم (٨٥٧)

(٩٨)ـ رواه ابن أبي شيبة في المصنف ٧: ٦٥٤، وأبو داود في كتاب الجهاد برقم (٢٢٤٧) باختلاف يسير.

(٩٩)ـ رواه مالك في كتاب الجهاد رقم (٨٥٨).

وقد اعترض الإمام ابن القيم رحمه الله على من يعتمد في الخطبة على السيف إشارة إلى أنَّ الدّين فتح به، فقال: وكثير من الجهلة كان يمسك السيف على المنبر إشارة إلى أنَّ الدّين إنَّما قام بالسَّيف، وهذا جهل قبيح من وجهين أحدهما: أنَّ المحفوظ أنَّه ﷺ توكأ على العصا وعلى القوس. الثاني: أنَّ الدين إنَّما قام بالوحي وأمَّا السَّيف فلمحق أهل الضلال والشرك، ومدينة النبيّ ﷺ التي كان يخطب فيها إنَّما فُتحت بالقرآن ولم تُفتح بالسيف [1].

والإسلام أعطى الحرية الكاملة لاعتقادات النَّاس، فلم يكره أحداً على الدين يقول تعالى: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾، عن ابن عباس أنه قال: نزلت في رجل من الأنصار من بني سالم بن عوف يقال له الحصين، كان له ابنان نصرانيان، وكان هو رجلاً مسلماً، فقال للنبي ﷺ: ألا أستكرههما فإنهما قد أبيا إلا النصرانية؟ فأنزل الله فيه ذلك [2].

وقد شرعت الجزية لمن لا يريد الدخول في الإسلام، وهي مبلغ زهيد وذلك مقابل حمايتهم، وعدم الاشتراك معهم في الدفاع عن الإسلام.

قال الإمام النووي: وقد حمى الإسلامُ الحنيفُ أهلَ الذمة وعاشت في ظلّه ديانات اليهود والنصارى بعد أن كان يضطهد بعضهم بعضاً، ويقتل بعضهم بعضاً فأقرَّ بينهم السَّكينة والوئام والسَّلام، وترك لهم حرّية الاعتقاد عملاً بقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [3].

وقد أمر الله نبيَّه بمسالمة العدو إنْ أمنوا جانبَهم من المكر والخيانة، قال تعالى: {وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}.

يقول الطبري رحمه الله: وإنْ مالوا إلى مسالمتك ومتاركتك الحربَ، إمَّا بالدُّخول في الإسلام، وإمَّا بإعطاء الجزية، وإمَّا بموادعة ونحو ذلك مِنْ أسباب السِّلم والصُّلح {فَاجْنَحْ لَهَا}، يقول: فمل إليها، وابذل لهم ما مالوا إليه من ذلك وسألوكه [4].

---

[1] ـ زاد المعاد ١: ١٧٨.

[2] ـ رواه الطبري في تفسيره رقم (٥٨١٧).

[3] ـ المجموع ١٤: ٢٨٥.

[4] ـ تفسير الطبري ١٤: ٤٠.

وظلَّ الرَّسول ﷺ يدعو النَّاس إلى الإسلام في مكَّة ثلاث عشرة سنة، بالحكمة والموعظة الحسنة، ولم يقاتل أحداً طوال هذه الفترة، مع ما تعرَّض له المسلمون من الأذى في دينهم.

وليس معنى هذا تضييق نطاق الجهاد أو أنَّ الجهاد لم يشرع إلا للدفاع فقط، فقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ قال الطبري: يقول لهم: ابدأوا بقتال الأقرب فالأقرب إليكم داراً، دون الأبعد فالأبعد. وكان الذين يلون المخاطبين بهذه الآية يومئذ، الرُّوم، لأنَّهم كانوا سُكَّان الشَّام يومئذ، والشَّام كانت أقرب إلى المدينة من العراق. فأمَّا بعد أنْ فتح الله على المؤمنين البلاد، فإنَّ الفرض على أهل كلِّ ناحية: قتالُ مَنْ وليهم مِنَ الأعداء دون الأبعد منهم، ما لم يضطرّ إليهم أهل ناحية أخرى من نواحي بلاد الإسلام، فإن اضطروا إليهم لزمهم عونهم ونصرهم، لأنَّ المسلمين يدٌ على مَنْ سواهم [١].

يقول سيِّد قطب رحمه الله: إنَّ للإسلام - بوصفه المنهج الإلهي الأخير للبشريَّة - حقَّه الأصيل في أنْ يُقيم نظامه الخاص في الأرض، لتستمع البشريَّة كلُّها بخيرات هذا النِّظام، ويستمتع كلُّ فرد في داخل هذا النِّظام بحرِّية العقيدة التي يختارها، حيث «لا إكراه في الدين» من ناحية العقيدة.. أمَّا إقامة «النظام الإسلامي» ليظلل البشرية كلَّها ممن يعتنقون عقيدة الإسلام وممن لا يعتنقونها، فتقتضي الجهاد لإنشاء هذا النظام وصيانته، وترك النَّاس أحراراً في عقائدهم الخاصَّة في نطاقه. ولا يتمُّ ذلك إلا بإقامة سلطان خير وقانون خير ونظام خير يحسب حسابه كل مَنْ يفكِّر في الاعتداء على حرِّية الدَّعوة وحرِّية الاعتقاد في الأرض [٢].

فالجهاد مشروع لنا، ولكن ليس لإكراه النَّاس على هذا الدِّين ولكن لأهداف أخرى ذكرها سيِّد قطب في تفسيره فقال:

أولاً: ليدفع عن المؤمنين الأذى والفتنة التي كانوا يسامونها، وليكفل لهم الأمن على أنفسهم وأموالهم وعقيدتهم. فاعتبر الاعتداء على العقيدة والإيذاء بسببها، وفتنة

---

(١) ـ تفسير الطبري ١٤: ٥٧٤.

(٢) ـ خصائص التصور الإسلامي ومقوماته: ١٧.

أهلها عنها أشد من الاعتداء على الحياة ذاتها. فالعقيدة أعظم قيمة من الحياة وفق هذا المبدأ العظيم. وإذا كان المؤمن مأذوناً في القتال ليدفع عن حياته وعن ماله، فهو من باب أولى مأذون في القتال ليدفع عن عقيدته ودينه. وقد كان المسلمون يسامون الفتنة عن عقيدتهم ويؤذون، ولم يكن لهم بد أن يدفعوا هذه الفتنة عن أعز ما يملكون. يسامون الفتنة عن عقيدتهم، ويؤذون فيها في مواطن من الأرض شتى.

ثانياً: لتقرير حرِّية الدَّعوة - بعد تقرير حرِّية العقيدة - فقد جاء الإسلام بأكمل تصوُّر للوجود والحياة، وبأرقى نظام لتطوير الحياة. جاء بهذا الخير ليهديه إلى البشرية كلِّها، ويبلغه إلى أسماعها وإلى قلوبها. فمن شاء بعد البيان والبلاغ فليؤمن ومن شاء فليكفر. ولا إكراه في الدين. ولكن ينبغي قبل ذلك أنْ تزول العقبات من طريق إبلاغ هذا الخير للناس كافَّة؛ كما جاء من عند الله للناس كافَّة. وأنْ تزول الحواجز التي تمنع النَّاس أنْ يسمعوا وأنْ يقتنعوا وأنْ ينضموا إلى موكب الهدى إذا أرادوا. ومن هذه الحواجز أنْ تكون هناك نُظُم طاغية في الأرض تصدُّ النَّاس عن الاستماع إلى الهدى وتفتن المهتدين أيضاً. فجاهد الإسلام ليحطِّم هذه النُّظُم الطَّاغية؛ وليقيم مكانها نظاماً عادلاً يكفل حرِّية الدَّعوة إلى الحقِّ في كلِّ مكان وحرِّية الدُّعاة.

ثالثاً: جاهد الإسلام ليقيم في الأرض نظامه الخاص ويقرِّره ويحميه، وهو وحده النِّظام الذي يحقِّق حرِّية الإنسان تجاه أخيه الإنسان؛ حينما يقرر أنَّ هناك عبودية واحدة لله الكبير المتعال، ويلغي من الأرض عبوديَّة البشر للبشر في جميع أشكالها وصورها. فليس هنالك فرد ولا طبقة ولا أمة تشرع الأحكام للناس، وتستذلهم عن طريق التشريع. إنَّما هنالك ربٌّ واحد للناس جميعاً هو الذي يشرع لهم على السَّواء، وإليه وحده يتَّجهون بالطَّاعة والخضوع، كما يتَّجهون إليه وحده بالإيمان والعبادة سواء.

لم يحمل الإسلام السَّيف إذن ليكره النَّاس على اعتناقه عقيدة؛ ولم ينتشر بالسيف على هذا المعنى كما يريد بعض أعدائه أن يتهموه! إنَّما جاهد ليقيم نظاماً آمناً

يأمن في ظلِّه أصحاب العقائد جميعاً، ويعيشون في إطاره خاضعين له وإن لم يعتنقوا عقيدته [1].

قال الشيخ علي الطنطاوي: إنَّ الذين يحسبون الجهاد عدواناً مسلحاً، لا يدرون ما الجهاد، الجهاد ليس حرباً هجوميَّة نعتدي فيها على النَّاس، والإسلام إنَّما جاء لإقرار العدل وتحريم العدوان، وليس الجهاد حرباً دفاعيَّة بالمعنى العسكريِّ، فما احتلَّ الكفار مكة ولا المدينة، ولكن مَثَل الجهاد كقطر كبير أصابه القحط، فشحَّت الأقوات وعمَّ الجوع، وفشت الأمراض وقلَّ الدواء، فجاء مَنْ يحمل المدد إلى الجائعين، والدواء إلى المرضى لينقذهم مما هم فيه، فوقف في الطريق ناس يمنعونهم، يحولون بينهم وبين هذا الخير وهذا العمل الإنساني، فقالوا لهم: تعالوا شاركونا فيما نعمل تكونوا منَّا، ولكم ما لنا وعليكم ما علينا، فأبوا عليهم، فقالوا لهم: دعونا نمرّ ونحن ندافع عنكم، لا نكلِّفكم قتال عدو ولا بذل روح، على أن تمدونا بشيء من المال قليل. قالوا: لا. فلم يبقَ إلا أن يقاتلوهم، أن يقاتلوا هذه الفئة القليلة التي تمنع الخير عن النَّاس، يقاتلون أفراداً لينقذوا أمماً، وكان ذلك هو الجهاد [2].

* * * * *

هل الحرية قبل الشريعة؟

الحمد لله لا يُحصَى له عَدَدُ، ولا تحيط به الأقلامُ والمُدَدُ، وصلاةُ الله وسلامُه على أشرف الخلق صلاةً ما لها أمَدُ، وبعد،

فقد كَثُرَ الحديث عن الحرية وأهميَّتها، وذلك كردَّة فعل عن الاستبداد والظلم ومصادرة الحرِّيَّات، وبالغ بعضهم في الحرية حتى قال: الحرية قبل تطبيق الشريعة،

(1) ـ في ظلال القرآن ١: ٢٧٣ باختصار وتصرف.

(2) ـ فصول في الدعوة والإصلاح: ١٣٦.

وكأنَّ الحريةَ والشريعةَ خصمان لا بد من تقديم أحدهما على الآخر، فهل الحرية قبل الشريعة؟

هناك فرق بين من يقول ذلك معالجةً لواقع معين خاص وليس تقريراً لمبدأ عام، فالشعوب التي سُلبت حرِّيتها وانتهكت كرامتها لا بدَّ من استرداد حقِّها في الحرية والكرامة الإنسانية، أما من يقول: (الحرية قبل الشريعة)، مقرِّراً لمبدأ عام وجاعلاً الحرية أصلاً يحاكم عليه ما عداه ويقدِّمه على الشريعة فهذا مردود غير مقبول، وبيان ذلك من أربعة أوجه:

الوجه الأول: أن الشريعة لا تناقض الحرية ولا تعتدي عليها، بل إنَّ نظامَ الإسلامِ هو الذي يحقِّق حرِّيةَ الإنسانِ بأكمل صورة حين يقرِّر أنَّ هناك عبوديةً واحدةً لله الواحد الأحد، ويلغي العبوديات الباطلة في كافَّة صورها وأشكالها من عبوديَّة البشر للبشر، ومن عبوديتهم لأهوائهم وشهواتهم.

والإسلام أعطى الحرية لاعتقادات الناس على أن يظلوا تحت نظام الإسلام وإن لم يعتنقوه عقيدةً، فإقامة النظام الإسلامي لا يعني إكراه الناس على الدخول في الدين فقد قال تعالى: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾، لكن يكونوا خاضعين لنظام الإسلام، فالحرية هي جزء من الشريعة، فلا معنى ولا مبرِّر لتقديم الحرية عليها.

والقول بأن الحرية قبل تطبيق الشريعة يوهم بأن الشريعة تناقض حريات الناس مع أنَّ من شروط التكليف أن يكون الإنسان حرَّاً مختاراً، فالمكره غير مؤاخذ على ما أكره عليه.

ليس معنى أن الشريعة قبل الحرية، وقبل كل شيء، وأنها الحاكمة على غيرها: إقصاء كل من يختلف معه أحد، أو اتهامه وتضليله، فقد قال تعالى: ﴿وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً﴾، وقال سبحانه: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ. لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾، وقال: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلا البَلَاغُ﴾.

وليس معنى ذلك أيضاً: استبداد أحد بالحكم، فقد قال تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾، وقال مخاطباً نبيَّه عليه الصلاة والسلام: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾، أو قيام دولة دينية وليس إسلامية، والبعض ممن يقول: الحرية قبل تطبيق الشريعة يخشى من

استبداد الإسلاميين وإقصائهم، مع أنَّ هذا كله ليس من الإسلام في شيء، وتصرفات المسلمين المخالفة للإسلام لا تمثل إلا من يقوم بها ولا تمثل الإسلام.

وبعضهم لا يعرف من الشريعة إلا تطبيق الحدود، مع أن تطبيق الحدود لا يكون إلا بعد أن تكتمل الشروط وتنتفي الموانع، وعندما يُطَبَّق الإسلامُ ويُرَبَّى الناسُ على مبادئه، فلن تحصل الجرائم التي توجب حداً على مرتكبها إلا في حالات نادرة جداً، بل إنَّ العقوبات الموجودة في القوانين الوضعية إذا اقتصروا على تطبيقها وحدها من غير تنمية للوازع الديني وتربية للناس فستظل الجرائم في ازدياد مستمر، كما حصلت المفارقة العجيبة بين الامتناع المباشر عن شرب الخمر في عهد النبي عليه الصلاة والسلام وبين فرض قانون في أمريكا لمنع الخمور، وصرفت الكثير من الأموال وبذلت الكثير من الجهود، ثم تم إلغاء القانون ولم تفلح في منع الخمر.

الوجه الثاني: القول بتقديم الحرية على الشريعة يعني أنه لو وصل أحد الإسلاميين إلى الحكم فلا يجوز أن يحكم بالشريعة إلا إذا خيَّر الناس بين الشريعة وغيرها، ومتى كان الناس هم الحَكَم على شرع الله؟

ألم يقل الله تعالى: ﴿وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكَ﴾، وقال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرَاً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُبِيناً﴾.

الوجه الثالث: هل يقول أحد: الحرية قبل الالتزام بقوانين الدولة، أم أنَّ قوانينَ الدولةِ تسري على الجميع؟ أليس نظام الإسلام هو الأَوْلى بذلك.

فنظام الإسلام هو أكمل نظام عرفته البشرية لإصلاح الفرد والمجتمع، وأفضل تصوُّر للوجود والحياة، فقد اعترف بحاجات الناس ومطالبهم الدينية والدنيوية، الروحية والجسدية، فهو دين جاء لجلب المصالح وتكثيرها ودرء المفاسد وتقليلها، دينٌ يحارب الظلم والطغيان ويؤيد العدل والإحسان، دينُ الفطرة، ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفَاً فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾.

قال الدكتور محمد راتب النابلسي: (يتوهم الإنسان أن التحريم الواضح في القرآن مثل تحريم الربا والزنا قيود وضعها الدين عليه، لكنها في الحقيقة حماية لسلامته، تماماً كوضع لوحة "ممنوع الاقتراب ـ حقل ألغام"). قال تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

ـ والإسلام دين يتوافق مع العقل، فلا تعارض بين العقل الصريح والنقل الصحيح القطعي الثبوت والدلالة، وإذا ظهر شيء من التعارض فإما أن النقل غير صحيح ثبوتاً أو غير صريح دلالة، أو العقل غير قطعي صريح، أو هو تعارض في فهم مَنْ قَصُرَ فهمُه عن إدراك المسألة إدراكاً سليماً.

فالعقل من آيات الله الكونية والنقل من آيات الله الشرعية، وآيات الله تنسجم مع بعضها ولا تتعارض ولا تختلف.

ـ والإسلام لا يتعارض مع مصالح الناس، فحيثما وُجِدَتْ المصلحة فثَمَّ شرع الله، لكن المصلحة لا يحدِّدها إلا أهلُ العلم بدين الله، ولها شروطها المذكورة في كتب أصول الفقه ومن شروطها:

١ـ أن تكون المصلحة حقيقية لا وهمية. وأن تكون المصلحة عامة وليست شخصية.

٢ـ اندراجها في مقاصد الشريعة.

٣ـ أن لا تعارض المصلحة حكماً ثبت بالنص أو الإجماع، فما ثبت بالنص أو الإجماع هو المصلحة وإن ظهر للبعض خلاف ذلك.

٤ـ أن لا تؤدي المصلحة إلى مفسدة مساوية لها أو أعظم منها. فـ (الضَّرَرُ لا يُزَال بمِثْلِه)، و(دَرْءُ المفاسدِ مُقَدَّمٌ على جلب المصالح)، فعندما تتعارض المصلحة والمفسدة بنسبة مساوية يقدم درء المفسدة، وأيضاً من باب أَوْلى إذا رجحت المفسدة، أما إذا كانت المصلحة أعظم فيقدم جلب المصلحة.

فإذا أخطأ أحد الإسلاميين وتصرف بما يناقض المصلحة والعدل فهو يمثل اجتهاده وفهمه عن الإسلام ولا يمثل الإسلام، قال الإمام ابن القيم رحمه الله كلمة جامعة تصلح أن تكون قاعدةً فقهيةً: (كلُّ مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن

الرَّحمة إلى ضدِّها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث، فليست من الشَّريعة وإن أُدخلت فيها بالتأويل) إعلام الموقعين: ٣: ٣.

وإذا كان في المسلمين من هو بعيد عن التقدم والحضارة، فذلك ليس بسبب إسلامه، وإنما بسبب ابتعاده عن تطبيق الإسلام أو عدم فهمه للإسلام فهماً سليماً، فالمسلمون الأوائل كانوا في تقدم باهر تفوقوا به على كثير من الأمم والحضارات، ثم خسر العالمُ الكثيرَ بسبب تراجعهم عما كانوا عليه وكتب الشيخ أبو الحسن الندوي رحمه الله كتابه: (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟).

الوجه الرابع: أن الشريعة هي الأصل الذي يحاكم عليه ما عداه، ولا يصح أن تجعل قيمة من القِيَم كالحرية وغيرها حاكمة على الشريعة.

فهل يقول أحد ممن يعتز بإسلامه أنه إذا تعارضت الحرية مع الشريعة تُقَدَّم الحرية؟ ومتى كانت الحرية هي الأصل الذي يحاكم عليه ما عداه حتى أنْ تُحاكَم الشريعةُ عليه؟ فالشريعة هي التي تحكم على الحرية وعلى غيرها، وليست الحرية ولا غيرها مَنْ تحكم على الشريعة.

والخلاصة: أنَّ الشريعةَ التي جاءت من عند الله قد أعطت الحرية مكانة عالية، والشريعةُ هي التي تحكم على الحرِّيَّات هل هي مقبولة أم غير مقبولة، ومن الخطأ أن تُجْعَل الحرية هي الأصل وتُحاكَم الشريعةُ عليه.

* * * * *

فقه الذل والهوان!

١ـ صبر الكثير على الذل والهوان لأنهم كانوا في حالة ضعف يصعب عليهم الانعتاق والتحرر مما أصابهم، ولكن المصيبة أن هناك عدداً ممن يدَّعي العلم أصبح يُشَرعِن لهذا الضعف والتخاذل، فأصبح فقهه هو (فقه الذل والهوان).

٢ـ ولأن المفترض في مثله أن يتكلم بلغة علمية، فإنك تجد ظاهر كلامه أنه مبني على علم وفهم، ولكن حقيقته أنه مملوءٌ بالمغالطات التي لا يقبل بها عاقل فضلاً عن

عالِم، فتراه يأخذ من النصوص ما يحلو له ويضعه في غير موضعه، ويترك النصوصَ الأخرى التي تخالف هواه، فلا يجد في تعامله مع المجرمين إلا قوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ وقوله: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً﴾، ولا يذكر من الآيات: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾، ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الحَقَّ بِالبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، وقوله تعالى على لسان موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿وإِنِّي لأظُنُّك يَا فرعونُ مَثْبُوراً﴾..

ويأتي بالأحاديث التي تأمر بالطاعة، ولا يذكر الأحاديث التي تحث على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٣ـ وتراه ينكر على إخوانه خلافهم معه في الظنيَّات، ولا ينكر على أعدائه خروجهم على القطعيَّات..

٤ـ وتجده لا يرى من الأحرار إلا الأخطاء التي يتخذها مبرراً لعدم تأييدهم، ولا يرى من الأعداء شيئاً يمكن إنكاره عليهم، فيحسن الظن بأعدائه ويسيء الظن بإخوانه!

٥ـ وتراه فَرِحاً مسروراً كلما ضعف المسلمون؛ لأنه يظن أنه بذلك قد أثبت صحة موقفه ورأيه في عدم تأييدهم.

٦ـ ويجعل محاربةَ الأعداء الذين لا يُشَك في عداوتهم (فتنةً)، ولا يجعل تأييدَه لهم على إجرامهم (فتنةً).

٧ـ ويدَّعي أن ما حصل هو (فتنة) يجب اعتزالها، ولكنه لا يعتزلها بل ينكر على المظلومين ويقف مع الظالمين.

٨ـ إن الذي يلوم الشعب المظلوم على ثورته، كالذي يلوم القِدْر الممتلئ والنار مضرمة تحته على غليانه وفورانه، فهو يستنكر منه أمراً خارجاً عن طاقته وقدرته.

وإنما كان عليه أن يطفئ النار، لا أنْ يلومَ القِدْر!

وكذلك الذي يلوم الشعوب، كان عليه أن يسعى في إطفاء نار الظلم..

لا أن يترك ناره مشتعلة ثم يلومه على غليانه!

٩ـ وليت الذي يشعر بالضعف في نفسه أن يعترف بذلك أو يعتزل، ولا يسمح لنفسه أن يبرِّرَ خطأه ويلبسَه لبوساً علمياً ودينياً..

١٠ـ (فقهاء الذل والهوان) مهما علموا من الحقائق ومهما رأوا من الأحداث، فإن ذلك لن يزيدهم إلا إصراراً على موقفهم.

لأن هؤلاء مصيبتهم ليست في علمهم، وإنما في ضميرهم وأخلاقهم.

* * * * *

يذكر البعض أن المتسبب في القتل والتدمير هو شريك للقاتل، وأن المتسبب في ذلك يوصف بالمفسد والظالم..

ويقوم بتنزيل ذلك على المظلومين فيجعلهم متسببين في القتل مع الظالم المعتدي!!

وليت شعري كيف سوَّى بين المظلوم الذي يدافع عن حقه فجعله متسبباً في القتل، وبين الظالم المعتدي!!

ولو كان صحيحاً (أن المتسبب شريك للقاتل) بهذا المعنى، لما قال عليه الصلاة والسلام: (مَنْ قُتِلَ دونَ ماله فهو شهيد، ومَنْ قُتِلَ دون أهلِه أو دون دَمِه أو دون دِينِه فهو شهيدٌ) بل لقال: من دافع عن حقه فقُتل فهو متسبب وهو شريك للقاتل الظالم!!

ولو كان هذا صحيحاً لما قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ للهِ﴾؛ لأن مقاتلتهم تقتضي الرد من الأعداء وقد يُقتَل بسبب ذلك، فأمرهم مع ذلك بقتالهم.. ولم يأتِ النهي عن قتالهم حتى لا يتسببوا في قتله..

ولو كان صحيحاً لما قال سبحانه: ﴿وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾، فقد وعد المقتول في سبيل الله بأعظم الأجر والثواب مع أنه كان متسبباً في ذلك بسبب جهاده..

أما ما ذكره بعض الفقهاء من أن المتسبب شريك للقاتل، فلا يقصدون بذلك المساواة بين المظلوم والمعتدي، ولكن المقصود حين يجتمع ويتفق أكثر من شخص على جريمة ثم يكون المباشر لها أحدهم، كما إذا تواطأ عدد من الناس على قتل إنسان، فإن جميع من تسبب في هذه الجريمة ينال ما يستحقه من جزاء أيضاً..

* * * * *

عليك أن تقول الحق، فإن لم تستطع قول الحق فلا تقل الباطل، فإن لم تستطع وأبيت إلا أن تقول الباطل، فاعتزل.

* * * * *

عندما ترفعون الحكَّام فوق قَدْرهم، فلا تلوموهم إذا أنزلوكم من قَدْركم بقدر ما رفعتموهم.

* * * * *

حين يكتفي أحدهم بلوم المظلوم على أخطائه، دون أن يستنكر على الظالم بكلمة..

ثم يكون توقيت اللوم للمظلوم هو حين انتصار الظالم عليه فهذا لا شك في فساده.

فمَنْ هو الأعظم خطأ وجرماً: أخطاء المظلوم الناشئة عن ضعفه وتقصيره أم أخطاء الظالم التي يرتكبها مع سبق الإصرار والترصد!

* * * * *

لم تكتفِ كثير من الدول بتخاذلها عن نصرة المظلومين، بل زادت على ذلك بالحرب الصريحة المعلنة عليهم.. اللَّهُمَّ عليك بالظالمين.

* * * * *

الرَّايَاتُ الكَاذِبَة

كم ممن يرفع راية (لا إله إلا الله)، وهو يقتل أهل (لا إله إلا الله)!

* * * * *

إذا اكتفى الناس بغضبهم وحزنهم على الواقع السيء، وخافوا من النقد والإصلاح، فلن يزداد هذا الواقع إلا فساداً وانحرافاً..

فإن من أكبر الأخطاء: السكوت على الأخطاء، وعدم الجرأة في المطالبة بالحقوق.

وما ضاعت الحقوق إلا عندما سكت أصحابها وابتعدوا عن المطالبة بها.

فالظلم يحيا بالسكوت، ويتنفس بالخنوع، ويقوى بالخضوع.

* * * * *

كثرة المدح بغير حق للحكَّام، وتعليق صورهم في كل مكان، لا يؤدي إلى الولاء لهم، وإنما يُوَلِّد عند الناس ردة فعل عكسية!

* * * * *

هل كان الحال قبل الثورة أفضل؟

لم يكن الحال قبل الثورة أفضل، فالاختلاف الذي حصل قبل الثورة وبعدها، هو أن الجرائم كانت تحصل قبل الثورة من وراء ستار، أما بعد الثورة فأصبحت هذه الجرائم واضحة للناس جميعاً..

ولا شك أنه خير للناس أن يَروا النظام المجرم على حقيقته، فلا يُخدَعون به، ولا يُدافِع عنه إلا مَنْ رضي لنفسه أن يكون شريكاً له في الظلم والطغيان.

﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾.

* * * * *

لا يريدون تعريف الإرهاب لأنهم يعلمون أنهم أول من يدخل فيه..

ويمكن تعريف الإرهاب عند الغرب وأتباعهم بأنه: كل عمل فيه نصر للإسلام والمسلمين، وإضعاف للكفر والكافرين، والخروج عن التبعية للغرب والابتعاد عن سيطرتهم، حتى لو كان العمل سلمياً، أو كان رداً على عداون غاشم عليهم..

وسموه إرهاباً ـ ببساطة ـ لأنه يرهبهم! ولو أنصفوا لاعترفوا بأنهم يستحقون هذا الإرهاب لهم..

ولماذا لا نرهبهم وقد أمرنا الله بإعداد القوة لإرهابهم: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ (تُرْهِبُونَ) بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾.

* * * * *

من أدب الشعوب مع الحكام أنه إذا فعل الحاكم خيراً قاموا بمدحه وشكره، وإذا أساء لم ينسبوا الشر إليه وإنما إلى البطانة الفاسدة!

ولماذا لم يأتِ هو ببطانة صالحة إذا كان صالحاً! فشبيهُ الشيءِ منجذبٌ إليه، والصالح لن يعجز عن الإتيان ببطانة صالحة..

* * * * *

نحن بحاجة إلى (المجتمع الإسلامي) ليقف أمام (المجتمع الدولي).

وبحاجة إلى الامتثال بالآية: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ و﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾، وبالحديث: (مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى) وإحباط مؤامرة سايكس بيكو وغيرها.

وبحاجة إلى السعي لعولمة نظام الإسلام ليقف أمام عولمة النظام الغربي..

* * * * *

النظام الدولي أكثر ظلماً واستبداداً من الحكام المستبدين؛ لأنهم هم الذين يدعمون الاستبداد، ويحاربون الثورات على الظلم والطغيان..

ولأن النظام الدولي يتصرف مع غيره من الدول كتصرف الحاكم المستبد الظالم مع الشعب، فلا يريدون لأي دولة أن تتطور وتتقدم أو أن يكون لها قرار مستقل، أو أن تنعم بالأمن والاستقرار..

ولكن المؤمنين يثقون بوعد الله تعالى، فتقع هذه الآيات برداً وسلاماً عليهم:

﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ المَاكِرِينَ﴾..

﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الجِبَالُ. فَلا تَحْسَبَنَّ اللهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾..

﴿إِنَّ الأَرْضَ للهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾..

* * * * *

لو كانت التربية هي القسوة والضرب والإهانة لكان المجرمون هم أكثر الناس حظاً من الخبرة التربوية!

* * * * *

قطوف لغوية

أكبر دليل على أن الفصاحة والبلاغة لا تعني التعقيد والغموض والإتيان بغرائب الألفاظ، أن القرآن الكريم هو أفصح الكلام وأبلغه، ومع ذلك يفهمه أكثر الناس على اختلاف مستوياتهم، وإن كانوا يختلفون في مقدار فهمهم له على حسب عقولهم وعلمهم..

وكذلك النبي صلى الله عليه وسلم هو أفصح الخلق وأبلغهم وكلامه سهل ميسور يفهمه الناس من غير مشقة ولا عناء..

فيا مَنْ تتعمد التعقيد والغموض، لتظهر بمظهر العبقري الذي لم تلد النساء مثله: ليست هذه هي العبقرية، وإنما هي في القدرة على الإتيان بالمعاني العميقة في أسلوب سهل وميسر..

* * * * *

أمي وأبي

عمر البيانوني

شَمْسَانِ قد سَطَعَا، فعيشي مُشْرِقٌ ... قَمَرَانِ قد لَـمَعَا بكل مكانِ

قَلْبِي وأُنْسِي، قد سَمَوْتُ بحبهم ... أوَ هَلْ يَعِيشُ المرءُ دُونَ جَنَانِ؟

عَيْنَانِ في وجهي، تُنِيرُ مَسِيرَتِي ... هُمْ فَرْحَتِي دَوْماً بأيِّ زمانِ

طابت حياتي في محبتكم سَمَتْ ... وعَلَتْ مآذنُ فضلِكُمْ بِبَيَانِ

* * * * *

أبيات بمناسبة زواج الوالد

بعد أن انتقلت الوالدة إلى رحمة الله رحمها الله تعالى وفتح لها أبواب الجنة كلها..

تزوج والدي حفظه الله ونفع به فأهديت له هذه الأبيات وإلى زوجته الفاضلة بمناسبة زواجهما المبارك..

إلهُ العالمين عظيمُ لُطْفٍ ... سحائبُ جودِه غيثٌ جَوَادُ

نعيمُ الوُدِّ يُلْفَى في ظلال ... فطابت نَسْمةً وصفا الودادُ

عبيرُ الحُبِّ فَاحَ شذىً وعطراً ... بِحَارُ الحُبِّ والنُّعْمَى مِدَادُ

حياةُ السَّعدِ جاءت في سُعَادٍ ... فطابتْ في حياتِكُمُ سُعَادُ

١٢/١١/١٤٤١هـ.

٣/٧/٢٠٢٠م.

* * * * *

أبيات في (فقه الهوى وأصولِه)

قال صديقي الفاضل الأستاذ مبارك بلعسري من محاولة شعرية مطلعها:

ألَّفتُ في (فقه الهوى وأصولِه) ... سِفراً وآي الشوق جُلُّ فصولِهِ

وفيها:

(فسَّرتُ) (مُشْكِلَ) حبِّه لمن اعتدى ... وذكرتُ ما جهلوه مِن (تأصيلِهِ)

حبي لـه قد صار عندي (مُحْكَماً) ... لن (تنسخوا) هيهاتَ مِن تبـــديلِهِ

كمْ كمْ وكَمْ (نظَّرتـــم) لفراقنـا ... فيَصُدُّ هذا الحبُّ عن(تـنزيلـهِ)

إنـي (أبـيِّن) (مجمَلَ) الآلام فـي ... قلبي، و(ظاهرها) بوجــهِ نحــيلِهِ

فقلتُ:

(نَصُّ) الحبيبِ (مُقَيِّدٌ) لحبيبه... عن كلِّ (إطلاقٍ) هَوَى بنزولِهِ

لا تُرْعِ سَمْعَكَ عاذلاً لَكَ في الهَوَى... قد عارضَ (المنطوقَ) في(تأويلِهِ)

كَمْ أوقَفَ العُذَّالَ عَنِ تَأنِيبِهِ ... (إجماعُ) أهلِ الحبِّ في (تَعلِيلِهِ)

إن (القياسَ) على الحبيبِ لَفَاسِدٌ... قد خالفَ المنصوصَ في تَمثيلِهِ

إن اللجوء إلى (العُمُومِ) (مُبَيِّنٌ)... مَنْ قَدْ عَنَاه الخِلُّ في تَفْصِيلِهِ

إنَّ الجَمَالَ لَفِي الحبيبِ (مُخَصَّصٌ)... قد نافسَ الجَوْزَاءَ في تَفضِيلِهِ

* * * * *

إلى زوجتي (في أيام الخِطْبة):

أيا بنتَ الأكارمِ حُزْتِ فَخْرَا ... ويَا هبةَ الإلهِ أتيتِ بُشْرَى

عرفتُ الحُبَّ في عَيْشٍ تَسَامَى ... وفاحَ عَبِيرُهُ وَرْداً وعِطْرَا

سَمَوْتِ إلى العُلا في نَيْلِ فَضْلٍ ... فكُنْتِ الشَّمْسَ تُهدِي الناسَ نُورَا

رعاكِ اللهُ يا نَبْضاً لِقَلْبِي ... وزادَكِ فضلَهُ.. يُعْلِيكِ قَدْرَا

* * * * *

في يوم ميلاد زوجتي

وُلِدتِ يا وردةً في القلبِ قد عَبِقَتْ... طِيباً وحُسْناً، أيا أُنْساً لمبتسَمِ

طابتْ بمولدكِ الأفلاكُ قاطبةً... وأشرقَ الفجرُ نوراً في دُجَى الظُّلَمِ

هذا ليس يوم ميلادكِ أنتِ، بل هو يوم ميلادي أنا!

نعم.. فأنا لم أحيا إلا يومَ أتيتِ إلى هذه الحياة.. فجعلتِ للعيش معنى الحياة!

* * * * *

قال صديقي الفاضل الأستاذ أحمد سويد وفقه الله:

أسِيرٌ.. بأعباءِ الحياةِ مكَبَّلٌ... يُناغي هموماً باتَ منها ممــزَّعا

ويعكِفُ عند الحُــزن حتى يملّه... فيَجْرَع من كأسِ الأهاويلِ مُتْرَعا

متى تَنْجلي عنه الهمومُ؛ فيعتلي... محيَّاهُ بِشْـرٌ كي يَرُوضَ ويهجعَا؟

وقيلَ: جَنَى الآمالِ محضُ توَهُّــمٍ... وسَعْدُكَ قد ولّى، وراحَ، وودَّعَا

وأقول مُعَارَضةً (معارضة شعرية فقط!) ومتفائلاً له ولغيره:

سَعيدٌ.. بأنْفَاسِ الحياةِ مُنَعَّمٌ... يُناغي نجوماً في السماء مُمَتَّعَا

ويعكِفُ عند السَّعْدِ حتى يملّه... فيفرح في لقياه، لا لَنْ يَرجِعَا

فلا يَنْجلي عنه السرور؛ ويعتلي... محيَّاهُ بِشْـرٌ لن يزولَ ويهجعَا

وقيل: جَنَى الآلام مَحْضُ تَوَهُّمٍ... وحُزْنُكَ قَدْ وَلَّى ورَاحَ ووَدَّعَا

* * * * *

أنا لا أحب الفخرَ لكنني وضعتُ نفسي مكان عنترة بن شداد وأكملتُ على بيته الأول هذه الأبيات:

(وَذَلَّ الدَّهرُ لَـمَّا أَن رَآني... أُلاقِي كُلَّ نائِبَةٍ بِصَدري)

وعند الحادثات أزيد صبراً... فلستُ أَبِين ذا هَمٍّ وزَفْرِ

وجَفَّ البحرُ لَـمَّا أنْ رآني... أجُودُ بِكُلِّ مكرمةٍ وخيرِ

وغاب البدر في الظلماء حتى... رآني الناس بدراً ليس يسري

وفَرَّ الأُسْدُ في الغابات خوفاً... فحاذر دُمْتَ مِنْ بطشي وجَوْري

* * * * *

ما هو الفرق في المعنى بين (ما فعلتُ هذا الأمر)، وبين (ما أنا فعلتُ هذا الأمر)؟

الجواب:

في العبارة: (ما فعلتُ هذا الأمر) نفى أن يكون هو الفاعل، ولم يثبت أن هناك فاعلاً آخر فعل ذلك، فقد يكون هناك من فعل ذلك وقد لا يكون..

أما (ما أنا فعلتُ هذا الأمر)، نفى أن يكون هو الفاعل، لكنه أثبت أن هناك فاعلاً غيره فعل ذلك..

ففي العبارة الأولى لا يلزم أن يكون غيره فعل، فقد يكون هذا الأمر لم يفعله أحد، ويجوز أن يكون فعله غيره أيضاً،

أما في العبارة الثانية فيلزم أن يكون غيره فعل ذلك..

قال الإمام عبد القاهر الجرجاني في كتابه (دلائل الإعجاز) تحت عنوان (التقديم والتأخير في النفي):

(وإذْ قد عرَفْتَ هذه المسائلَ في "الاستفهام"، فهذهِ مسائلِ في "النَّفي".

إذا قلْتَ: "ما فعلتُ"، كنْتَ نَفَيْتَ عنك فِعْلاً لم يَثْبتْ أَنه مفعولٌ وإِذا قلتَ: "ما أنا فعلْتُ"، كنتَ نفيت عنك فعلا يثبت أَنه مفْعُولٌ.

تفسيرُ ذلك: أَنك إذا قلتَ: "ما قلتُ هذا"، كنتَ نَفيتَ أن تكونَ قد قلْتَ ذاك، وكنتَ نُوظرْتَ في شيءٍ لم يَثْبُتْ أنه مَقُولٌ؟

وإِذا قلتَ: "ما أنا قلتُ هذا"، كنتَ نفَيْتَ أن تكون القائلَ له، وكانتِ المناظرةُ في شيءٍ ثَبَتَ أنه مقُولٌ.

وكذلك إذا قلتَ: "ما ضربتُ زيداً"، كنتَ نفيتَ عنكَ ضَرْبَه، ولم يَجِبْ أن يكونَ قد ضُرِبَ، بل يَجوزُ أن يكون ضَرَبَه غَيرُك، وأنْ لا يكونَ قد ضُرِبَ أَصْلاً.

وإِذا قلتَ: "ما أنا ضربْتُ زيداً"، لم تَقلْه إلاَّ وزَيدٌ مضروبٌ، وكان القصْدُ أن تَنْفي أنْ تكونَ أنتَ الضاربَ.

ومن أَجْل ذلك صَلُحَ في الوجهِ الأولِ أن يكونَ المَنْفيُّ عامّاً كقولك: "ما قلتُ شعراً قط"، و "ما أكلت اليوم شيئاً" و "ما رأيت أحداً من الناس".

ولم يصلح في الوجه الثاني، فكان خلفاً أن تقول:

"ما أنا قلت شعراً قط"، و "ما أنا أكلت اليوم شيئاً" و "ما أنا رأيت أحداً من الناس"، وذلك لأنه يقتضي المحال، وهو أن يكون ههنا إنسانٌ قد قالَ كلَّ شعرٍ في الدُّنيا، وأكلَ كلَّ شيءٍ يؤكَلُ، ورأى كلَّ أحدٍ من الناس، فنفيت أن تكونه.

ومما هو مثالٌ بيِّن في أنَّ تقديمَ الاسم يقتضي وجود الفعل قوله:

ومَا أنا أَسقَمْتُ جِسْمي بهِ... وَلا أنا أَضرمتُ في القلبِ ناراً

المَعنى، كما لا يَخفي، على أن السُّقمَ ثابتٌ موجودٌ، وليس القصدُ بالنفي إليه، ولكنْ إلى أن يكونَ هو الجالبَ له، ويكونَ قد جرَّه إلى نفسه.

ومثله في الوضوح قوله:

وما أنا وَحدي قلتُ ذا الشعرَ كلَّهُ

"الشعرُ" مَقولٌ على القَطْع، والنفَّي لأنْ يكونَ هو وحده القائل له.

- وههنا أَمران يَرتفعُ معهُما الشكُّ في وجوبِ هذا الفَرْق، ويَصيرُ العِلمُ به كالضَّرورة.

أَحَدُهما: أنه يَصِحُّ لكَ أن تقولَ: "ما قلتُ هذا، ولا قاله أحد من الناس"، و "ما ضربتُ زيداً، ولا ضَرَبَه أحدٌ سواي"، ولا يصحُّ ذلك في الوجهِ الآخر. فلو قلتَ: "ما أنا قلتُ هذا، ولا قالَه أحدٌ من الناس" و "ما أنا ضَربتُ زيداً، ولا ضرَبَهُ أَحدٌ سواي"، كان خلفاً من القول، وكان من التَّناقضِ بمنزلةِ أن تقولَ: "لستُ الضاربَ زيداً أمس"، فتثبت أنه قد ضرب.

ثم يقول مِنْ بَعدِهِ: "وما ضَرَبَه أحدٌ مِن الناس"، و "لست القائلَ ذلك"، فتُثبِتَ أنه قد قيلَ، ثم تجيء فتقول و "ما قالَه أَحدٌ من الناس".

والثاني منَ الأمرين أَنك تقولُ: "ما ضربتُ إلَّا زيداً"، فيكونُ كلاماً مسْتقيماً، ولو قلتَ: "ما أنا ضربتُ إلا زيداً"، كان لغواً من القول، وذلك لأن نقض النفي بـ "إلا" يَقْتضي أن تكونَ ضربْتَ زيداً وتقديمُكَ ضميرَك وإيلاؤه حَرْفَ النفْي، يقتضي نَفْي أن تكونَ ضربته، فهما يتدافعان، فاعرفه).

* * * * *

من جمال اللغة العربية أنه إذا كانت المفردة أو المادة الواحدة يوجد لمشتقاتها معان كثيرة، يكون هناك ارتباط في المعنى بين هذه المعاني.

ومن هنا كتب العالم اللغوي أبو الحسين بن فارس كتابه: (معجم مقاييس اللغة).

وهو يعني بكلمة المقاييس ما يسميه بعض اللغويين "الاشتقاق الكبير"، الذي يرجع مفردات كل مادة إلى معنى أو معانٍ تشترك فيها هذه المفردات.

قال في الصاحبي: "أجمع أهل اللغة إلا من شذ منهم، أن للغة العرب قياساً، وأن العرب تشتق بعض الكلام من بعض، وأن اسم الجن مشتق من الاجتنان".

فمثلاً مادة (جن) أصل واحد، فيه مشتقات كثيرة، يجمعها معنى: الخفاء والستر.

(فالجنَّة ما يصير إليه المسلمون في الآخرة، وهو ثواب مستورٌ عنهم اليومَ.

والجَنّة البستان، وهو ذاك لأنّ الشجر بِوَرَقه يَستُر.

والجنين: الولد في بطن أُمّه.

والجنين: المقبور.

والجَنَان: القَلْب. والمِجَنُّ: الترسُ. وكلُّ ما استُتر به من السِّلاح فهو جُنَّة.

والجِنّة: الجنون؛ وذلك أنّه يغطِّي العقل. وجَنَانُ الليل: سوادُه وسَتْرُه الأشياءَ). باختصار من معجم مقاييس اللغة.

وقد تساءلتُ عن العلاقة بين (الهواء) الذي نتنفسه، و(الهوى) الذي هو ما تحبه النفس وتميل إليه وتهواه.

فوجدتُ أن كلا اللفظين فيهما معنى التقلب وعدم الثبات على حال.

ـ وكذلك من معاني الـ هُوَّة: البئر المُغَطَّاة. يقال وَقَعَ في هُوَّة أَي في بئر مُغَطَّاةٍ.

وكذلك صاحب الهوى يغطي عقله فلا ينتفع بشيء منه.

ـ وكذلك من معاني (الهُوَّة) في اللغة: فلان هُوَّة أي أَحْمَقُ لا يُمْسِكُ شيئاً في صدره.

وكذلك الهوى يجعله لا يمسك شيئاً من دينه وعقله.

ـ ومن معاني (الهُوَّة) في اللغة: كلُّ وَهْـدَةٍ عَمِيقـةٍ. والهُـوَّةُ مـا انهَـبَط مـن الأَرضَ.
وحكى ثعلب اللّٰهُمَّ أَعِذْنا من هُوَّةِ الكُفْر ودَواعي النفاق. فقد ضربه مثلاً للكُفْر.

وكذلك الهوى يهوي بصاحبه ويهبط به.

ـ وهَوى الرَّجل: ماتَ.

وكذلك اتباع الهوى سبب لموت قلب صاحبه..

والله أعلم.

* * * * *

ما هي اللفظة التي إذا أتت مُثبتَة: نَفَتْ الحكم، وإذا أتت منفية: أثبتتْ الحكم؟

كما قال أبو العلاء المعري:

أنحوي هذا العصر ما هي لفظة ... أتت في لساني جرهم وثمود

إذا استعملت في صورة الجحد أثبتت ... وإن أثبتت قامت مقام جحود

الجواب: (كاد).

فقد جاءت في هذه الآيات مثبتة، فنفت الحكم:

﴿مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّـهُ بِهِـمْ رَؤُوفٌ رَحِـيمٌ﴾، فقلوبهم ما زاغت عن الحق.

وذكر الله تعالى عن المشركين قولهم: ﴿إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَـا لَـوْلَا أَنْ صَـبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ فالمشركون لم يتركوا عبادة آلهتهم.

وقال تعالى مخاطباً نبيه عليه الصلاة والسـلام: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَـكَ عَـنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ﴾ فالمشركون لم يفتنوا رسول الله صلى الله عليه وسـلم عن الذي أوحى الله إليه إلى غيره..

وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً﴾ فهو مـا ركـن إليهم.

وجاءت منفية فأثبتت الحكم، قال تعالى: ﴿فَذَبَحُوها وَمَـا كَادُوا يَفْعَلُـونَ﴾ فقـوم موسى قد ذبحوا البقرة، بعد أن قاربوا أن يعجزوا عن ذلك.

* * * * *

ذكر بعضهم أن (لَنْ) حرف نفي مؤبد، ففي رؤية الله عز وجل قال الله لموسى عليه الصلاة والسلام: ﴿قَالَ لَنْ تَرَانِي﴾.

فذهب بعضهم أن هذا يدل على نفي رؤية الله حتى في يوم القيامة؛ لأن (لَنْ) حرف نفي مؤبد!

والسؤال: ما هو الدليل من القرآن على أن (لَنْ) لا تفيد النفي المؤبد الذي يمتد إلى يوم القيامة؟

الجواب:

ذكر الله تعالى عن اليهود شدة حرصهم على الحياة وأنهم لن يتمنوا الموت، فقال: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾.

وفي القرآن ذكر الله أنهم سيتمنون الموت يوم القيامة: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ فهم سيتمنون الموت وهم في النار، ولو كانت (لن) حرف يفيد تأبيد النفي، لما تمنوا الموت في الآخرة.

* * * * *

(ما لا يُدرَك كُلُّه، لا يُترَك قُلُّه)

في لسان العرب: (والقُلُّ خلاف الكُثْر).

وفيه: (والقُلُّ: القِلَّة، مثل الذُّلِّ والذِّلَّة، يقال: الحمد لله على القُلِّ والكُثْر والقِلِّ والكِثْرِ).

ولعلَّ هذا التعبير الذي يفضله البعض: (ما لا يُدرَك كُلُّه، لا يُترَك قُلُّه)، أبلغُ من قول بعضهم: (ما لا يُدرَك كُلُّه، لا يُترَك جُلُّه)؛

لأنه إذا كان لا يُترك قُلُّه فمن باب أولى أن لا يترك جُلُّه.

أما إذا قيل: (لا يُترَك جُلُّه) فقد يعني أنه يترك قُلُّه، وهذا خلاف المقصود.

* * * * *

يقول لأحدهم: (لا يجب أن أنكر فضلك).

هناك فرق بين: (لا يجب أن أنكر فضلك) وبين: (يجب أن لا أنكر فضلك).

فعبارة (لا يجب أن أنكر فضلك) قد تعني أن إنكارَ الفضل جائزٌ ولكنه ليس واجباً، وهذا غير مقصود بالكلام، بخلاف (يجب أن لا أنكر فضلك)، فهي التي تعني أن إنكارَ الفضل يجب أن لا يقع..

وهكذا في مثلها من العبارات، فالذي يريد إثبات أمر عليه أن لا يعبِّر بنفي الوجوب (مثل: لا يجب أن نكون سيئين)، بل بوجوب النفي (مثل: يجب أن لا نكون سيئين).

* * * * *

التسرُّع في نفي صحة استعمال في اللغة

لا يصحُّ التسرُّع في نفي صحة استعمال في اللغة العربية، لأن اللغة العربية واسعة وتصعب الإحاطة بها.

فبعضهم ممن يقول: لا يصح هذا الاستعمال في لغة العرب، يكون ممن علم شيئاً وغابت عنه أشياء..

وقد وجدت أن كثيراً من الاستعمالات التي ينكرها البعض: صحيحة وواردة عند العرب.

أمثلة:

ـ بعضهم يذكر عن فعل بأنه لا يتعدى إلا بهذا الحرف، ويكون هناك أمثلة على خلاف ذلك، وهذا الاختلاف في تعدية الفعل إما

١ـ أنه من باب تناوب الحروف أي أن حروف الجر ينوب بعضها عن بعض.

٢ـ أو من باب التضمين، وهو أن يضمن فعل معنى فعل آخر فيأخذ حكمه ويعامل معاملته فيتعدى بتعديته.

ـ بعضهم يذكر أن (هل) لا يأتي بعدها إلا (أو)، ولا يجوز أن يأتي بعدها (أم). وأن همزة الاستفهام فقط يأتي معها (أم).

لكن هناك قول لطَرَفَة:

هَلْ بِالدِّيارِ الغَدَاةَ من خَرَسِ... أمْ هَلْ بِرَبْعِ الجميعِ مِنْ أَنَسِ

وقال أبو نُواس لأحد الأعراب: (هل القنفذ يحمل الجنّيَّ أم الجنّيّ يحمل القنفذ).

وقد وجدت في صحيح البخاري وفي مسند أحمد:

عن أبي سفيان أن هرقل قال له: (وسألتك هل يزيدون أم ينقصون فزعمتَ أنهم يزيدون...)

وهذا يدل على أن (هل) يمكن أن يأتي معها الأداة (أم).

وكذلك بعضهم يذكر أن جواب: (هل) هو: (نعم)، أو (لا)، وليس المطلوب بـ (هل) طلب التعيين.

لكن هنا (وسألتك هل يزيدون أم ينقصون) لا يصلح أن يكون جوابها: نعم أو لا؛ لأن المقصود تعيين أحد الأمرين (هل يزيدون أم ينقصون).

ـ بعضهم ذكر أن (فضلاً عن..) استعمال غير صحيح، وقد وجدت أن الجاحظ استعمله أكثر من مرة، كما في كتابه: (الحيوان): (فأَمَّا عوامُّ الأمم فضلاً عن خواصهم..).

* * * * *

فهرس المحتويات